فاطمة خليل القبلي

رسائل ابن على

الحسن بن مسعود اليوسي

جمع وتحقيق ودراسة

☆

الجزء الأول

الشركة المغربية
دار الثقافة

فاطمة خليل القبلي

رسائل أبي علي

الحسن بن مسعود اليوسي

جمع وتحقيق ودراسة

الجزء الأول

الشركة الجديدة
دار الثقافة
34·32 شارع فكتور هيكو
الهاتف 26·53·46 — 26·23·75
ص.ب. 4038 الدار البيضاء (المغرب)

نوقشت هذه الرسائل بمدرج كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس بتاريخ 29 ربيع الثاني عام 1378 موافق 8 أبريل 1978 أمام لجنة من الأساتذة وهم : الدكتور عباس الجراري مشرفاً والدكتور عبد السلام الهراس ، والدكتور محمد بنشريفة . وذلك لنيل دبلوم الدراسات العليا في الآداب . واستحقت ميزة حسن .

الطبعة الأولى 1401 — 1981

حقوق الطبع محفوظة

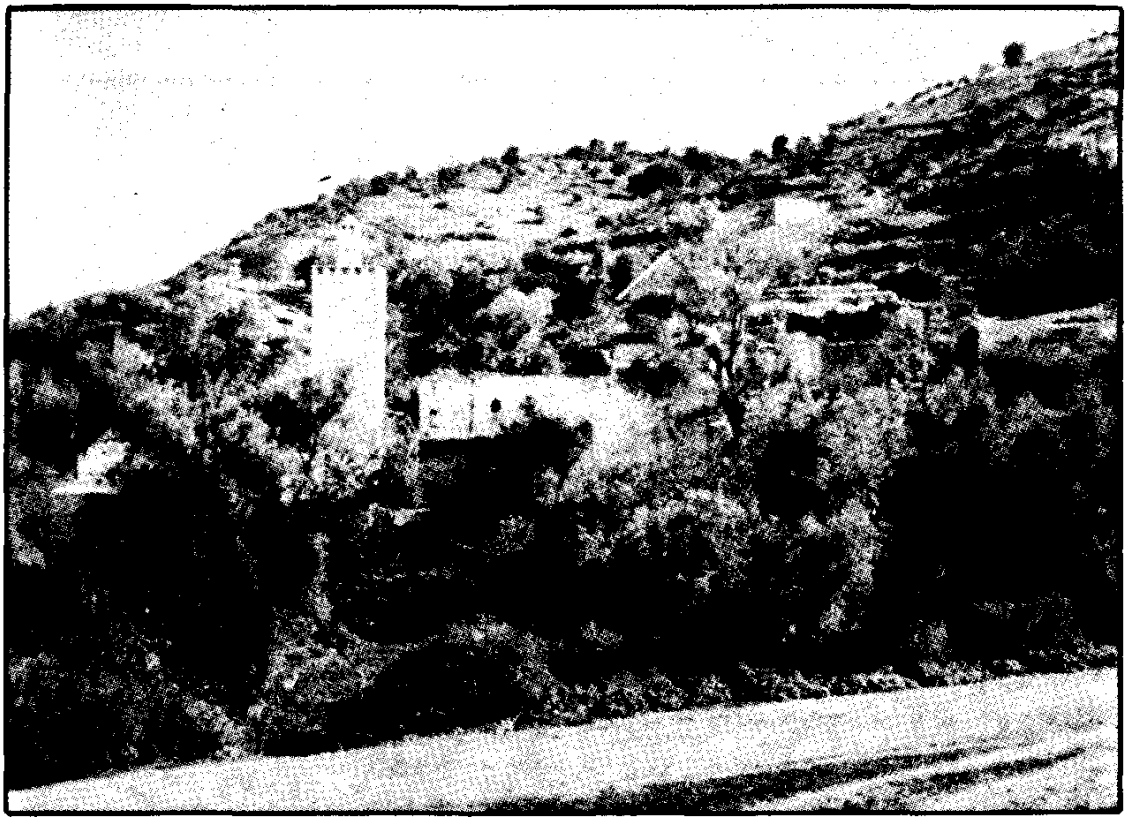

ضريح أبي علي الحسن اليوسي بصفرو

نماذج بشرية من قبيلة آيت يوسي

عن كتاب جاك بيرك

عن اليوسي

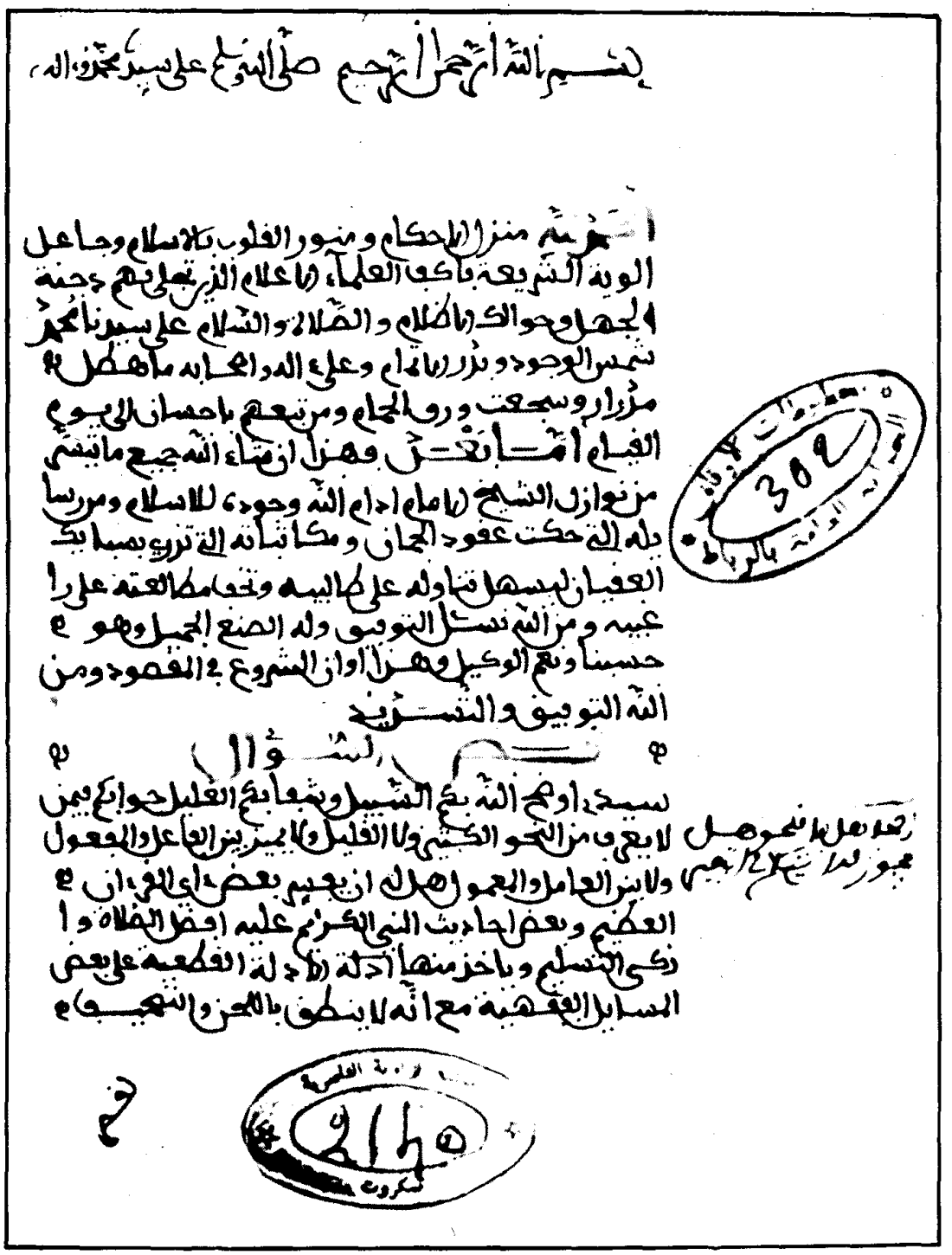

أهم مخطوطة لرسائل أبي علي اليوسي بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 302 وهي مجموع من خزانة الزاوية الناصرية بتمكروت انظر ص 16

فهرست دراسة رسائل أبي علي اليوسي

تصـديـر

مقدمة الدراسة

1 — تحديد مفهوم الرسالة 11
2 — مراحل العمل 14
3 — وصف المخطوطات 16
4 — منهاج التحقيق 26

الفصل الأول : اليوسي

1 — البيئة السياسية والاجتماعية والفكرية بالمغرب
في النصف الثاني من القرن الحادي عشر (هـ)..... 32
2 — بيئة اليوسي الخاصة : نشأته ، ثقافته ، آثاره 39

الفصل الثاني : رسائل اليوسي

1 — الخصائص الموضوعية للرسائـل 65
1 — الشؤون العامة وأحوال المجتمع 66
2 — التصـوف 81
3 — التوحيـد 97
4 — الفقـه 101

2 — الخصائص الفنية للرسائـل
1 — الرسالة في عصر اليوسي:..... 106
2 — خصائص رسائل اليوسي الفنية 113
3 — الخاتمـة 118

بين يدي الدراسة

أرجو من القارئ الكريم أن يطلع على رسائل البوسي المحققة ابتداء من صفحة 125 قبل أن يقرأ هذا البحث . وذلك ليتمكن من الحكم على الاستنتاجات التي وصلت إليها هذه الدراسة النقدية التحليلية

المحققة

تصدير

إن الشخصية المميزة لكل أمة . وخاصياتها القومية والفكرية . وتقاليدها الخلقية والاجتماعية . ليست إلا نتيجة البحث والبلورة للقيم والاتجاهات الفكرية لدى العديد من زعمائها وأعلامها . تسلك بعد ذلك في سلك الأمة الواحدة . بعد أن تسلك في سلك الشخصية الواحدة . أو العصر الواحد (1) .

والشعوب تحاول أن ترى في تراثها زاداً يعينها على المستقبل . ويشحنها بشحنات من المجد والعزة تذلل أمامها مخاطر الطريق . وتمهد لها سبل البناء والتطور.

فما أجدر الأمة المغربية . وقد طالت بها فترة تلمس الطريق . واختيار الاتجاه . أن تبعث صفحات ماضيها وتراثها التي تحتوي موضوعيًّا على دلالات إيجابية بالنسبة لحياتنا اليوم كمغاربة . هذه الدلالات التي تلقي الأضواء على مشاكلنا الكبرى في الوقت الحاضر (2).

وأشهد أنني قبل اختياري للأدب المغربي كموضوع للدراسات المعمقة كنت أجهل — كبقية الطلبة المغاربة — الكثير عن هذا التراث الضائع المهمل الذي ما زال رهن المخطوطات . وحبيس مكتبات عامة . لم توضع له بعد حتى الفهارس . أو مكتبات خاصة تضن به على الدارسين . وتتعامل معه كأنه يجب أن يحنط وينظر إليه بإجلال وتعظيم . وتحذر كل الحذر أن يُتجرأ عليه بالدراسة العلمية الفاحصة الناقدة.

---

(1) أنظر مقدمة عمارة في كتابه عن عبد الرحمان الكواكبي

(2) أنظر مقدمة كتاب «من وحي التراث» للدكتور عباس الجراري ص 3 وما بعدها

ومنذ ذلك الحين تعرفت على الكثير من هذا التراث . وأعجبت بالكثير من وجوهه . وتحمست له في فترات دراستي تحمساً كبيراً . وتألمت لما يواجه به من إعراض وإهمال من طرف المسؤولين على تربية الأجيال الجديدة . إذ وجدتْ فيه مصدراً لا ينفذ لنماذج من التقدم والبطولة والفداء يجب إحلالها مكانها الطبيعي في سلسلة الفكر العربي .

ولإحياء هذا التراث لابد من عمليتين متلازمتين :

أولهما : نشره بعد غربلته ودراسته دراسة علمية نقدية.
ثانيهما : خلق الرغبة والإقبال على قراءة ما ينشر . وذلك بالتأكيد على وجوب الوصول إلى تحديد وتأكيد هويتنا . ومعرفة جذورنا الحضارية والفكرية.

فهي ليست اتجاهاً عكسياً إلى الوراء وإنما هي تزود للمستقبل . وهي ليست تقديساً وانغلاقاً على القديم وإنما هي استعانة بالأصالة التي تطبع هذا التراث لمواجهة التحديات . والتشوف إلى آفاق جديدة . ومستقبل نأمل أن يكون أفضل من الحاضر الذي نعيش فيه.

فإحياء التراث هو مزجه بالحياة الحاضرة . وتحويله إلى مجراها . فلا يطل عليه الإنسان كما يطل على متحف قديم للآثار المحفوظة . بل يتعامل معه ويدخله في معترك الحياة . وينغمس معه في تيار الشعور والعاطفة . وليس ذلك بعسير إذا حسنت المطالعة . وحسن الاختيار وحسن التنبيه.

ومن هنا كان اختياري للمفكر الحسن بن مسعود اليوسي كحياة خصبة . وبناء فكري متكامل . يمثل تعميقاً لمطامح الجماهير الشعبية المغربية في نضالها لتحقيق العدالة الإجتماعية . وصنع عالم أفضل أساسه تلك العقيدة السامية التي تقوم بالدرجة الأولى على التحرر المطلق من كل عبودية . هذا التحرر الذي هو الخطوة الأساسية لتحقيق مجتمع صالح . كريم . الكل فيه متساوون

وفي الوقت ذاته يمثل هذا الاختيار تقديم صفحة مشرقة من صفحات التراث وتقديم نموذج للمفكر الذي ارتبطت حياته بأفكاره . ولم يعرف ما يعاني الأديب العربي اليوم من انفصام يجعل غالباً حياة المثقف وأفكاره على طرفي

نقيض.

وكان أول لقاء لي مع الحسن اليوسي في كتابه الرائع « المحاضرات » (1) التي له صلة وثيقة بنفسه وعصره وحياته وتفكيره . كتبه في أخريات حياته يتأمل فيه الأحداث ويستخلص منها الاستنتاجات التي تتحكم في حياة الإنسانية . وأعجبت بالكتاب وبصاحبه . وعزمت على تحقيقه ونشره نشراً علمياً . ولكن أستاذي الدكتور عباس الجراري نبهني إلى أن الكتاب قد سبق طبعه طبعة حجرية عرَّفت به نوعا ما . وانتشر بين الأوساط الثقافية المغربية وغيرها نسبياً . ولكن شدة إعجابي بشخصية اليوسي دفعتني إلى اقتراح جمع رسائله الكثيرة — التي كان عدد قليل منها معروفاً في أوساط الدارسين . ويعد مرجعا في تاريخ المغرب لتلك الفترة — رغم ما في ذلك من عناء نظراً لعدم توفر المادة الأولى وذلك بسبب تشتت الرسائل وتوزعها بين المكتبات العامة والخاصة . وصعوبة جمع نسخها والجهد الذي يتطلبه التنقل الكثير . والبحث الطويل . والإتصال المستمر مع المهتمين بشؤون التراث المغربي المخطوط .

وشجعني أستاذي المشرف الدكتور الجراري على اقتحام هذه الصعوبات . والنهوض بعبء جمع شتات هذه الرسائل وتحقيقها وتقديمها في شكلها الفكري والأدبي الفريد كجانب يعين على فهم وتقييم شخصية اليوسي من جديد.

وإنني أقدم هذا الجهد كنقطة انطلاق فقط في هذا الميدان . فبقدر نجاح هذه الدراسة في تقديم اليوسي كبناء متكامل فكراً وحياة واعتقاداً . وكصاحب نظرة خاصة في مختلف مشاكل عصره السياسية والاجتماعية . يستحق أن تخصص له دراسات تفصيلية . بقدر النجاح في ذلك . يكون صدق إحساسي بالرضى والارتياح للجهد المبذول في هذه الصفحات.

---

(1) له نسخ كثيرة مخطوطة في المكتبة العامة بالرباط والمكتبة الملكية أيضا وفي المكتبات الخاصة . وقد طبع طبعة حجرية سنة 1317هـ . وللمستشرق الكبير جاك بيرك دراسة مركزة على كتاب « المحاضرات » وكاتبه تحت عنوان : « اليوسي . أو مشاكل الثقافة المغربية في القرن السابع عشر » مطبعة موطون لاهاي 1958م.

والحق أنني مدينة لأستاذي الكريم الدكتور عباس الجراري بالكثير من ملاحظاته القيمة التي أخذت بها في مواضع من هذا البحث . فقد بذل لي من الوقت والجهد في توجيهي وتتبع خطواتي ما لا يفي به شكرى وثنائي . ولا يفوتني أن أسجل ما لاقيته من أستاذنا الجليل المرحوم العابد الفاسي من مساعدة كريمة تلقائية مكنتني من الوصول إلى جمع هذا العدد المهم من الرسائل . بفضل ما أمدني به منها — اذ فتح أمامي أبواب خزانته الخاصة الزاخرة — وما أرشدني إلى مكان وجوده . والله أسأل أن يثيبه على ما قدمه لخدمة إحياء التراث.

كما أن من الواجب على الاعتراف بالمساعدة الكريمة التي قدمها إلي طائفة من الأساتذة الفضلاء وعلى رأسهم الأستاذ محمد المنوني والأستاذ محمد بن حماد الصقلي والأستاذ إبراهيم الكتاني . فلهؤلاء جميعا أزجى الشكر صادقاً.

هذا . وليس من سبيل التزكية إذا أشرت إلى ما لاقيت من العناء والجهد المضني في جمع شتات هذه الرسائل وتحقيقها وتقديمها . بحيث لا أكون مغالية إذا قلت إن الجهد الذي يبذل في سبيل التأليف . أهون على المرء من الجهد الذي يقاسي في سبيل جمع وتحقيق النصوص القديمة . وما تقتضيه من صبر وتحمل وعناء خصوصاً إذا كان المتصدي لذلك يحاول في الوقت ذاته أن لا يخل بواجبات ومسؤليات أخرى هو يتحمل عبئها . طامحاً إلى إيتاء كل ذي حق حقه باذلا في سبيل ذلك من الطاقة والجهد . كل ما يستطيع وربما أكثر مما يستطيع .

على أنني لا أدعي أن الكمال الذي نشدته قد تحقق . وحسبي أني لم آل جهدا ولم أذخر وسعاً . وإن كان جهد المقل وغاية المستطيع . ورحم الله العماد الأصفهاني حين يقول : « إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده : لو غُير هذا لكان أحسن . ولو زيد هذا لكان يُستحسن . ولو قدم هذا لكان أفضل . ولو ترك هذا لكان أجمل . وهذا من أعظم العبر . وهو دليل على استيلاء النقص على جميع البشر ».

هذا وأسأل الله أن يرشدني إلى كل خير قَصُرَ عنه رأيي . وضعف عنه عملي ولم تبلغه نيتي وأمنيتي إنه سميع مجيب.

1 — تحديد مفهوم الرسالة

عندما عقدت العزم على اختيار رسائل اليوسي كموضوع لدبلوم السلك الثالث كان أول عمل اهتممت به . هو تحديد مفهوم الرسالة بدقة . لأن الأدب العربي يستعمل هذا اللفظ لدلالات مختلفة ورد منها في دائرة المعارف (1) ثلاث معاني : الرسالة في الأصل الكلام الذي أرسل إلى الغير . وخصصت في اصطلاح العلماء بالكلام المشتمل على قواعد علمية . والفرق بينها وبين الكتاب على ما هو مشهور . إنما هو بحسب الكمال والنقص . والزيادة والنقصان . فالكتاب هو الكامل والرسالة غير الكامل فيه . والمعنى الثالث هو أن الرسالة تستعمل في الشرع بمعنى بعث الله تعالى إنساناً إلى الخلق بشريعة سواء أمر بتبليغها أو لا . وتساويها النبوة.

والمعنى الأول الذي جاء في دائرة المعارف هو المقصود في الموضوع الذي بين أيدينا . ويشرح هذا المعنى صاحب لسان العرب (2) يقول : .... والإرسال التوجيه . وقد أرسل إليه . والإسم الرِّسالة والرَّسالة والرسول . والرَّسيل . ويقال تراسل القوم بعضهم إلى بعض . وجاء في القاموس (3) زيادة إيضاح لهذا المعنى.... والإرسال التسليط والإطلاق . والإهمال . والتوجيه . والإسم الرِّسالة بالكسر والفتح.

فالمقصود إذن بالرسالة في هذا البحث الإسم من أرسل . أي الصحيفة التي

---

(1) دائرة المعارف بطرس البستاني ج 593/8

(2) لسان العرب لابن منظور ج 283/11

(3) القاموس المحيط للفيروزبادي ج 384/3

يكتب فيها الكلام المرسل وتجمع على رسائل ورسالات . ولأبي علي اليوسي من هذا النوع الكثير . هو ما حاولت جمعه وتحقيقه في هذا البحث.

وقد كان في نية الحسن بن مسعود اليوسي نفسه . أن يجمع هذه المراسلات . كما نبه على ذلك في خطبة كتابه « الفهرست » الذي حرره في أواخر أيامه . وعاجلته المنية قبل أن يتمه قال : (1) « ورتبتها على مقدمة تشتمل على فوائد وخمسة فصول :

الفصل الأول : في ذكر أشياخي في التعلم مع الإلمام بشيء من الفوائد الواقعة معهم

الثاني : في ذكر الأشياخ في الدين . ولو بطريق التبرك كذلك

الثالث : في ذكر شيء مما ألهم الله تعالى في آية أو حديث أو شعر أو كلام

الرابع : **في ذكر شيء مما خاطبت أو خوطبت به من نثر أو نظم**

الخامس : في جمع الفوائد الملقوطة من أي نوع كان.

وهكذا يظهر جلياً من الفصل الرابع أن اليوسي كان مهتما بما خاطب وما خوطب به بمعني مراسلاته وإخواناته . وكان ينوي إثباتها في « فهرسته » ولعله كان محتفظاً بشيء غير قليل منها . لا أستبعد أن يكون هو الذي نقلت عنه الزاوية الناصرية بعض المراسلات التي انفردت بها في المخطوطة التي سوف أتحدث عنها . وذلك لاهتمامها بجمع كل ما كتب هذا المفكر الذي اعتبرته من أنبه أبنائها.

واعتماداً على هذا المفهوم إذن . فقد أقصيت بعض الأبحاث في المنطق . وفي الفقه . التي أطلق عليها بعض من رتب مؤلفات اليوسي (2) اسم « رسالة » وما هي في الأصل إلاّ تقاييد بمفهوم الرسالة : الكلام المشتمل على شرح بعض المسائل أو القواعد العلمية بشيء من الإيجاز والتركيز.

---

(1) « الفهرست » لأبي علي اليوسي مخطوطة الخزانة العامة بالرباط تحت رقم ك 1234 ص 104

(2) الاستاذ محمد حجي في كتابه « الزاوية الدلائية » ص 106 : « رسالة في نعيم أهل الجنة . « رسالة في واجبات المكلف ... الخ ...»

بقي نوع آخر لم يشمله البحث . وهو الرسائل الشعرية القصيرة . التي غالبا ما تكون إخوانية عادية . عبارة عن دعوات وتمنيات . كتلك (3) التي بعث بها إلى أبي العباس أحمد الدلائي (4) لما ثار على السلطان المولى اسماعيل واجتمع حوله البربر يقول في مطلعها :

أبا العباس كنت المرتجى في تلافٍ في تجافٍ وارتجافِ (5)
وكنت أخال أن الود كأس شربناه على الإنصاف صاف (6)

وهذه الرسائل الشعرية القصيرة كثيرة جداً . وهي مبثوثة في ديوان اليوسي . ولم أدرجها في الرسائل لأنني قصدت جمع الرسائل النثرية بالخصوص لأهمية مواضيعها.

*

(3) القطعة من تسعة أبيات موجودة في ديوان اليوسي خ ع ر جـ 157 81 ظـ 82 و . وفي البدور الضاوية ص 424 . وفي المنزع اللطيف خ ع ر رقم جـ 595 ص 174

(4) هو أبو العباس أحمد بن عبد الله بن محمد الحاج الدلائي (.../1091هـ) آخر أبطال الدلاء . ولاه جده محمد الحاج أمر فاس وهو لا يزال حدثا . رجع من أرض المنفى تلمسان ودخل المغرب أوائل عام 1088هـ وقصد الدلاء والتف حوله برابرة الأطلس المتوسط . انهزم أمام السلطان اسماعيل واختفى بعد هزيمته في الجبال إلى أن مات 1091 أنظر أخباره وترجمته في البدور ص 424.

(5) الأبيات من الوافر . التلافي : المصيبة والهلاك . الإرتجاف : الاضطراب والفتنة .

(6) الإنصاف : العون والخدمة وطلب المعروف

2 — مراحل العمل

بعد استقرار الرأي على موضوع رسائل اليوسي . ومع الوقت وبدء ممارسة العمل . اتضح لي أن عملية البحث عن الرسائل وجمعها ليست كعملية البحث عن نسخ لمخطوط كتاب محدد . موجود . محصور المادة . لأن جمع الرسائل هو جمع المادة الأولية . وهذه العملية تأتي بالجديد في كل حين . لهذا أخذت مني الوقت الكثير . والانتظار الطويل . وتصلبت الصبر الجميل . والمثابرة والتحمل . فقد كان علي أن أتصل كثيراً . وأبحث كثيراً . وأتنقل كثيرا . وغالبا ما كان المحصول لا يتكافأ والمجهود المبذول.

وبعض هذه الاتصالات اقتصرت على السؤال والحديث . وبعضها أتاح زيارتي لبعض المكتبات الخاصة . والخروج منها بمجموعة لا يستهان بها من الرسائل.

والنص الذي بين أيدينا اليوم . يُكون مادة غزيرة قطعت مرحلة جمعها على الشكل التالي :

* مكتبات عامة : بحثت فيها شخصياً : قسم الوثائق التابع للخزانة العامة بالرباط . الخزانة الملكية بالرباط . خزانة القرويين بفاس.

* مكتبات خاصة اطلعت عليها شخصياً : مكتبة الأستاذ المرحوم العابد الفاسي بفاس . مكتبة الأستاذ المحترم محمد حماد الصقلي بفاس مكتبة المحترم عبد الحي العمراوي بفاس . مكتبة الأستاذ الجليل محمد المنوني بالرباط . مكتبة المرحوم الفقيه التطواني بسلا

* فهارس لمكتبات تطوان ، ومكناس ، ومراكش ، وآيت عياش ، وتمكروت ، اطلعت عليها في حوزة الأستاذ محمد المنوني الذي كلف من طرف وزارة الثقافة بجرد وإحصاء مخطوطات هذه الخزانات.

* فهارس جائزة الحسن الثاني للمخطوطات أطلعني عليها الأستاذ المنوني أيضا.

* مخطوطات خاصة : في ملك المحققة .

*

3 — وصف المخطوطات الهامة للرسائل

بعد حصر مصادر الرسائل في المكتبات العامة وبعض الخزانات الخاصة . وذلك فيما ينيف على الأربعين مخطوطاً . تمكنت من جمع اثنتين وستين رسالة . منها الطويلة (في حجم التَّوْيلف) «كجواب الكتاب » « والرسالة النصيحة » و « رسالة العكاكزة » ومنها المتوسطة «كرسالة إبطال التسلسل » و « رسالة نازلة العرائش » وغيرها . والقصيرة كالرسائل الفقهية غالباً.

والملاحظ أن أغلبية هذه الرسائل في نسخ عديدة والقليل منها الذي هو في نسخة فريدة.

وأكبر مجموعة لرسائل اليوسي هي في مخطوطة الخزانة العامة بالرباط تحت رقم ق 302 . وهو مجموع من خزانة الزاوية الناصرية بتمكروت . وفي الصفحة الأولى منه طابعها مع رقم 2140. وهذا المجموع مرقم ويحتوي على :

* « فتح المغيث في شرح اليواقيت » للدّادسي
* « المواهب الربانية على العقيدة النووية » لعلي الحريشي الفاسي
* مجموعة رسائل اليوسي بتقديم قصير يظهر أنه للناسخ
* قصيدة نونية لم ينسبها الناسخ
* حزب البحر لأبي الحسن الشاذلي
* البرهان القامع لمحمد بن أحمد الدادسي الصنهاجي

وفي آخر المجموع بخط ناسخ « البرهان القامع » (آخر مؤلف في المخطوط) وهو مختلف عن خط ناسخ الرسائل . كتب : « انتهى ما وجد بخط بعض تلامذة المؤلف رضي الله عنه . ناقلا عن خط مؤلفها برد الله ضريحه ونفعنا به .

كتبته لشيخنا العلامة ، ذو العلوم الربانية ، أبو العباس سيدي أحمد بن محمد بن ناصر بن عمر رضي الله عنه وأرضاه . وكاتبه عبد الواحد بن محمد الكرزابي وفقه الله آمين أوائل صفر سبع وتسعين وألف » .

فإذا ما اعتبرنا هذا التاريخ ، كتاريخ لنسخ المجموع ، بما فيه الرسائل . تكون هذه الأخيرة قد جمعت في حياة اليوسي الذي توفي سنة 1102هـ .

والمقدمة التي مهد بها الناسخ للرسائل تظهر كذلك أنها جمعت في حياة المؤلف . تقول المقدمة :

« بسم الله الرحمان الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله .
الحمد لله مُنزّل الأحكام ، ومنور القلوب بالإسلام ، وجاعل ألوية الشريعة بأكف العلماء الأعلام ، الذين تُجْلَى بهم دُجنةُ الجهل وحوالِك الظلام . والصلاة والسلام على سيدنا محمد شمس الوجود وبدر الإتمام ، وعلى آله وصحبه ما هطل مدرار ، وسجعت وُرْق الحمام ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم القيام . أما بعد ، فهذا إن شاء الله ما تيسر من نوازل الشيخ الإمام ، **أدام الله وجوده للإسلام** ، ومن رسائله التي حكمت عقود الجُمان ، ومكاتباته التي تُزري بسبايك العقيان ، ليسهل تناوُلُه على طالبيه ، وتخف مطالعته على راغبيه . ومن الله نسأل التوفيق ، وله الصنع الجميل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل . وهذا أوان الشروع في المقصود ، ومن الله التوفيق والتسديد » .

ولهذا الاعتبار رجحت أن تكون مجموعة رسائل مخطوطة تمكروت أقدم نسخة بين أيدينا لرسائل اليوسي . واعتمدت عليها كنسخة أم لكل الرسائل التي تَضَمَّنَتْها ومنها نقلت النص . إلا في حالة واحدة وهي الرسالة الصوفية الطويلة المعروفة بـ « الرسالة النصيحة » فهي في هذا المخطوط مبتورة الأخير لم يكمل الناسخ نقلها . وقد أشرت لذلك عند التقديم لها في محلها من رسائل التصوف . وأشرت إلى موضع البتر منها وأهميته.

وعدد صفحات المخطوط بأتمه ثلاثمائة وثمان وثمانون صفحة . تبدأ الرسائل فيه من صفحة 190 وتنتهي في صفحة 373.

ومقياسه هو 15×21 . ومتوسط عدد سطور الصفحة اثنان وعشرون سطراً . والرسائل نقلت بخط واحد . وهو خط مغربي تغلب عليه البداوة . وتتعذر قراءته في بعض الأحيان . والأخطاء فيه والإسقاطات قليلة نسبياً . وهوامش المخطوط خالية إلاّ من عبارات قليلة سقطت من متن الرسالة . فأضافها الناسخ بخطه ومداده على الهامش مع الإشارة إلى محلها.

ولا يستبعد كون هذه المخطوطة الناصرية هي أول ما جمع من رسائل أبي علي اليوسي لأن زاوية تمكروت التي اعتبرته تلميذها الفذ . اهتمت بجمع آثاره ومؤلفاته منذ بداية إنتاجه . وقد كتب له الشيخ محمد بن ناصر كتاباً عندما استقر اليوسي بفاس أيام الرشيد . يستحثه فيه على إرسال كتاب « زهر الأكم » يقول ابن ناصر في الرسالة (1) : « ... وإن أتممت كتاب الأمثال الذي أنت في تأليفه منذ سنين . فابعث إلينا بنسخة . والسلام . وكتب لثلاث خلون من جمادي الأول عام ثمانين وألف . »

وناسخ هذه المجموعة غالبا ما يورد المرسل أو موضوع الرسالة قبل إثبات جواب اليوسي . وقد تمكنت من تصوير الجزء من المخطوطة من ص 190 إلى 373 أي الجزء الذي وردت فيه الرسائل . وفهرست رسائله كالتالي :

صفحة 191 : جواب في جواز تفسير القرآن لغير المتقن لعلم النحو
صفحة 192 : جواب في السماع
صفحة 197 : جواب في شرح بيت لأبي نواس وآخر للبوصيري
صفحة 199 : جواب في ذات الله هل هي حسية أم معنوية
صفحة 202 : جواب لسائل يشتكي بعض العلل النفسية
صفحة 207 : جواب في تربية الشيخ واستخلافه
صفحة 208 : حول جواز نقل أحباس المسجد
صفحة 211 : جواب للسلطان إسماعيل في مسألة الأمة

---

(1) طلعة المشترى ص 261 طبعة حجرية

صفحة 215 : جواب لبعض الطلبة من فاس يشتكي من اعوجاج النفس وصعوبة تقويمها
صفحة 219 : جواب في شرح بيت للبوصيري من بردته
صفحة 220 : جواب عن أقسام «لو» وعن الضوء والظل
صفحة 222 : جواب حول دور شيخ التربية
صفحة 224 : جواب في التربية الصوفية (حول مقامات الفناء»
صفحة 232 : جواب في حوادث لا أول لها
صفحة 234 : جواب حول ذات الله هل هي حسية أو معنوية
صفحة 236 : جواب في جواز عروض الكفر على الأنبياء
صفحة 244 : جواب في الأسباب وتعاطيها
صفحة 247 : جواب في كيفية أداء الصلاة المنسية
صفحة 248 : جواب إقامة صلاة الجمعة
صفحة 254 : جواب في القادح في الإمام
صفحة 256 : جواب إلى أحمد الشيظمي
صفحة 259 : جواب إلى المقدمين الحاج علي وسيدي أبي القاسم
صفحة 270 : جواب في مسألة من مسائل الشهادة وعن حكم التحكيم
صفحة 272 : جواب على أسئلة لهاشم بن محمد الحسني
صفحة 274 : جواب على سؤال من حنث في قسمه
صفحة 277 : جواب حول دفع زكاة الفطر للطلبة المشارطين
صفحة 278 : جواب في الذكر بعد الصلاة
صفحة 286 : جواب في التربية الصوفية
صفحة 305 : جواب للفقيه العطار في مسألة إبطال التسلسل
صفحة 325 : جواب في حكم صلاة الجمعة
صفحة 329 : جواب في حكم من لا يعرف الشهادتين
صفحة 332 : جواب في بعض العادات في الأعراس
صفحة 333 : جواب الدلالة الوافية في الرسالة الأسفية
صفحة 339 : جواب حول الأذكار

صفحة 341 : جواب إلى الإخوان أهل جارت
الصفحة 348 : جواب « الرسالة النصيحة »
صفحة 369 : جواب إلى أحمد بن ناجي في موضوع كتب التفاسير

أما المجموعة الثانية لرسائل اليوسي وهي أقل حجماً من الأولى ، فهي في مخطوط الخزانة العامة أيضاً رقم جـ 612. وهو مجموع من مكتبة التهامي الكَلاوي . وكل رسائل هذه المجموعة وعددها تسعة توافق رسائل مخطوط تمكَروت السابق إلا ثلاثة ، وهي في هذا المجموع تبدأ من الورقة الأولى للمخطوطة وتنتهي في ورقة 64 ومعها زيادة على الرسائل بعض التقاييد والمنظومات لليوسي أيضا وهي كالتالي :

* الرسالة النصيحة في التصوف
* الرسالة إلى جماعة المريدين من قبيلة المزامز (أو رامز)
* بحث فيما يجب على المكلف من أصول الدين
* كتاب قواعد الإسلام من مضمون حديث النبي عليه السلام
* رسالة إلى جماعة الإخوان أهل جارت
* كتاب مفتاح الأصول
* رسالة في تفسير القرآن لغير المتقن لعلم النحو
* جواب في التربية الصوفية
* الرسالة إلى المقدمين الحاج علي وأبي القاسم بن معمر
* الدلالة الوافية في الرسالة الأسفية
* وصية أبي علي اليوسي لأولاده

وفي آخر الوصية كتب الناسخ : «كملت الوصية بحمد الله تبارك وتعالى عام 1286هـ». وكتب في ورقة 27 وعند انتهاء البحث فيما يجب على المكلف: « انتهى بحمد الله وحسن عونه ، وكان الفراغ منه يوم الخميس آخر ذي القعدة عام 1286 على يد كاتبه لصاحبه السيد حميدة بن يعثي العيساوي المجاطي يغفر الله على الجميع ، عبد ربه محمد الطيب الحسني الادريسي. »

ومن ورقة 65 تبدأ مجموعة كبيرة من أجوبة محمد ابن ناصر ينتهي بها

المجموع عند ورقة 94.

وداخل الغلاف الجلدي للمخطوط ألصقت ورقة مخرومة قد أكلتها الأرضة نقلت فيها بعض الأشعار وبعض الأدعية . وفي الورقة الأولى في هامش « الرسالة النصيحة » كتب بخط مغربي بدوي مخالف لخط الناسخ : « وفي هذا المجلد اثنا عشر تأليفا للشيخ أبي عبد الله محمد بن سيدنا الحسن بن مسعود اليوسي » (1)

وهو يعني بدون شك ما جاء في الجزء الأول من المجموع . الذي يتكون من رسائل ومنظومات وتقاييد اليوسي . والمعروف أن محمد بن الحسن اليوسي قد خلف أباه في المسائل المتعلقة بالزاوية والمريدين ، هذه الزاوية التي كونها اليوسي « بخلفون ». وقد وقفت في مخطوطة بالخزانة العامة (2) على أجوبة لهذا الإبن يجيب بها محمد بن عبد الرحمان الصومعي ، ومن ضمنها رسالة في موضوع معرفة الشهادتين أتى فيها بنفس الأفكار التي تناولها الحسن اليوسي في طرقه لنفس الموضوع في « المحاضرات » ، وفي رسالة له أيضا في هذا الموضوع.

ولكن هذا لا يعني أن ينسب إليه ما عرف أنه لوالده ، وأنا أتساءل عن معنى هذا الهامش وعن كاتبه . إذ أن جل الرسائل التي في هذا المجموع قد أثبت فيها أبو علي اليوسي إسمه إما في صدرها أو في آخرها ، وهي كلها منسوبة إليه وباطراد في مخطوطات النسخ الأخرى . وأما المنظومات والتقاييد فهي منسوبة في مجاميع أخرى لأبي علي ، فضلا عن أن المنظومات مثبتة في ديوانه .

لهذا أرى أن كاتب هذا الهامش ربما عنى أنها تآليف كانت في ملك أبي عبد الله محمد بن الحسن اليوسي . وقد وقفت في الخزانة العامة بالرباط على نسخة من كتاب « القانون » لأبي علي اليوسي ، وعليها تحبيس بخط ابنه هذا للكتاب على الزاوية الناصرية بتمكروت.

---

(1) أبو عبد الله محمد بن الحسن اليوسي (... 1106هـ) من الفضلاء الفقهاء . مشهورا بالخير والصلاح أخذ عن والده . أنظر ترجمته في الإعلام للمراكشي ج 5 10 سلوة الأنفاس ج 3 81 — 82 الدر المنضد الفاخر ورقة 221

(2) مخطوط الخزانة العامة بالرباط تحت رقم د 3385 ص 261

فمما لا شك فيه أن هذا الإبن هو أفقه أبناء اليوسي الثلاثة (3) وهو الذي تكلف بجمع تآليفه وشعره ومراسلاته ، إذ كان من والده بمنزلة الكاتب الخاص ، فهو الذي كتب « الرحلة » (4) من إملاء والده عندما اصطحبه إلى الحج.

وهذه المخطوطة جـ 612 بخط واحد من أولها إلى آخرها وهو خط مغربي بدوي رديء جداً . أخطاؤه كثيرة فادحة ، وإسقاطاته كثيرة أيضاً ، ومما لا شك فيه أن الناسخ كان على جهل تام لما ينقل ، فالتحريفات لا تُعد ولا تحصى من ذلك مثلا الحديث المشهور: « إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوىً متّبعا...الخ » كتبها: «... شحصا مطاعا وهو متبعا» ومن ذلك أيضا الإنكسار (بدل الإنكار)، الفتن والمنح (بدل المحن) حركات للسجد (... للجسد) ليشيبنا (بدل ليثيبنا) أصال (بدل إيصال وغيرها كثير جدا ، وهو يترك البياض في أماكن عدة كلما لم يصل إلى معرفة الكلمة

ومن حسن الحظ أن رسائل المجموع إلا اثنتين ، لها نسخ عديدة مكنتني من تصحيح المتن وتقويم المعنى.

ومقياس المخطوط هو 17×5، 22 ومتوسط سطور الصفحة 27 — 28 سطرا ومتوسط كلمات السطر 10 كلمات وهوامشه خالية من أي تعليق أو إضافة .

وفي غير هاتين المخطوطتين ، وقفت على الكثير من رسائل اليوسي متفرقة في مجاميع كثيرة في المكتبات العامة والخاصة ، أثبت أرقامها ووصفها ونسخها في المقدمة التي خصصتها لكل رسالة

أما مخطوطاتي الخاصة فهما اثنتان :

الأولى : مجموع يضم عدة رسائل وأجوبة لعبد القادر الفاسي ، والمسناوي

---

(3) هم : أبو عبد الله محمد . ويعرف بمحمد الكبير ولد بالزاوية الدلائية . وقد سبقت ترجمته وشقيقه محمد العياشي وقد تأخرت وفاته إلى ما بعد 1119 . الاعلام للمراكشي ج 10/1 وهو الذي تولى نقل جثمان والده وأخيه إلى الضريح الذي أحدثه بتمززيت . أنظر السلوى ج 81/3. كما كان له ولد ثالث اسمه عبد الكريم كان حيا سنة 1126هـ أنظر تقديم « شفاء السائل » لابن تاويت .

(4) « الرحلة » مخطوطة الخزانة الملكية بالرباط رقم 2343

بن محمد بن أبي بكر وتسع رسائل لأبي علي اليوسي هي :

* وَصْلُ الشَّعَر ص 155
* رسالة في التمثيل للعلم الشخصي « بِقَرْن » ص 157
* تعليق على قوله في الخلاصة : « أو واقع موقع ما قد ذكر » (مبتور) ص 159
* رسالة حول شداد ابن عاد والخيل (مبتورة) ص 161
* جواب لإسماعيل في مسألة الأمة ص 161
* رسالة في قول البوصيري في بردته : « إلا استلمت... » ص 165
* رسالة في الذكر والسماع ص 166
* رسالة العقيدة الصغرى ص 167
* جواب الفقيه العطار في موضوع التسلسل ص 168

والرسالتان الأولتان هما اللتان تنفرد بهما المخطوطة ، أما الباقية فتوجد لها نسخ متعددة في ق 302 مخطوطة تمكروت وفي غيرها . وخطها مغربي متوسط وقياسها 21×15،5 ومتوسط عدد سطور الصفحة 26/25 سطرا.

الثانية : وهي عبارة عن كناشة صغيرة ، يظهر أنها لأحد مقدمي ضريح المولى ادريس هو المحدث الفضيل الشبيهي الإدريسي ، نقل فيها رسالة لليوسي في موضوع الذكر والسماع في الصفحة رقم 10 . وهذه الرسالة لها نسخ أخرى في مخطوطة تمكروت وغيرها كما نقل له بعض المنظومات في التوسل.

وقد نبهني أستاذي المشرف ورسالة الدبلوم في طور المراجعة إلى مخطوط قديم شارك به بعض الأفاضل من تطوان في جائزة الحسن الثاني للمخطوطات لسنة 1976 يضم بعض الرسائل الصوفية لليوسي . وقد أمكنني الاطلاع عليه في المعرض تحت رقم 6 ت ويحتوي على أربع رسائل للحسن اليوسي كلها سبق أن صورتها من مجاميع مختلفة من الخزانة العامة ، والخزانة الملكية بالرباط . وهذه الرسائل هي :

* الرسالة إلى جماعة الاخوان ص 7
* الرسالة في دور الشيخ ص 9

* الرسالة إلى جماعة قبيلة مزامزة ص 11
* الرسالة إلى المقدمين الحاج على وأبي القاسم ص 21

وقد تمكنت من مقارنتها بالنسخ التي في حوزتي

* **رسالة مشكوك في صحة نسبتها لليوسي :**

هذا وقد أدى التمرس بقراءة هذه الرسائل والإلمام بموضوعاتها ، وشرح غامضها بالرجوع للمظان المختلفة ، إلى التعود على أفكار وأساليب اليوسي مما جعلني أستبعد إدراج رسالة منسوبة إليه وقفت عليها في مخطوطة بقسم الوثائق التابع للخزانة العامة بالرباط في مجموع تحت رقم جـ 647 من ص 1 إلى 21 قال الناسخ : « بسم الله الرحمان الرحيم ، صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما : رسالة سيدي الحسن اليوسي للسلطان سيدي مولاي إسماعيل نفع الله به المسلمين آمين ». وتبتدئ الرسالة بدون تصلية ولا مقدمة هكذا : « فعليك بتقوى الله وحده لا شريك له وخشيته ومراقبته... »

أما الأسباب التي جعلتني أشك في نسبتها لليوسي وبالتالي عدم إدراجها ضمن مجموعة رسائله فهي :

— رسائل اليوسي إلى السلطان إسماعيل غالبا ما يقدم لها بديباجة ، ثم هو مع إسماع السلطان ما يريد إسماعه ، لا يتخلى أبداً عن الدماثة والذوق ، ومراعاة أصول اللياقة ، والرسالة التي بين أيدينا بدون ديباجة تستعمل عبارة « واعلم ... » مكررة مما لا يناسب المقام .

— لا يتناول في رسائله إلى المولى اسماعيل شرح قواعد الدين كالصلاة والوضوء الخ...

— الأسلوب ليس أسلوب اليوسي ، فهو لا يستعمل الأسلوب الوعظي الزجري المنفر أبداً ، بل يخلل نصائحه بأمثلة وتفاريع تحليلية يناقش فيها كل فكرة يوردها ، ولا يستعمل هذا الاقتضاب الذي نجده في الرسالة

— اللهجة الأمرية الجافة المستعملة في الرسالة نحو : « حسّن ظنك...

التمس الوسيلة... لا تتهمن أحداً... اجعل من شأنك... اطرد عنك سوء الظن... واعلم أنك... أشدد لسانك عن قول الكذب والزور...» هي غير لهجة اليوسي اللينة ، المهذبة ، النافذة بقوتها وعمقها وإقناعها .

— استعمال الرسالة لبعض الألفاظ الأندلسية مما لا نجد له أثراً في رسائله الأخرى مثلا : « ....وظهر الخصب في كورك... » « واجعل في كل كورة من عملك أميناً يخبرك خبر عمالك »

— هذه الرسالة لا توجد إلا في نسخة فريدة في الخزانة العامة ، ولا وجود لها في الخزانة الملكية التي اهتمت كثيراً بجمع رسائل اليوسي للمولى اسماعيل حتى لنجد رسالة « براءة اليوسي » و « جواب الكُتاب » فيها في مخطوطات متعددة ، وكثيراً ما تكون في مخطوطات مستقلة دليلا على كثرة نقلها وتداولها.

— لم يورد كل من جاك بيرك ولا محمد حجى مؤلف « الزاوية الدلائية » هذه الرسالة في الجداول التي وضعوها لمؤلفات اليوسي.

وإنني سوف أُثبت هذه الرسالة مستقلة في ملحق بهذه الدراسة لكي يتمكن من يريد استعمال النظر من الاطلاع عليها.

ويظهر من كثرة النسخ التي وقفت عليها لرسائل اليوسي أن هذه الأخيرة كانت تلقي اهتماماً كبيراً في مختلف الأوساط ، وفي مختلف العصور ، لتنوع مواضعها ، وتناولها لقضايا تهم مختلف المجتمعات . فاهتم الناس بنقلها وتداولها ، لأن اليوسي لم يكاتب فقط مثقفي عصره ، وإنما راسل جميع من سأله أو استفسره أو طلب رأيه ، فسارت رسائله في كل بقعة من بقاع المغرب . وانتشرت عند الخاصة والعامة . فكل الرسائل الخارجة عن المخطوطتين الرئيسيتين ، أو حتى التي تضمها أيضاً ، مثبتة فرادي في الغالب في مجامع مختلفة ، تخلو من كل توثيق : كالتعليقات والتمليكات وتاريخ النسخ وإسم الناسخ .

4 — منهاج التحقيق

رتبت الرسائل على أنماط ثلاثة :

الترتيب الأول :

أفردت ملفّاً لكل مجموع صورته ، ووضعت له فهرستا خاصاً به مع إشارة لموضوع كل رسالة :

— ملف مجموع رسائل مخطوطة تمكَروت قـ 302 مع فهرست لرسائله ، ومُلحقه (الملحق : نسخ رسائله التي جمعتها فرادي من مخطوطات أخرى)

— ملف مجموع رسائل مخطوطة جـ 612 مع فهرسته وملحقه

— ملف رسائل مصورة من مخطوطات متعددة مستقلة عن قـ 302 و جـ 612 متعددة النسخ

— ملف رسائل مصورة من مخطوطات متعددة مستقلة عن قـ 302 و جـ 612 في نسخ فريدة

الترتيب الثاني : الجذاذات

خصصت جذاذة لكل مجموع أخذت منه رسالة أو أكثر ، تصف المجموع ، وما جاء فيه ، وتصف هوامشه وغلافه وخطه الخ ...

الترتيب الثالث : حسب الأغراض

وقد قسمتها إلى خمسة أقسام :

— رسائل في الشؤون العامة وأحوال المجتمع

— رسائل في التصوف
— رسائل في التوحيد
— رسائل في الفقه
— رسائل في مواضيع مختلفة

وهذا التقسيم هو الذي سرت عليه عند نقل المتن

أما عن المنهج الذي طبقته في تحقيق الرسائل فهو كالتالي :

اعتبرت كل رسالة مستقلة على حدة ، وسعيت للحصول على أكبر عدد من النسخ لها سواء بالتصوير أو بالنقل عن المخطوطات الأصلية ، ثم أحصيت هذه النسخ وحصرتها في مجموعات متشابهة

وصفت هذه النسخ ومجامعها ، وقارنت بينها مقارنة دقيقة ، متتبعة الفروق والإسقاطات والتحريفات ، مُحيلة في ذلك كله على الحاشية .

اعتمدت خصوصاً على مجموعة تمكروت في رسائلها كأصل ، أو على أوثق المخطوطات وأقلها أخطاء إذا كانت خارجة عنها وكل ذلك موضح في محله في المقدمة التي أفردتها لكل رسالة ، والتي تشير أيضا إلى المضمون بكيفية مختصرة ، وتنير الجوانب التي تعين على فهم النص.

نقلت المتن من النسخة التي رجحت كونها أصلا ، وأضفت الزيادات الموجودة في النسخ الأخرى مما يتطلبه المعنى والسياق بين مزدوجتين ، مشيرة لمصدر الزيادة في الحاشية . وفي حالات نادرة — أشرت إليها أيضاً في الهامش — سمحت لنفسي ببعض الزيادات الطفيفة ، إما كلمات بسيطة كالعاطف والجار ، أو كلمات سقطت من استشهاد لا يستقيم المعنى بدونها ، من ذلك ما صححت في رسالة « جواب الكُتاب » نقلا عن كتاب « التشوف » للتادلي ، إلا أنني في بعض المواطن التي تحتمل تقديرات كثيرة واحتمالات عدة ، نبهت للغموض في الحاشية وذكرت وجوه الترجيح فقط.

ولم أغفل أثناء ذلك على تصحيح جميع الأخطاء الإملائية خصوصاً واللغوية والنحوية التي وقع فيها النساخ ، ولم أر داعيًا للإشارة إليها في الحاشية

في معظم الأحيان ، واكتفيت برد الخطإ إلى الصواب.

ثم اتجهت بعد ذلك إلى عزو ما في النص لغير المؤلف من شاهد أو نص ، شعراً كان أو نثراً ، ولم تكن الصعوبة التي لقيتها في تتبع ذلك في المظان لتثنيني عن بذل الجهد ، لأن البحث في حد ذاته كانت فيه المتعة والفائدة التي يعرفها من له الشغف بهذا النوع من الدراسات . ولكن الشيء الذي أوقف عملي في كثير من الأحيان هو التحريفات والأخطاء التي وقع فيها النساخ عند نقل الاستشهادات الشعرية وقد وجدت صعوبة كبيرة في تصحيح ألفاظها وتقويم أوزانها قبل الرجوع إلى المظان من دواوين الشعراء وكتب الأدب

أما فيما يخص التعريف بأعلام الأشخاص التي وردت في الرسائل فقد أخذت مني بعض الجهد نظراً لأن اليوسي كان غالباً ما يكتفي بذكر الكنية أو الإسم الشائع . أما الأعلام المغاربة فإنني تمكنت من التعريف بجلها إلا أن اليوسي كان يورد أحيانا أسماء لأعلام مغمورين من فقهاء جنوب المغرب ، لم أقف لهم على ذكر في كتب التراجم المغربية التي بين أيدينا ، ولا زلت جادة في البحث لإتمام ذلك بحول الله ، ورغم ندرة المراجع التي ترجمت لأعلام تلك المناطق

أما خدمة النص فهي تتعلق بتنظيم الهوامش والحواشي والتعليقات وقد راعيت فيها ما يأتي :

— قسمت الحواشي قسمين : قسم خاص بملاحظات المقارنة ، وهو الذي يأتي مباشرة بعد سطور المتن ، والقسم الثاني تحته بعد الفصل بينهما بخط مستقيم على عرض الصفحة . وخصصت القسم الثاني للهوامش والتعليقات من شرح مفردات ، وترجمة الأعلام ، وتخريج الآيات والأحاديث وغير ذلك . ورقمت ملاحظات المقارنة بالأرقام العربية تنتهي عند كل صفحة . ورقمت التعليقات بأرقام تنتهي عند نهاية كل رسالة.

— جردت الآيات القرآنية ، ورددتها لسورها وبينت رقمها ، وفي بعض الأحيان ذكرت بتمام الآية ليظهر الغرض من الاستشهاد بها

— خرجت الأحاديث النبوية والآثار وأرجعتها لمظانها المشار إليها في كل

تخريج واعتمدت خصوصاً على الصحيحين ، وعلى تخريج العراقي « لإحياء علوم الدين »

— ترجمت لكل الأعلام الواردين في النص باستثناء المشاهير الذين لا يحتاجون إلى تعريف

— وضحت مفهوم بعض المصطلحات ، وبعض التعابير العامية التي استعملها اليوسي في بعض خطاباته ، كما شرحت بعض المفردات الغامضة باتخاذ الثقافة المتوسطة كمقياس

— نسبت الأشعار إلى أصحابها في حدود ما مكنني البحث والاطلاع الشخصي ، لأن بعض الأشعار التي استشهد بها اليوسي هي من أشعار الفقهاء الذين لم يهتم بجمع أشعارهم في دواوين.

— وضحت معالم الرسائل باستعمال علامات التنقيط وتقسيمها لفقرات حسب المعنى ، إذ أن الناسخ غالباً ما ينقل الرسالة كلها كمقالة يمضي فيها من أول الشوط إلى نهايته دون أية علامة ، ودون توقف ، رغم اعتناء اليوسي بالتقسيمات والتحديدات والتبويب لأفكاره.

— وضعت فهارس للنص ، تعين على الوقوف على مواده ومحتوياته كفهارس الموضوعات ، وفهارس الاحاديث ، وفهارس الأعلام الخ ...

وأخيراً أرجو أن أكون قد أخرجت هذه الرسائل التي كانت مشتتة في غياهب المخطوطات المختلفة ، والتي تمثل صفحة ناصعة من الأدب الملتزم الحق ، في صورة أدني إلى الكمال وأقرب إلى الإتقان ، وأسأل الله أن يجعله عملا نافعاً مقبولا

الفصل الأول

اليوسي

1 — البيئة السياسية والاجتماعية والفكرية بالمغرب في النصف الثاني من القرن الحادي عشر.

2 — بيئة اليوسي الخاصة : نشأته ، ثقافته ، آثاره .

1 — البيئة السياسية والاجتماعية والفكرية بالمغرب في النصف الثاني من القرن الحادي عشر

عاصر أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي (1040هـ/1102هـ) فترة حاسمة من تاريخ المغرب، تلك التي تعرفها الشعوب عند تفكك وانقراض دولة، وإرهاصات قيام الأخرى، وما يصحب ذلك من تصارع القوى المختلفة المتواجهة في الميدان.

والواقع أن المغرب لم يعرف في تاريخه عصراً أكثر فوضى، وفتناً وضعفاً وتطاحناً على الرئاسة، من آخر عصر السعديين في النصف الأول من القرن الحادي عشر، وذلك بسبب تطلع كل أبناء المنصور الذهبي للمُلك وتقاتلهم عليه (1) مما أدى إلى الخراب وقيام الثوار في كل ناحية واستيلاء الأجانب من إسبان وبرتغال وإنكليز على مراسي المغرب، وطمعهم في داخله.

وبلغت هذه الحالة السيئة منتهاها حوالى سنة 1040هـ وهي سنة ازدياد أبي علي اليوسي حيث كادت تستقل كل جهة بملك. وكانت أهم القوى المتصارعة على الاستقلال بالسلطة يميزها الطابع الديني، وتدفعها في الظاهر قيم إسلامية:

وكان الدلائيون — وهم برابرة صنهاجيون يقطنون جبال الأطلس المتوسط بين خنيفرة وتادلا، أسس زاويتهم جدهم أبو بكر بن محمد الدلائي في القرن العاشر — (2) أقوى الثائرين شوكة، آعصوصبت حولهم قبائل البربر، واستبد رئيسهم محمد الحاج بنواحي المغرب الخصبة المتحضرة بأحواز تادلا ومكناس.

وكانت بينه وبين المجاهد أبي عبد الله العياشي الذي كانت له السلطة على

---

(1) مات أحمد المنصور سنة (1012هـ) وتقلص ملك السعديين حتّى انتهى آخر الأمر إلى امارتين امارة فاس وإمارة مراكش وانتهى أمرهم بفاس سنة 1036هـ وسط حرب أهلية. وبمراكش سنة 1069هـ على يد قبائل العرب من الشبانات انظر البستان الظريف لأبي القاسم الزياني ص 7 مخطوطة الخزانة العامة والاستقصا ج 58/6 وتاريخ المغرب لهنري طيراس ج 209/2

(2) أنظر «نزهة الحادي» م خ ع ر الفصل المخصص للزاوية الدلائية ونشأتها من ورقة 163 إلى 171 أنظر أيضا «الزاوية الدلائية» لمحمد حجي.

بعض المناطق بالغرب وبعض الثغور خصوصا سلا . والجديدة . وتطوان . والعرائش وطنجة — صداقة ومودة وتعاون . ولكن سرعان ما تاق محمد الحاج إلى ضم هذا الجزء من الغرب إليه لتقوية نفوذه . فاستغل فرصة استنجاد سكان سلا من الأندلسيين به ضد العياشي . فزحف إليه بجيش جرار . وانتهت الحرب باستيلاء محمد الحاج على فاس وتامسنا وسلا وتطوان وسائر بلاد الغرب سنة 1051هـ (1)

أما في جنوب المغرب فقد أفلح شرفاء تافيلالت من تدعيم مكانتهم وتوسيع نفوذهم بعد أن تمكن محمد ابن الشريف من الانتصار على منافسه في الجنوب أبي حسون السملالي المعروف بأبي دميعة صاحب إمارة إيليغ . وأخرجه من درعة وسجلماسة . واضطره إلى القناعة بمسقط رأسه في السوس حيث توجد زاوية جده سيدي أحمد بن موسى . وأخرجه من درعة وأعمالها بعد حروب ضارية سنة 1050هـ . فبايع أهل الصحراء جميعاً محمد بن الشريف « واتسعت إيالته وتوفرت جموعه وعظمت جبايته وطار في بلاد المغرب صيته » (2)

وأسفرت الأحداث في هذه المرحلة عن وضع قوتين ثائرتين وجها لوجه : قوة بربرية في الغرب يدعمها ماضي الزاوية الدلائية المجيد . العلمي والديني . وقوة في الجنوب تستمد معنوياتها من الانتساب لآل البيت . وحقها الطبيعي في الخلافة.

وأحس الرئيس محمد الحاج بأنه أكثر عدداً وأوفر قوة . كما فطن لشدة طموح محمد الشريف وتطلعه لما بيد الدلاء . فعبر إليه نهر ملوية . وكانت بينهما معركة القاعة (1056هـ) التي انهزم فيها محمد الشريف . وأدب الدلائي أهل تافيلالت خلال حرب دامية وطدت عزم محمد الشريف على القضاء على أهل

---

(1) نزهة الحادي ورقة 155 مخطوطة الخزانة العامة بالرباط
(2) أنظر الاستقصا ج 16/7

زاوية الدلاء في أول فرصة سانحة (1)

وخلال العشرين سنة التي استبد فيها محمد الحاج الدلائي بالغرب حاول شرفاء تافيلالت خاصة محمد الشريف . في حركات سريعة إضعاف جناحه بالنهب والإتلاف وحرق الزرع والاستفزاز . وتم له ما أراد عندما قامت ثورة الخضر غيلان الجرفطي في الشمال (1063هـ) . وانضمت إليه قبائل الهبط وأعراب الخلط وسائر قبائل الغرب التي ترغب في التخلص من الدلائيين (2)

وفي هذا الظرف بالذات ظهر على مسرح الأحداث المولى الرشيد بن الشريف . قام على أخيه ودعا لنفسه في شرق المغرب وجمع كلمة أعراب الشرق عليه . فنهض أخوه لقتاله فكانت معركة آنكاد (1075هـ) تغلب فيها الرشيد . فدانت له القبائل . وأخذ في تمهيد وإخضاع أقاليم المغرب إقليماً إقليماً فأخذ تازة فسجلماسة . ثم حاصر فاساً وفتحها سنة 1076هـ . وأخضع الغرب الذي كان يستقل به آنذاك الخضر غيلان الثائر . ثم أخضع مكناسة وأحوازها . ومنها خرج لحرب أهل الدلاء في محرم سنة 1079هـ وكان النصر حليفه « ببطن الرمان » من فازاز ودخل المولى الرشيد الزاوية الدلائية .

وعن أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي . أحد علماء وأساتذة الزاوية . أخذ جميع مؤرخي المغرب تسجيل تلك اللحظة الرهيبة في تاريخ زاوية الدلاء (3). يقول اليفراني : « ولما دخل مولانا الرشيد الزاوية غير محاسنها . وفرق

---

(1) يقول محمد الشريف في رسالة لمحمد الحاج الدلائي بعد معركة « القاعة » مباشرة : « ... وأما ما احتوى عليه بساط الغرب . ما بين بربر وعرب . فقد طمعنا من الله كونه في القبضة . عندما تمكن إليه النهضة . ان لم أكنه بالذات والديوان . فبالأبناء والإخوان . كعوائد الدول يشيد الأخير منها ما أسسه الأول ..» أنظر الاستقصا ج 7 18

(2) أنظر الاستقصا ج 7 27 أنظر الزاوية الدلائية لمحمد حجي ص 217 وما بعدها

(3) قال أبو علي اليوسي في كتابه « المحاضرات » : « كان الرئيس أبو عبد الله محمد الحاج بن محمد بن أبي بكر . قد ملك الغرب سنين عديدة . واتسع هو وأولاده واخوته وبنو عمه في الدنيا . فلما قام الشريف السلطان رشيد بن الشريف ولقي جيوشهم ببطن الرمان فهزمهم . وذلك أوائل محرم فاتح سنة 1079هـ . فدخلنا عليه وكان لم يحضر في المعركة لعجزه من كبر سنه . فإذا بالفل يدخلون . فدخل عليه أولاده واخوته وأظهروا حزنا شديدا . وضيقا عظيما . فلما رأى منهم ذلك قال لهم : ما هذا ؟ ان قال لكم حسبكم فحسبكم . يريد الله تعالى » المحاضرات ص 86 — 87 الطبعة الحجرية .

جمعها . وطمس معالمها . وصارت حصيدا كأن لم تغن بالأمس.. » (1)

ثم أزعج الرشيد علماء الدلاء ومن بينهم أبي علي اليوسي لفاس للتدريس بها . ونفى محمد الحاج وعائلته القريبة إلى تلمسان (2). ودخل مراكش وقضى على عرب الشبانات سنة 1079هـ الذين استبدوا بالأمر بعد موت آخر السعديين بها . وتوجه إلى جنوب المغرب فأطاح بإمارة إيليغ ومهد السوس سنة 1081هـ (3)

غير أن المنية تباغث السلطان الرشيد سنة 1082هـ . ويخلفه أخوه المولى إسماعيل يبايعه أهل الحل والعقد من علماء فاس وأشرافها ومن ضمنهم أبي علي اليوسي . وكان على السلطان الجديد أن يصرف أكثر من عشرين سنة من ملكه الطويل في تهدئة أقاليم المغرب عموماً . وقبائل برابرة ملوية والأطلس المتوسط خصوصاً التي ظل وفاؤها لأصحاب الزاوية الدلائية

وتعاقبت على المسرح السياسي هزات عنيفة كان لها الأثر الكبير على الحياة العامة في البلاد . وكان لها الأثر البليغ على حياة أبي على اليوسي سواء منها النفسية أو العلمية . ويصعب فهم إنتاج هذا الأديب وخصوصاً الرسائل إذا نحن لم نلم بهذه الأحداث :

— ففي سنة 1083هـ ينتفض أهل فاس . ويقتلون قائد الجيش . فيحاصرهم المولى إسماعيل أكثر من السنة إلى أن يخرجوا إليه تائبين مبايعين (4) وأثناء هذا الحصار يستأذن اليوسي السلطان في الخروج من فاس إلى مسقط رأسه ويستقر بخلفون (5)

— وفي سنة 1085 ثار على المولى إسماعيل ابن أخيه أحمد بن محرز الذي دخل مراكش واستولى عليها . والتقى به السلطان على وادي العبيد وهزمه شر

---

(1) نزهة الحادي ورقة 167 ظ.
(2) أنظر تفصيل ذلك في « الزاوية الدلائية » ص 235.
(3) الاستقصا ج 7 40 — 41
(4) أنظر الاستقصا ج 7 47 — 48.
(5) أنظر رسالة جواب الكتاب وهي أول الرسائل في الشؤون العامة في هذا البحث

هزيمة ثم حاصره بعد ذلك في مراكش في أوائل 1086 — وفي هذا الحين أمر السلطان أبا علي اليوسي بالرحيل من خلفون آخر سنة 1085

— وفي سنة 1087هـ يرجع أحمد بن عبد الله بن محمد الحاج الدلائي من المنفى ويلتجئ إلى الجبال . ويجتمع حوله البرابرة الصنهاجيون في ثورة عارمة . مكتسحين المناطق المجاورة لهم من تادلة إلى سايس فيبعث لهم السلطان بحملات متعددة ما بين سنة 1091/1090هـ وسنة 1099هـ . وينتهي بالإنتصار عليهم والتغلب على جموعهم (1)

— وفي سنة 1091هـ يخرج السلطان لمحاربة بني يزناسن . دخل جبلهم وخرب قراهم وحرقها . وقتل رجالها وسبا أولادهم وبني القلاع وأنزل فيها الخيل والعبيد (2)

— وفي سنة 1094هـ حركة جبال فازاز وهم آيت يدراسن من برابرة صنهاجة . ضيق عليهم السلطان الخناق حتى نزلوا عن خيلهم وسلاحهم ودفع لهم عشرين ألفا من الغنم كلفهم بحفظها ورعايتها يدفعون كل عام صوفها وسمنها(3) .

— وفي سنة 1096هـ يخرج السلطان لغزو بلاد ملوية . جاعلا طريقه على مدينة صفرو . فتفر القبائل البربر إلى رؤوس جبال العياشي ومن بينهم آيت يوسي . ويقيم السلطان في طريقه القلاع حتى ينتهي إلى ملوية . فيقيم على نهرها سنة بأكملها يشن أثناءها الغارات عليهم حتى قضى القضاء المبرم على مقاومتهم . ونزلوا له عن الخيل والسلاح (4) وفي هذه الأثناء أجبر السلطان أبا علي اليوسي بالإقامة بالزاوية الدلائية الخربة.

— 1099هـ حركة جبل فازاز مرة أخرى . أقام السلطان يحاربهم ما يناهز السنة . وبنى قلعة أدخسان حصنها بألف وخمسمائة جندي وأنزل بزاوية الدلاء مثلها (4)

---

(1) أنظر الاستقصا ج 53/7. تاريخ المغرب لهنري تيراس ج 2 262

(2) أنظر الاستقصا ج 62/7 البستان الظريف لأبي القاسم الزياني مخطوطة خ ع ر ص 7 وما بعدها

(3) أنظر الاستقصا ج 67/7

(4) أنظر المرجع السابق ص 68. البستان الظريف ص 9 وما بعدها

ـــ 1104هـ الحركة الكبرى على برابرة فازاز بالمدافع والمهارز والمجانيق وآلات الحصار. وكانت مجزرة رهيبة « لم يبق بعدها من ينبض له عرق من البربر » (1)

وفي هذا الجو المضطرب، ساعدت الزوايا، وشيوع الطرقية، وانتشار الخرافات والإيمان بالصالحين وكراماتهم على ظهور طبقة إقطاعية عملت على تمزيق البلاد وإضعافها، واستغلال الطبقة الدنيا، وعرف المغرب في خضم تلك الحروب نهب الممتلكات، وحرق المزروعات وغير ذلك من ضروب الإتلاف، خلف هذا كله الغلاء الفاحش الذي عرفته المدن، ثم المجاعات المتتالية. وقد شكى سكان فاس في أواخر هذه الحقبة شدة وطأة الوظائف التي تضرب عليهم للسلطان. وما لبثت الأوبئة أن انتشرت، واجتاح الطاعون سنة 1099هـ شمال البلاد، ثم ظهر بفاس يزحف للداخل، وقطعت السبل ومات خلق كثير (2)

وآخر ما شهده أبو علي اليوسي من الأحداث الاجتماعية الخطيرة كانت جمع الحراطين من جميع مدن وقرى المغرب وتشكيل جيش البلاد منهم سمي « جيش البخاري ». وبدأ ذلك سنة 1100هـ وأحدث ذلك قلاقل وأحداث اجتماعية ذهب ضحية لها بعض العلماء (3)

ولعل هذه الحالة السيئة التي كانت عليها البلاد هي التي فرضت تعدد المراكز الثقافية في البوادى. فالحركة الفكرية النشيطة التي عرفتها مدن فاس ومراكش في عهد ازدهار السعديين قد انتقلت في عصر الاضطراب والفتن إلى البوادي. وشدت الرحال خصوصاً للزاوية الناصرية بتمكَروت بدرعة، والزاوية الدلائية في قلب الأطلس المتوسط، وكانت طرق التدريس فيها قويمة صحيحة، تتصل تواً بالمتون الكبرى، وتعطي الدارس الثقافة المتينة المتفتحة التي بدأت في ذلك الحين تفتقر إليها بعض مدارس فاس التي قنعت بحفظ الملخصات والشروح.

---

(1) أنظر ذلك مفصلا في البستان الظريف لأبي القاسم الزياني والاستقصا ج 68/7

(2) أنظر نشر المثاني مخطوطة خ ع ر ورقة 40 و وما بعدها

(3) أنظر الدر المنضد الفاخر للكلالي مخطوطة خ ع ر ص 173. تاريخ الدولة السعيدة للضعيف الرباطي مخطوطة خ ع ر رقم د 758 ورقة 45 و

وَتَنَقُّلُ أبي علي اليوسي في طلب العلم في أعوام الستين الذي تعرض له في « المحاضرات » يذكر فيه مراكز بدوية أخرَى أغلبها في الجنوب كبلاد القبلة . وسجلماسة . والسوس . وهشتوكة ودكالة .

وقد عرفت هذه الحقبة رغم أحداثها وُجوهاً أَثْرت الثقافة المغربية وصبغتها فكريا بالصبغة الدينية القائمة على الحركة الصوفية : كأبي عبد الله محمد بن ناصر وطلبة تمكَروت . وعبد القادر الفاسي وفقهاء زاوية القلقليين بفاس . ومحمد أبي بكر الدلائي وعلماء الدلاء (1)

*

(1) أنظر التفاصيل عن علماء هذه المدارس الثلاث في : طلعة المشتري للناصري ص 133 طبعة حجرية الفهرست لليوسي مخطوطة خ ع ر رقم كـ 0301 ص 134 ــ 164. البدور الضاوية للحوات مخطوطة خ ر 261 أوراق من 25 إلى 230

2 — بيئة اليوسي الخاصة : نشأته . ثقافته . آثاره

أما البيئة الخاصة التي عاش فيها أبو علي اليوسي فهو قد تحدث عنها بنفسه في كتابه « الفهرست » الذي بدأ في تأليفه في أواخر أيامه للترجمة لنفسه . وفي بداية كتاب « المحاضرات ».

قال يعرف نفسه (1) : « أنا الحسن بن مسعود بن محمد بن علي بن يوسف بن أحمد بن إبراهيم بن محمد بن أحمد بن علي بن عمر (2) بن يوسف وهو أبو القبيلة بن داود بن يدراسن بن يَلَنْتَن (3) . فهذا ما نعد من النسب إلى أن دخل بلد « فركلة » في قرية مه تسمى حارة الأقلال (4) وهي معروفة الآن . والكنية أبو علي وأبو المواهب . وأبو السعود . وأبو محمد... وأما اليوسي فأصله اليوسفي كما مر من أن يوسف هو أبو القبيلة . ويسقطون الفاء في لغتهم » (5)

فقبيلة آيت يوسي هي فرع من آيت يدراسن وهي من القبائل البربرية الصنهاجية التي كانت تقيم فيما بين ملوية العليا . وأطراف جبل العياشي من بلد فازاز . أواخر القرن الحادي عشر الهجري (أواسط القرن السابع عشر الميلادي). يقول الأستاذ جاك بيرك في كتابه عن اليوسي : « ففي أواسط القرن السابع عشر نجد آيت ادراسن وهي مجموعة تحدها غربا آيت أومالو . وشرقا آيت يافلمان والتي تنتسب كلها إلى جبال الأطلس الشرقي وجبل العياشي » (6)

---

(1) « المحاضرات » ص 10 طبعة حجرية

(2) في « المحاضرات » المخطوط رقم جـ 32 خزانة العامة بالرباط زيادة « بن يحي »

(3) في المرجع السابق « ينتو ». وفي نسخة أخرى للمحاضرات مخطوط د 2364 بن ينتن

(4) مخطوط جـ 32 « أقلال »

(5) في « فهرس الفهارس » للكتاني ج2/464 : « هو أبو علي الحسن بن مسعود بن محمد بن علي بن يوسف بن داود بن يدراسن اليوسي البوحديوى من آيت بوحدو . هكذا لأبي التوفيق الدمنتي في فهرسته . ولغيره بن داود بن حدابن أويس المعروف باليوسي اليدراسي... وكونه من آيت يوسي هو الذي صرح به المترجم نفسه في المحاضرات »

(6) « اليوسي » لجاك بيرك ص 7

ويغلب على الظن أنهم انتقلوا من الجنوب إلى موطنهم الشمالي الحالي بأمر من المولى اسماعيل الذي حارب هذه القبائل لمدة طويلة أثناء حركات كثيرة انتهت كما رأينا إلى تجريدها من السلاح وإقامة قلاع تابعة للسلطة المركزية . ونحن نعرف اليوم في الأطلس المتوسط آيت يوسي أمقلة وآيت يوسي انجيل وآيت يوسي گيگو وهي كلها تتوالى على طول الطريق من فاس إلى تافيلالت على طريق صفرو (7)

ـ والراجح أن أبا علي الحسن بن مسعود اليوسي ـ الذي هو شيخ الزاوية المعروفة اليوم « بزاوية سيدي لحسن اليوسي » والواقعة على بضعة أميال من صفرو ـ استقر هو وأسرته حديثاً في عصر المولى اسماعيل على ضفاف واد زغان ، بعد أن أمر المولى إسماعيل بإزعاجه من خلفون على وادي أم الربيع ، حيث اختار الاستقرار بعد خروجه من فاس أثناء حصارها.

فالرجل إذن سوسي صنهاجي تربط بينه وبين الدلائيين المجاطيين الذين استوطنوا هم كذلك ضفاف نهر ملوية العليا ، وشائج القرابة التي تلتقي في صنهاجة .

هذا عن البيئة الخاصة من الناحية الطبيعية ، ولم يكن عديم الجدوى أن نضع الرجل في إطاره المحلي : بلاد قاسية ، أمن منعدم ، ثورات تتلوها حملات قمعية ، حركة مد وجزر للجماعات البشرية . هذا لأن أهم ما يميز شخصية هذا الأديب ، وهو مدين به لأصوله البدوية وإحساسه الحاد بتنوع واختلاف الإنسان والأرض ، بهذه الربوع المغربية ، وحتى نجاحه لم يفلح في جعله يتعود الحاضرة ، وفاس سوف تشعره دائما بذلك (8)

*

(7) المرجع السابق

(8) أنظر حديثه عن ذلك في « المحاضرات » ص 72 طبعة حجرية

نشأة اليوسي (1)

(1) المصادر التي ترجمت لأبي علي اليوسي عديدة وقد استفدت من أغلبها . وقد تحدث عن نفسه في كتبه ورسائله خصوصا منها : « المحاضرات » مطبوعة طبعة حجرية بفاس ولها نسخ مخطوطة كثيرة في مختلف الخزانات « الفهرست » وهو في ترجمته خاصة لم يكلمه . مخطوطاته بالخزانة العامة والملكية بالرباط « الرحلة » مخطوط خ ع ر : 2343 « الرسالة الكبرى لاسماعيل » وهي ضمن هذه الرسائل « وصية اليوسي » وهي ضمن هذه الرسائل أيضا.

أما المصادر الأخرى لترجمته فهي :

1 — الدرر المرصعة بأخبار أعيان درعة : محمد المكي بن موسي الدرعي بن موسي الدرعي مخطوطة خ ع ر ك265 ص 53/35

2 — صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر مخطوط خ ع ر د 54 ص 239/233

3 — نزهة الحادي في أخبار القرن الحادي لليفرني مخطوط خ ع ر رقم د 1406 ص

4 — نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني لمحمد بن الطيب القادري مخطوطة خ ع ر ج 2 ورقة 26 ظ

5 — فهرست العميري مخطوط خ ع ر ك 1361 ص 138 — 188

6 — البدور الضاوية للحوات مخطوطة خ ع ر د 261 ص 224 الفصل الخاص لخروج أهل الزاوية الدلائية

7 — مباحث الأنوار في أخبار بعض الأخيار لأحمد بن يعقوب الولالي مخطوطة خ ع ر ق 342 ص 35

8 — نزهة الناظر لأحمد بن عبد القادر التستاوني مخطوطة خ ع ر ك 1669

9 — تحفة الاعلام للزياني مخطوط خ ع ر ك 224 ص 162

10 — البستان الظريف للزياني مخطوطة خ ع ر رقم د 1577 ص 40

11 — هداية الملك العلام لأحمد المشتوكي مخطوط خ ع ر جـ 190 ص 52

12 — المورد الهني لمحمد بن أحمد بن محمد الفاسي مخطوطة خ ع ر ك 1234 ص 231

13 — التقاط الدرر لمحمد بن الطيب القادري مخطوطة خ ع ر د 676 من ص 64 — 66

14 — سلوة الأنفاس محمد بن جعفر الكتاني ج 81/3 طبعة حجرية

15 — دوحة البستان ونزهة الاخوان في مناقب الشيخ علي بن سيدي عبد الرحمان مخطوطة خ ع ر د 390 ص 207

16 — رياض الورد إلى ما انتهى إليه هذا الجوهر الفرد أبو عبد الله الطالب بن حمدون بن الحاج مخطوط خ غ ر د 111 ص 22/21

17 — الجيش العرمرم الحماسي لأكنسوس مخطوطة خ ع ر د 965 ص 60

18 — الدر المنضد الفاخر محمد بن عبد القادر الكلالي مخطوطة خ ع ر د 1584 ورقة 216 ظ

19 — المنزع اللطيف في التلميح بمفاخر مولاي إسماعيل بن الشريف مخطوطة خ ع ر جـ 595 ص 308

20 — الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام عباس بن إبراهيم المراكشي ج 2
21 — فهرس الفهارس لعبد الحي الكتاني ج 2 464 طبعة حجرية
22 — طلعة المشتري في النسب الجعفري طبعة حجرية
23 — طبقات الحضيكي مخطوطة خ ع ر د 1124 ورقة 68 وما بعدها
24 — الاغتباط بتراجم أعلام الرباط محمد بوجندار مخطوطة خ ع ر د 1287 ص 14
25 — تاريخ الدولة السعيدة للضعيف الرباطي مخطوطة خ ع ر د 758 من ورقة 23 ظ إلى 25 ظ
26 — سوس العالمة للمختار السوسي ص 67
27 — الجبرتي ج 68/1
28 — اليواقيت الثمينة ج 133/1
29 — شجرة النور الزكية ص 328
30 — الأعلام للزركلي ج 237/2.
31 — جاك بيرك : « اليوسي » أو مشاكل الثقافة المغربية في القرن السابع عشر موطون لاهاي 1958
32 — بروكلمان ج 455/2
33 — مؤرخو الشرفاء : ليفي بروفنصال ص 269 — 272
34 — معجم المؤلفين لكحالة
35 — دليل مؤرخي المغرب لعبد السلام بن سودة
36 — النبوغ المغربي لعبد الله كنون ج 285/1
37 — الزاوية الدلائية لمحمد حجي ص 97 — 108
38 — ديوان اليوسي تحقيق الأستاذ عبد الحميد محمد المنيف

ولد أبو علي اليوسي حوالي سنة 1040هـ بمنطقة ملوية العليا من بلاد فازاز في عائلة متوسطة هي إلى الفقر أقرب . متدينة . فأبوه « مع كونه أميًّا . كان رجلا متديناً . مخالطا لأهل الخير . محبا للصالحين . زواراً لهم . وكان أُعطي الرؤيا الصالحة وأُعطي عبارتها » إلى أن يقول : « وكان لي أخوان أسن مني فماتا أميين رحمهما الله » (1)

وهذا الوسط سوف يسم اليوسي طول حياته . وسوف يذكره ويحن له بعد فراقه له بوقت طويل . وليس هذا من قبيل الحنين العاطفي . أو حنين له صلة برهافة إحساس الأديب . بل هو يعتبر نفسه قطعة من الأرض التي غذته . ومن هذا الوسط الذي احتضنه . وهو يومن بأنه استقى من هذا كله جملة مؤهلاته . وهو يخص هذا الموضوع ببحث خاص في كتاب « المحاضرات » (2)

ويمكن أن نحصر حياة اليوسي بصفة عامة في ثلاث فقرات :

أولا : الصبا والتكوين والتنقل لطلب العلم حتى أعوام الستين

ثانيا : الاستقرار بالزاوية الدلائية من أعوام الستين حتى تخريبها سنة 1079هـ

ثالثا : ما بعد الزاوية الدلائية من 1079هـ إلى 1102هـ سنة وفاته

الفترة الأولى : 1040هـ .1060هـ إذا كنا قد اعتبرنا الطابع المتميز الذي طبع اليوسي منذ ولادته ، والمتمثل في الإطار الطبيعي ، وتدين الأسرة ، فلابد أن نعتبر عاملين آخرين خارجيين كان لهما كبير التأثير على هذه الشخصية الغنية هما رحلاته المتعددة لطلب العلم قبل الزاوية الدلائية ورحلاته بعدها ، ثم ولاء قبيلته لمحمد بن أبي بكر الدلائي خصوصاً وللدلاء عموماً . قال صاحب النزهة : « وكان لبرابرة ملوية فيه اعتقاد عظيم ، وخدمة تامة ، يتبركون بآثاره ولا يتجاوزون رأيه ، ويقفون عند حده ومقداره » (3). وهذا ما جعل اليوسي

---

(1) المحاضرات ص 29 طبعة حجرية

(2) المحاضرات ص 29 طبعة حجرية

(3) أنظر نزهة الحادي لمحمد الصغير اليفراني مخطوطة الخزانة العامة بالرباط ص 278 .

يعامل بمثل ما عومل به الدلائيون عندما خرب زاويتهم المولى رشيد فوجههم جميعاً وفيهم اليوسي فقط دون غيره ممن كان مقيماً هناك إلى فاس وأجرى عليه ما أجرى عليهم من النشاط التعليمي بعيدين عن السياسة ، مرَاقِبين عن كثب في حلهم وترحالهم.

وفي هذه الفترة الأولى من حياته تنقل كثيراً لينتهي به المطاف إلى زاوية له بها من الصلات العِرقية والشعورية ما لم يتمكن من إخفائه ولا التغلب عليه في الفترة الأخيرة من عمره ، نشأ اليوسي نشأة دينية ، وبعث به والده إلى كتاب القرية لحفظ القرآن ، غير أن ما طبع عليه من خجل شديد لا يجعله يقبل إقبال الراغب.. حتى ماتت والدته فكان لهذا الحادث أثر بليغ على شعوره المرهف قال : « فتنكرت عَلَيَّ الأرض وأهلها... وكان ذلك سببا للفتح ، فألقى الله في قلبي قبول التعلم » (1) ودفعه هذا إلى الإلحاح على أبيه ليقربه إلى الأمصار ، وهو بعدُ صبي يافع.

فخرج إلى بلاد القبلة صحبة معلم الكُتاب ، وهناك يختم القرآن ، ويحضر بعض الدروس في مبادئ العربية ثم يعود معَ المعلم أبي اسحاق إلى آيت يوسي ، وتقوم بينهما صحبة فيمكنه من كتب في التصوف خصوصاً « المورد العذب » لابن الجوزي فيكون لها التأثير البالغ على روح الصبي الجياشة وعلى نفسه الصافية يقول في الفهرست : فانتقشت تلك المآثر في عقلي ووقعت حلاوتها في قلبي فكان ذلك سبباً وبذراً لما أنعم به الله تعالى عليَّ من الإيمان بالطريقة ومحبة أهلها » (2)

وفي هذا الصبا المبكر ، تمكن منه الميل إلى الصلاح والتصوف ، وتأثر بسيرة أويس القرني ، وإبراهيم بن أدهم ، ودفعه هذا إلى أن يخرج هذه المرة في رحلة لزيارة صلحاء « ميسور » ثم « تغاية » لزيارة القطب أبي يَعْزى ، وسوف نرى في جميع مؤلفاته وخصوصا منها « المحاضرات » كيف سيظل وفيًّا لهذه الزيارات طول

---

(1) الفهرست مخطوطة الخزانة العامة بالرباط ك 1234 ص 129
(2) أنظر الفهرست ص 130

عمره مع ما يمكن أن يثيره هذا الصنيع من دهشة ، وهو يصدر عن فقيه سني في مكانة اليوسي .

والرحلة الثالثة في هذه الفترة وهي أكثر الرحلات طولا وإفادة علمياً ، هي التي قادته إلى نواح متعددة خلال سنوات ، ولم يستقر في موضع معين ، وعندما يحدد زمنها يذكر أعوام الستين . فهي كانت سنوات التكوين الممتلئة النشيطة وكانت في الجنوب عموماً ، وفي السوس الأقصى خصوصاً ، فنراه يتتلمذ للعلامة أبي بكر الحسن التطافي ، وأبي العباس أحمد الدراوي ، وأبي فارس عبد العزيز الفيلالي . ثم في مراكش تتلمذ لقاضي قضاتها أبي مهدي عيسى بن عبد الرحمان السكتاني ، ثم في دكالة مع الفقيه أبي عبد الله محمد بن إبراهيم وغيره . وعاد إلى السوس الأقصى مرة أخرى ليأخذ عن أبي فارس عبد العزيز الرسموكي ، وفي إمارة إيليغ السوسية يقيم مدة يعيِّنه أميرها أبو حسون السملالي أستاذا في تارودنت وهو لم يبلغ العشرين بعدُ ، فيقيم على ذلك حيناً ثم يغادرها إلى درعة حيث يلتقي بشيخ زاوية تمكروت أبي عبد الله محمد بن ناصر ، وهناك يتمكن من العلوم التي كان قد بدأها ، ويكتشف التصوف الشني في شخص شيخ الزاوية . ويمكث هناك مدة كل أوقاتها مملؤة بالدرس والتحصيل الكثير كما ذكر في فهرسته . ولاشك أنه أيضاً فكر كثيراً وتأمل كثيراً وشرع في أرواء ظمإه القديم إلى التصوف ورجاله وتعميق ميولاته الروحية : فعن الشيخ بن ناصر في هذه الحقبة أخذ « إحياء علوم الدين » للغزالي « والشفا » للقاضي عياض « وطبقات » الشعراني الخ... وعنه أخذ عهد الشاذلية ، وانتفع به كما قال ظاهراً وباطناً . ومن حلقة الشيخ اتجه اليوسي نحو الزاوية الدلائية.

الفترة الثانية : وصل اليوسي للزاوية الدلائية في أعوام الستين (1) ولم تكن ثقافته قد تبلورت بعد ، فانتسب للزاوية طالباً ثم أستاذاً خلال مدة ، وكان للزاوية : « صيت عظيم ، وكان بها معاناة العلوم والدؤوب على التدريس والإقراء ليلا ونهاراً حتى تخرج بها جماعة من صدور العلماء وأعيانهم » (2)

---

(1) المحاضرات ص 141 طبعة حجرية

(2) نزهة الحادي لليفراني ص 278

وعرف خلال العشرين سنة التي قضاها بالدلاء استقرارا لم يعرفه قبل . ولن يعرفه بعد ذلك . وفيها أخذ عن أحمد بن عمران الفاسي كما ذكر في «الفهرست» ومحمد بن محمد بن أبي بكر الدلائي وغيرهم . قال صاحب الصفوة : « فنشأ رحمه الله في العلم بحراً زاخر العباب . وشمساً منيرة في سائر الآفاق . وكان معظم قراءته بالزاوية . فيها أورى زنده واشتعلت جذوته . وظهر في مضمار الأذهان تبريزه » (1)

فالزاوية كانت فترة التبلور ثم الإشعاع . صاهر فيها الدلائيين . وعاش بينهم حياة ترف مادي وعلمي وأدبي . وفيها بدأ جل مؤلفاته غير « المحاضرات » : «كزهر الأكم » . « والحاشية على الكبرى » وغيرها . يظهر ذلك من مكاتبات شيخه ابن ناصر له (2). وأحله محمد الحاج مكانة مرموقة . تليق بمستواه العلمي والأدبي . وصدق إيمانه وحبه للعلم والتعليم : قال في الصفوة : « وكان لرئيس أهل الدلاء الفقيه الفاضل أبي عبد الله محمد الحاج مزيد اعتناء به واحتفال . لما رأى له من البراعة في العلوم . والتمهر في الفنون . فكان عنده بالحظوة التامة » (3)

« غير أن الدهر أبو العجائب » كما يقول في مستهل كتابه « المحاضرات » فكانت خاتمة حياته المستقرة هزيمة الدلائيين ببطن الرمان من فازاز . حيث يعود الفل . ويدخل أبناء محمد الحاج عليه جزعين بمحضر اليوسي (4) ويخرب الرشيد الزاوية (1079هـ) وينفي أهلها إلى فاس ثم إلى تلمسان . ويزعج اليوسي إلى فاس للسكنى والتدريس بها وهو في الأربعين من عمره .

الفترة الثالثة : من حياة اليوسي وهي الفترة الحاسمة التي تهمنا أكثر من غيرها لفهم جل الرسائل التي بين أيدينا . بل لفهم كل مؤلفات اليوسي التي كتبها أو أكملها في هذه الحقبة الشديدة الاضطراب من حياته .

---

(1) صفوة من انتشر ص 235
(2) أنظر طلعة المشترى ص 261.
(3) الصفوة ص 236
(4) أنظر المحاضرات ص 86

يدخل فاس فيكره بيئتها وأهلها (1) وينشأ بينه وبين علمائها خلاف يزيد من ألمه (2) ويخرج من فاس عند انتقاضها لبيعة المولى إسماعيل ليعود إلى الرحلة من جديد . ولكنها هذه المرة تتم في جو يختلف تمام الاختلاف عن جو الأولى . جو الكآبة والقهر . والضغط المعنوي والمتابعة السياسية.

استأذن اليوسي المولى إسماعيل في الخروج من فاس أثناء الحصار (1083هـ). ووجد في هذه الفرصة مفرجاً كان ينتظره (3) . فيزور زوايا الشمال ، وثغر تطوان . ويفارقها مارًّا بجبل بني زروال ، وينزل في « الشِّعْب » الذي بنى فيه « دويرات » (4) مكتفياً بحياة البادية وتعليم الناس (5). وذلك بالزاوية التي أنشأها « بخلفون »

ولكنه يبقى على وفائه وحبه الكبير للدلائيين وحنينه إليهم . يقول في المحاضرات (6) وكنت لما نزلت بخلفون على أم الربيع ذكرت من كان معنا في الزاوية الدلائية ، من المعارف والأحباب . وكانوا يومئذ قد شرقوا لناحية تلمسان فقلت :

سلام على الأحباب غَيْرُ مُضَيَّعِ ... لِذِي شَرَفٍ ذِكْراً وَلَا لِوَضِيع
سلامُ مُحِبٍّ لا يَزَالُ أَخَا هَوىً ... إلى جِلَّةٍ قد شَرَّقُوا وَنُزُوعِ
ومن يسأل الركبانَ عني فإنني ... حللت ببيتي حول أم ربيع
فَأَلْفَيْتُهُ يحكي زَفِيري زفيره ... بقلب كقلبي بالفراق صديع
ويسعدني في عبرتي غير أنه ... يخالفني في مهبط وطلوع
فتجرى إلى مهب الجنوب دموعه ... وتجرى إلى مهب الشمال دُمُوع

ولعل المولى إسماعيل رأى في انعزال اليوسي بعيدا عنه في البادية في مجتمع

---

(1) انظر المحاضرات ص 72
(2) أنظر تفاصيل ذلك في ترجمة اليوسي في نشر المثاني ج 2 ورقة 26 ظ
(3) أنظر رسالة جواب الكتاب
(4) نفس المرجع
(5) نفس المرجع
(6) المحاضرات ص 125

« خلفون » على وادي أم الربيع (نواحي خنيفرة حاليا) . ما يكون خطر الفتنة والثورة . لأن هذه القبائل ما زالت في باطنها على ولائها للدلائيين . وهاهو أبر وأوفى أبنائهم ينزل بينهم . ويعرف إقبالا جماهريًّا يخيف أولياء الأمر ويريبهم فيأمره السلطان بالرحيل من خلفون آخر سنة 1085هـ فيخرج في شدة عظيمة . يشير إليها أحد أصدقائه من الأدباء أحمد بن عبد القادر التستاوتي (1)... « في آخر خمس وثمانين وألف بلغنا أن الشيخ أبا علي الحسن بن مسعود اليوسي أُمِرَ بالرحيل من خلفون فقلت :

يارب بالهادي وبالأصحاب ... وسائر الأوتاد والأقطاب
وبكل عبد في البرية صالح ... وبجملة الأملاك والكتاب
أَمِّن بفضلك مهجة الحسن بن ... مسعود من الأنكاد والأوصاب
واشمَله باللطف العميم وكن له ... وانصُره نصر مُهَيْمِنٍ وَهَّاب
وأدم بمنزله السرور فلا يرى ... نكداً لجبار ولا مرتاب
أنت اللطيف القاهر الملك الذي ... تعنوا الوجوه له بلا حجاب

وينزل بمراكش حيث يدَرِّس في جامع الشرفاء . ويظل حنينه دائما لمسقط رأسه « خلفون ». وفي سنة 1090هـ (2) يؤذن له بالرجوع . ويغادرها ليقيم في خلفون إقامة قصيرة . وَتَوَجُّسُ السلطان لا يتركه . وعينه لا تفتر عن مراقبته . فيأمر هذه المرة بالاستقرار بمكناسة مقر الخلافة . ثم لا يلبث أن يأمره بعد خمسة أشهر من إقامته بمكناسة بالتوجه إلى مراكش من جديد تحت تأثير الحروب التي كان السلطان يشنها على برابرة بني يزناسن في تلك الفترة . وفي هذه المرة أيضا يتألم الأديب التستاوتي لما أصاب الشيخ : « وكتب إلى الشيخ أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي — رحمه الله — وقد أمره الخليفة بحلول مراكش (3)

سلام على خِلٍّ إذا ما أتى إلى ... مكان ينادى بالرحيل فيرحل

---

(1) انظر نزهة الناظر لاحمد بن عبد القادر التستاوتي مخطوطة خ ع ر ك 1669 ص 125
(2) أنظر المحاضرات ص 48 طبعة حجرية
(3) نزهة الناظر ص 123 — 124

وليس له ذنب سوى أنه إذا تحدث عن فضل به الفضل يحمل
وما هو إلا كالشمس طوراً بعقرب وآونة تعلو وفي الكبش تنزل
إذا ما ثوت برجا سما بحلولها به واغتذى بين المنازل يفضل
وليس بشيء ما ثوى الدر معدنا ويسمُو على الأحجار ساعة ينقل
تَسَلَّ فإن الشمس أختك رفعة ونوراً، وإن رَحَلْتَ فالشمس ترحل

ويخرج أوائل ربيع الأول سنة 1091 هـ إلى مراكش (1) ويقيم على مضض في شدة نفسية عظيمة مدة ثلاث سنين. في تضرع إلى الله أن يرد كل غريب إلى موطنه. ويصف ذلك في المحاضرات (2) قال: «ولما كنت بمراكش حرسها الله سنة 1093هـ وقد بقيت الأملاك في «خلفون». والكتب وما معها في «مكناسة». وبقيت العلائق في جبال «فازاز». والقبيلة في ملوية قلت:

تشتت قلبي في البلاد فقسمة بمراكش منه على رجل طائر
وأخرى بخلفون وأخرى مقيمة بمكناسة الزيتون حول الدفاتر
وأخرى بفازاز وأخرى تجزأت بملوية الأنهار بين العشائر

إلى أن قال:

«فيارب فاجمعها فإنك قادر عليها وما غير الإلاه بقادر
ويارب فاجعلها بأوطانها فما عبيدك للبيْن المشِتِّ بصابر
لك الفضل والإحسان بدءا وآخراً وإني لما أوليتني جد شاكر
فمنّ بإنعام وجد لي بحاجتي وما طلب الحاجات منك بضائر»

إلى آخر القصيدة؛

وفي هذه الشدة يمتحن بمحنة أكبر وأعظم. يأتيه الأمر السلطاني الصارم (3) بالرحيل إلى الزاوية الدلائية الخربة للإقامة فيها. فيغادر مراكش.

---

(1) رحلة اليوسي ص 55
(2) المحاضرات ص 125 — 126
(3) أنظر ذلك مفصلا في رسالة جواب الكتاب

ويلتحق بخراب الزاوية بالأطلس المتوسط في عز الشتاء . فلا يجد داراً ولا جداراً . وكان السلطان آنذاك في حركته المشهورة لجبال فازاز من آيت يدراسن وغيرهم من برابرة صنهاجة (1094هـ/1095هـ)

ويقيم اليوسي منفيّاً هناك مدة ثلاث سنين (1095هـ/1098هـ) . وأثناء ذلك يغزو السلطان بلاد ملوية وتفر قبائل البربر إلى رؤوس جبال العياشي ومن بينهم آيت يوسي (1096هـ) (1)

ورسالة جواب الكتاب الطويلة (1096هـ) يكتبها اليوسي من منفاه هذا إلى السلطان . ويبث فيها الكثير من آلامه وهمومه في هذه الفترة الكالحة من حياته . وفي هذا الطور بالذات يبدأ في تأليف كتاب « المحاضرات » ، ولهذا لا يعزب عن القارئ المتمعن في تراث اليوسي ما بين « المحاضرات » ورسالة « جواب الكُتاب » من تشابه كبير . فالحالة النفسية للأديب واحدة والجو الشعوري واحد . بل إن الكثير من المواضيع قد طرقت بنفس الطريقة.

ويجيئه الإذن بالرحيل عن الزاوية عام 1098هـ ليعود المولى إسماعيل سنة 1099هـ إلى حرب برابرة جبال فازاز مرة أخرى . يقيم بها نحو السنة ، ويبني قلعة أدخسان ويحصنها بألف وخمسمائة جندي وينزل بزاوية الدلاء مثلها.

وبعد هذا يبدو اليوسي طليقاً . ولكننا نلاحظ أنه لا يعود أبداً إلى « خلفون » بل لا يستقر في مكان معين ، بعد تلك الحروب الضارية وما نتج عنها من تشتت قبائل البربر . فنجده ضمن من استدعاه المولى اسماعيل من فقهاء فاس لحضور ختم درس التفسير الذي ألقاه بحضرته قاضيه أبو عبد الله المجاصي (سنة 1098هـ) ثم ينزل شعاب حمود ويمكث سبعة أشهر ، ثم يتوجه إلى صفرو التي وصلها سنة 1099هـ (2) ومكث فيها ستة أشهر . ثم ينزل بفاس ويبقى بها سبعة أشهر يقوم عقبها بزيارة للعرائش وبعض زوايا الشمال في رفقة يكون فيها تلميذه ابن زاكور، فيقيم قليلا ثم يعود إلى فاس في أواخر ذي الحجة من السنة ليغادرها لثمان بقين من المحرم تمام المائة (3) وينزل بقرية تمزيزت ببلد

(1) أنظر الاستقصا ج 68/7

(2) رحلة اليوسي ص 58

(3) « الروض الأريض » لابن زاكور ص 198 — 201

أولاد عباد ولعل قبائل آيت يوسي أنزلت بها بعد هزيمتها ، وهنالك يخلف عياله في طريقه إلى الديار المقدسة ، مبعوثاً من طرف السلطان الذي كان آنذاك مقيماً بجبال فازاز في حربه مع برابرة صنهاجة من ملوية العليا .

ولا يمكن للدارس أن يدفع التساؤل الذي يلح عليه أمام هذه المصادفة وما يمكن أن يكمن وراءها . فماذا تعني هذه الالتفاتة المولوية . هل تعني إبعاد اليوسي في وقت بلغ فيه غليان البرابرة أوجه ؟ أم هي مجرد حدب ومحاولة محو الإساءة ظاهريًّا من طرف السلطان ؟ مما لاشك فيه أن الرسالة التي بعثها اليوسي للسلطان أثناء نفيه بالزاوية الدلائية قد تركت آثارها في نفس السلطان ، فلهجة اليوسي كانت قاسية وعنيفة وصريحة إلى أقصى حدود الصراحة . زد على ذلك أن اليوسي كان يتمتع بسمعة ومكانة لدى الجماهير الشعبية لا يحظى بها أحَدٌ في عصره ، مما جعل صاحب « التقاط الدرر » يقول عنه : « ... ورُزِق الإقبال من الخلق ، فيجتمع عليه الجم الغفير حيث أقام ، حتى كان السلطان لا يتركه أن يقر به قرار بل يأمره بالرحيل في أقرب مدة من الموضع الذي استقر به إلى موضع آخر ... »(1) .

ويعود من الحج في شوال 1102هـ إلى داره بتمززيت ثم لا تطول حياته بعد ذلك كثيرا ، ففي ليلة الإثنين 23 ذي الحجة 1102هـ توفي ودفن هناك ، غير بعيد عن قرية صفرو ، وينقل بعد عشرين سنة من مدفنه إلى موضع آخر حيث لا يزال مزارا لقبائل البربر التي تحيي ذكراه كل عام (2)

وتقول طرة بهامش « نشر المثاني » في ترجمة اليوسي : « ووثب اللصوص على صاحب الترجمة وقتلوه ، وترك المؤلف التنبيه على هذا لجهل من وثب عليه ، وقيل الذي قتله وليُّ القبيلة... » (3) وهذا احتمال يستحق الوقوف عنده لتمحيصه سيما وأن أعداء الرجل كثيرون.

---

(1) أنظر كتاب « ألتقاط الدرر . ومستفاد العبر من أخبار أعيان المائة الحادية والثانية عشر » لمحمد بن الطيب القادري مخطوطة خ ع ر ص 123 وما بعدها

(2) طبقات الحضيكي مخطوطة خ ع ر ص 123 وما بعدها

(3) أنظر نشر المثاني مخطوطة خ ع ر ك 2253 ج 32/2 وشرح رائية اليوسي لابن سودة ص 32

* ثقافة اليوسي :

ثقافة اليوسي الموسوعية تعكس ما كانت تلقنه الزوايا العديدة والرباطات البعيدة في مغرب آخر القرن الحادي عشر من ثقافة (1) هذه الزوايا التي قال عنها صاحب « النبوغ المغربي » « إنها حفظت تراث العلوم والآداب الذي كاد أن يضيع » (2) وقد كانت طريقة التدريس بهذه المراكز تعتمد على دراسة أمهات الكتب في كل فن، يأخذها الدارس بحثاً وتحليلا وتعليلا ومناقشة مع الطلبة.

وقد أعطي اليوسي فكراً تركيبياً ، وقريحة وذكاء ، جعله ينفذ إلى عمق ما يدرس ويستوعبه استيعاب الفاحص الناقد المتمكن . قال عن ثقافته في الفهرست : « وكانت قراءتي كلها فتحاً ربانيًّا ، ورزقت ولله الحمد قريحة وقادة ، وفطنة ذكية ، فكنت بأدنى سماع ، وأدني أخذ ينفعني الله » (3)

وإذا أردنا أن نعرف شيئاً عن هذه الأمهات التي أخذ منها اليوسي أول الأمر ، فنحن نجد في فهرسته مجملا لذلك مع ذكر شيوخه في كل فن (4) ، وسوف نقتصر على ذكر الفنون مع ذكر الأمهات التي أخذ منها :

التفسير : تلقاه أول الأمر في درعة عن شيخه ابن ناصر ، ثم تبحر في ذلك في الدلاء ، ونحن نعرف أن هذه الزاوية كانت تدرس « جامع البيان » لابن جرير الطبري ، « والكشاف » الزمخشري وتفسير الرازي ، وتفسير الثعالبي ، وتفسير البيضاوي(5) ، وذكر اليوسي في فهرسته تفسير الجلالين أيضاً(6)

---

(1) في معرفة ثقافة العصر والزاوية الدلائية بصفة خاصة يرجع للبدور الضاوية خصوصا الفصول المعقودة لابنائها من العلماء

(2) النبوغ المغربي لعبد الله كنون ص 274

(3) الفهرست ص 129 — 138

(4) نفس المرجع السابق

(5) أنظر الزاوية الدلائية لمحمد حجي ص 72 نقلا عن فهرست محمد بن أبي بكر الدلائي

(6) الجلالان المشتركان في تفسير القرآن الكريم هما جلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين عبد الرحمان السيوطي

الحديث : صحيح البخاري وصحيح مسلم ، وموطأ الإمام مالك ، وشفا القاضي عياض ، وكتب السنن وبعض كتب الأخبار والمساند

التوحيد والفقه والأصول : جمع الجوامع في الأصول لتاج الدين السبكي ، وسوف يدرسه اليوسي بدوره في الزاوية ويؤلف حاشية عليه.

مختصر خليل بن إسحاق المالكي ، العقيدة الكبرى للسنوسي وسنرى اهتمام اليوسي بها وتدريسه لها ، ثم تأليفه شرحا كبيرا عليها . العقيدة الصغرى للسنوسي ، المدخل لابن الحاج ، تنقيح القرافي في الأصول ، محصل المقاصد لأحمد بن زكري العبدري المالكي الفاسي.

التصوف : رسالة القشيري ، وحكم ابن عطاء الله ، والإحياء للغزالي ، وطبقات الشعراني وغيرها.

اللغة وعلومها : ألفية ابن مالك ، لامية الأفعال الخزرجية ، التسهيل لابن مالك ، الكافية والشافية لابن الحاجب ، والخلاصة .

البلاغة والأدب : مقامات الحريري ، دواوين المعري والمتنبي وأبي تمام ، تلخيص المفتاح في البلاغة للخطيب القزويني

المنطق : مختصر السنوسي في المنطق وغيره

الحساب : كتاب القلصادي ، رسالة الأسطرلاب

ولا يخفى على أحد ما كان عليه اليوسي من تعطش للمعرفة ، وحب للتحصيل ، فلقد توسع في هذه العلوم وبرز ، وتصرف واجتهد ، وأصبح أستاذا فيها (1) وألف وكتب فيها ، وتفوق في الكثير منها حتى قال فيه صاحب نشر المثاني ... « وكان صاحب الترجمة آية في المعقول والمنقول ، وإليه المرجع فيهما ، وآية في النبل والإدراك ... »(2)

---

(1) ذكر أحمد بن يعقوب الولالي انه كان يدرس مع زملائه الطلبة على الامام الحسن اليوسي في الزاوية الدلائية علوم البيان ، والمنطق ، والفقه ، والأصلين ، دون أن يذكر الكتب التي كانوا يدرسونها . أنظر مباحث الأنوار مخطوطة خ ع ر ورقة 7 وجه.

(2) نشر المثاني ورقة 29 وما بعدها.

وخاصية ثقافة اليوسي أنه جعلها مسايرة لحياته ، يعيشها ويتفاعل معها ، وينفذ إلى عمق المسائل المطروحة ، ويجعلها مطية لذكائه وفطنته وعمله ، قال اليفراني « ... حتى كان بعض أشياخنا يقول : هو المجدد على رأس هذه المائة لما اجتمع فيه من العلم والعمل ، بحيث صار إمام وقته ، وعابد زمانه ، ولذلك قال الإمام أبو سالم العياشي :

من فاته الحسن البصري يصحبه فليصحب الحسن اليوسي يكفيه(1)

ولا يفوتنا أن نسجل هنا موهبته الشعرية ، إذ كان اليوسي شاعراً مفلقاً حتى كان يقول : « لو شئت لا أتكلم إلا بالشعر لفعلت » وله ديوان شعر سوف نعرض له في آثاره.

آثاره :

سوف أذكر هنا جميع إنتاجه إلا الرسائل التي أفردت لها جدوال خاصة في المقدمة وفي الفهارس .

وقد اهتم الأدباء والمترجمون والمستشرقون بإنتاج اليوسي الغزير في مختلف المواضيع والفنون ، وقد طبع منه القليل بفاس طبعة حجرية ، وهكذا نجد المؤرخ الأديب اليفراني (2) يعدد تآليفه المهمة في « صفوة من انتشر » (3) وذكرها أيضا ابن الطيب القادري (4) في « نشر المثاني » وزاد على ما ذكره الإفراني ، كما عدد آثاره أيضا صاحب « الدر المنضد الفاخر » (5) وهو الذي ذكر له مؤلف في الهيئة ، وأظن أن المستشرق جاك بيرك أخذ عنه ذلك عندما رتب جدولا لمؤلفات اليوسي في كتابه عنه ، وقد سبق جاك بيرك في هذا مستشرقون آخرون أمثال ر. باسي ، وليفي بروفنسال

---

(1) الصفوة ص 237

(2) أبو عبد الله محمد تاصغير اليفراني المراكشي (.../1140هـ) له مؤلفات أفادت التاريخ والأدب في المغرب .

(3) ص 238 .

(4) أبو عبد الله محمد بن الطيب عبد السلام القادري (1124/1187هـ) العلامة المؤرخ النسابة .

(5) محمد بن عبد القادر الكلالي مخطوطة خ ع ر د 1584 .

وقد أكمل جاك بيرك جدول آثار اليوسي في آخر كتابه عن اليوسي بما جاء في المقدمة التي وضعها محمد بن الحسين الصقلي للطبعة الفاسية لكتاب اليوسي « القانون » ومن مقدمة للعباس بن ابراهيم التعارجي ، ومن « نشر المثاني » كما قال (1)

وفي كتاب الزاوية الدلائية نقل الأستاذ محمد حجي جدول مؤلفات اليوسي نقلا عن كتاب جاك بيرك كما ذكر ، مع بعض الزيادات التي لم يذكر لأغلبها المحل الذي توجد فيه .

وسوف أحاول أن أعيد ترتيب مؤلفات اليوسي في ضوء ما وقفت عليه أنا شخصيا ، مع إضافة الأماكن التي توجد فيها بعض المؤلفات المذكورة قبل :

في التفسير :

فتح الملك الوهاب فيما استشكله بعض الأصحاب من السنة والكتاب	لم يشر إليه أحد قبل
أو	
الفتوحات السوسية المشتملة على الأنوار القدسية	يوجد بالخزانة العامة بالرباط في المخطوطة رقم جـ 618 ضمن مجموع من ص 1 إلى 129 . والكتاب في تفسير آيات مختارة من كتاب الله تعالى في قالب فني طريف على هذا النمط : « فان قلت لم قال تعالى ؟ » ويأتي بالآية .التي ستكون موضوع الشرح والتحليل ، ثم يبدأ عرضه بكلمة : « قلت... »

(1) كتاب « اليوسي » ص 140 .

وينتهي الكتاب بقول الناسخ : « انتهت الفتوحات السوسية المشتملة على الأنوار القدسية المسماة بفتح الملك الوهاب فيما استشكله بعض الأصحاب من السنة والكتاب موافقة تمام قعدة الحرام عام 1317 هـ »

وبجانب هذا طرة كالتالي : « بلغت المقابلة بحمد الله هنا من نسخة كتبت من خط المؤلف رضي الله عنه » وفي أول الكتاب في الصفحة الأولى كتب بعد البسملة : « هذا كتاب فتح الملك الوهاب ... للإمام اليوسي رحمه الله »

التوحيـد :

حاشية على عمدة أهل التوفيق والتسديد في شرح عقيدة أهل التوحيد أو ما يسمى بالحاشية على شرح كبرى السنوسي (يشرح فيها اليوسي شرح السنوسي لعقيدته الكبرى)

توجد منها نسختان في المكتبة العامة بالرباط

الأولى : مخطوطة كـ 2645 . الثانية رقم د 1771 في طرتها هوامش مهمة ، وفي المجموع معها عمدة أهل التوفيق للسنوسي . وثلاث نسخ بالخزانة الملكية بالرباط . وتوجد لها نسخة أخرى بدار الكتب الظاهرية بدمشق

مشرب العام والخاص من كلمة الإخلاص في تفسير كلمة لا إلاه إلا الله

توجد منه ثلاث نسخ بالمكتبة العامة بالرباط : كـ 2418 في كتاب مستقل . كـ 35 مستقلة أيضا . قـ 1013 في مجموع غير مرقم في بداية المجموع وفي آخره : ووافق الفراغ منه عام 1088 . «من مكتبة تمكروت »

كتاب أخذ الجُنة عن أشكال نعيم أهل الجنة

أشار إليه بيرك ولم يثبت مصدره وهو بحث طريف لليوسي يقول في مقدمته : « ... فقد خطر لي أشكال نعيم الجنان ، وما وعد به المتفضل المنان ، ثم خطر لي عنه جواب من نفحات الملك الوهاب ، فسطرت الجميع خوف النسيان الخ ... »
توجد نسخة مخطوطة لهذا الكتاب في الخزانة العامة بالرباط تحت رقم د 3373 ضمن مجموع من ص 414 إلى 428 وفي الخزانة الملكية تحت رقم 6602

الكوكب الساطع بشرح جمع الجوامع لتاج الدين السبكي

غير كامل . وقد اطلعت عليه في مجموع من خزانة الفاضل محمد حماد الصقلي الأستاذ بدار الحديث الحسنية فيه أيضا الرسالة المطولة للمولى إسماعيل

الفقـــه :

تقييد يشرح قول خليل

« وخصصت نية الحالف »	نسختان في الخزانة العامة بالرباط قـ 302 ضمن مجموع من ص 294 إلى 305 . د 2223 ضمن مجموع ص 149 وفي الخزانة الملكية نسختان : 6726 في كتيب مستقل غير مرقم 9226 في مجموع غير مرقم .
أرجوزة فقهية تشرح أركان الإسلام	مخطوطة خ ع ر رقم جـ 157
منظومة لليوسي في العبادات	مخطوطة خ ع ر رقم د 1164 ضمن مجموع ورقة 40 ظـ
بحث فيما يجب على المكلف من أصول الدين وفروعه	مخطوطة الخزانة العامة بالرباط جـ 612 ضمن مجموع من ص 27/21
قواعد الإسلام عن مضمون حديث النبي عليه السلام	شرح وتبسيط لقواعد الإسلام مخطوطة خ ع ر جـ 612 ضمن مجموع من ص 27 — 42
الآداب واللغة وقواعدها :	
ديوان شعر أكمل جمعه ابن اليوسي بعد وفاة والده	في الخزانة العامة بالرباط : ثلاث نسخ جـ 157 كـ 491 جـ 32 وفي الخزانة الملكية نسخ عديدة منها رقم 312 . 2339 . 6549 الخ وطبع طبعة حجرية نفذت . وتوجد نسخ منه بباريس والجزائر
زهر الأكم في الأمثال والحكم	في الخزانة العامة بالرباط : نسخه كثيرة منها رقم قـ 388 . . رقم جـ 178 جزءان

قال عنه أنه من خط المؤلف . جـ 596 جزءان جـ 844 جزءان . كـ 1679 جزءان .
وفي الخزانة الملكية ثمان نسخ .
وتوجد منه نسختان في دار الكتب بالقاهرة تحت رقم 14097 ورقم 14842 (أدب) .

القانون في أحكام العلم والعالم والمتعلم :

في الخزانة العامة بالرباط ثلاث نسخ جـ 1304 . د 2382 . د 2359 . وفي رقم قـ 931 توجد الورقة الأولى من كتاب القانون عليها تحبيس الكتاب على مكتبة الزاوية الناصرية بخط ابن اليوسي ولا وجود للكتاب بداخله .
الخزانة الملكية بالرباط نسخة رقم 6643
وتوجد منه مخطوطة بدار الكتب الظاهرية بدمشق رقم 7934
وأخرى بالمكتبة الوطنية بباريس

المحاضرات :

توجد له نسخ مخطوطة كثيرة في المكتبة العامة والمكتبة الملكية بالرباط وفي مكتبات خاصة . وفي مكتبات باريس والقاهرة وتونس وقد انتسخت هذه الأخيرة بعد وفاة اليوسي بقليل . وقد طبع الكتاب طبعة حجرية سنة 1317 هـ

الفهرست : لم يكمل اليوسي تأليفه

في الخزانة العامة بالرباط ثلاث نسخ رقم

	د 1838 ضمن مجموع من ص 77 إلى 170 . رقم كـ 1301 ضمن مجموع ص 164/134 كـ 1234 ضمن مجموع من ص 103 ــ 147 وفي الخزانة الملكية نسختان تحت رقم 1138 ورقم 5470
الرحلة :	في الخزانة الملكية نسخة مخطوطة تحت رقم 2343
الكناشة العلمية :	في الخزانة الملكية نسخة مخطوطة تحت رقم 5995 وتشتمل على فوائد في التصوف والأدب والحديث والتفسير الخ ...
القصيدة الرائية في رثاء الزاوية الدلائية :	في الخزانة العامة بالرباط مخطوطتان : كـ 248 مع شرح الدلائيين:محمد بن أحمد الشاذلي (1137 هـ) وهو الذي بدأ الشرح ولم يكمله ، ومحمد البكري ابن عمه الذي أكمله . د 2295 ضمن مجموع من ص 262 ومخطوطة في خزانة خاصة مع شرح محمد بن المهدي بن سودة
القصيدة الدالية في مدح الشيخ محمد بن ناصر (1)	طبعت مع شرحها في مصر عام 1291 هـ وعام 1329 هـ وتوجد منها نسخ خطية

(1) عارض بها دالية البوصيري في مدح الشيخين أبي الحسن الشاذلي وأبي العباس المرسي . أنظر « رياض الورد إلى ما انتهى إليه هذا الجوهر الفرد » لأبي عبد الله الطالب حمدون بن الحاج مخطوطة خ ع ر رقم د 111 ص 21

عديدة بالرباط والقرويين والقاهرة وباريس

نيل الأماني في شرح التهاني وهو شرح للدالية

طبع بالأسكندرية عام 1298هـ وبالقاهرة عام 1329هـ وأعيد طبعه سنة 1339هـ(1) وتوجد منها مخطوطة كثيرة في خزانات الرباط والقرويين والقاهرة وباريس والجزائر.

حاشية على تلخيص المفتاح للقزويني (لم يكمله)

لم يذكره صاحب «صفوة من انتشر» عندما ذكر مؤلفات اليوسي. وذكره محمد بن عبد القادر الكلالي في كتاب «الدر المنضد الفاخر فيما لأبناء مولانا علي الشريف من المحاسن والمفاخر» عندما ترجم لأبي علي اليوسي مخطوطة خ ع ر رقم د 1584 ورقة 218و. وهو الذي ذكر أن لليوسي تأليف في الهيئة وأظن أن جاك بيرك أخذ ذلك عنه، أو عن من نقل منه

التصوف :

شرح عقد جواهر المعاني في مناقب الغوث عبد القادر الجيلاني

ذكره بيرك نقلا عن مقدمة الصقلي لكتاب «القانون»

---

(1) معلومات من مراسلة الأستاذ الدكتور شكري فيصل اجاب بها عن استفساري عن وجود مؤلفات اليوسي بدار الكتب الظاهرية بدمشق.

أرجوزة في شأن حفظ القرآن	دوحة البستان للزيادي مخطوطة خ ع ر رقم د 390 ص 113
المنطـق :	
نفائس الدرر على شرح المختصر للسنوسي	في الخزانة العامة بالرباط نسخ كثيرة منها : كـ 1751 في كتاب مستقل ، د 2289 ، 2249 ، د 2141 ، د 2225 ، د 2143 ضمن مجموع فيه مختصر السنوسي وشرح السنوسي عليه وحاشية اليوسي على هذا الشرح أي « نفائس الدرر » وتوجد نسخة خطية بالمكتبة السليمانية بأسطانبول تحت رقم 2696 (1)
القول الفصل في القرن بين الخاصة والفصل ، أو الفرق ما بين الذاتي والعرضي	في الخزانة العامة نسخ كثيرة منها : رقم د 1072 ضمن مجموع د 271 . د 2775 . د 2881 في الخزانة الملكية : نسخة تحت رقم 1314
النسبة الحُكْمِية بين الطرفين الموضوع والمحمول	في الخزانة العامة بالرباط : نسخة تحت رقم د 1243 ضمن مجموع من ص 195/193 ومخطوطة خاصة في خزانة الأستاذ محمد إبراهيم الكتاني وتوجد لهذا البحث نسخة مخطوطة بالمكتبة السليمانية باسطانبول تحت

(1) من جواب المكتبة على مراسلتي في شأن مؤلفات اليوسي بتاريخ 1974/9/26 .

	رقم 2649/2
أرجوزة في القضايا الموجبات التسع عشر (10 أبيات)	مخطوطة خاصة بخزانة الأستاذ محمد إبراهيم الكتاني
شرح أم المنطق	ذكره صاحب المنح البادية مخطوطة خ ع ر ، ك 1249 وسماه مزامر المنطق
شرح السلم	ذكره هكذا الأستاذ عبد الله كنون في « النبوغ المغربي » ص 303 وذكره الأستاذ محمد حجي في « الزاوية الدلائية » قال : شرح السلم المرونق للأخضري دون إثبات مصدر غير « النبوغ المغربي »
شرح الطالع المشتري لم يكمل	جاء هكذا في جدول بيرك في عمود مواضيع مختلفة ص 140 وذكره الأستاذ حجي في الرسائل بعنوان : شرح الطالع المنتشر وأظن أن الكتاب نسب خطأ لليوسي ، وإنما هو كتاب « شرح الطالع المشرق في علم المنطق » لأبي زيد الفاسي . أنظر النبوغ المغربي ج 303/1
تذكرة الغافلين	ذكره البغدادي في « هداية العارفين » المجلد 1 ص 296
الدر المصون	المصدر السابق
المفاتيح في شرح المصابيح	مجلة تطوان العدد الثامن السنة الثالثة ص 97 — 177

تلك هي آثار اليوسي دون الرسائل ، حسب ما وقف عليه الدارسون قبلي لهذه الآثار ، وما أضفته لها مما وقفت عليه في طور البحث ، وهي تعكس فنون المعرفة التي كانت لليوسي فيها مشاركة .

ولاشك أن الملاحظة الأولى التي تتبادر إلى الذهن هي أن جل المؤلفات غير تام ، ولكن هذه الملاحظة تجد جوابها عند إلقاء نظرة على حياة اليوسي في الفترة التي أراد أن ينصرف فيها للتأليف . يقول : « .. وكيف لا يُعذر ذو بال منقسم ووبال متكَسِّم (1) ... وكيف يمكن لمثلي أن يجمع بين كلمتين ، فضلا عن فصلين ، ولكن لَمَّا لم يكن التجزع عند حلول الأقدار ، من شيم الأحرار ، قبضت على أحر من جمر ، وتجلدت على ما بي من ضر ، وثنيت الضلوع على أذاها ، وأغضيت الجفون على قذاها ... » (2)

وقد بلغ مجموع ما ورد في هذه المؤلفات حوالي ثمانية وثلاثين بين الكتاب والبحث والمنظومة الخ ، نبهت لمصادر جديدة لكثير مما ذكره جاك بيرك والأستاذ محمد حجي ، وذكرت فيه عددا مما لم يسبق أن ذكره من اهتم بحصر مؤلفات اليوسي .

وما أتمناه هو أن يجد تراث اليوسي طريقه إلى النور ، وأن يبذل التشجيع لمن يتصدى لتحقيق هذه الآثار ونشرها ، لإقامة كيان الفكر المغربي الأصيل ، وتمكين النقاد من الإطلاع عليه وتقييمه .

---

(1) متكَسِّم : الكَسْم الكد على العيال ، وإيقاد الحرب ، والحشيش الكثير . وأرجح المعنى الأخير

(2) أنظر مقدمة كتابه « زهر الأكم » لم يكمله

الفصل الثاني

رسائل اليوسي

1) الخصائص الموضوعية للرسائل

1 — الشؤون العامة وأحوال المجتمع
2 — التصوف
3 — التوحيد
4 — الفقه

2) الخصائص الفنية للرسائل

1 — الرسالة في عصر اليوسي
2 — خصائص رسائل اليوسي الفنية
3 — الخاتمة

1 — الخصائص الموضوعية للرسائل

1 — في الشؤون العامة وأحوال المجتمع

إن طبيعة حياة اليوسي التي قضاها بين تثقيف وتربية ، ووعظ وارشاد ، وسفرات متعددة لمراكز العلم وللزوايا والمزارات ، وقد ربطت بينه وبين مجتمعه بروابط متينة ، ولابد أن اليوسي يدين لهذا التعاقب المستمر بين التدريس في البوادي والحواضر بمعرفة حقة لبلاده .

فرحلات الكهل الاختيارية منها والاجبارية ، قد أكملت رحلات الشاب الطويلة في طلب العلم ، وأضافت الكثير إلى تلك الثقافة الحية ، حيث التجارب والمعلومات العملية تغني التأملات والمعلومات النظرية.

فنحن لا نعثر له على مجلس دون أن نجد له فيه مسألة تشغل بال الناس تطرح ، دينية أو اجتماعية أو سياسية أو أدبية ، فربطت هذه المجالس بينه وبين كثير من الناس على طريق المحبة والألفة ، أو على طريق الاستفادة والتربية.

إنَّ جرأة الأدب في العصر الذي نحن بصدده تثير العجب والاندهاش لصدورها وسط مجتمع يسوده العنف وتحت سلطة تتميز بالاستبداد ، ولكن العجب والاندهاش يختفيان إذا ما اعتبرنا النموذج النظري للحكم في الإسلام ، والذي يكون الغاية للعلماء السلفيين ، إذ هو السبيل الوحيد لصيانة العقيدة في نصاعتها وعمقها

وعندما نتعرض لمضمون الرسائل التي تناولت الحياة العامة وأحوال المجتمع ، فسوف نتناول هذا الموضوع من الجوانب الهامة التي طرقها اليوسي في هذه الرسائل الخمسة التي تكون هذه المجموعة وهي : « ندب الملوك للعدل ». « براءة اليوسي » « جواب الكتاب ». « نازلة العرائش ». « طائفة العكاكزة ». وهذه الجوانب هي :

— نظرية اليوسي في الحكم والسلطة القائمة
— العلماء ودورهم في الأمة
— مصالح الأمة المادية والمعنوية

وقبل دراسة هذه الجوانب ، ولإلقاء الضوء على تسلسلها ، أنبه إلى الترتيب الزمني لهذه الرسائل حسب ما وصلت إليه ، فرسالة « جواب الكتاب » أرخها اليوسي بأول ذي الحجة سنة 1096 عندما كان منفيًّا للزاوية الدلائية ، وهي الفترة التي تمتد من 1095هـ — 1098هـ . وأما « نازلة العرائش » و « طائفة العكاكزة » فنحن نعرف أنها كانت متقاربة : الأولى في محرم 1101هـ والثانية قبيل ذي الحجة 1101هـ في أواخر حياة اليوسي . تبقى رسالتان : « براءة اليوسي » و « ندب الملوك للعدل » وهما الرسالتان اللتان خصصهما اليوسي للنصح والموعظة الخالصة للإمام ، ولا يفهم منها أن السلطان قد استدعى منه هذا النصح . « وبراءة اليوسي » عرفت تداولاً وشيوعاً بين الناس لم يسبق لها نظير (1) وأنا أرجح أن تكون هاتين الرسالتين قد بعث بهما اليوسي إلى السلطان في الفترة التي استقر فيها « بخلفون » بعد خروجه من فاس عند حصارها (1083هـ/1085هـ) قبل ظهور التوتر الذي ميز علاقته بالمولى إسماعيل . فلهجة اليوسي في « ندب الملوك للعدل » لا زالت لهجة من يطمئن إلى الذي يخاطبه ويوجه إليه النصح ، فالمولى إسماعيل لم يتول مقاليد الأمور إلا منذ فترة قصيرة ، واليوسي يأمل أن تكون سيرة هذا السلطان الهاشمي أقرب شبهاً بالخلفاء الراشدين يقول : « ولم يزل في كل دولة من الدول من يتطاول إلى نسمات أهل الخير ، ويزاحم أهلها ، وكل من فعل خصلة حميدة فهو محمود عليها ، ومنسوب عند الانتماء إليها ، ولو لم يكن إلا الإنصاف بسماع الحق . (2) وهو في « براءة اليوسي » يضع أصبعه على بعض مواطن الاختلال ، ويعددها ويحلل أسبابها ويعطي وجهة نظره لإصلاحها ، ولهجة اليوسي فيها أيضا مطمئنة جريئة نحو من كان يَرى فيه : « التشوف إلى الموعظة والنصح ، والرغبة في استفتاح أبواب الربح والنجح » (3)

---

(1) لا يخلو كتاب من كتب العصر من إيرادها أو الإشارة إليها أو التكلم عن بعض ما جاء فيها يقول عنها صاحب « الدر المنضد الفاخر » : « وهي مشهورة عند الخاص والعام من أهل العصر » ص 217ظ.
وتعدد نسخ « براءة اليوسي » يدل على انتشارها واستنساخها من طرف الناس

(2) « ندب الملوك للعدل » أنظر ص 247 من هذا الكتاب

(3) أنظر رسالة « براءة اليوسي » ص 237 من هذا الكتاب .

ولا أستبعد أن تكون هذه اللهجة الصريحة الجريئة التي استعملها اليوسي في هاتين الرسالتين ، وشيوع أمرهما ، وحديث الناس عنهما نظراً لالتفاف الجماعات حول اليوسي من فقهاء وطلبة ومريدين ، مما جعل السلطان يأخذ الأمر بالحزم ، ويتعجل بمبادرة ما قد ينجم من قلاقل عن هذا الرجل الذي رزق الإقبال من الخلق ، واختار الابتعاد عن السلطان إلى المناطق البربرية ، يضاف إلى ذلك ما عرف عنه دائماً من الوفاء للدلاء ومحبتهم ورثائهم بالقصائد التي سارت بها الركبان .

— نظرية اليوسي في الحكم والسلطة القائمة

انطلاقا من طبيعة الرجل ومن أصوله البربرية الصميمة ، ومن فكره الإسلامي ، يعتبر اليوسي أن الناس كلهم سواء في الحقوق وسواء في الواجبات ، وأن ولي الأمر هو كواحد من الناس ، لا يتميز عنهم إلا بما تحمل من المشاق والمتاعب في مصالحهم ، ابتلاء وامتحاناً من الخالق سبحانه ، كما كان حال الخلفاء الراشدين : « فليعلم سيدنا — نصره الله — أن الأرض وما فيها ملك لِلّه تعالى لا شريك له ، والناس كلهم عبيد له ، وسيدي واحد من العبيد ، وقد ملكه الله تعالى عبيده ابتلاءً وامتحاناً ، فإن قام عليهم بالعدل والرحمة ، والإنصاف والإصلاح ، فهو خليفة الله في أرضه ، وظل الله على عباده ، وله الدرجات العالية عند الله تعالى » (1)

هذا هو مفهوم الحكم الذي اقتنع به اليوسي وناضل من أجله ، ولذلك فهو يعتبر كل ما خرج عن نطاق هذا المفهوم لا يستجيب لروح المبادئ الإسلامية الحقة . « ... وإن قام بالجور والعنف ، والكبرياء والطغيان والفساد ، فهو متجاسر على مولاه ومتسلط ومتكبر في الأرض بغير الحق ، ومتعرض لعقوبة الله تعالى الشديدة وسخطه » (2)

وبالتالي فالناس لهم كامل الحرية في التدخل والتوجيه والنقد ، كلما رأوا

---

(1) أنظر رسالة « براءة اليوسي »
(2) أنظر المرجع السابق

الاتجاه ينحرف عن الجادة ، ويبتعد عن مبادئه الأساسية ، ووفاء لهذا المبدأ سوف نجد اليوسي يرفض كل خضوع سياسي متواطئ . ففي شبابه لم يطل اتصاله بأمير « إليغ » الذي عهد إليه بالتدريس في معاهد تارودانت ولعل ما وجد عليه الأمور من فتنة وفساد ، وجور وعسف وسوء معاملة للناس (1) في تلك الفترة من تاريخ المغرب ، لم يجعله يرضى على ما يرى ، ثم هو قد سمع بالشيخ ابن ناصر وما هو عليه من علم وسلوك ، ربما يساعده على تعميق بعض المدارك الإسلامية التي تحتاج لفهمها واستيعابها إلى من عاش التجارب الكثيرة ...

وعندما حل بالدلاء وأصبح من أساتذتها اللامعين توثقت صلته بالأمير محمد الحاج الدلائي الذي كان هو الآخر من علماء الزاوية الدلائية ، والظاهر أن اليوسي كان ممن اصطفاهم محمد الحاج الدلائي وجعلهم من بطانته ، أو على الأقل من المقربين ، لأن ما ذكره عن سقوط الزاوية الدلائية يفيد أنه كان من جملة الخاصة ، ولا نجد بين أيدينا من الوثائق ما يبين لنا نوع هذه العلاقات التي ربطت بين الرجلين ، ولاشك أنها من نوع العلاقات التي ربطت اليوسي بكل أفراد الزاوية ، طابعها المحبة العميقة،والوفاء والتعلق الصادقان . ولم يحفظ عن اليوسي أنه أنكر شيئاً على محمد الحاج خلال حكمه لأكبر وأهم أجزاء المغرب خلال السنين . فهو لاشك قد اطمأن لهذا الأمير العالم ، الذي عرف بغيرته الدينية ، وحميته الإسلامية ، وهو الذي كان يزن أعماله بميزان الشرع ،

والدلاء على العموم لم يعرفوا التهافت على الحكم والتهالك عليه ، وحتى ذلك الذي بلغوه من السلطة الدنيوية لا يتناسب والمبادئ التي أرساها للزاوية مؤسسها أبو بكر المجاطي ثم بعده ابنه محمد بن أبي بكر ، إذ كان تحذيرهما شديداً من التطلع للحكم ، وأظن أنه لولا ظروف سقوط السعديين ، وانعدام الأمن وظهور الفتن ، واستنجاد القبائل والمدن بأهل الدلاء ، لما عرفوا هذا التاريخ السياسي الذي ظهر فيه جَلِياً ترددهم ، وضعف سطوتهم ، وقلة جرأتهم على الاستيلاء على الحكم بالعنف والقوة ، والسيطرة على جميع أجزاء المغرب الممزق

---

(1) أنظر ذلك مفصلا في الاستقصا ج 7

وإذا كان الكثير من المحن والشدائد التي قاسي منها مغرب القرن الحادي عشر يمكن أن تفسر تفسيراً يرجع إلى صميم الطبيعة الديمقراطية الفوضوية للشعب المغربي ، وللمتاعب الاقتصادية والاجتماعية في تلك الفترة ، فإن هذا لا يجد تعليلا عند اليوسي إلا في عيوب الرئاسة . ولقد برز العلويون إلى الميدان على أساس الدفاع عن وحدة المغرب وعن استقلاله وحمايته من الاحتلال الأجنبي ، ويظهر اليوسي مقتنعاً بهذا الواقع ظاهرياً ، ولكن يبقى متوجساً ، ونراه يعود في كتابه « المحاضرات » (1) إلى شروط الخلافة ، وكيفية امتحان النفس للتأكد من ميولاتها عندما تسعى للرياسة ، يلخص فيها نظرتهالسلفية إلى الحكم

ولقد قامت بين اليوسي وبين المولى الرشيد علاقة تتسم بالاحترام والولاء من طرف اليوسي ، والإكرام والإجلال من طرف المولى الرشيد ، نقله هذا الأخير إلى فاس للتدريس فأقبل اليوسي عليه « بنية صالحة » (2) يقول في رسالة « جواب الكتاب » : « ... ووجه ذلك أني كنت اذ ذاك في شباب وصحة ، قوياً على التدريس ، وكنت في المدينة لا حرث ولا معاش ، فعلمت أن لي حقًّا في بيت المال ، بما يجري الله على يدي من النفع مع وجود الحاجة » (3)

وكان الرشيد مشتغلا بإعادة وحدة المغرب جل المدة القصيرة التي تحمل فيها مسؤلية البلاد . فلم تظهر بعدُ الخطوط الرئيسية التي توضح اتجاهه في الحكم ورعاية مصالح الأمة . وكان يحب العلماء ومجالسهم ويكرمهم ويعظمهم ، ويكرم اليوسي كواحد منهم ، له منزلة خاصة عنده . اقترح عليه القضاء والفتوى فرفض اليوسي ذلك ، فسكت عنه الرشيد ، ولم يظهر أي تجبر أو تعسف ، ولم يتخل اليوسي عن وفائه للزاوية الدلائية ، ورثاها بقصيدة سارت بها الركبان دون أن يلحقه الرشيد بسوء ، بل احترم فيه هذا الوفاء ، ولم يخالجه شك في حسن طوية العالم ، ولا يوقر في نفس الرشيد إمساك اليوسي عن مدحه ، على الأقل لانقاذه البلاد من شرور الحرب الأهلية وإعادة توحيدها . فيظهر جلياً أن اليوسي

---

(1) ص 95 طبعة حجرية
(2) أنظر رسالة « جواب الكتاب » ص 169
(3) أنظر رسالة « جواب الكتاب » ص 210

والطبقة المتنورة من العلماء والفقهاء في عصر الرشيد كانوا على درجة من الحرية في اتخاذ مواقفهم.

وسوف نجد اليوسي دائما يرفض وبكل قوة كل خضوع سياسي يفقده حريته الشخصية ، واستقلاله الفكري . فهو على كل حال لم يوفق كما وفق غيره من أدباء العصر ، بين استقلال العالم وانكبابه على مهمة نشر العلم . والخضوع السياسي الذي ينسلب الفرد كل اختيار . وهو قد صرح بذلك في كل رسائله خصوصاً « جواب الكتاب »

وعندما اختفى الرشيد من المسرح السياسي ، رجع اليوسي لمسقط رأسه بالبادية مبتعداً بنفسه عن الفتن التي اندلعت آنذاك ، ولكنه لم يتخل عن الدور الذي يجب في نظره على علماء المسلمين أن يلعبوه في التوجيه والنصح للإمام ، والتشبع بروح المسؤولية القائمة على العقيدة الإسلامية.

وقد جرت العادة وتواترت أن يُستَغل الدين كأداة لإخضاع المجتمع ، ولمساندة النظام القائم كيفما كانت حقيقته ، وهذا هو المفهوم الذي شذ عنه اليوسي. ولم يستسغ السلطان الجديد هذا الشذوذ ، فأصبحت معاملته للرجل تتسم بالكثير من الريبة والشك ، سيما وأن القبائل البربرية التي ينتمي إليها اليوسي لم تلبث أن شقت عصا الطاعة هي الأخرى ، بعد مراكش وفاس والسوس

وتصدى العالم في رسالته التي عرفت بـ « براءة اليوسي » ليلفت نظر المولى إسماعيل إلى الأسباب الحقيقية لهذه الإنتفاضات ، وقبل ذلك في رسالة « ندب الملوك للعدل » دعاه إلى التشبه بالخلفاء الراشدين الذين كانوا يرغبون في النصح ويطلبونه ، وأن علماء زمانهم لما عرفوا منهم ذلك ، أخلصوا لهم التوجيه مشكورين . ويزيد أنه لما انقلب الأمر ملكاً ، وصار البطش والخوف والغضب لغير الله ، انكمش العلماء وخافوا على أنفسهم ، ثم يختم رسالته بحمد الله على أنه هو في دولة سلطان هاشمي علوي فاطمي ، يستمع للحق ويطلبه ولا يأنف عنه ، ولا يستفزه كبرياء ولا أشر ولا بطر . وبعد هذا التمهيد في الرسالة الأولى « ندب الملوك للعدل » يتعرض لما يؤاخذ به حكومة المولى اسماعيل في جرأة وصراحة وشجاعة في الرسالة الثانية « براءة اليوسي » فيوضح المشاكل المزمنة التي

عانى منها المغرب طويلا وهي : **الفوض في الشؤون المالية للدولة . الاختلال الإداري . انعدام وسائل الحماية والدفاع القائمة على التعبئة الشعبية العامة**

كل هذا ينجم عنه كثرة الفتن الدموية . والانتفاضات . وفقدان الجو الاقتصادي الصالح لتجمع الثروة وتفريقها تفريقاً عادلا . لإشاعة الرفاهية والتقدم الاجتماعي . ففي هذه الرسالة يحمل اليوسي للسلطان مسؤلية ظلم الجباة والولاة المتسلطين على الرعية : « ... فأكلوا اللحم وشربوا الدم . وامتشوا العظم . وامتصوا المخ . ولم يتركوا للناس ديناً ولا دنيا » في أن عليه كفهم واستبدالهم ويحذره من أن الجور لا يثبت معه الملك . ولا يفوته في هذه الرسالة أيضاً الإشارة إلى أن على السلطان الوقوف عند حدود الله . إذا أراد لعماله أن يقفوا عندها . كما لوح لما يحل وما لا يحل للسلطان أخذه من بيت المال من خلال أمثلة من سيرة الخلفاء الراشدين . رغم أنه يعلم مدى خطورة الخوض في مثل هذه المواضيع مع سلطان تتقى بوادره وتخشى غائلته . ومع ذلك نراه يقول : « وأما التعرض لما يستحقه صاحب الأمر من بيوت المال . وما يكون له أن يأخذه من الناس . وما يكون له استحقاق المرتبة (1) من الأوصاف والشروط . والفرق بين الخلافة المعتبرة شرعاً والتغلب . فهذا أمر خطير متعذر . لا يستطاع ذكره . ولا الحوم بساحته . فقد ذهب الحديث عنه منذ الخلفاء الراشدين . فإنهم رضي الله عنهم قد قاموا في هذا الأمر لله تعالى . واتخذوه عبادة » (2)

ثم هو يؤاخذ السلطان مؤاخذة شديدة على سياسة تجريد القبائل من الخيل والسلاح خصوصاً في الثغور التي عليها أن تصد هجمات العدو الأجنبي المتربص بالشواطئ المغربية . وهو في هذه المؤاخذة لا يتراجع أمام مقارنة ما كانت عليه الأمور أيام الرشيد . وما آلت إليه في حكم المولى إسماعيل من تأخر وتخاذل يقول : « وقد حضرت بمدينة تطاوين أيام مولانا الرشيد — رحمه الله تعالى —

---

(1) مرتبة صاحب الأمر الخليفة أو السلطان

(2) رسالة « براءة اليوسي »

إذا سمعوا الصريخ تهتز الأرض خيلا ورماة . وقد بلغني اليوم أنهم سمعوا صريخاً من جانب البحر ذات يوم فخرجوا يسعون على أرجلهم بأيديهم العصي والمقاليع . وهذا وهن في الدين وعذر على المسلمين . وإنما جاءهم الضعف من المغارم الثقيلة . وتكليفهم الحركات . وإعطائهم العدة كسائر الناس ... » (1)

ولا يخفى ما في هذه اللهجة من حِدَّةٍ . وَتَحَدٍّ للميول الاستبدادية التي عرف بها المولى إسماعيل . ولكن اليوسي يزيد فيلح على السلطان أن التوفيق في اتجاهاته لا يتأتى إلا بمبدإ الشورى الذي اعتبره الفقهاء من الأصول الشرعية . وجعلوه فرضاً على من ولي أمر المسلمين . بل إن منهم من اعتبر تركها من موجبات العزل (2) إذ أن الأمر بالشورى في الإسلام قرر كأصل عام لا يقبل التبديل . بمقتضى الكتاب . وترك للأمة الاسلامية أمر البحث عن وسائل التنظيم والتطبيق.

ولتحقيق الشورى الإسلامية يجب على المواطنين أن يهتموا بشؤون الأمة . ويسايروا تطورات الأحوال فيها . ويعبروا عن رأيهم في كل ما يعرض لهم من الشؤون . ولا يكتمون المشورة متى طلبت منهم . بل يجب إبداؤها خالصة لله ولرسوله ولعامة المسلمين . مجردة عن الأهواء الشخصية . واليوسي يرى أن أولى الناس بذلك : العلماء . أي الطبقة المتنورة لأنهم : « حملة الكتاب والسنة والأمناء عليهما » ولأنهم : « في أيديهم أمر الشريعة ونهيها فيجب اتباعهم » (3)

ويلح اليوسي على ضرورة استشارة العلماء في رسالة « براءة اليوسي » فينصح السلطان قائلا : « فعلى سيدنا أن يقتدي بهؤلاء الفضلاء . ولا يقتدي بأهل الأهواء . ويسأل من معه من الفقهاء الكفاة كسيدي محمد بن الحسن (4) وسيدي أحمد بن سعيد (5) وغيرهما من العلماء العاملين الذين يتقون الله . ولا يخافون في الله لومة لائم . فما أمروه به مما ذكرناه ومما لم نذكره فعله . وما

---

(1) أنظر رسالة « براءة اليوسي »
(2) أنظر تفسير القرطبي ج 249/4
(3) أنظر رسالة « جواب الكتاب » ص 130
(4) أنظر الترجمة في حواشي المتن
(5) أنظر الترجمة في حواشي المتن

نهوه عنه انتهى » (1)

على أن اليوسي ولو أنه طرح مبدأ الشورى ونصح به سلطان المسلمين . لا يلبث أن يعترف أن واقع نظام الحكم في هذه العصور التي طغت عليها الشهوة . والغضب لغير الله والصولة على أعراض الناس ودمائهم وأموالهم بغير الحق . لا يُمكن مَنْ تصدى للمشورة والنصح أن يأمن مغبة نصحه ومشورته : « فانخنس العلماء وهربوا بأنفسهم » (2)

— العلماء ودورهم في الأمة :

ينطلق اليوسي من الفكرة أن العلماء هم « أهل الحل والعقد » وأن « العلماء ورثة الأنبياء ». وجعلهم هم الذين تجب لهم الطاعة . إذ أن تأويل الآية : « وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم » (3) ذهب كثير من المفسرين . واليوسي يحدو حدوهم إلى أن أولي الأمر هم العلماء . لأن في أيديهم أمر الشريعة ونهيها وهم حملتها . وهم خصوصاً الأمناء عليها . لا تنعقد الخلافة شرعاً إلا ببيعتهم . وهم خواص الطبقة العليا في الأمة . الذين أمر الله نبيه بمشاورتهم في الأمر . والذين لهم شرعاً حق الاحتساب والسيطرة على الإمام والعمال لأنهم رؤساء الأمة ووكلاء العامة (4).

فإذا تقرر هذا . واليوسي يدعمه بالنصوص من الكتاب والسنة . تتبين المسؤولية الخطيرة التي يضعها اليوسي على عاتق العلماء . والدور الفعال والحيوي الذي يفرضه عليهم علمهم وتقواهم . فهم يقومون مقام مجلس النواب في الحكومات الديمقراطية . وإذا دققنا النظر في أطوار الحكم في البلاد الإسلامية من عهد الرسالة إلى الآن . نجد ترقيها وانحطاطها تابعين لقوة أو ضعف احتساب « أهل الحل والعقد » ولدرجة اشتراكهم في تدبير شؤون الأمة . ونجد الصلاح والفساد دائرين مع سنة الاستشارة أو الاستقلال في الرأي.

---

(1) أنظر رسالة « براءة اليوسي »

(2) « ندب الملوك للعدل »

(3) الآية 58 سورة النساء . مدنية

(4) أنظر رسالة « جواب الكتاب » الدر المنضد ورقة 218 و . المنزع اللطيف ص 83

ولكي يكون دورهم هذا فعالا وحقيقياً وذا جدوى . يضيف اليوسي أنهم إذا اعترف لهم بالعلم والصلاح وانقياد الناس لهم . لزم أن لا ينكر عليهم إلا من هو مثلهم . إذ أن الجمع بين الاعتراف لهم بالعلم والثقة . وثبوت حق الناس عليهم . ثم الإنكار عليهم فيما يقولون وما يفعلون جمع بين متنافيين.ولاشك أن اليوسي في هذه الملاحظة يلوح لموقف المولى إسماعيل منه في غالب شأنه معه.

وبعمق كبير يفسر اليوسي (1) كيف أن صحبة الملوك كثيراً ما تضر بالعالم ولا تنتفع بعمله الأمة . بل تنكره وتعتبره طالب دنيا . وغير مأمون . لأنه في مثل هذا الوضع . يتحبب ويتقرب . ويساعد ويساعف في كل قول وفعل . لأن الغالب على الأمراء ميلهم لمن يوافق أهواءهم من الذين يحرفون أحكام الشريعة ابتغاء مرضاتهم ... ذلك لأن استبداد الأمراء وكبرياءهم تمنعهم من الميل إلى العلماء العاملين . الذين لا يخلون من غلطة وثبات كلما انتهكت حرمات الدين الحنيف وبالتالي حقوق الجماعة.

ويجمل هنا أن نذكر شهادة المولى إسماعيل في علماء عصره . في مجلس ضمه مع بعض المقربين إليه قال : علماء الوقت على أربعة أقسام : قسم لا يخاف إلا من الله ولا يخاف منا . وقسم يخاف من الله ومنا . وقسم يخاف منا ولا يخاف الله . وقسم لا يخاف من الله ولا منا . ومَثَّلَ للقسم الأول باليوسي. (2).

ولا يفوت أديبنا أن يحذر من مدعي العلم والصلاح . أصحاب البهرج الزائف . وطلاب المناصب الذين يكتفون بِبُلْغَةٍ من العلم . ويشتغلون بالاحتراف للارتزاق . وهذا مما يفسد العلم . ويقلل أهله . ويجعل الجهال الطامعين يستأثرون بمزايا العلماء العاملين . ثم يسترون جبنهم بجعلهم التحدث في الأمور العامة والخوض فيها من الاشتغال بما لا يعني . بل ربما اعتبروه من الغيبة والسعي بالفساد.

---

(1) نفس المرجع ص 130
(2) أنظر التقاط الدرر ص 64

ثم هو يؤكد بالتالي على ضرورة رفع الجهل (1) واعتبره الجهاد الثاني بل أهم الجهادين ، وأن الجهل إذا تسلط : « لم تبق عقيدة صحيحة ، ولا إيمان ولا عمل صالح ، وهذا هو الهلاك الأبدي » (2) وحث المسؤول عن الأمة على نشر التعليم ، وحدد له وسائل تحريكه وتشجيعه ، ومعايير مزاولته حتى يصبح في خدمة الفرد والمجتمع ، لا مطية للجاه والسمنعة ، والحظوة والشهرة (3)

— الدفاع عن مصالح الأمة المادية والمعنوية :

من غايات تحرير وجدان المسلم ، شعوره بالحرية والمساواة ، ومن فروع الحرية وتساوى الحقوق ، محاسبة الحكام باعتبار أنهم وكلاء ، وعدم الرهبة في المطالبة وبذل النصيحة.

واليوسي ينبه السلطان لحقوق الأمة التي ضاعت ، ويحذره الاغترار بالبطانة النفعية التي : « تزين له الوقت ، فإن كثيراً من الدائرين به طلاب الدنيا ، ولا يتقون الله ، ولا يتحفظون من المداهنة والنفاق والكذب » (4)

ويركز مفكرنا دفاعه عن حقوق الأمة بالخصوص على الجباية ، وظلم الولاة والجهاد ، وإذا تمعنا في هذه الأمور الثلاثة نجدها من أهم الأعمدة التي برعايتها تقوم الأمم ، وبضياعها تضمحل وينحط أفرادها.

ففي سياسة المال يسير الإسلام على هدى نظريته العامة وهي تحقيق معنى العبودية لله وحده ، بأن يخضع تداول المال لشرع الله ، وهذا الشرع يحقق مصلحة الفرد ، ويحقق مصلحة الجماعة ، ويقف بين ذلك قِواماً لا يضر الفردَ ولا يضر الجماعة .

والجباية أو الزكاة أصلا هو ما يفرضه الإمام كحق للمال بحق التشريع ، بقدر معين معلوم له ضوابطه ، ينفق فيما حدده هذا التشريع من مصالح ، إذ

---

(1) أنظر « جواب الكتاب »
(2) نفس المرجع
(3) نفس المرجع
(4) « براءة اليوسي »

أن الإنفاق كذلك له ضوابط ، واليوسي يؤكد على هذه الصبغة عندما يقول : « جمع المال في حق وتفريقه في حقه » وهو يعتبر هذا من حقوق الإمام وواجبه في آن واحد . وهذا يذكر بموقف عمر بن الخطاب عند استخلافه عندما ألح هو الآخر على هذه الناحية الأساسية في دور الحاكم عندما قال في خطبته الثانية : « ... لكم عَلَيَّ ألاَّ أجتبي شيئاً من خراجكم ، ولا ما أفاء الله عليكم إلَّا من وجهه ، ولكم علي إذا وقع في يدي ألا يخرج منها إلا في حقه ... »

ويؤكد اليوسي في تحليله أن هذا المسلك هو السبيل القويم لتثبيت دعائم الحكم ، ومن تنكس عن هذا الطريق فإنما يورث أحقاد النفوس ، وتغير القلوب ، وهذا إنما يجر إلى فساد الرعية بأن تتهاون النفوس ، وتتهافت وتتضاءل قيمهم الذاتية في نظر أنفسهم ، فتهون عليهم كراماتهم أمام سطوة المال ، ويصبحون عبيداً لمتاع الدنيا التي فقدوها ، وفقدوا دينهم وكرامتهم معها.

نعم ، للحاكم في بعض الظروف أن يتجاوز المال المشروع إلى ضرائب أخرى يتحقق بها التعادل والتوازن ، وتزول بها الأحقاد والضغائن ، وترتفع بها عن الأمة مضار الترف ومضار الشظف ، ولكن بدون أن يُخِلّ بنص ولا بقاعدة أساسية ، فليس له أن يُحْفِيَ الناس فيأخذ كل مالهم ويدعهم فقراء ، أو يجعل موارد رزقهم كلها في يديه يستدل أعناقهم بها . إنما الحاكم في أمر الأموال بمثابة الوصي أو الوكيل يأخذ من هنا في حقه ويصرف هنا في حقه ، على مستحقه ، حسب الشرع وفي مصالح المسلمين العامة ، والمصالح المرسلة ، وليس له إلا ما لغيره من الأفراد الذين لهم الحق في بيت المال.

ولا يفوت اليوسي أن ينبه الإمام إلى ما للأموال من لصوق بالنفس ، فالذي يأخذها منها بالجور والظلم هو هدف للنقمة ، ويكاد صنيعه هذا يضرم الفتن ويشعل عليه نار الثورات.

ومن عدل واستقام في سياسة الأموال يكسب الثناء والمحبة ، وهذا ما يجعل العامة تذعن وتسلس قيادها ، ثقة منها بعدل الإمام وإنصافه... وهذا الإمام العادل المنصف مسؤول عن وُلَاتِه أيضا ومحاسبتهم ، فعدلهم من عدله وجورهم من جوره.

وبعض التأمل في أحوال البلاد في تلك الفترة يؤكد ما انتصب اليوسي لفضحه من تعسف الولاة ومن تسخيرهم للرعية وضغطهم عليها وجعلها ترزح تحت وطأة الجبايات الفاحشة في محاولات لتثبيت الأمن. فالعدل والإنصاف اللذين أمر بهما الإسلام هي التي تدعو الرعية للطاعة إذا ما التزم الحكام التقيد بها قولا وعملا.

أما القضية الثالثة التي انتصب اليوسي للدفاع عنها فهي قضية الجهاد والمراد بالجهاد عند اليوسي، مقاومة زحف العدو الرابض في مختلف الجهات بالمغرب خصوصا الثغور، والمتربص للانقضاض في كل آونة عندما يستأنس الضعف والوهن. والكتب التي أرخت لبداية ملك المولى إسماعيل تذكر أن القبائل كانت تجرد من السلاح والخيل، وقد أضر هذا الفعل كثيراً بالبلاد، لأن هذا في نظر اليوسي أضعف حركة المقاومة والدفاع عن حوزة الوطن التي نظمها المواطنون فيما بينهم حقبة من الزمن منذ اختلال السلطة المركزية وقبل ذلك. وكانت هذه المقاومة منظمة خصوصا بين قبائل المناطق المتاخمة للشواطئ والحدود الشرقية المغربية.

والإسلام كما يقرر اليوسي جعل الجهاد فرض عين على من يلي العدو، وإلا إذا حميت أطراف البلاد من طرف الدولة، وسدت الثغور فيسقط فرض الجهاد ويبقى نافلة، وليس ذلك شأن ما قام اليوسي يحذر منه. وهذا يظهر الغيرة التي لم تخل منها نفس المغربي واستماتته التي تدفعه إلى الدفاع عن حوزته حتى وإن كان بلا عدة.

وليس مجهولا ما قام به المجاهد العياشي قبل هذا بقليل في سبيل الدفاع عن تراب المغرب واستقلاله، وما كان له من رصيد سياسي ينم عنه الاجلال والانصياع الذي كان يحظى به من طرف القبائل.

وما يذكره في رسالة «براءة اليوسي» يجسم ما كان يعانيه المغاربة من الضغط والانحباس يضطرهم عملياً إلى الانغمار في ثورات عنيفة ويائسة أو إلى الفرار إلى الجبال يقول اليوسي: «ولم تزل الجبال معاقل اللائذين بها من

القهر .. » (1) ولكن السلطان إسماعيل سرعان ما يتلافى هذا التقصير ، ويتم في آخر حياة اليوسي استرداد العرائش والمهدية وغيرها من الثغور . عندما توفر جو من الاستقرار النسبي في البلاد ، وتمكن السلطان من إخماد فتن القبائل المشاغبة التي كانت ثوراتها تقوم في أغلب الأحيان على الغزو الخاطف والتخريب والارتحال.

— محاربة البدعة والجهل وتشويه تعاليم الدين :

سبق لليوسي أن أشار في الرسالة المطولة لإسماعيل إلى وجوب الاعتناء بالتعليم ، ورفع الجهالة عن الناس . وخصوصا بالبادية يقول : « ... ولكن لا يختص ذلك بالحاضرة ، فإن أهل البادية أحوج — فالأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله — فالاعتناء بهم أهم ، وأن منهم من يكون التعليم في حقه كأنه تبليغ الدعوة من أهلها... » (2)

هكذا فهم اليوسي رسالة العالم ، وهذا ما سعَى إلى تحقيقه عندما خرج إلى البادية للاستقرار بها بعد حصار فاس . فهو على بينة بأحوال البادية عن معايشة من خلال أسفاره ، وهو يدرك مدى انتشار البدعة والضلال والفساد نتيجة لهذا الجهل الفادح الذي جعل التعليم في حقهم بمثابة تبليغ دعوة الإسلام وقد حاول جهده المساهمة في رفع ذلك ، فكان يعلم العلم . ويبسط قواعد الإسلام ويشرحها ، ويفتي أينما حل وارتحل ، خصوصا عند استقراره « بخلفون » بل ربما أطعم طلبته وكساهم مع الاشتغال بحرثه كبقية الناس والعيش كما يعيشون (3)

وفي رسالتي « طائفة العكاكزة » و « نازلة العرائش » بالخصوص نراه ينتصب لفضح هذا الجهل ، ويشجب البدعة ، ويدين كل الشبهات التي تمس بروح الدين وصفائه ولاشك أن مدعي التصوف الذين عرفهم المغرب في بعض مناطقه ، هؤلاء الذين خلت قلوبهم من الدين كلية ، يتحايلون على ضعفاء

---

(1) أنظر رسالة « جواب الكتاب »
(2) أنظر المرجع السابق
(3) أنظر رسالة « جواب الكتاب »

العقول للوصول إلى كسب الدنيا ، وقد وجدوا مرتعاً خصباً في البادية المغربية ، التي أصبح فيها لكل ناعق أتباع ، جلهم من المحتالين الجاهلين بتعاليم الدين ، فاختل الأمر واختلط على الناس التمييز واشتغلوا بالهراء والافتراء ، فكان من ذلك أن آمن الاتباع بالأشياخ المدعين ، وألهوهم حتى نسيت الشريعة وتنكر إلى شارعها عليه السلام : فهؤلاء أصحاب الحقيقة وأولائك أصحاب الشريعة ، وهناك الفرقة التي تؤمن « بأحمد المنزول » ترى فيه إلاها الخ . وانتهض اليوسي لمحاربة هذا الانحراف الخطير ، وهو الذي أخذ العلم على أنه رسالة وأمانة ، قوامها الجهاد المتصل من أجل الأخذ بالمفاهيم الأصيلة في الكتاب والسنة . ومن ثم كان حرباً على الشعوذة ، والعقلية الخرافية ، والاستغلال والارتزاق بالدين تمشيًّا مع فهمه الحي الواعي لحقيقة الإسلام ، ولتبعاته ومسؤلياته كعالم مسلم.

فكان اليوسي عالماً متميزاً عن أولئك الذين ركنوا إلى الدعة والاستسلام وابتعدوا عن المسؤولية في تحرير الفرد ، التي تضعها على عاتقهم رسالة العلم ، ورسالة الدين ، وانغمسوا في التملق والوضاعة والانخذال ، وكان اليوسي في هذا قد ربط نفسه بسكان البادية وجماهيرها وطلبتها فظل مركز إشعاع إسلامي طوال انقطاعه بالبادية ومرجع القبيلة والمنطقة.

2) التصـــوف

التصوف خليق أن يصحب كل نزعة شريفة من النزعات الوجدانية . أساسها الصدق والإخلاص ، بحيث لا تملك النفس أن تنصرف عما آمنت به واطمأنت إليه. واليوسي التلميذ الروحي للشيخ ابن ناصر كان متصوفا في حبه لآل زاوية الدلاء ، وعندما فجعه الدهر في هذا الحب ، كشف له الولاء والوفاء عن معين الحب الكبير ، الذي بث جذوره فيه منذ سنين شيخ الزاوية الناصرية .

فهو إذن عرف التصوف الموصول بالقلب والروح ، والمطبوع بالصدق والعمق ، ولم يعرف أبدا ذلك التصوف الموصول بالإشارات والرسوم والتقاليد . فتصوفه هو الصدق في العواطف الدينية . والتعمق فيها بقصد النفوذ للجوهر.

والحق أن شخصية اليوسي الصوفية قد اشتركت في تكوينها عدة عوامل : **أولا** البيئة الخاصة (1) والتربية الدينية الأولى ، واتصال روحه بكتب القوم في سن مبكرة بواسطة معلم الكتاب القرآني : « ... ومن أحسن ما استفدته على يده أنه كان عنده مجموع فيه « المورد العذب » للجوزي « وبحر الدموع » له وكنت آخذه وأنظر فيه فأطالع حكاية من فيه من الصالحين كأويس القرني ، وإبراهيم بن أدهم ، وسيدي ابراهيم الخواص وغيرهم نفعنا الله ببركتهم آمين ، فانتقشت تلك المآثر في عقلي ، ووقعت حلاوتها في قلبي فكان ذلك سبباً وبذراً لما أنعم به الله تعالى عليَّ من الإيمان بالطريقة ومحبة أهلها والتسليم لهم ... » (2).

ثانيا: بعد هذا التفتح المبكر على حياة الزهاد والصالحين يأتي مباشرة اتصاله بالطريقة الشاذلية بواسطة زاهد عابد هو محمد بن ناصر شيخ زاوية تمكَروت الذي يقول فيه اليوسي عندما يعدد شيوخه في فهرسته: « .. ومنهم أستاذنا

---

(1) أنظر « المحاضرات » ص 29 يقول « ... فاعلم أن أبي مع كونه رجلا أميا كان رجلا متدينا محالطا لأهل الخير محبا للصالحين ... »

(2) أنظر « الفهرست » ص 130

الإمام وقدوتنا الهمام علم الأعلام ، وشيخ مشايخ الإسلام ، قدوة الطريقة ، الجامع بين الشريعة والحقيقة ، سيدي محمد بن ناصر الدرعي... سمعت مواعظه ووصاياه ، وأخذت عليه عهد الشاذلية تبركاً... وانتفعت به ظاهراً وباطناً». (1)

وتأثير ابن ناصر في حياة اليوسي تأثير بارز ، تحدث عنه كلما سنحت له فرصة بذلك ، كما اتّصل اليوسي بالطريقة الشاذلية (2) أيضا طيلة إقامته بالزاوية الدلائية التي عُرِفت أيضاً بانتمائها لهذه الطريقة الصوفية عن طريق الصوفيين الكبيرين الشيخ محمد الجزولي (3) والشيخ أحمد زروق. (4)

أما العامل الثالث فهو عامل نفسي محض يرجع إلى الإرهاف والحساسية في نفسية اليوسي ، فقد كان الشعور بمأساة الدلاء هو المحرك الأول الذي زعزع تلك العاطفة الصوفية الجياشة وأخرجها للوجود. ولم تضطرب النفس الإنسانية قط بالشعور الذي لا يطاق إلا التمست لها ملاذاً وهذا الملاذ بالنسبة لليوسي هو الحب الشريف.

والاتجاه الصوفي لليوسي كما يبدو من الرسائل ، يقوم على مبادئ سنية صافية لا تشوبها شائبة ، ويتلخص أولا في تصحيح العقيدة ، ونراه يلح على هذا المبدأ في مقدمة كل رسائله إلى المريدين ، ثم إقامة التكاليف الشرعية مع الاجتهاد في جعلها تتسم بالإخلاص والصدق والبعد عن الرياء ، ثم بعد هذا يأتي البحث عن المعرفة من خلال التربية ومختلف أنواع الرياضات ، والمجاهدات النفسية. وهذا كله مستقى من الكتاب والسنة.

وقد لخص هو تعريف الطريق الصوفية فقال : « ... العمل لله بما يرضى من حيث يرضى » وجعلها « ... هي ثمرة العلم ولبابه ، وأحد ركني الدين ، فإن

---

(1) أنظر « الفهرست » لليوسي ص

(1) أنظر « الفهرست » لليوسي ص

(2) طريقة تصوف تنتسب إلى نور الدين ابن الحسن الشاذلي (592هـ/655هـ) ومتصلة بالإمام أبي القاسم الجنيد (277هـ). منتشرة بالمغرب

(3) شيخ الطائفة الجزولية ومؤلف كتاب دلائل الخيرات. كان برباط آسفي أولا ثم انتقل إلى « أفوغال » حيث مات (870هـ) نقله السعديون إلى ضريحه الحالي بمراكش.

(4) أنظر ترجمته في حواشي المتن.

الشريعة لها ظاهر وهو للفقهاء وباطن وهو للصوفية . وإنما يكمل الأمر بهما معاً ولهذا يقال : من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق . ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق . ومن جمع بينهما فقد تحقق . فمن أنكر هذا ... فقد أنكسر الشريعة...»(1) .

فالتصوف عنده يتكون من عناصر ثلاثة : العقائد . والأحكام الشرعية . والآداب . وهو يوصي المريد السالك أن يقلد الفقهاء في الأحكام الشرعية والمتكلمين من أهل السنة في العقائد . وأن لا يقلد في الآداب وصلاح القلب إلا أرباب القلوب (2).

وأرباب القلوب . شيوخ الصوفية . هم أيضا في مفهوم اليوسي للتصوف . لا يخرجون عن أحوال سيد أرباب القلوب وقدوة العارفين محمد رسول الله ﷺ . ويظهر ذلك عندما يتحدث في فهرسته عن أشياخه في التعليم ويبين أقسام الشيخ في الدين فيقسمه إلى ثلاثة : شيخ تعليم . وشيخ تربية . وشيخ ترقية . وبعد تحديد مدلول كل منها قال : « واعلم أن هذه الأحوال الثلاثة . مأخوذة من حال النبي ﷺ فهو أصلها لأنه ﷺ جمعها على أكمل وجه : **أما التعليم** فواضح وهو ظاهر الشريعة . وأصل البعثة . وأما **التربية** فقد كان ﷺ يربي أصحابه بالأذكار المختلفة والأدعية المختلفة والوصايا المختلفة كلا بما يصلح به . فيقول للواحد لا تغضب . ويقول لآخر أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله... وأما **الترقية** فواضحة أيضا فقد كان الرجل يكون فاجرا . وبنفس مشاهدة طلعته الكريمة يخشع ويطمئن بالإيمان ويتنور قلبه ... » (3)

وإني في هذه المقدمة الدراسية للرسائل . لا أدعي أنني سأحيط إحاطة تامة بتصوف اليوسي وخصائصه ومميزاته . فهذا يحتاج إلى دراسة مستفيضة مستقلة . فتصوف اليوسي في الرسائل هو لمحة فقط من تصوف متشعب الجذور . محلق في أجواء الفكر والروح . لابد للحكم عليه من دراسة علمية لمؤلفات اليوسي .

---

(1) أنظر رسالة « جواب الكتاب »

(2) أنظر الرسالة إلى « أهل كارت »

(3) أنظر فهرست اليوسي

خصوصاً : « مشرب العام والخاص من كلمة الإخلاص » . وبعض فصول « المحاضرات » و « القانون » و « الحاشية على الكبرى » لتوضيح فلسفته الصوفية والكلامية التي تمثل مرحلة عامة من الفكر الإسلامي في المغرب ..

نعود إلى تصوف الرسائل فنلاحظ أن هذه الرسائل . بحكم طابعها وأنها مرسلة إلى إخوة في الطريق . وإلى مريدين مبتدئين . أو «مقدمين» . وبحكم تداولها . فهي تنتقل بين أيدي الفقهاء ومتوسطي التعليم . وتقرأ على العوام من المريدين . وتُشرح لهم . فهي إنما تعكس من تصوف اليوسي جانبه الأدبي والخلقي فهي تخاطب المريد . وهدفها تصحيح عقيدته . واستنهاضه للقيام بالتكاليف الشرعية . ثم حثّه بوسائل الصوفية المعروفة على تجريد النفس من رذائلها وروعونتها ليكمل لها الصفاء . وتتهيأ للسمو على ماديتها . والرسائل كذلك لا تخلو من الكلام المستفيض عن المعاناة الروحية . والمجاهدات النفسية التي يسلكها طلاب المعرفة . ولكن اليوسي لا يقدم لنا فيها تفسيره وتصوره للكون . ومكانة الإنسان فيه . ولعل هذا راجع كما قلت آنفا إلى طابع الرسالة

ورسائل اليوسي إلى أصدقائه وإخوانه ومريديه تختلف عن رسائل الشيوخ إلى أتباعهم . والتي تتناول بالخصوص تلقين الأوراد وعددها . والأحزاب وأوقاتها . والاستغاثات . إنما هو في هذه الرسائل يتعرض للمبادئ الأساسية للتصوف السني والتي منها : تصحيح العقيدة . والتفقه في الدين . وشرح طرق إصلاح القلوب . وتحليل الآداب الصوفية

ويظهر من هذه الرسائل أيضا أنَّ اليوسي يخاطب فيئات مختلفة من المتصوفة يخاطب الأخ العالم الذي قطع بعض مراحل الطريق . ويخاطب الأخ المريد المبتدئ . ويخاطب جمهرة العوام من مريدين وغيرهم ممن يريد معرفة دينه والتفقه فيه . وهو يخاطب كل فئة بما يناسب أحوالها . وما هي مستعدة لفهمه وهضمه وتطبيقه . يخاطب الناس على قدر عقولهم ويأمر أصحابه بذلك . وهذا ضروري للصوفية . وهم لهذا أحوج من غيرهم . لأنهم يعيشون في أودية من المعاني لا يفطن إليها إلا القليل . فاليوسي عندما يتكلم مع جمهور العوام . فكأنما يخوض غمار التوعية الخلقية . والتربية الأساسية الإسلامية : يعلم ويربي .

ويوصي . ويعظ : « عليكم بانتهاج السنة . والاستقامة والاحسان والسماحة والتشاور ». ويحذر « من حب الدنيا والشح (1)... » ثم هو يوضح المبادئ الأولى الإسلامية من علم التوحيد وعلم الفقه . وذلك في قالب مبسط وبدون الدخول في التعقيد . « ... وإنما لم نذكر لكم الأدلة في هذه الرسالة مخافة أن أهول بها على من لا يقدر عليها... » (2)

وهو في توعيته لهذه الطبقة من العوام المريدين لا ينسي أن ينبه إلى الآفات التي تسربت للتصوف في عصره فيقول : « ولا تركنوا إلى البطالة والغرور . كما وقع لأكثر من يتسمى بالفقر في هذا الزمان..... فإنهم سمعوا بذكر النية والمحبة في طريق القوم . فاكتفوا بهذين الإسمين عن المجاهدة التي هي طريق القوم . ولم يعلموا أن النية سرها في العمل . فإذا لم يكن العمل فلا نية . والمحبة إنما امتدحت لاجتذابها المحب إلى اتباع المحبوب والتشبه به . والإنخراط في سلكه . فإذا لم يكن منه شيء من هذا . فمحبته ليس لها كبير فائدة . لأنها ناقصة . قد غلبت عليها محبات أخرى من الشهوات والكسل . فلم يبق لها حكم .. » (3)

وهناك فئة أخرى من العوام توجه لهم اليوسي بالنصح والتربية وهم المسؤولون على خلايا تربية المريدين . وهم ما يسمى « بالمقدمين » وقد خصهم برسالة بعث بها إلى اثنين منهم (4) تفضح الكثير مما يفعله هؤلاء المقدمين في عصره ممن كانوا يعتبرون أنفسهم بمنزلة الولي على بلد يأخذ جبايته ويجمعها إلى من ولاّه . وبيَّن لهم اليوسي أن دورهم هو إرشاد الإخوان والسعي في مصالحهم وفي دينهم...«وإن عليه التواضع فلا يرَى لنفسه قيمة بل يرَى نفسه خديماً للفقراء. ويرى لهم الإحسان في قبوله . ويرى لله المنة في أن جعله أهلا لخدمتهم . وعليه أن ينصح بالرفق . ويُيَسر ولا يُعسِّر ويبشر ولا ينفر . ويصدع بالحق ولا يداهن... » (5)

---

(1) الرسالة إلى قبيلة المزامز
(2) الرسالة إلى أهل ثغر آسي
(3) الرسالة إلى أهل ثغر آسي
(4) الرسالة إلى المقدمين الحاج علي ومعمر
(5) جميع الاستشهادات من الرسالة النصيحة

أما النوع الثاني الذين خاطبهم اليوسي في الرسائل فهم المريدون المبتدئون . « والرسالة النصحية » في أغلبها اتجهت لهم خصوصاً وشرحت كيف أن العبد لا يخلو من أربعة أحوال دينا ودنيا فإنه إما **أن يكون في طاعة** أو **معصية** أو **يكون في نعمة** أو **بلية** ولله تعالى عليه الحق في كل منها ثم يمضي اليوسي في تحليل أحوال النفس وآدابها حسب هذه الأحوال الأربعة . في طرافة وابتكار . ويؤديه هذا التقسيم إلى طرق كل ما يتعلق بالأخلاق الصوفية ولكن بطريقته الخاصة فيتعرض لمفهوم الدنيا ولمقامات الشكر والصبر . والاحتساب .

ثم يصل للمعرفة فيقسمها هي الأخرى أربعة أقسام : معرفة الله ومعرفة النفس . ومعرفة الدنيا ومعرفة الآخرة . ويعطي تحليلا مركزاً طريفاً لهذه المعارف لكي يصل إلى لباب التصوف فيقسم الخلق في الدنيا **ثلاث فرق** : **فرقة** همهم في الدنيا ولا أرب لهم في الآخرة . **وفرقة** همهم أيضا في الدنيا ولكن يريدون الآخرة بالأطماع والأماني . **وفرقة** همهم في الآخرة معرضون عن الدنيا فلا يتلبسون منها إلا بما لابد منه .

وهذه الفرقة الأخيرة هي التي يعنيها المتصوفة بالخاصة أو السالكين وقد قسمها اليوسي مرة أخرى إلى فرقتين : « **قوم** سمعوا بالجنة وما أعد الله فيها من النعم فاشتاقوا إليها واجتهدوا في العبادة توصلا إليها وهؤلاء هم العباد في العرف . **وفرقة** سمعوا بذكر المولى سبحانه فهبت عليهم نسمات الحب ونفحات القرب فصاروا إليه طلباً له ولم يعرجوا على شيء دونه ... » (1)

أما الفئة الأخيرة من الذين خاطبهم اليوسي في الرسائل فهم بعض الإخوان من السالكين الذين تناول معهم بعض الأحوال وبعض المقامات (2) والطريق السليم الى التمكين والوصول (3) بالانحياش إلى الله بالقلب والقالب . وترك العلائق والنوازع والشواغل وزم النفس عن مألوفاتها مع اشتغال القلب بالتفكر في عظمة الله وجلاله حتى تألف النفس التجرد والتفرد . كل ذلك مع الالتجاء

---

(1) الرسالة النصيحة

(2) أنظر الرسالة في التربية الصوفية

(3) أنظر الرسالة في موضوع الغيبة

إلى الله بصدق الافتقار والاضطرار . وتقديم التوكل على الله في الإعانة مع إسقاط الحول والقوة على النفس . وهو في الحديث مع هذه الفئة لا يلبث في آخر كلامه أن يتبرأ من الوصول لتلك المنازل . ويعتبر أن ذلك يعبر عنه من وصل إليه . ومن لم يصل يقول : « وأنا والله قد عبرت عنه ولم أصل إليه .. ولولا إسعاف السائل . مع النظر الى كون الكلام وقع على طريق العلم وإبانة الأشياء . لا طريق المعرفة... » (1)

خاصيات تصوف اليوسي :

— ويبدو لي من هذا التقسيم أن اليوسي في رسائله يقول بمفهومين للتصوف : مفهوم عملي يدعو إلى حياة سليمة وفق المبادئ والأخلاق والآداب الإسلامية السمحة . وهو الذي في متناول جميع من يتسامى إليه بتعاطي أسبابه.

ومفهوم للتصوف بالمعنى الاصطلاحي . للخاصة . وهذا الأخير يشترط له اليوسي الموهبة والاستعداد . فهو ليس بإمكان الجميع ولا هو في متناول كل من أراده . وإنما هو الذوق والفتح الإلهي... وهذه الفئة هي التي تأخذ نفسها بالمجاهدة وأنواع الرياضات للوصول لدرجات الكمال التي تؤهلها للمعرفة الإلهية . وتهيئها لمقام التجلي والمشاهدة... « فإن كانت همته إنما هي العبادة وطلب الجنة . فله فيما يسمع من كتاب الله وحديث رسول الله ﷺ . وفتاوى أهل الدين ومواعيظهم الكفاية فيما يفعل ويترك... وإن نزعت به الهمة إلى معرفة الله والوصول إليه . فهو محتاج غالبا الى التربية على يد شيخ صالح . أو أخ ناصح... ولهم في التربية واستصلاح القلب طرق... » (2)

— وإن كانت هناك ميزة كبرى تطبع هذا الفكر الكبير . فهي النبذ التام للتعصب والتزمت . والنفوذ إلى جوهر الأشياء . والبعد عن الغلو والشطط .

فهو ينكر التصوف الفلسفي الغالي الذي يجر إلى المزالق : القول بوحدة الوجود . والحلول والاتحاد (3) ويرى التصوف هو الموهبة والذوق والفتح قبل

---

(1) المرجع السابق

(2) أنظر الرسالة النصيحة

(3) أنظر ذلك مفصلا في المحاضرات ص 94 طبعة حجرية.

أن يكون اختياراً وتسبُّباً . ولذلك لا نراه يلح على شيء بقدر ما يلح على الصدق والإخلاص في هذا المضمار . يقول : « ليس من شروط السالك أن يتجرد عن الدنيا رأساً . بل أن يوجه قلبه وقالبه إلى الله . يشتغل بما يرضي الله من حيث يرضى . أما التجرد والتسبب فمجالان من أقيم بواحد منهما وقام فيه بالحق الواجب . فلا بأس عليه... » (1)

ثم يؤكد على عدم الاختيار قائلا : « والواجب أن يشتغل بالخدمة والعبادة ويرجو فضل الله تعالى كيف شاء ولا يختار لنفسه حالة دون أخرى ... » (2) وفي هذا يظهر التأثير الكبير لمدرسة الغزالي التي نهل منها أول ما نهل تحت إشراف شيخه ابن ناصر الذي درس له « الإحياء » كما يظهر تأثير المدرسة الشاذلية وتلميذها « ابن عطاء الله » وأقطاب التصوف السني من أمثال الجنيد والبسطامي وزروق وغيرهم .

— فاليوسي يقبل عقليًّا كل ما هو صادر عن صدق وحال خالصة لله . حتى الجذب . ولكن الصادق .. وحتى السماع . ولكن بضابط .. فهو يعتبر أن من المجذوبين من أوصله الله إلى حضرته عناية سابقة منه تعالى لهم . من غير سعي ولا طلب . ولا سلوك ولا تعب ولكن اليوسي ينبه قائلا : « وليس المجذوب الذي ذكرنا كل من ترونه قد ذهب عقله . فقد يذهب عن حمق أو مس جن ، أو وسواس أو نحو ذلك . ولا نصيب له في الطريق ، ولا كل من يتحرك لوارد حب أو خوف أو غير ذلك ولا يضبط نفسه.. » (3)

— أما رأيه في السماع فقد أبدى فيه توسعا يخرجه من دائرة الفقهاء المتشددين ولكنه توسع مشروط . وشروطه الأول : الصدق فاليوسي يقرر أن السماع « .. ليس من فروض الدين ولا من سننه ، وإنما رخصة لأهله عند توفر شرائطه ، بحسب الزمان والمكان والإخوان وبحسب المتعاطيه في نفسه..» (4) فهو

---

(1) أنظر الرسالة النصيحة
(2) أنظر الرسالة النصيحة
(3) الرسالة في السماع ص 428
(4) أنظر المرجع السابق

يعترف أن هناك من الخاصة أهل الذوق السالكين ، المتخلصين من أسر أنفسهم ، « والعارفين الكُمَّل » من يَسْتَرْوِحُونَ به من الأثقال ، ولكن هناك من يتعاطاه من « غير أهله وهو الغالب ولا سيما في هذه الأزمنة نسأل الله العافية ، فيقع كل ذلك إما عن وارد شيطاني ، وإما اختياراً كذباً ودعوى ، والأمر في ذلك مشتبه ... » (1)

وبحثه في هذا الموضوع تميز بالطرافة وعدم التزمت مع التشديد والإنكار على من « ... قصد في باطنه إلى التظاهر بالصلاح والأحوال الشريفة مع الخلو من ذلك ، أو استجلاب حظوظ الدنيا من مال وجاه وغيرها ، وإيهام العوام أن ذلك هو طريق الناس وشأن الصالحين... فكل ذلك حرام فاعله مخدوع ، تجب عليه التوبة من ذلك والإقلاع والإنابة.. » (2)

— والجو الاجتماعي الذي كان يعيشه اليوسي في عصره ، والذي تميز بفشو الادعاء في التصوف (3) والشعوذة ، وادعاء الكرامات وتفاحش عدد الزاويا من جهة ، وبتعالي النكير والإنكار من طرف الفقهاء وغير الفقهاء ، المعتدلين منهم والغلاة ، جعل البلاد تعرف فترة اختلط فيها الحابل بالنابل ، وعمت فيها الفوضى وحصل الاضطراب في المفاهيم والمقاييس ، لانتشار الأدعياء وأتباعهم وكثرة المنكرين وتعدد مشاربهم وأهوائهم ، فحاول اليوسي في كثير من رسائله تقويم وتوضيح مفهوم « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » وتحديد شروطه : « ... أما بحسب المنكِر فهو إن كان من العوام فحسبه الاشتغال بنفسه وتعلم دينه وترك الفضول .. وإن كان من العلماء فإن رأى منكرا مجمعا عليه فلينكر بمقتضى الشريعة ، وليضمر مع ذلك التفويض وحسن الظن .. وإضمار حسن الظن لا

---

(1) أنظر المرجع السابق

(2) أنظر المرجع السابق

(3) يرجع في ذلك إلى كتب العصر كـ « الفتح الوهبي في مناقب الشيخ أبي المواهب مولانا العربي » نزهة الاخوان في مناقب الشيخ سيدي علي بن عبد الرحمان مخطوطة خ ع ر د 390 « الدر المنضد الفاخر » . « المورد الهني بأخبار مولاي عبد السلام الشريف القادري الحسي » مخطوطة الخزانة العامة بالرباط كـ 1234 .

ينافي البغض في الله الذي هو الإيمان ، لأن محط البغض الفعل القبيح وهو المنكَر بعينه لا صاحبه ، بحسب ذاته .. » (1) ثم الأمر بالمعروف على طريق الإرشاد والنصح هو أمر لابد منه لأن الدين النصيحة ، ولكن ذلك مشروط بفقه الناصح ، والمعلم فيما ينصح فيه ويعلم ، وبقبول المنصوح واستماعه.

فالأمر ليس فوضى ، لأن عدم احترام هذه المقاييس ، لا يورث إلاّ « اللجاج والضجاج والفتن والمحن » . وما أقول إن هذا موقف نموذجي يحتذى به ، وإنما يهم أن أنص على هذه « الفاعلية » في حياة رجل يزاوج بين الدنيا والدين : فسلامة الدين أمانة في عنق العالم ، وكذلك أيضا سلامة الصلات بين الناس واستمرار الود والاحترام ، وما فضل الإنسان على غيره إذا انعدمت في مجتمعه محامد الرفق والعطف ، ومذاهب الضبط والكبح ، ومراجع الاحتكام إلى العقل والعدل .

— واليوسي يلح على احترام النسبة ومحبة المنتسبين لله من أهل الطريق ، ولكنه ينبه لأمر آخر في غاية الأهمية ، وهو أن هذا التسليم ليس معناه الرضا عن بعض أحوالهم يقول : « ... وقد يرون من يُقْتَدى به يسلم لأهل النسبة ، ولا ينكر عليهم فيظنون أنه راض لحالتهم فيقتدون بهم ، أو يعترضون عليه لأنه رضي بهم ، وذلك من جهلهم بهذه الحقائق ، وعدم تمييزهم بين مناط التسليم ومناط الرضى ، فإن التسليم إنما هو عدم القدح ، وذلك مطلوب منا حيث لم يظهر المنكر ، فإنا لم نُومَرْ أن ننقب عن قلوب الناس ، ولا أن نتتبع عوراتهم... ثم لا يكون ذلك منا تزكيتهم ولا رضى بحالهم... وإنما هو الستر. وهذا ما لم يظهر المنكر والابتداع ، ويتداعى الفساد ، ولا سيما في الداعية الذي يتبعه الناس... » (2)

ومن علامات الادعاء عند اليوسي بغض العلم ، وبغض أهله وعدم التحفظ على الشعائر الدينية ، وادعاء الكرامات بغير نية ولا استقامة ، وقد رأينا رد فعل

---

(1) الرسالة النصيحة

(2) المرجع السابق

اليوسي... وموقفه تجاه « فرقة العكاكزة » التي أنكر مُدَّعُوها أصول الشريعة ، وادعوا أنهم أصحاب حقيقة ، واستحلوا من المناكر ما تعرض له اليوسي وفضحه ، ورأينا غضبته الشديدة التي كان من نتائجها أن نهض السلطان لحسم الأمر ورد الأمور إلى نصابها . فهو خصم الإباحية ، وخصم أعداء الشريعة اللدود يقول مستنهضاً لإسماعيل : « ... وما زال الخلفاء الراشدون يحمون حمى الدين ، ويغارون على بيضة الإسلام أن تكسر بنزعات المبطلين ، وعلى نور الشريعة أن يغطى بتمويه البطالين ، وعلى مشرب السنة أن يكدر بشفاه الكذابين .. ولما تأله الحلاج ووقع منه ما وقع من الألفاظ لم تعذره الشريعة المطهرة ووقعت فتاوى الفقهاء فيه ، حتى أفتى في نفسه ، فقتل مع اتساع مجال التأويل في أمره وتأصله في الطريقة ». (1)

— ومن خصائص تصوف اليوسي أيضاً التواضع وعدم الاستطالة ، وذلك لإدْراكه العميق لحقيقة المعرفة الممتنعة . فنحن نلاحظ أنه غالباً ما يتبرأ من كونه من أرباب الطريق « ... وها أنذا أشهد الله وملائكته والمؤمنين من عباده ، أني لا أجعل لنفسي مدخلا في هذه الطريقة الفاضلة المشار إليها في هذه الوصية اللهم إلا بمحبتها والإيمان بها ..» (2)

— ويظهر لي أن اليوسي عرف وعاش ذلك التصوف الذي تحدثنا عنه آنفاً ، التصوف العملي الذي يقوم على التطبيق الكلي للتجربة الإسلامية الصرفة ، بأخلاقها وآدابها ، والتي تقوم على النظرية المتعالية التي تقضي بأن الله منفصل عن العالم ، وأن نسبة العالم إليه هي النسبة بين «كن ، فيكون ». عرفه وطبقه بحرارة وشوق وإخلاص .. ولكنه أيضا أحب ذلك المتصوف الآخر تصوف البحث عن المشاهدة .. والقرب الذي يعتبره موهبة وذوق ، والذي يعرفه أصحاب الأحوال والمقامات .. ولكنه لم يقتحم هذا الميدان ، ولم يُعْرَف عن اليوسي انقطاع عن الدنيا ولا خلوة ، ولا اشتغال بالمجاهدات ، ربما لانه هو

---

(1) أنظر رسالة « العكاكزة

(2) الرسالة النصيحة.

نفسه شرط لهذا التصوف صدق الحال ، وخلوص الدافع ، وأولا وأخيرا الاختيار الإلهي .. وهو ربما لم يجد في نفسه ذلك ، لنسمعه يجيب السلطان إسماعيل الذي اتهمه « بتنجيس العلم بتفقرت » (1) يقول « ...هذا ، ونحن لم نشتغل بهذا الفقر الموصوف أيضا ولا وصلنا إليه ولكنا نحبه ونحب أهله .. وإنما نحن مشتغلون بالتعليم جهدنا ، فالطلبة يتعلمون العلم ، ويتفقهون ، والعوام يتعلمون عقائدهم وفرائضهم وسننهم ، والتوبة وشروطها ، وأذكارا يعمرون بها أوقاتهم ، حيث لم يكن عندهم علم يعمرونها به .... » (2)

— وليس من المستبعد أن يكون اليوسي قد أبدى بعض التشوف إلى ذلك الطريق ، فنحن نجد في فهرسته كلاماً ربما يفهم منه ذلك يقول متحدثا عن شيخه ابن ناصر : « .. ثم ذكر ما أنعم الله به عليه من الأزواج والأولاد والأحوال المستقيمة في الدين والدنيا ثم بشرني فقال سيصلح الله لك ذلك كله أو سيعطيكه لأنه أصلحه لي ، أو لأنه أعطانيه ، فسرني ذلك وفهمت من التعليل اشارة إلى إرث معنوي **للحالة كلها** نسأل الله تعالى أن يحقق ذلك.. » (3).

نعم كان لليوسي زاوية وكان له مريدون ، ولكنه لم يثبت عنه أنه نسب فيها شيئاً لنفسه ، وإنما كان ينسب كل شيء لأشياخه ، وذلك في حياة ابن ناصر الذي حثه على نشر الطريقة (4) وبعد وفاته أيضاً (5)

وقد ذكر أحد المتصوفة من أصدقاء اليوسي ، وأحد أتباع محمد بن ناصر المخلصين ، وهو أحمد بن عبد القادر التستاوتي ، أنه تكلم للشيخ عن اليوسي

---

(1) كلمة عامية بربرية تعني التصوف .

(2) أنظر رسالة « جواب الكتاب » ص

(3) أنظر فهرست اليوسي ص 143/142 .

(4) أنظر الرسالة من ابن ناصر إلى اليوسي في طلعة المشتري « ... وإنما من أتاك صادقا بغية الدخول في زمرتنا فهو منا وإن لم يبلغنا خبره » .

(5) وقفت على رسالة لأحمد ابن ناصر إلى أبناء زاوية تازة يقول فيها : « ... وأولئك الذين يأتونكم ويزعمون أنهم نائبون عنا في تلقين الأوراد فليس لهم ذلك . ولا كان لأحد من جانبنا . إلا لسيدي الحسن وابنه سيدي محمد رحمهما الله » . مخطوطة خ ع ر ك 1301 مجموع ص 211 .

فقال له الشيخ : « قد قضيت حاجته هاهنا — وأشار إلى موضع هنالك — ونرجو من الله رجاء قوياً أن يكفيه ما يتقي ويحذر . فليصرف همته لما يقربه من الله من بث العلم ونفع العباد . فقلت له : من أخذ عنه الورد يعتقد فيه المشيخة . وهو يكره ذلك . فقال لي : لا يضره ذلك مع التبري . وطريقتنا لا نسند الأمر فيها إلينا . وإنما نسنده إلى أشياخنا قبلنا . . » (1)

أما معاصروا اليوسي وتلامذته وإخوانه الذين راسلوه فقد اعتبر جلهم فيه المشيخة . فهذا تلميذه أحمد الهشتوكي الذي رافقه مدة طويلة يعتبره كذلك في قصيدة طويلة مؤثرة قالها عند نفي اليوسي وتشريده يقول في مطلعها : (2)

فؤادي حريق والدموق سفوح بذكراك ياشيخ الشيوخ النصوح
وذكرى معاهد تقدم عهدها بأم الربيع مالهن رجيح

ومنهم من رأى غير ذلك كالرسالة التي بعثها له طالب يقول فيها : « هممت بالانحياز إليك حتى سمعت أنك تجبر الناس . فنكصت على عقبي . وأنك تأمرهم بالتوبة وشروطها وأنا لو قدرت على ذلك لوجدته في كتاب الله . وإنما أريد أن أجد نشاطاً ولذة بوجودك كما هو شأن أهل الهمم الذين يسوقون بالنظرة » (3) فيجيب اليوسي : « إني لَسْتُ بشيخ تربية . ولا صاحب همة وحال . . » (4)

وقد وضح اليوسي الأمر في كتاب « المحاضرات » قال : « وذلك أنَّا بعد وفاة الاستاذ المحقق السني أبي عبد الله بن ناصر ، لم نزل نسعى في نفع الناس بتعليم ما يحتاجون من دينهم وما يحتاجون من أوراد النوافل والأذكار . . عاملين في ذلك على وجه المواخاة والمعاونة على البر والنصيحة . لا على وجه المشيخة . وعلى وجه التعليم والإرشاد . لا على وجه التربية » (5) وتعرض لهذا صاحب « نشر

---

(1) أنظر طلعة المشتري ص 295.
(2) قصيدة طويلة تفوق المائتي بيت في مجموع ق 676 خ ع ر
(3) من رسالة سائل اجاب عنها اليوسي بالرسالة حول دور الشيخ .
(4) المرجع السابق .
(5) المحاضرات ص 162.

المثاني » وبعد أن أشار إلى ما جاء في كتاب « المحاضرات » قال : « ... وفيه تصريح بالرد على من نسب له التربية في الطريق ، اللهم إلا أن يحصل ذلك ضمناً بأمر وجداني ، وبقي مستوراً بالعلم .. » (1)

ولما تحدث صاحب « دوحة البستان » عن اليوسي قال عنه ما يلي : « ... العلامة الصوفي الزاهد .. ولم يمت الشيخ الحسن بن مسعود حتى كانت الفقراء وجماهير الناس يتبعونه للانتفاع به كاتباع الغنم لقيمها .. » (2).

بل هناك من نسج لهذه القضية وقائع خيالية تعكس ما كان يسود العصر من خرافات كما جاء في كتاب « الفتح الوهبي » : « .. أن الشيخ أبا علي كان قبل أن يستقيم حاله ، ويثبت في مقام الولاية مقامه وقدمه ، ينتقل من مكان إلى مكان ، والمكان الذي نزل به وأراد أن يستقر به من سائر الأوطان ، يمد له الشيخ رجله ويدفعه منه ، ولما رأى أبو علي ذلك اشتغل بالطواف بالمغرب على أبواب أهل الله الصالحين ، ولم يزل على ذلك حتى تلاقى مع بعض الصالحين فقال له : عليك بالشيخ الشرقي ، فإنه ما ركبت عروس من عرائس الصالحين إلا بحضوره ، ومن لم يحضر في أمره لم يستقم له شيء فأتي الشيخ أبو علي الشيخ مولانا محمد الشرقي بحسن نية وصدق طوية وتذلل وخشوع ، وأظهر له حال الافتقار ، فعند ذلك استقام حاله ، وأقبلت الخيرات عليه من جميع النواحي مهرولة ، وأقبل الناس إليه بالهدايا والفتوحات والمنح والعطايا . » (3) وهذه نظرة خرافية ومادية محضة للمشيخة ، أتيت بها فقط لإكمال فكرة معاصري اليوسي عن مشيخته . وإلا فاليوسي نفسه يعتبر أن عصره ، عصر الادعاء والخرافات ، قد خلا ممن يصلح للمشيخة ، ويستحق التصدي لإصلاح علل النفوس يقول : « .. ونوصي أنفسنا وإخواننا في هذا الوقت الصعب الذي لم يظهر فيه الإخوان الناصحون ، فضلا عن شيوخ التربية أن نرجع إلى الله ونرد إليه أنفسنا ، بالافتقار والاضطرار ، ونحاكمها إليه ليحكم بيننا وبينها .. »(4) .

---

(1) نشر المثاني المخطوط ج 2 ورقة 32 .

(2) دوحة البستان مخ خ ع ر د 390 ص 206 .

(3) « الفتح الوهبي » لمحمد العربي بن داود مخ خ ع ر ك 2312 ص 227 .

(4) الرسالة النصيحة

أما رأيه في دور الشيخ فهو يعتبره مرشداً مخلصاً للتعريف بالله ، يرد إليه ويقطع عما سواه ، ليس إلاّ « .. ولو قطعونا إلى أنفسهم بشيء زائد على مجرد التوسل بهم إليه كانوا أولى باسم الشيطان من اسم المشايخ »(1) .

— ولقد كان نقد اليوسي ينصب غالباً على الادعاء ، وفساد العقيدة ، ومن ذلك أولئك الذين ينتسبون للطريقة دون عمل : « ... فيقول الجاهل ، أنا دخلت في حزب الشيخ فلان وأسندت خشبتي وهو كذا وكذا .. وهذا غلط في الطريق فإن الشيخ ليست في يده جنة ولا نار ، ولا دنيا ولا آخرة ، بل هو عبد مملوك كسائر العبيد ، وإنما في يده الدلالة على الله والإرشاد إليه .. » (2)

وكان أصحاب هذا الاعتقاد قد انتشروا انتشارا فاحشا في المغرب ، وكثر أتباع كل ناعق ، خصوصاً منهم الذين يطلبون الجاه والمال بادعاء التصوف والزهد من المبتدعين الذين لا يرجعون إلى أصل صحيح ، ولا ظاهر مستقيم وقد حذر اليوسي منهم قائلا : « فصحبة هؤلاء وملاقاتهم سم قاتل ، فإن الطباع تسرق الطباع ، ولا يغرنكم ما يظهر لهم من شبه الكرامات ، كإخبار بغيب أو صدور كلمة توافقها القدرة ، فتصدق أو نحو ذلك ، فإن ذلك يقع من الصادق ومن الكاذب فلا دلالة فيه .. »(3)

— وقد نبه في كثير من رسائله على ما عرف في عصره من الإيمان بالصالحين وتقديسهم واللجوء إليهم ، وسؤالهم الحاجات ، والتوسل بهم ، فطرق الموضوع في عدة رسائل ، وأبدى موقفا من ذلك ، اتسم بالشجاعة إذا ما اعتبرنا هيمنة المشايخ والصالحين وكراماتهم على العقول وعلى العصر كله خاصته وعامته ، ولكنني مع ذلك أراه أبدى تجوزا لا يليق في نظري بهذا المفكر السني الكبير إلا إذا اعتبرنا بعض الرواسب المستمدة من بيئته وتربيته الأولى ، وبعده عن التزمت يقول في هذا الموضوع في بعض رسائله .

---

(1) المرجع السابق .
(2) المرجع السابق
(3) المرجع السابق .

« ... فإن كان يعتقد في الشيخ أنه هو الذي يعطي وينفع ، وقطع النظر عن الله تعالى ، فهو مشرك يجب عليه أن يسلم ، وإن كان لا يعتقد ذلك ولكن يعتقد أنه **وسيلة** إلى الله تعالى ، فالواجب عليه أن يقصد معاملة الله **ويتوسل** بالشيخ ويعتقد أنه عبد من عباد الله تعالى ، إن شاء قبل توسله ، وإن شاء لم يقبله .. » (1)

وكانت الطرقية في عصر اليوسي ، الأرضية الخصبة للتدليس والاستغلال باسم الدين ، واستنبات الأفكار الهدامة الخرافية وزرع المفاهيم التي تؤدي إلى تقديس الصالحين ، والإيمان بالكرامات ، وحشو الأدمغة بالترهات والخرافات . واليوسي أظهر في جميع رسائله ثورة عارمة على هذه الفئة وحذر منها يقول : « ...وكذا الفقير إذا أراد بتوبته وصحبة الصالحين الدار الآخرة ، فهجرته إلى الله ورسوله ، وهي مقبولة ، وإن أراد حطام الدنيا ، كتربية الجاه عند الناس ، أو اتخاذ زاوية ، أو استجلاب هدية ، أو تعزز بالطريق ، أو ظهور بكرامة ، أو كفاية معاش ، أو نجاة من محن الدنيا أو تكاليفها أو نحو ذلك ، فقد ضاع سعيه . فإن هذه كلها شهرة تعوق عن المراد ، وتنافي الإخلاص الذي هو المطلوب .. »(2) .

— ولا يزال اليوسي يح على الإخلاص ويلح على الصدق ، وهي من جملة الآداب التي تبين كيف يحرص الصوفية على صفاء النفس وخلوص النية ، فوصل النفس بالله ، واستحضار فقرها إليه ، ورهبتها منه ، ورغبتها فيه ، وانتظارها لفضله في ثقة ويقين ، كل أولئك من العوامل التي ألح عليها متصوفنا لصقل النفس وتطهير القلب وتربية الوجدان . وانتظار الخير كله من الله وتهيئة النفس لذلك باب أصيل في بناء الملكات الخلقية .

---

(1) انظر الرسالة إلى المقدمين ص : 397

(2) انظر الرسالة النصيحة انظر ص : 359

3) التوحيـد

تناول أبو علي اليوسي في هذه المجموعة من الرسائل قضايا تتعلق بالعقيدة والتوحيد . ناقشتها فرق المفكرين من أهل السنة . والمتكلمين . والدهريين . والفلاسفة . وقد تعرضت بالخصوص لبعض المسائل الأساسية : كحدوث العالم أو قدمه . وثبوت الصانع وعدمه . والصفات . والذات الإلهية أحسية هي أو معنوية . وجواز الكفر على الأنبياء . والحديث من القرآن والقديم منه . وعلم النبي ﷺ . وغير ذلك من المواضيع الحساسة التي تناولها مفكروا الإسلام وغيرهم . وكثر فيها النزاع والنقاش .

واليوسي عالجها هو الآخر من وجهة نظر أهل السنة طبعاً . ولكنه أضفى عليها من سعة أفقه . وعمق تفكيره . وتبحره في علم المنطق الشيء الكثير . ففي مسألة حدوث العالم أو قدمه . وما تستلزمه من إبطال التسلسل أو إثباته . تعرض لأقوال مختلف الفرق . الفرقة الأولى وهي فرقة أهل السنة قد رأوا أن العالم حادث . وعلموا ضرورة أن الحادث لا يوجد من نفسه فافتقر إلى صانع . فعقل مذهبهم في القول بالصانع . وفرقة أخرى هم الدهرية وقد رأوا أن العالم قديم كما هو عليه . ولم يثبتوا له صانعا ومعتقدهم مفهوم.. وأما الفلاسفة فقد رأوا أن العالم قديم . ثم أثبتوا له صانعاً مع ذلك . وهذا المذهب بوضعه متناقض . وهو الذي تناوله اليوسي خصوصاً بالمناقشة ..

واليوسي في هذا الجدال يعتقد بطبيعة الحال برأي أهل السنة ويأتي بآراء فقهائهم خصوصاً السعد (1) والغزالي . ولكنه في ذلك يصحح ويعدل . ويقبل ويرفض . ويقارن ويناقش أدلتهم وحججهم بمنهجية علمية رائعة . وقد استشهد في إحدى رسائله بدليل للغزالي . ثم ندد بهذا الدليل بعد ذلك وانتقده قائلا : « وإنما جلبناه تبييناً لمذهبه . لا اعتماداً على دليله .. وقد أفرط فيما قدّر في المقدورات والمعلومات . دفعا لعدم النهاية .. وقد اشرأبت النفس إلى أن تحمل عليه بالاعتراض سيل العرم .. ولكن ليس هذا المطلب من غرضنا الآن . وكلامه لابد أن يُؤول ... » (2)

---

(1) أنظر ترجمته في حواشي المتن.

(2) الرسالة في إبطال التسلسل

وفي قضايا العقيدة خصوصاً يظهر تحرر فكر اليوسي من قيود التقليد التي كانت فاشية في عصره . وحرصه على تحصيل الإيمان والمعرفة عن طريق التحليل والتعليل . عاملا على الجد في ذلك . متسلحاً بفكر ثاقب . وعقيدة مشرقة صافية . فعند الخوض في الذات الإلهية أحسية هي أم معنوية . يشير إلى أن التوحيد الإجمالي يبعد عن الكلام في هذه المسائل الجزئية . ويطالب بالإيمان : « بذات غير مشبهة بالذوات ولا معطلة عن الصفات » ولكنه مع ذلك يقتحم الموضوع رغم حرجه . بعمق وإدراك العالم المحيط بموضوعه إحاطة تامة (1) . والسائلين له من فقهاء وطلبة . يعرفون هذه الخاصية فيمن لقّب بعدُ « بمجدد القرن » فنرى الفقيه أبا العباس أحمد العطار (2) في رسالته التي يسأل فيها عن إبطال التسلسل يقول « ... ونحن مع هذا كله معتقدون أن ما يعتمده الأئمة في التقارير من الأنحاء والأوضاع آت في نفس الأمر على أتم الوجوه وأكملها .. فنريد من سيدنا أيضا أن يظهر لنا سر ذلك ما يريح قلوبنا من الحيرة . لازلت توضح المحجة وترغم بالحجة أنوف أهل الزيغ والعناد... » (3)

ولكن مفكرنا مع ذلك يفرق بين فهم متوسطي الثقافة . وفهم الخواص . ويأخذ الحيطة من علماء عصره الذين يغلب عليهم التزمت والتقليد . فيحاول إيصال فكره على مهل . مرحلة مرحلة حفاظاً على ثقة الجميع . وسيراً مع حدود فهم الجميع . ففي الرسالة في « جواز الكفر على الأنبياء » استدعى جوابه مقامين : الأول : حكم المسألة في نفسها أي حُكم الجواز . الثاني : حكم ذاكرها . وهو في رسالته بدأ بالمقام الثاني . وهذا يمكن أن يفهم منه أنه انفعال من طرف الكاتب في هذا النقاش . وتحامله وتعصبه على من يقول بجواز كفر الأنبياء . ولكنني أظن أنه بدأ بذلك لأن هذا هو الذي يهم السائل معرفته . وأما المقام الأول وهو مجال التحليل والتصرف العقلي فتركه اليوسي لآخر الرسالة . بل بعد ختم رسالة السائل . وكأنه خاف عدم هضمه لما سوف يتعرض له في هذا المقام من تعليل . وتحليل علمي صرف . يدل على سعة علم اليوسي واجتهاده . وفكره العلمي الموضوعي الذي ناقش هذه المسألة الشائكة مناقشة منطقية ممتعة.

---

(1) أنظر ذلك في الرسالتين حول ذات الله احسية هي ام معنوية .

(2) انظر ترجمته في حواشي المتن

(3) الرسالة من ابي العباس أحمد العطار في مسالة التسلسل مخطوط ق 312 ص 305

فهو يجوز ما لا يجوز التعرض له شرعاً . إذا أريد منه المذاكرة والبحث والمعرفة . دون تزمت . أو رَمْي مَنْ تَطَلَّعَ لهذا النقاش بالكفر والإلحاد من أول وهلة . وهو بهذا يظهر السيطرة الكبيرة على المادة ويطرحها بكيفية واضحة مشرقة . ويطل على الموضوع من أعلى ويختار له ما يناسبه . على الشكل الذي يستسيغه السائل وكأنه يتناول من بين يديه مادة طيعة سهلة .

والطريف في مجموع مخطوط تمكَروت الذي أورد جل هذه الرسائل . أنه يثبت السؤال المطروح . ثم يورد أجوبة العلماء والفقهاء . الذين كتبوا في بطاقة السؤال قبل وصوله الى اليوسي . ثم يأتي في الأخير بجوابه . وهذا مفيد لإعطاء نظرة عن تفكير معاصري اليوسي من الفقهاء في هذه المسائل الاعتقادية . فمثلا السائل عمن لا يعرف ما يجب في حق الله تعالى ولا يعرف معنى الشهادتين أجاب كلا منهم جواباً مختصراً يفهم منه التكفير في حقه . فحمل عليهم اليوسي وصحح الأوضاع وأرجعها لنصابها قائلا للسائل : « ..فكل من اعتقد أن الله تعالى واحد في ملكه لا شريك له وأن محمدا رسول الله فهو معتقد لمعنى الشهادتين . سواء فهم ذلك من لفظ الشهادتين أو عرفه من خارج . فلا يجب على الناس فهم دلالة الشهادتين . وقد غلط في هذا جهال الطلبة والمتفقرة والمتفقهة . فيظنون أن كل من لم يحسن تفسير لا إلاه إلا الله . ولا أحاط بما فيها من نفي وإثبات . واستغراق واستثناء . فليس بمومن . وهذا غلط فاحش وجهل واضح . فإن معرفة هذه المعاني علم آخر يختص بالعرب أهل اللسان . وبالعلماء له . ولم يكلف الله تعالى عباده به . فمنهم الأعجمي الذي لا يدري دلالة تلك الألفاظ أصلا . فالواجب فيه أن يترجم له مضمونها كما قلنا أولا . فإذا اعتقده كفاه .. » (1)

هذا هو اليوسي العالم السني المتفتح الذي يجب أن نتعرف على فكره الإسلامي بشكل أوسع بدراسة مؤلفاته الأخرى خصوصا شرحه على عقيدة أهل التوحيد للسنوسي أو ما يسمى « بالحاشية على الكبرى » الذي ناقش فيه القضايا الكبرى العقائدية كإثبات وجود الله . والعلية . والصفات . وهو فيه يناقش

---

(1) الرسالة في موضوع من لا يعرف الشهادتين

ويرد على آراء مختلف فرق المتكلمين والفلاسفة.

ولا يفوتني أن أسجل ما كان يلاقيه اليوسي من عداء واضطهاد ـ من علماء عصره المقلدين لأجل فكره الحر ـ وهو في خاتمة كتاب « الحاشية على الكبرى » يسجل حالة الفكر الحر في عصره ـ وما كان يصادفه من مناهضة ـ وما كان عليه علماء العصر من جمود وتقليد يقول : « ... مع تقاصر أبناء العصر عن استجلاء الخفيات ـ وتقاعد عزائمهم عن الترقي إلى المدائح العليا ـ وإخلادهم إلى حضيض الراحة والبطالة ـ وتعاطيهم كؤوس الغباوة والجهالة ـ وأمثالهم من يصمم على أقوال المتقدمين ـ من غير تمييز بين غث وسمين ـ وإن تَبَصرت فيما أَلِفوه ـ أو أَبْدَيتَ وجهاً غير ما عرفوه ـ جاهروك بالنكير ـ أو حاصوا عنك حيصة الحمير ـ أفيبقى بعد ذلك محصول ... وهل هذا إلا ما يخمد القرائح ـ ويضيق الجوانح ... » (1)

(1) الحاشية على «كبرى السنوسي» مخطوطة الخزانة العامة بالرباط رقم د 1771 ص 803.

4) الفقـه

عرف عن علماء المغرب شدة اعتنائهم بالفقه . وكان من أول نشأته بهذه المثابة . لأنه زبدة نظر طويل في الأدلة من القرآن والسنة . فكان عارفه يستدل بمعرفته اياه . على أنه متقن لتلك الأدلة التي لا يتقنها إلا المجتهدون الكبار في العصور الأولى . ثم لما صار علماً يؤخذ بعدما امتاز على حدة على القرآن والحديث . كانت له أيضاً هذه المثابة نفسها . لأنه قانون الأمة ومصدر تشريعها.

وإذا عرفنا أن أحكام الشريعة الأصلية . وخاصة القرآنية منها غير قابلة للتطور ولا للتطوير . فإننا مع ذلك نرى أن من مميزات الفقه الاسلامي مسايرته للظروف والأزمنة أي قبوله للتغيير بحسب ما يظهر . « وباب الاجتهاد التي فتحها الشارع للقادرين عليها من كل المسلمين في كل عصر . وفي كل مكان . هي الكفيلة بمسايرة الشريعة وسدها حاجة ما استجد من المسائل التي لا حصر لها ولا نهاية لوقوعها . والاجتهاد يرجع إلى استنباط الأحكام من أدلتها التفصيلية . إما بفهم جديد لآية من كتاب الله . أو لحديث من أحاديث الرسول . أو انتباه لعلة يرجع إليها مناط الحكم ..» (1)

وهذا النوع من الاجتهاد هو خاصية فقيه المغرب الكبير اليوسي . فمن خلال رسائله ندرك أن الفقه الإسلامي من السعة والشمول ما يصلح لكل البشر . وأن فيه من التطور والمرونة ما يقوم بكل جيل وفي كل عصر . وندرك أنه مهما علم من فقه إمام في مسألة رأيا . فهناك آراء كثيرة غير الرأي الذي علمه . وبهذا تتجلى الميزة الكبرى لليوسي في ترك التعصب المجانف للعلم والعلماء لرأي بعينه أو لإمام مهما بلغت إمامته.

وإذا كان في كل عصر مجتهدون منتسبون . كأبي جعفر الطحاوي من المنتسبين إلى مذهب أبي حنيفة . وابن المواز والقرطبي والقاضي عبد الوهاب من المنتسبين

---

(1) انظر كتاب دفاع عن الشريعة علال الفاسي ص 128.

إلى مذهب الإمام مالك . وغيرهم . فهؤلاء وأمثالهم كانت لهم موافقات للمذاهب التي انتسبوا إليها كما كانت لهم مخالفات واختيارات خارجة عنها . فكذلك اليوسي كان من مجتهدي المذهب المالكي في درجة اللخمي (1) والباجي (1) والقرافي (1) وغيرهم ونجده كأهل هذه الطبقة من الفقهاء يتغلغلون في أدلة الأحكام . على اختلاف أنواعها ويؤيدون وينكرون في قوة حجة ومتانة رأي.

واليوسي حتى في استشهاده بالمذهب ، يأتي بمختلف الآراء فيه لمختلف شخصياته يحللها ويناقشها ثم بعد ذلك يأتي برأيه : « إذا علم هذا فنقول .. » ثم يعطي تحليلا جديداً للنازلة على ضوء ظروفها وملابساتها الخاصة ، ويعطي رأيه معززا بالبراهين والحجج ، وآراء بعض السلف ، وهو بهذه الطريقة يستغلُّ استغلالا كليا مبدأ مناط الحكم .. فالتقليد الأعمى للمذهب والجمود عليه ، وعدم استعمال الرأي هي خاصيات عرف بها عصر اليوسي ومعاصروه ولكن فكره أبي إلا نبذ ذلك .

ففي جوابه للسلطان إسماعيل في مسألة الأمة التي واقعها وأراد معرفة الحكم إن أراد الانتقال إلى ابنتها ، ظهر جلياً فكر اليوسي الحر المستقل المستوعب ، الذي يحيط بالمسألة وبجوانبها . وإذا قورن جوابه بأجوبة مشاهير عصره الذين أفتوا في نفس القضية من أمثال عبد المالك التجمعتي ، والحسن المجاصي ، وأبي مدين السوسي ، ظهر الفارق الذي يفصل اليوسي عن معاصريه ، فكرا وعمقا وتحريا . فهم قصروا أجوبتهم على نقل « الموطأ » في حالة واحدة : وهي الوطء الذي لا ينشر الحرمة . وهم في ذلك ولا شك يبتغون مرضاة السلطان ، ولكن اجابة اليوسي الجامعة ، أوقعتهم في ورطة ، ذلك أن ما أحلوه للسلطان إنما هو ناتج عن الوطء الذي لا ينشر الحرمة وهو وطء الزنا الموجب للحد ! واليوسي في جوابه ناقش حلية وحرمة وطء الأمة قبل أن ينتقل بعد ذلك إلى حلية وطء ابنتها. بينما أفتى زملاؤه مباشرة في المسألة الثانية ، وهي موضوع السؤال المطروح ليس إلاّ ..

---

(1) أنظر ترجمة هؤلاء في حواشي المتن .

وأجوبة اليوسي في الموضوع الفقهي الواحد تختلف حسب ظروف وملابسات كل حالة على حدة ، وهو يعطي لذلك أهمية بالغة . فهي ليست فتاوى جافة ، متزمتة وإنما هي بحوث ممتعة تحيط بالظروف السياسية والاجتماعية ، يبدى فيها آراءه ويجتهد ، وينظر إلى الأمر من جميع وجوهه ، ففي الرسالة حول « اقامة الجمعة بتمسنا » نجد لليوسي رأيا خاصا في الاستيطان ، إذا كان بقسر الوالي ، أو إذا جلبته منفعة له ، كقضاء حاجة ، أو استغلال مُقيمين ، ما صحبوه إلا لانتمائه السلطة ، فجوابه هو فتوى للسائل ، وهو في نفس الوقت توعية له وفتح لعينيه على الحقائق المحيطة به .

ويحتفظ اليوسي لفتاويه بميزة اليسر في الأحكام وخفة التكليف ، وعدم العسر والحرج ، والأخذ بسياسة الشارع في الرفق الذي يجلب الإنسان إلى الطاعة بصفة تلقائية ، فهو لا يطلب من سائله الاتباع للفتوى فحسب ، بل يساعده قبل ذلك على الاقتناع بها والاطمئنان إليها . فهي شريعته ، وهي في صالحه وصالح المجموع . فالرسالة في موضوع الإمام الذي صدرت منه أفعال قبيحة أفتى غيره من الفقهاء بانحطاطه عن رتبة العدالة ، وأمروا السائلين بإجبار من صلى خلفه على اعادة الصلاة !

وأخذ اليوسي الموضوع بحكمته المعهودة وبأناته ورصانته ، وعارض الأحكام المتزمتة المنفرة ، ووضح الحالات المحتملة لهذا الإمام ، ولم يفته النظر في أحوال المأمومين أيضاً وحيثياتهم ، ولا يسعه في الأخير إلا أن ينصح المفتين بالأخذ بالتفاصيل والاعتبارات في تنزيل الأحكام الشرعية .

والخاصية الأخرى التي تميز بها اليوسي في طرح القضايا ومعالجتها هي أنه يحمل السائل مسؤولية نفسه ، لأنه أدرى بدواخله ودوافعه ، فهو يوضح له جميع الحالات ، ويشرح جميع الاحتمالات ، ويترك له مهمة تصنيف نفسه والحكم عليها « ... واذا علم السائل حكم كل حالة ، فهو بصيرة على نفسه فيما أقدم عليه أولا ...» (1) وهذا في جميع فتاويه ، حتى تلك التي تناولت

---

(1) الرسالة في موضوع الأمة

موضوع « وَصْلِ الشَّعَر » ، وهو موضوع خاص بزينة المرأة ، أبدى فيه اليوسي وجهة نظر واسعة متفهمة ، تنشد الصراحة والإخلاص في النوايا ، وتنفذ للجوهر وتبعد عن الجزئيات والهوامش

ويبقى اليوسي مع هذا سنيا ، كأفضل ما يكون مُحبٌّ للسنة ، بدون أن يجره ذلك إلى التقليد الأعمى والجمود . وجوابه في « مسألة مغنم عثمان » يظهر فيه حُبُّه واحترامه للصحابة والخلفاء الراشدين جميعهم ، وتحفظه في اتهامهم ، وتأدبه في تحليل بعض أفعالهم ، ولكنه مع ذلك يحتفظ باستقلال الرأي « ..ولا بد أن يعتقد أنه (عثمان) لم يتعمد فيها ، بل اجتهد في مصلحة ، وهو غير معصوم من الخطإ فلا إثم عليه ، **ولا يُتبع**... » فنظر الصحابة شيء جدير بالاعتبار ، لكنه لا يقبل أن يكون له طابع الإلزام أو صفة القانون...

وحتى في الرسائل في الشؤون العامة وأحوال المجتمع تطفو غالباً للسطح شخصية الفقيه المجتهد المفتي ، ففي رسالة « نازلة العرائش » يناقش احتمالات تأويل التأمين ، والآي والأحاديث الواردة في ذلك ، مناقشة حية شيقة يضعها لبنة لبنة لبناء تحليله المحكم ، ثم يرد على كلام العلماء ممن أفتوا في النازلة ويفهم من صراحة اليوسي وصدعه بالحق أن نقض الأمان كان سببه الطمع في أموال النصارى « ... ونسأل الله أن يختار لمولانا أي الجانبين أعظم ، إما المال وإما شرف الذكر.. » ثم يدعو السلطان إسماعيل لإعلان الحقيقة لتبرئة الشريعة المحمدية ، ويظهر اليوسي هنا ميالا للاعتقاد أن الأمان أُعطي فعلا للنصارى ، وأنه لا يجوز الرجوع فيه أبداً مهما كانت الظروف حفاظاً على الروح السمحة للشريعة المحمدية... « فلا يزالوا يرهبونه ، ويخضعون له ويثقون بعهده ومواثيقه ، وفي ذلك من الخيرات والمعالم ما لا يخفى.. »

وفي جوابه في « العكاكزة » حلل تحليلا منطقياً كل الأحوال المحتملة ، التي يمكن أن تكون عليها هذه الطائفة ، والحكم الشرعي لكل حالة ، ثم عدد أفعالهم وأقام عليهم الحجة الواضحة المستقاة من أفواه الثقاة ، وأوصى من ينتصب للتحقيق في شأنهم بالتحري والتثبت ، ثم بعد هذا أبدى رأيه في المسألة واضحاً جلياً ، وتصدى للرد على جميع الاعتراضات التي تقول بعكس ذلك

الرأي . وكعهدنا به أظهر اليوسي من سعة الاطلاع وقوة العارضة وبيان الحجة . ما يجبر السامع على الاقتناع الكلي بوجهة نظره بعد أن أتى على كل الاحتمالات وشرحها

ويبقى اليوسي بعد هذا كله متواضعاً . قابلاً للمراجعة والمؤاخذة . ولا يفُوتُهُ في كل مرة أن يُذَكِّر بأن ما جاء به هو ما حضره في الوقت « ... بلا كبير روية .. ولا مراجعة المظان . لخلو اليد في الوقت من الكتب . فمن طالع من السادات بعد . فأصاب علما آخر موافقاً أو مخالفا فليضفه إلى ما سطر إفادة ونصحاً . فإن الدين النصيحة . والمومن للمومن كالبنيان يشد بعضه بعضًا » (1)

---

(1) الجواب في موضوع الأمة

2 — الخصائص الفنية للرسائل

1 — الرسالة في عصر اليوسي : دورها . مكانتها

أشرت في مدخل هذه الرسالة إلى الحالة التي كان عليها المغرب خلال القرن الحادي عشر ، وخصوصاً النصف الثاني منه ، وذكرت ما عرفه المغرب من تمزيق وتقسيم بين مختلف الفئات المتطاحنة ، فعمت الأهوال ، وسدت المسالك ، وتتابعت الفتن . فكان الاتصال بين أجزاء المغرب متعذرا على الناس والسفر دونه الأهوال ، فكانت الرسالة التي يحملها العون المختص ، هي السبيل الوحيد الأكثر سرعة للاتصال ، فلا عجب إذَا رأيناها في هذا الوقت قد عرفت ازدهاراً خاصاً . فكان لها الدور الحيوي الذي يميزها في هذه الحقبة إذ أصبحت :

— وسيلة الاتصال والمخاطبة ، والتفاوض والشفاعات بين الفئات المتناحرة ، وقد أوردت المصادر التاريخية المغربية الكثير من هذا النمط (1)

— وسيلة العلماء لمخاطبة أولى الأمر في الشؤون العامة ذات الأهمية

— تمكن المهتمين بالعلم والمعرفة ممن لا يتمكن من التنقل لملاقاة علماء الزوايا والمدارس والرباطات من طرح مسائلهم وأسئلتهم ، ويبعث العالم بأجوبته مكتوبة إليهم

— من الوسائل المحببة للعلماء لتبادل الرأي عندما يثار النقاش حول مسألة علمية ، أو حادثة اجتماعية.

ولهذا يمكن أن تقسم الرسائل في هذا العصر إلى قسمين رئيسين : الرسائل الديوانية الرسمية والرسائل الإخوانية.

والرسائل الديوانية أو الرسمية هي التي تصدر على الديوان السلطاني ، وتتعلق بأمور الدولة ومراسمها وتنظيم شؤونها مع الدول الأخرى وهي من متعلقات ما

---

(1) أنظر كتب تاريخ المغرب كـ « المنزع اللطيف » والاستقصا خصوصا « البدور الضاوية » . التي أوردت رسائل كثيرة جدا تبادلها محمد أبي بكر الدلائي مع أبي حسون بودميعة والمجاهد العياشي وشرفاء تافيلالت وغيرهم

يطلق عليه « ديوان المكاتبات » أو « ديوان الرسائل » أو « ديوان الإنشاء » ولهذا النوع من الرسائل كتابه المتخصصون . وله قواعده المقررة . وهو لا يعنينا في هذا البحث لأن مجاله تاريخي عام يخرج بنا عن نطاق الدراسة الميدانية التي نحن بصددها.

أما المكاتبات الإخوانية فهي التي تعنينا في هذه الدراسة . وقد عرفت رواجاً كبيراً في هذه الحقبة ونفقت سوقها . واكتست طابعاً مميزاً حيث أنها سجل حافل للأحداث السياسية . والاجتماعية والأدبية . إذ كان أصحابها من الأفراد الذين عاشوا الأحداث وتفاعلوا معها . والمجال فيها أوسع للإفاضة في الإعراب عن العواطف الذاتية والآراء الخاصة .

وقد تناولت هذه الرسالة الإخوانية مواضيع مختلفة كالنصيحة . والوعظ . والأسئلة والأجوبة العلمية . والاستعطاف . والاعتذار . والشفاعات . والشكوى والعتاب وغيرها من المواضيع التي تنتظم في هذا النوع من المكاتبات . وطابعها العام الملاطفة والخضوع للصديق والتقدير الكبير للعلماء . والتواضع من طرف هؤلاء العلماء .

وهذا نموذج للمراسلات الإخوانية لأديب معروف في هذا العصر هو أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي . إلى صديقه أبي علي اليوسي يتشوف إليه ويهنئه بالحج (1)

« الحمد لله وحده . وصلى الله على مولانا محمد وآله .

من العبد الفقير إلى الله تعالى أبي سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر كان الله له آمين . إلى الأخ في الله تعالى . العالم المحقق الموفق . العارف بالله وبأحكامه . سيدي جمال الدين أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي . أحسن الله عواقب أموره وجعل في تصاريف أقداره غاية سروره . سلام الله على سيدنا ورحمة الله وبركاته وعلى من بكم وإليكم أما بعد . فإني أحمد إليكم الله الذي لا إلاه إلا

---

(1) أنظر كتاب « الثغر الباسم في جملة كلام أبي سالم » الباب الثاني في رسائله ومكاتباته مخ خ ع ر ك 308 127 أنظر ترجمته في حواشي المتن

هو الحي القيوم . وأنهي إلى كريم علمكم أنا بحمد الله تعالى على خير وعافية نتقلب في آلاء ربنا ظهراً لبطن من غير استحقاق منا . فله المنة والطول . ونحن على محبتكم ومودتكم نسأل الله أن يجعلها خالصة لوجهه . ويحشرنا بها في زمرة المتحابين فيه في ظل عرشه . وقد كنا انتظرنا مروركم بنا أيام أوبتكم من وجهتكم المباركة تقبل الله منكم . لننعم برؤية من رأى . ونتنسم منكم روائح التعريف بأهل حضرة الله إذ لا نشك أنكم لا تنقلبون من حضرة أولئك المشايخ الا بملء الحقائب من تحف المواهب . ومن يحقق بحالة لم يخل حاضروه منها . فليهنئك أبا على العزم الصادق الذي إذا توجه إلى فضيلة حاز منتهاها . والهمة التي لا ترضى من المراتب إلا بأعلاها تمر علينا بمنة ويسرة لاقتناص المحامد ونحن راقدون . وترجع بملء اليدين من الرغائب ونحن غافلون . والمواهب أقسام . والناس في أحوالها أقسام . وهنيئاً لركب صاحبوك فأشرقت عليهم أنوار عرفانك . وحفهم أمداد أيقانك :

من فاته الحسن البصري يصحبه فليصحب الحسن اليوسي يكفيه

وقد ضاق بياض هذه البطاقة عن شرح ما يكنه القلب من الاشتياق . والتلهف على ما فات من التلاق . فلنطو البساط على ما فيه . وليضع المتلهف يده على فيه والسلام ».

وهي كما نرى أخذ فيها مأخذاً من اللطافة والرقة وسلك مسلك الإيجاز والاختصار والبساطة . والخلو من الصناعة اللفظية ولكن الطابع الغالب على المراسلات في هذا العصر من حيث المضمون هو أولا : الطابع التعليمي أي الرسالة التي تعرض بالشرح والتحليل والبيان لما عرض عليها من المسائل والمشاكل . أو تتحدث عن قضية من القضايا العلمية التي تشغل بال الناس وتثير فقها أو أصولا أو كلاما أو منطقا أو لغة . الثاني : طابع النصيحة والوعظ والتوجيه والإرشاد والتربية

وهذه الرسائل كانت تتبادل غالبا بين الطلبة والعلماء . والمريدين وأصحاب الزوايا . وكنموذج للرسالة الإخوانية العلمية . هذه التي تناولت موضوعا

شائكا . وأثارت ضجة وجدالا علميا . شارك فيه اليوسي بدوره (1) هذه الرسالة المعنونة « ملاك الطلب في جواب أستاذ حلب » . وهي لعالم معاصر لليوسي هو عبد المالك التجمعتي . بعث بها للأديب المتصوف أبي العباس أحمد بن عبد الحي الحلبي (2) عندما أثير الجدال في مجلس البخاري بالجامع الكبير بفاس الجديد حول علم الغيب . هل يعلمه النبي ﷺ أم لا ؟ فذكر أبو عبد الله محمد الدلائي (3) أنه يعلمه وأُنكر عليه ذلك . وصار الأمر إلى أن قال بعضهم بكفره . فسأل الأمير محمد بن إسماعيل أستاذه عبد المالك التجمعتي . فأجابه أنه لم يمت ﷺ حتى أطلعه الله تعالى على الغيب . وشاع ذلك بفاس فمن جوز ومن مانع . فكتب الأديب الحلبي للتجمعتي من جديد . فأجاب بهذا الجواب الذي نورد مقدمته كنموذج للرسالة العلمية : (4)

« الحمد لله.

أعلا من امتص ضروع الأدب وحَلَب . وأحلا الناس شعراً ونثراً أستاذ حلب . أبقاه الله ومدائحه على المصطفى تُتْلا وتُقرا . ومنحه اللدنية تفُوت عدّاً وحصراً . سلام عليكم والرحمة والبركة أما بعد . فقد اتصل بنا مكتوبكم الأنور . ملتمسين الإفادة بحقيقة العلم النبوي . ومخبرين بأن ما أجبنا به حضرة النخبة العليا . وبهجة هذه الدنيا . الذكي النحرير . الناقد البصير . مولانا محمد بن مولانا إسماعيل أدام الله تأييده وتسديده . من أنه ﷺ لم يفارق الدنيا حتى علم كل شيء استقر به . وأنكره طلبة فاس وبالغوا في التشنيع بين عوام الناس فإنا لله وإنا إليه راجعون . على ضياع العلم . وفقدان أهله . هيهات ما هذا بعشك فادرجي ... »

---

(1) أجاب اليوسي في رسالة « ملاك الطلب » بالرسالة في « علم النبي » المثبتة في رسائل التوحيد من هذا البحث

(2) أنظر ترجمته في حواشي المتن

(3) أنظر ترجمته في حواشي المتن

(4) رسالة « ملاك الطلب في جواب أستاذ حلب مخطوطة الخزانة العامة بالرباط رقم حـ 115 ص 348 360

وقد أثارت هذه الرسالة الطويلة كما سبق أن قلت . ردود فعل كثيرة في عصرها وحتى في عصرنا هذا . إذ أنني وقفت على هوامش مهمة للمرحوم الحسن الثعالبي على هذه الرسالة مخطوطة (1) من مكتبته التي توجد بالخزانة العامة بالرباط . وهو ينتصر فيها للأفكار التي أجاب بها اليوسي على هذه الرسالة. وقد رد عبد المالك التجمعتي على نقد اليوسي له بجواب طويل جداً عنونه بعنوان غريب : « الأطهار البوسية في خلع الأسطر اليوسية » يوجد أيضا في مخطوطة الحسن الثعالبي وعلق عليه هذا الأخير في حواشي مهمة منتصرا لليوسي معززاً أقواله بالحجة والبرهان.

أما الرسالة النصيحة التي تأخذ فكرتها وروحها من النظرية الإسلامية في « أن الدين النصيحة » فإنها قد عرفت إقبالا كبيراً . وتبادلها العلماء والطلبة والمتصوفة فيما بينهم . وبينهم وبين أولى الأمر والقواد . وبينهم وبين العامة .

وهي وإن كانت في الغالب لطيفة في مبانيها وتعابيرها . إلاّ أنها شديدة في معانيها . وفي ما ترمي إليه من الإصلاح والعودة إلى سنن السلف . وكانت تقبل غالباً ويشكر عليها . ويحدث أحياناً أن ترفض وتلفظ . ويأخذ المرسلة إليه نوع من العزة . وتنزيه النفس عن قبول النصح . ومن ذلك النوع هذه الرسائل التي أثبتها . والمتبادلة بين شيخ زاوية تمكروت بدرعة محمد بن ناصر وبين أحد القضاة الذين عرفتهم سجلماسة :

« من عبيد الله تعالى محمد بن ناصر كان الله له . إلى القاضي سيدي محمد بن الحسين . سلام عليك ورحمة الله وبركاته . فإني أحمد إليك الله الذي لا إلاه إلا هو أما بعد . فالمومن مرآة أخيه . والنصيحة من قواعد الإيمان . والعارف إذا قيل له اتق الله . وإنَّ وَجْهَ الرشد كذا . تأثر وازداد بصيرة وتواضعاً. ولم يكن ممن إذا قيل له اتق الله أخذته العزة.. ثم فالحذر وكل الحذر من العجلة في الحكم بثبوت تلك الترقية. فقد قيل إن شهودها لا يعرفون المفروض من المسنون. ولا تجوز شهادة العامة. ولا شهادة من يأكل أملاك الخراج ويأخذ المغارم الباطلة. وأما الرجل الذي طلبت أداء شهادته. فإنه

---

(1) أنظر المرجع السابق

رجل صالح . وخزانة لأسرار المسلمين . يَبُثّ الناس إليه أسرارهم . آمنين غائلته . فليس بصرد الادعاء والسلام » (1)

جواب القاضي :

« إلى من ادّعَى أنه يقول الحق . وهو إنما يقول الباطل ويرجم الغيب . ويقدم شهادة شاهد لم يُرد أداء شهادته فبطلت . وزكاه من غير تزكية ثابتة شرعاً . ويرمينا بالغيبة ولم يراع قوله عز وجل : « ولا يغتب بعضكم بعضاً » ويزعم أني أحكم بما لا حقيقة له . فلينظر ما وسوس إليه الشيطان . والحاصل أيها الإنسان . أنت أكثرت علينا من التشويش . فَانْتَهِ عن غيك . وإما عرفت أمرك إلى السلطان نصره الله . واتهم نفسك . واعرف قدرك إن شئت السلامة . وإني اقتصرت . والسلام » (2)

ولا يفوتني أن أشير إلى ملاحظة هامة وهي خوض الرسالة مجال الحياة الاجتماعية والحياة العامة في الأحوال اليومية كما في الأحوال الجليلة . بكل قوة وبكل شجاعة والرسائل التي أوردتها آنفا تمثل نموذجا من الكثير من هذا القبيل لا يزال في بطون المخطوطات

أما المكاتبات الإخوانية المنمقة في التهادي . والشكوى والعتاب . فهي وإن كانت قليلة نسبياً . فقد شاعت خصوصاً بين أبناء الدلاء . من أساتذة وتلامذة (3) ونأتي بهذا النموذج منها من مقدمة رسالة للطيب بن المسناوي إلى بعض الإخوان يشكره على سيف أهداه له يقول :

« الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

قَدْ وَهَبَتْ يَدْ المجد . وغرة السعد . وطلعة المشترى . ومن سواه بائع الحمد

---

(1) أنظر طلعة المشتري ص 144 وأجوبة محمد بناصر مخ خ ع ر رقم جـ 612 ص 64 الى ص 94

(2) أنظر المرجع السابق

(3) أنظر « البدور الضاوية » مخطوطة الخزانة العامة بالرباط خصوصاً رسائل محمد المرابط والطيب المسناوي والمقري وغيرهم.

وهو مشتري . سيفاً يحكي غديراً قد جمد . وأرقماً يبيت سليمه في كمد . إن جُرد تخاله برقاً . وإن سطا فجرحه لا يرقى . وإن اعتلق زان الحمائل . وجمل الحامل . وقالت السيوف جاء الحق وزهق الباطل . قد أحست بريقه صياقلة الهند . وطالما حمى به دمار زينب وهند

أبيض كالملح إذا اقتضيته لم يلق شيئا حده إلا فرا

الخ .... » (1)

وقد أبدى المهتمون بالمعرفة في هذا العصر اهتماما كبيرا بإتقان كتابة الرسائل . وأصبحت من الميزات الأدبية التي ترفع من شأن الأديب قال في كتاب « البدور الضاوية » في معرض ترجمة المسناوي « .. ويكفيك في الدلالة على بلاغته الرسالة التي أجاب بها عن قومه مولاي محمد بن الشيخ الأصغر بن زيدان... » (2) ثم قال : « ... وكان له القدم الراسخ في إنشاء الرسائل... »

لهذا نجد كُتاب الرسائل قد حرصوا على الاحتفاظ بنسخة منها قبل بعثها للمرسل إليه . ثم اعتنى الطلبة والعلماء بتناقلها . كل لخزانته الخاصة . وتداولوها فيما بينهم فنحن نعثر على الكثير منها في كتب السير والتَّراجم والأخبار والتاريخ (3)

كانت الرسالة الأدبية إذن كفن . محببة لدى الأدباء المغاربة يقبلون عليها كوسيلة أدبية قريبة من الجمهور . يصلون بها إلى أكبر عدد ممكن منه . وكوسيلة فعالة أيضا للتأثير والانتشار . وكان الأديب المغربي في هذه الرسائل — بخلاف ما كانت عليه الحالة في الشرق في هذا العصر — يرسل نفسه على السجية . دون تعمل فني خاص إلا في النادر عندما تتناول موضوعاً إخوانياً صرفاً يصبح مجالا للتفنن في التعابير والأسجاع .

---

(1) أنظر « البذور الضاوية » ص 256

(2) أنظر المرجع السابق

(3) كالبدور الضاوية التي جمعت رسائل كثيرة لاصحاب الزاوية واساتذتهم وتلامذتهم ومحبيهم . وطلعة المشترى في النسب الجعفري التي جمعت مراسلات بن ناصر وطلبة زاوية تمكروت والدرر المرصعة في اخبار اعيان درعة بالنسبة لأدباء هذا القطر والثغر الباسم بالنسبة لأبي سالم العياشي والزاوية العياشية ونزهة الناظر الذي جمع مراسلات احمد بن عبد القادر التستاوني . وكتاب نشر المثاني وغير ذلك كثير جدا

أما الخاصيات الشكلية التي تتميز بها هذه الرسائل فإننا نجملها فيما يلي :

— البساطة والخلو من الصناعة اللفظية والبعد من تكلف السجع أو البديع فهي أقرب إلى لغة المحادثة والتخاطب.

— البعد عن الإطناب والتبسط والاستطراد . فطول الرسالة أو قصرها هو بحسب الموضوع . وهو بالدرجة الأولى يعتبر درجة المخاطب في العلم والفهم

— قصر المقدمة والدخول توا إلى الموضوع . إلا في النادر . عند مخاطبة أولى الأمر حيث تكون الخطبة ضرورة من ضرورات المقام .

أما عن مكانتها العلمية فإن هذه الرسائل تنفرد بافادات تاريخية متنوعة . وربما تكون غير معروفة بالمرة . كما أنها تكشف عن وقائع اجتماعية . وأحداث مجهولة يجليها شاهد عيان . وأحيانا يقع العثور فيها على حقائق لم تكن ميسورة في حياة مرسلها.

هذا إلى أن العديد من الرسائل تستفاد منها الترجمة الذاتية لصاحبها كلا أو بعضاً . ولهذا فهي تعتبر مصادر تاريخية دفينة من الدرجة الأولى . ومصادر أدبية واجتماعية لا تقل أهمية عن المصادر الأخرى . وهي تعتبر من أوثقها لأنها غالبا ما تكون موقعة ومؤرخة ولا يمكن الشك في صحتها كمصدر موثوق به في هذه المجالات العلمية . لإثبات حقيقة أو دحض شُبهة

2 — الخصائص الفنية لرسائل اليوسي :

يقال : « إن الأسلوب هو الرجل نفسه » . ولما كان الناس يختلفون كل منهم عن الآخر بحسب اتجاه الفكر والشعور . ومقام الفرد من المجتمع . إلى غير ذلك من العوامل . اختلفت تبعاً لهذا أساليبهم . وكلما استوحى الكاتب نفسه وصدر عنها كان أقرب إلى الصدق وأدنى إلى طبيعة الفن .

وأسلوب اليوسي في هذه الرسائل . هو خلاصة التجربة في التعبير التي مارسها في مؤلفاته ومصنفاته العلمية والأدبية التي أنتجها في مختلف العلوم . والذي نقله تلامذته عنه مما يجعله بحق زعيم مدرسة في الكتابة تتميز بالاهتمام

بالفكر والنقد والتحليل .

وهو أسلوب نثري خال من التعقيد والمحسنات المتكلفة ، مما يظهر بحق أثر الزاوية الدلائية في الأدب المغربي ، والتي كونت هذه المدرسة التي ينتمي اليها اليوسي في كتابته ، هذه المدرسة التي أعطت للأدب المغربي ميزة أصبحت في عصر اليوسي تكاد تكون منعدمة ، خصوصاً في المشرق في أسلوب الرسائل حيث الانحطاط الأدبي والتلاعب بالألفاظ ، وإهمال الفكر إهمالا كاملا.

وإذا حصرنا الكلام في الرسائل متسائلين : هل كان اليوسي يسير في رسائله على النمط القديم أم هل جدد في شكل الرسالة ؟ نجيب أن اليوسي تصرف بحرية في الهيكل العام للرسالة ، فلم يلتزم بالشكل الذي حدد لها في كتب القدماء وإنما أخضعها لمتطلبات فكره :

فالمقدمة غالباً وفي جل الرسائل بسيطة قصيرة ، يلخص فيها موضوع السؤال ، باستثناء بعض الرسائل التي خصص لها ديباجة قصيرة بمفهومها الكلاسكي راعى فيها موافقة التحميدات والاستهلالات لغرض الرسالة ، ولكن من غير إطناب ولا تكرار ، يستعمل السجع فيها ولكنه لا يتقيد به دائما تقيد المتأنقين . وسجعاته في هذه الديباجة أكثرها قصير الفقرات حسن الازدواج . وقبل أن يبدأ الجواب يبدأ قبل كل شيء بتحديد معالم القضية المطروحة ، وإبرازها في إطارها الخاص ، متنشلا إياها من الإبهام والغموض والعموميات.

وفي هيكل الرسالة يتناول الموضوع المستوحى من علم الكلام أو المنطق أو الفقه أو الأدب أو غير ذلك من المسائل الاجتماعية أو السياسية ، ويعالجه بطريقة جديدة غير ما تعودنا عليه في كتب الفقهاء والمتكلمين المتأدبين ، ودون أن يستعمل مصطلحات المختصين إلا في النادر ، يعالجه بطريقته الخاصة ويسلط عليه أضواء تحليله الشخصي ، فيعدد الاحتمالات وينص على حكم كل احتمال ويقسم ويحدد ، ويناقش ويحلل ثم يبدى رأيه الخاص مناقشاً كل الاعتراضات المحتملة معززاً آراءه بالحجج والبراهين . وهذه الطريقة تبرز طلاقة الرجل ، وعمق ثقافته العلمية والأدبية كما أن لطريقته في التأليف قيمة كبرى في حسن الإقناع.

والرسائل مزيج بين العلم والفن ، أي العلم والأدب ، ومميزات الكتابة الأدبية والكتابة العلمية تتداخل ، وإن كانت العلمية تطغى في بعض الرسائل حيث العناية بالتقسيم والترتيب والتفريع والتحديد في ضبط رياضي متناهي الدقة لا تستطيع أن تلخصه ، ولا أن تحذف منه كلمة واحدة مع الحفاظ على استقامة المعنى .

وحيوية التحليل وعمقه تجعل القارئ يهتم من جانبين : متابعة سياق الفكر ومراقبته ، والتفكير معه في ذات الوقت

[واللغة التي يستعملها اليوسي عموما واضحة لا غموض فيها ولا غريب يحتاج إلى مراجعة لفهمه ، كما أن كلماته سهلة في النطق ، موسيقية الجرس في الأذن ، لا في ذاتها فحسب بل حتى في علاقتها ببعضها البعض ، وهي على وضوحها وسلاستها متينة لا إسفاف ولا هلهلة تنزل بها إلى أن تكون من المتداول العادي . هذه اللغة قصد إليها اليوسي قصدا لتكون الرسالة مفهومة لدَى المتوسطين في الثقافة اللغوية كما تكون مفهومة عند المتضلعين وذلك ناتج عن العفوية التي اقتضاها أسلوب الرسالة في التعبير بما هو حاضر من الشكل والمعنَى ، بل أننا نلاحظ أنه كثيرا ما يستعين بالكلمات والأمثال العامية لتقريب معانيه من مخاطبه وليبقَى قريباً منه .

ومن الوجهة اللغوية كذلك نجد أن الرسائل تزخر بهذه المصطلحات السياسية ، ومصطلحات علم الكلام ، والمنطق ، والتصوف ، والفقه . وهناك من أسماء الأماكن والقبائل ، والمدن المغربية مما يجعل للبيئة أثراً في الرسائل لا يخفي على أحد ، بالرغم من هذه اللغة والمصطلحات الأدبية والعلمية التي تشيع في الأدب العربي خاصة والثقافة العربية عامة . وكل هذه الألفاظ والمصطلحات تنم عن مشاركة الرجل وموسوعيته ، وأنه جمع في هذه الرسائل بعض معارفه المتصلة بالسياسة والتصوف وعلوم الإنسان كما تبرز معرفته بالبلاد التي اكتسبها من رحلاته في أول حياته وآخرها

شواهد الرسائل :[يحلي اليوسي رسائله كثيراً بالتضمين والاقتباس من القرآن الكريم ، والحديث الشريف والآثار] كما يورد الكثير أيضاً من شعر الشعراء ،

وحِكم الصوفية وأقوالهم ، مع الإشارات التاريخية الكثيرة لما يدور في عصره من الأحداث . وكلها أحسن اختيارها إحساناً ، في إيجازها ، وجمال معانيها ، والتحامها عضويا مع البناء العام للرسالة . ويلاحظ في شواهده أنه لا يلح في إسنادها ونسبتها سواء الأدبية منها أو الفقهية أو غيرها . ولا يفوتنا أن نلاحظ أن اليوسي قليل النقول إلا ما لابد منه.

ويؤخذ على اليوسي أنه قصر استشهاداته غالباً على الأدب العربي القديم ، فكأنه لا يعرف شيئاً من أشعار معاصريه أو الأدباء المغاربة قبله . وهذا ينم في شخصية اليوسي الأدبية أنه متجه للشرق ، فلا أثر للحياة الأدبية المغربية اللهم إلا ما كان من بعض الأندلسيين ، وربما كان هذا بدافع رصانته الأدبية واتجاهه المدرسي ، ولو تعرض للشعراء والأدباء المغاربة وجعل شواهده من أشعارهم لساهم بحسن ذوقه وأسلوبه الناقد الشمولي في إرساء قواعد الأدب المغربي ، كما هو الشأن في اهتمامه بالمتصوفة المغاربة المعاصرين له والمتقدمين ، في نقل أقوالهم والاستشهاد بها واستخلاص النتائج منها وفي نقل صورة المجتمع والفكر .

أما عن اليوسي الشاعر ، فرغم قلة شعره في الرسائل الاّ أننا لا يمكن أن ننسى أنه كان شاعرا مجيدا مكثرا له ديوان مهم يستحق الدراسة والبحث (1)

ونحن عند رجوعنا إلى هذا الديوان نتعرف على شاعرية غزيرة المادة . وقد نظم اليوسي في مختلف الأغراض المألوفة عند الشعراء القدامى ، ولكنه كان مكثراً في القصائد ذات الطابع الديني ، على شكل توسلات وابتهالات ومديح نبوي وتوجيه النصح إلى المسلمين . ويمكن أن ننعت هذا الشعر بأنه نابع من أعماق عالم متدين بعيد كل البعد عن مجالس اللهو والمجون .

ويلي شعر التوسل والمواعظ من حيث الأهمية قصائد ومقطوعات من النوع

---

(1) للديوان نسخ كثيرة مخطوطة في الخزانتين الملكية والعامة . أجودها مخطوطة الخزانة العامة جـ 32 وقد طبع طبعة حجرية مفقودة . وقد حققه الأستاذ عبد الحميد أحمد المنيف .

الذي يعرف اليوم بالإخوانيات . والظاهر أنها جاءت في مراسلات بين اليوسي وبين عناصر من الفقهاء والمتصوفة . فجاءت قصائده فيها على النمط التعليمي في أغلبها بحيث أنك لا تجد في كثير من هذه القصائد خفة الشعر ، ورونقه ، وجمال الصورة وبهائها ، بل قد كان فيها متوخياً الأسلوب الوعظي الذي تغلب عليه اللهجة الخطابية (1) دونما التزام لموضوع واحد أو تحليل لفكرة معينة ونماذج ذلك كثيرة في الديوان ، كرسائله الشعرية لأحمد بن عبد القادر التستاوتي ، ومحمد المرابط ، وأحمد العطار ، ولأحمد الشفشاوني وغيرهم . يقول في رسالة لهذا الأخير :

ياحِبَّنا يا أبا العباس لا برحت ... عين العناية من مولاك ترعاك
ولا برحت غيوث الفضل ساجمة ... ممرعة كل حين روض مرعاك
ولا برحت على جد وفي جدد ... من الإنابة والتقوى لمولاك
وكل من حل هذا القطر من رجل ... وامرأة دان بالتقوى وآخاك (2)

والغالب على شعر اليوسي في هذا الفن من الرسائل الإخوانية ، الوضوح والسهولة التي تبلغ في بعض الأحيان درجة الإسفاف مع التضمين والاقتباس من القرآن والحديث ، جانحاً إلى المبالغة وإلى العناية بالبديع والبيان ، مع الإشارات التاريخية لما يدور في عصره من الاحداث وغيرها. (3)

ويتميز شعر اليوسي في جميع الأغراض من مدح وفخر ورثاء وغيرها بالاتجاه الأخلاقي ، كما يبرز اليوسي المتصوف في استقامته وتدينه.

---

(1) أنظر القصيدة في الرسالة إلى أبي العباس البوعمري ضمن رسائل التصوف
(2) أنظر الديوان ص 50
(3) أنظر قصائده الشعرية إلى أحمد بن عبد القادر التستاوتي في الديوان

3) الخـاتمـة :

قد رأينا فيما أسلفناه من حديث أن اليوسي كان عالماً مشاركاً ، ضارباً في مختلف العلوم ، ولكنه تميز بتلك الخاصية التي انفرد بها بين معاصريه من العلماء وهي أنه يعتمد على طاقته العقلية ، وكفاءة ذكائه وشفافية إحساسه وفطنته ، أكثر مما يعتمد على المنقول والمحفوظ إلاّ عند الحاجة ، وبذلك لا يلجأ إلى مطالعة أو كبير عناء للإجابة عما يرد عليه من الأسئلة أو الرسائل ، فكان إذا ما ورد عليه شيء من ذلك يمسك القلم ويتحدث (1).. يتحدث حديث الواثق من علمه ، المطمئن لمعرفته ، القوي في حجته ، في صراحة نادرة لا يبالي معها بمكروه ، ولا يخشى ما تجره من حملات ضده ، ومن عنف يلحقه ، ومن حرج يتحرج به موقف مخاطبيه ، وما فتواه التي أفتى بها في قضية الأمة التي استفتاه فيها المولى إسماعيل ، إلاّ آية من آيات صراحته وأمانته في علمه ، ومن أجل ذلك قالوا عنه « إنه أفنى نفسه في الذب عن الشريعة وحرر فصولها وأسس أصولها المنيعة » (2)

وفكر اليوسي كان في كل هذا فكراً خلّاقاً كما أشار هو لذلك في الفهرست (3) ينفذ إلى عمق المادة ، يستخلص اللباب ويغوص إلى الجوهر ، مما جعله يكون تحديا بالنسبة لثقافة العصر التي تعتمد كليًّا على الرواية والنقل (4) بالدرجة الأولى . فاليوسي لم تغلب عليه ثقافة الحفظ والاجترار والنقول ، ولكنه رجل الرأي والتحليل والمقارنات والاستنتاجات ، الرجل الذي تمكن من تجاوز المصادر والأمهات والوصول إلى المبادئ والكليات ، وبهذا كان اليوسي يمثل تيار التجديد بالقياس إلى مدرسة فاس التقليدية.

---

(1) أنظر « هداية الملك العلام » لأبي العباس أحمد الهشتوكي ص 79 .
(2) ابن سودة شرح رائية اليوسي ص 2 .
(3) أنظر الفهرست ص 156 .
(4) أنظر جواب عالم معاصر له هو أبي مدين السوسي في مسألة العكاكزة مخ خ ع ر كـ 1361 ص 188 — 196 لادراك الفرق الشاسع بين الثقافتين من خلال الموضوع الواحد .

وتفكيره مطبوع بالأناة والموضوعية لسببين :

الأول : راجع إلى شخصية اليوسي صاحب السمت والجدية التي تتمكن من أن تضغط على عواطفه ، وتفسح المجال لعقله ، يقلب على جوانبه في أناة . وهذا ما تعكسه رسائله ، فهو الناقد الموضوعي ، والمحلل النفسي ينظر إلى القضية بعيدة عن ذاته.

الثاني : المعاناة وعمق التجربة ، والسن التي وصل إليها عندما أصبح يراسل ، أي الفترة الثالثة من عمره .

كما أن الرسائل كانت أيضا ترجمانا فياضاً لعواطف اليوسي وخلجاته النفسية فعاطفته فيها عاطفة دينية صوفية تستند على الإيمان العميق بالله ، والتسليم له ، والرضى بالقضاء ، وهي عاطفة قوية صادقة ، وفية لأهل الدلاء فلقد رثاهم ورثي ديارهم وبقيت تلك العاطفة نستشفها في كل ما يكتب حتى في الرسائل (1)

وهي مع ذلك عاطفة غير مندفعة ، تلتزم الحكمة والتبصر ، إلا إذا أثارها مثير ، مثلا حينما يطالب بالتدريس في فاس ، أو حينما يتبرأ منه « بالله وبشريعة الله » (2) أو يتهم باتهامات كثيرة تتعلق بالعلم والتصوف والتعليم ، والبربرية ، هنا يثور ويندفع ومع ذلك يبقى على أناته وتبصره وحذره في الوقت الذي يسمع مخاطبه ما لا يرضاه ..

كما أنه احتفظ بصراحته البدوية البريئة التي لا تستنكف الاعتداد بالمزايا المكتسبة (3) من حين لحين عندما يلجئه الوسط الفاسي الجديد عليه إلى ذلك ، وما شعر به اليوسي فيه من حاجة إلى ما يشد عضده فيما لاح له من بوادر الصعوبات ، بما عرف في رجالها من شدة أمام الطارئ أمثال اليوسي الذي لم يحمل معه رصيدا من النسب الذي تفتخر به العائلات الفاسية آنذاك . كل

---

(1) أنظر رسالة « جواب الكتاب »

(2) المرجع السابق

(3) أعني بذلك علمه وفضله أنظر آخر رسالة جواب الكتاب.

هذا هو الذي حدا باليوسي إلى إقامة الحجة على منافسيه بما له من رصيد آخر غير النسب . يزكيه ويشد عضده ..

والثابت أن علم اليوسي وذيوع صيته . قد أكسبه علاقات مستحكمة من الطلبة لا تنتهي بحلقات الدروس . بل تتجاوزها إلى الصحبة والاتصال المستمر مشافهة وكتابة .. مما فسح لمؤلفاته والأفكار المجال للذيوع والانتشار خصوصا ما جاء في رسائله في الشؤون العامة . وفي التربية والتصوف وفي الفقه فأخباره مع السلطان إسماعيل يعرفها الجميع في عصره . ورسائله إليه يتناقلها الطلبة والمثقفون يدل على ذلك كثرة من استشهد بها في كتب عصره . قال صاحب الدر المنضد عن رسالة « براءة اليوسي » : « ... وهي رسالة مذكورة في النشر . ومشهورة عند الخاص والعام من أهل العصر . » (1)

ولقد تأثر به غير واحد من معاصريه والأدباء الذين أتوا بعده من أمثال « أبي حامد بردلة » في قضية جمع الحراطين والفقيه محمد جسوس في نفس القضية . وفي دفاع صاحب « المنزع اللطيف » عن السلطان المولى اسماعيل بسبب قتله للعالم محمد جسوس يقول : « ... ولو كان المولى إسماعيل ممن لا يقبل الحق ولا يتعظ لسماعه حتى يأمر بقتل الفقيه جسوس لأمر بذلك في حق أبي حامد المذكور... ومن اطلع على رسائل الإمام اليوسي للمترجَم . المطولة والمختصرة . وعلم مكانته لديه . وما كان يقابله به من التبجيل والإجلال . وقد مرت بك شذرات من ذلك . لم يبق له أدنى وهم في رضوخ صاحب الترجمة للتعاليم الشرعية .. » (2)

ولعل الأديب الذي تأثر باليوسي في هذا الميدان أكثر من غيره من الوجهة النظرية على الأقل (3) . فيما يبدو لي . هو المؤرخ الأديب أبو القاسم بن أحمد الزياني . فالذي يطلع على كتبه يلاحظ كثرة استشهاداته باليوسي والكلام عنه . بل وربما في بعض الاحيان ينسب اليه ما لم يقله . وذلك لأنه ربما وافق بعض

---

(1) صفحة 217

(2) المنزع اللطيف ص 316

(3) انظر تحفة الاعلام في شرح دول الإسلام مخطوطة الخزانة العامة بالرباط كـ 224 ص 162.

أفكاره كالأبيات التالية : (1)

لا تقربن ملكا ولا تلوذ به ولا تنال عنده عزًّا وتمكينا
يستخدمونك في لذات أنفسهم فيذهب العمر لا دنيا ولا دينا

بل إنه يذكر (2) زياراته المتكررة لزاوية الحسن في محنته مع السلطان سليمان وكيف وقف عليه اليوسي في المنام.... !

أما الرسائل في التربية والتصوف فقد عرفت هي الأخرى انتشارا وذيوعا لا مثيل له . وقرئت ونقلت في مختلف جوانب المغرب . وكان ذلك سببا في توعية أهل البوادي والحواضر لأنواع الاستغلال التي كانو ضحية لها باسم الدين . ونبههم نسبيًا إلى حقيقة التصوف وصفاء أهدافه . وأمكن لفتاويه الفقهية أيضاً أن تنشر بعض الوعي لأنها كانت دائما تتخذ من الواقع المُعاش منطلقا لكل فتوى ولكل جواب .

وخلاصة القول فإن اليوسي واجه واقعه بالتوجيه والتصحيح والنقد . وبالرفض عندما لا يتمكن من استعمالها . الرفض العملي الذي أفضي به إلى التشريد في آخر حياته . والرفض بالكلمة .. وكأنه يستهزئ بهؤلاء الذين يحيط بهم الفساد من كل جانب فلا يضايقهم ولا يتخذون منه موقفا معينا . ولا يريدون أن يعيشوا لقضية من القضايا في حياتهم .

فهؤلاء الذين لا ينتمون إلى قضايا مجتمعهم يرى فيهم اليوسي فقدانا للحس كالمجانين . أو ضعفه كالأطفال . وهؤلاء يسلم باطنهم من كل صراع...

أما الذين ينتصرون لقضية معينة . فإنهم مقضي عليهم بعذاب الباطن . ولا ينسى اليوسي هؤلاء المنتمين إلى شيء غير صحيح . ولا يقوم على أساس . ويتوهمون فيه الملاءمة . ويكرهون الملائم ويتوهمون أنه منافر . بتدخل عامل من العوامل وهؤلاء هم المنتمون المزيفون » (3)

---

(1) أنظر الترجمانة الكبرى مخ خ ع ر ك 3252
(2) المرجع السابق ص 324 .
(3) طرق اليوسي هذه النظرية بكيفية مفصلة في المحاضرات ص 121 الطبعة الحجرية .

وكل مجتمع يعيش مرحلة تحول سياسي واجتماعي مثل عصر اليوسي ، فإنه سيعرف هذه النماذج الثلاثة : الذين يعملون من أجل مُثلهم فيتعذبون ، وهؤلاء الراضون بالسلامة ، وهؤلاء المنخرطون في صراع منحرف عن طبيعة الأمور.

*

الرسائل في الشؤون العامة وأحوال المجتمع

الرسالة الكبرى للمولى إسماعيل

نبدأ هذه الرسائل بما يُسمى «بالرسالة الكبرى لإسماعيل» وهي رسالة جوابية على خطاب السلطان المولى إسماعيل لأبي علي اليوسي. وتُعرف هذه الرسالة أيضاً باسم «جواب الكتاب». وسميت «بالكبرى» مقابلة لها برسالة أخرى أقل طولا، أرسلها الحسن اليوسي لنفس السلطان تسمى «بالرسالة الصغرى» أو «براءة اليوسي» وسوف تأتي.

وهذه الرسالة، يُجيب فيها الحسن اليوسي على كتاب المولى إسماعيل الذي يَرميه فيه بالتَّهرب من التدريس في الحواضر، وَتَضْييع العلم، وادِّعاء التصوف، والعصيان، والعصبية، وأشياءٍ أخرى يُجيب عليها اليوسي فقرة فقرة وبالتفصيل.

مخطوطات الرسالة :

توجد من هذه الرسالة فيما وقفت عليه حتى الآن سبعُ نسخ مخطوطة، اِثنتان منها في الخزانة الملكية بالرباط، وأربع بالخزانة العامة بالرباط، ومخطوطة خاصة بمكتبة الأستاذ الفاضل محمد بن حماد الصقلي بفاس.

أما في مكتبات وخزانات المدن المغربية الأخرى كتطوان، ومكناس، وطنجة، ومراكش، فرغم توفرها على بعض مؤلفات الحسن اليوسي فإنني لم أقف فيها حتى الآن على الرسائل. وأما في خارج المغرب فتوجد لها نسخة مصورة في معهد المخطوطات العربية بالقاهرة، وهي مصورة عن مخطوطة الخزانة العامة د 1348 كما ذكر لي ذلك مدير المعهد الأستاذ قاسم الخطاط، جواباً على مُراسلتي له في هذا الشأن. وهي كل ما يوجد في الخارج كنسخ لهذه الرسالة بعد أن كاتبت أهم الخزانات المهتمة بالدراسات العربية في العالم.

وهذه المخطوطات هي كالتالي :

الأولى : مخطوطة الخزانة الملكية بالرباط تحت رقم 2998 رمزها «خمف»

الثانية : مخطوطة الخزانة الملكية بالرباط تحت رقم 1558 رمزها «خم»
الثالثة : مخطوطة الخزانة العامة بالرباط تحت رقم ج849 رمزها «جـ»
الرابعة : مخطوطة الخزانة العامة بالرباط تحت رقم د1348 رمزها «د»
الخامسة : مخطوطة الخزانة العامة بالرباط تحت رقم د3390 رمزها «د 2»
السادسة : مخطوطة الخزانة العامة بالرباط تحت رقم د2753 رمزها «د 3»
السابعة : مخطوطة مكتبة الأستاذ محمد بن حماد الصقلي بفاس رمزها «ص»

وصف المخطوطات :

أطلعت على هذه النسخ جميعِها ؛ وأمكن أن أُصورها كلَّها. ورتَّبْتُها في مجموعات أصفها فيما يلي :

المجموعة الأولى : وتضم «خمف» و «د 3» و «ص». وتتميز نسخ هذه المجموعة بالأمانة والدِّقة نِسبيّاً ، وقلة الإسقاطات والتحريفات وقد لاحظت تشابها كبيرا بين «خمف» و «د 3» ، ففيها نفس الأخطاء وإن كانت نسبيّاً قليلة ، لذا فقد أَلْغَيْتُ «د3» عند نقل المقارنة.

— وصف مخطوطة «خمف» : خط مغربي واضح ، ولكن بعض أطرافها قد أكلتها الأَرَضَةُ ، مِمَّا أحدث ثقوبا كثيرة في أطرافها العُلْيَا. والمخطوطة لا تضُمّ إلا الرسالة الجوابية لليوسي مستقلة في كتاب صغير غير مرقم (أرقام المتن وضعتها لنفسي) ، عليه طابع المكتبة الملكية ورقم المخطوطة. وفي آخر الرسالة تاريخ الجواب بكلام اليوسي. ولم يذكر تاريخ النسخ ، كما أغفل إسم الناسخ . فهي إذن خاليةٌ من كل تعليق أو تمليك.

وقد اعتمدت على هذه النسخة واعتبرتها أصلا ، لقلة أخطائها وإسقاطاتها ، ولاستيفائها للنص ، وباعتبارها أجود ما بيدي نظراً لعدم وقوفي على النسخة الأم.

— وصف مخطوطة «ص» : خط مغربي جميل ودقيق ، مخطوطة أنيقة يستعمل ناسخها الألوان. وهي إن كانت أجمل من «خمف» فهي أقل أمانة منها في النص ، ويظن مالكها الاستاذ الصقلي أنها النسخة الأصل . وأنا أستبعد ذلك نظراً لتنميقها أولا ، ولخُلوها من كل تمليكٍ، ولكون اليوسي لا يمكن أن

يكتب على تلك الصفة من التأنق، فقد أمكنني أن أطلع على تمليك بخطه على كتاب «الشفا» للقاضي عياض في حوزة الاستاذ المرحوم العابد الفاسي، يؤكد ميله إلى البساطة في الكتابة، بل أن خطه يتَّسِم ببداوة تَنِمُّ عن أصول ثقافته. ولم يذكر الناسخ في آخرها إلا التاريخ الذي ذكره اليوسي بدون إشارة لاِسمه أو لتاريخ النسخ.

والرسالة في مجموع، يضمها هي أولا، ثم كتاب «الكوكب الساطع بشرح جمع الجوامع» للحسن اليوسي.

وصف مخطوطة «د 3» : خطها مغربي جميل، وأظنها منقولة عن «خمف». وهي في مجموع أوله :

الرسالة لإسماعيل من الصفحة 1 إلى 62
شرح لدالية اليوسي في مدح شيخه بناصر
منظومة في التوسل منسوبة لأبي علي اليوسي
جواب لعبد السلام الأزامي على كتاب للسلطان سليمان
تأليف لسيدي محمد بن علي الورزازي غير تام.

وفي آخر رسالة جواب الكتاب تاريخ الجواب بقول اليوسي. ثم زاد الناسخ بعده : «كان الله له آمين وسق ثراه، وتغمده برحماه، بجاه خير الأنام وسائر الإسلام. فالله يفيض علينا من بركاته ما يكون وصلة للعلم والعمل به بجاه النبي الكريم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

المجموعة الثانية : تضم «جـ» و «د2» إحداهما نقلت عن الأخرى حرفيّاً، فتحريفاتهما واسقاطاتهما وأخطاؤهما تتفق دائما وباطراد. أما خطهما فلا بأس به خصوصا «جـ» لذلك اعتبرتها هي فقط عند نقل المقارنة، وألغيت «د 2».

وصف مخطوطة «جـ» : مجموع من مكتبة التهامي الكَلاوي يتضمن جواب اليوسي من صفحة 1 إلى 91 بخط مغربي واضح جميل، وإسقاطات وتحريفات كثيرة. لم يذكر تاريخ النسخ ولا إسم الناسخ. ويضم المجموع :

— «مسالك الهداية» لعبد الله العياشي

— «فهرست» محمد بن الحسن البناني
— «فهرست» محمد بن أحمد بن غازى
— «المذاهب القدسية» لمحمد بن الحاج العباس الفاسي
— «مناهل اللهفان» لعبد السلام بن الطيب القادري
— «الطرفة في اختصار التحفة» للعربي بن الطيب القادري

وصف مخطوطة « د 2 » : مجموع يضم «جواب الكتاب» من ص 258 إلى ص 354 وقبله كتاب لأحمد زورق بعنوان «إعانة المتوجه المسكين إلى طريق الفتح والتمكين» خط مغربي متوسط.

المجوعة الثالثة : تضم «خم» و «د» وتجتمع هاتان المخطوطتان في أشياء كثيرة. خطها ردئ جداً، الناسخان معا يتركان في أغلب الأحيان بياضاً عند عجزهما على قراءة الكلمة. إسقاطات طويلة وتحريفات متعددة.

وصف مخطوطة «خم» : هي عبارة عن مجموع غير مرقم وجواب أبي على اليوسي في آخر المجموع كتب بعده بخط مخالف لخط الناسخ الذي نقل الرسالة : «كمل والحمد لله في 2 جمادي الأولى 1310» ولم يذكر إسم الناسخ ، كما أنه لم يُثبت التاريخ الذي ذكره اليوسي في آخر رسالته. ويشتمل المجموع على :

— وصية للإمام أبي عبد الله محمد بنزكري الفاسي
— بحث في شرح معاني التصلية
— بحث لعلي بن يوسف البصري الشافعي
— كتاب «بشرى الكئيب بلقاء الحبيب» لجلال الدين السيوطي

وصف مخطوطة «د» : مجموع يضم عدة مؤلفات ، والرسالة الجوابية لليوسي من ص 20 إلى 66 وخطه ردئ جداً ، وإسقاطاته كثيرة. ولم يثبت ناسخ الرسالة التاريخ الذي ذكره اليوسي في آخر رسالته ، وذكر تاريخ الفراغ من النسخ في 23 شعبان 1329 على يد أحمد النَّميشي الحسني. ويشتمل المجموع على :

— رسالة لمحمد العربي بن السايح الشرقي لبعض أصدقائه
— تأليف للقرافي في النية
— شرح الأزهري لمقدمة ابن الجزري
— شرح لمحمد بناني على منظومة موانع الإعراب

وفي أول المجموع في الصفحة الأولى كتب : «صارت هذه الرسالة الجليلة المحتوية على النكث الرقيقة ، لكاتبه أحمد بن محمد النميشي من تركة مالكها أولا العالم العلامة مولانا علي بن أمير المؤمنين مولانا الحسن . ولا أدري لأي رسائل المجموع يشير كاتب هذه الطرة.

صعوبات المقارنة :

اعتمدت كما سبق أن ذكرت آنفاً على مخطوطة الخزانة الملكية التي رمزت إليها بـ — «خمف» واعتبرتها أصلا لعدم توفّري على ما هو أوثق ، لأن المتن فيها أكثر أمانة من غيرها وأضفت إليها الزيادات مما وجدته في بقية النسخ ويتطلبه سياق النص ، وهي زيادات قليلة وطفيفة وضعتها بين قوسين . وقد قارنت بين النسخ جميعِها وتشترك في الأخطاء الفادحة في نقل الشعر ، وقد وجدت صعوبة كبيرة في تصحيح ألفاظه وتقويم وزنه ، كما سمحت لنفسي بتصحيح الأخطاء الإملائية الكثيرة التي وقع فيها النساخ.

الرسالة الاولى

مَرْكَزُ المجدِ والسَّنَا . ومَأْرِزُ[1] (1) الحَمْدِ والثَّنَا . وَيَنْبُوعُ المحَاسِنِ والمفاخر . ومجمع المَحَامِدِ[2] والمآثر . السلطان الأعظم . الأجل الأفخم . أبو الثنا . مولانا إسماعيل بن مولانا الشريف . الغَنِيُّ بارتفاع قدره على التعريف(2) سلام على سيدنا ورحمة الله تعالى وبركاته . فإني أحمد إليه[3] الله الذي لا إلاه إلا هو . وأسأله أن يؤيِّدَهُ[4] بأسباب التوفيق . ويُنيلَه مفاتح الخير في كل طريق . وأن يُصلحَ به البلاد والعباد . ويُلهمه الصواب والرشاد . والحكمة والسداد . ويَنْشُرَ(له ثناء)[5] جميلا في كل ناد . إنه الكريم الجواد.

هذا وقد وردت عَلَيَّ كُتُب (3) سيدنا الكريمة . ومراسمه الجليلة العظيمة . فإذا هُو قد أحسن فيها وأجاد . وأبدى وأعاد . وبلغ من كل فصل المرادَ وفوق المراد[6] . ولا يُستغرب هذا وأبلغُ منه من الجانب الهاشمي الأبطحي :

قومٌ لهم جُرثومةُ المَجْدِ[7] التي أعْيَتْ مَحَافِرُهَا على المِنْقَارِ(4)
أهلُ الفَصَاحَةِ وَالصَّبَاحَةِ فِي العِدَا أُسْدُ العَرِينِ وفي العشير[8] مَقَار(5)

---

1 — في الأصل « مأزر » التصحيح من خم . 2 — د أسقط « مجمع المحامد » وزاد « بل ». 3 — جـ « إليك ». 4 — « يؤيدك » « ينيلك » الخ في جـ. 5 — في الأصل « ثقب واسع » صححت من بقية النسخ . 6 — جـ أسقط « وفوق المراد ». 7 — في الأصل « الحمد ». صوابه من بقية النسخ . 8 جـ « العشار معار » د « العشار مقار » خم « العشير منار ».

---

(1) — أرز يأرز : تجمع وثبت. المأْرِز الملجأ (القاموس).

(2) أشار عبد الرحمان بن زيدان لهذه الديباجة في كتابه «المنزع اللطيف في التلميح بمفاخر مولاي اسماعيل الشريف. قال «وحلاه أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي بقوله : مركز المجد...» المنزع ص 14 مخطوطة خ ع ر جـ 595.

(3) من المرجح أن تكون لهذا الكتاب نسخة في أرشيفيات المكتبة الملكية ولم أتمكن من البحث الجاد عليه نظرا للأعمال الجارية في المكتبة باستمرار.

(4) لم أقف بعد على قائل البيتين ويظهر أنهما في مدح بيت شريف يصفهم الشاعر بالمجد الأصيل الذي لا يمكن أن ينال منه نائل.

(5) ويصفهم بالفصاحة والصباحة والشجاعة وإكرام الضيف : مقاري ج مِقرَاء : هو مقرىً للضيف ومقراء للمبالغة.

ثم إن سيدَنا استدعَى مِنِّي الجواب . على فصول الكتاب . فكنت تَلَكَّأْتُ عن ذلك لأمور :

أحدها : الهيبة . فإن مقام السلطان أجل في النفوس . (من) أن يخاطب بكلام . أو يراجع في مرام :

تَتَلَجْلَجُ[1] اللِّسْنُ[2] (6) المصَاقِعُ(7)[3]
في الإيوان من رُعْب ومن إجلال[4] (8)

ثانيها : التَّفَادِي[5] عَنْ عَادِيَّةِ القَول والبلاء الموكلين بالمنطق . ويقال من كثر كلامه كثُر سَقطه . وما زالت كثرةُ الكلام مذمومة إذا لم تدْعُ إليها[6] دَاعِيةٌ . حتَّى أن عمر بن عبد العزيز عزل بعضَ قُضاته . فقال لم عزلتني ؟ فقال : بلغني[7] أن كلامك مع الخصمين أكثر من كلام الخصمين ولأبي العتاهية : (9)

الصَّمت أجملُ[8] بالفتى من منطِقٍ في غير حِينِهْ[9]
ص 2 لا خير في حَشْوِ الكَلا م إذا اهْتَدَيتَ إلى عُيُونِهْ/

---

1 — جـ « يلجلج ». 2 — د « الألسن ». 3 — « المصانع » في خم . جـ . ص . 4 — جـ « واجلال » باسقاط من . 5 — خم « التفاعم ». 6 — في الأصل « إليه » صححت من جـ. ص. 7 — خم أسقط « بلغني ». 8 — جـ « أحمد ». 9 — د « دينه ».

---

(6) **اللِّسْنُ** : من لسان التي تجمع على ألسنة. وَأَلْسُنٌ. وَلِسَانَاتٌ. أو : من أَلْسَنٍ : أي فصيح.

(7) **المِصْقَعُ** : الفصيحُ . البليغ.

(8) إذا اعتبرت ما جاء في خم. جـ. ص يكون البيت على هذا الشكل في شطره الأول

يُلجلج اللَّسِنُ المصانع في الإيوان من رعب ومن إجلال

ولم أقف بعد عليه لتحقيق روايته

التلجلج واللجلجة : التردد في الكلام. (تاج العروس)

(9) البيتان من قصيدة لأبي العتاهية مطلعها :

المرءُ نحوٌ من خديـنه فيما تكشَّف عن دفينه

أنظر الديوان ص 405 تحقيق الدكتور شكري فيصل. والبيت مقطع في جميع النسخ على هذا النحو :

لا خير في حشو الكلام إذا .. الخ

ثالثها : ما يُخْشَى من اعتقاد سيدنا أنا نريد مراجعته أو مُحاجته أو مُنازعته. ومعاذ الله لا نريد ذلك ولا نشتغل به في شيء من الأشياء. بل نحن في محل التسليم والانقياد(10). فما أحب أن يقول فينا فليقل. وما أحب أن يفعلَ فينا فليفعل. ونحن سامعون مُطيعُون لأمْره. ما لم يكُنْ إثْماً. فإن جاء أمره[1] على وفق الغرض حمدنا الله تعالى وجزينا سلطاننا خيراً. ودعونا له به. وإن جاء خلاف ذلك صبرنا بحكم الله[2] وعَذَرْنا السلطان. وعلمنا أنه لم يأمر حتى سبق القضاء والقدر. وأنا في ذلك كما قال أبو نواس(11) :

فإن تُوَلِّني[3] مِنْكَ الجميلَ فأَهْلُه ... وَإلاَّ فَإِنِّي عَاذِرٌ وَشَكُورُ

وهذا هو حاصل الجواب. ونهاية الخطاب. وإن كثُر القَوْلُ.

ثم إني[4] رأيتُ أَنَّ أَمْرَ سيدنا — أيده الله — بالجواب. على فصول الكتاب. لا ينبغي أن يُهْمل. ولعلَّ فيه إن شاء اللهُ فوائدَ تُفَصَّلُ فتُحَصَّل.

وإن أمور العلم عند رُوَّاده. كما قال امرؤُ القيس عند وصف جواده :

يَجُمُّ عَلَى ٱلسَّاقَيْنِ بَعْدَ كَلاَلِهِ
جُمُومَ عُيُونِ ٱلْحِسْيِ بَعْدَ المَخِيضِ(12)

---

1 — جـ « وفقه ». 2 — جـ أسقط « بحكم الله » 3 — جـ « تولاني » ص « توليني ». 4 — د. خم اسقاط « أني »

---

(10) المؤلف يذكر التسليم والانقياد للسلطان في هذه المقدمة لكتابه. تابع في الرسالة كيف يظهر عكس ذلك تماما بعنف وجرأة في أغلب الأحيان. مؤيداً أقواله بالتعليل القوى. والحُجج الدَّامغة

(11) هذا آخر بيت من قصيدة لأبي نواس مطلعها :
أجارةَ بيتنا أبوك غيورْ ... وَمَيْسُورٌ مَا يُرْجَى لَدَيْكِ عَسِيرْ
يمدح بها الخصيب العجمي المذاري أمير مصر. انظر الديوان ج 1/ 226 تحقيق إيفالد فاكنر (النشرات الإسلامية القاهرة)

(12) بيت لامرئ القيس من قصيدة له ويقال انها لأبي داود الإيادي مطلعها :
أَعِنِّي على بَرْقٍ أراه ومِيضِ ... يُضِيءُ حَبِيّاً فِي شَمَارِيخَ بيضِ
قوله يجم على الساقين : أي اذا حرك بالساقين واستحث بهما كر جريه. الجم : الكثير من كل شئ وقوله بعد كلاله : أي يكر جريه بعد إعيائه فكيف به قبل ذلك. وقوله : جموم عيون الحسي إذا استخرج ماؤه والحِسْيُ : موضع قريب الماء يدرك باليد وكلما استخرج ماؤه جم. والمخيض أي يمخض ويستخرج ماؤه فضربه مثلا للفرس. انظر ديوان امرئ القيس تحقيق أبو الفضل ابراهيم

فحاولت الجواب ، من غير إطالة ولا إسهاب ، ولكن[1] على أن أسيرَ في ذلك سيرة العلماء، في الشرُوح والحواشي ، على كلام مَنْ قبلهم من الأئمة— رضي الله عنهم —فإنهم يتكلمون بحثاً وفهْماً، على مُقتضى العبارة ، من غير أن يُنْتَسَبَ[2] في ذلك طعن ولا نقصٌ للمتكلم. بل هُوَ بِمَعْزل عن ذلك . فالكلاَمُ إنما هو مع الكلام لا مع المتكلم. وما ذاك إلا لما كان يقوله إمامُنا مالك رضي الله عنه كثيراً عندما يتعرض لكلام الصحابة وغيرهم : كلٌّ كلام منه مقبول ومردود ، إلا ما كان من كلام صاحب هذا القبر، يَعْني المصطفى ﷺ ، يعني بأنه لا ينطق عن الهوى «إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى» (13) فلا عَيْبَ على العالم ولا غيره إذا بُحث في كلامه بحثاً عِلْمِيّاً. فأنا إنْ شاء الله على هذا النمط أمشي مع الكلام مَنْسوباً مع ذلك لِلْكِتَابِ وعلى ألسنة الكُتَّابِ (14) والسلطان أيده الله بالحق[3] يبقى مَوْفوراً، يتفرج بين كلامي وكلام الكُتَّابِ ، وَيَنْصِب ميزان العدل. فأي الكلام رآه أصح وأعجب أخذه ، ورمى بالآخر. وأنا في ذلك لا عَلَيَّ : مَلَسَى[4] لاَ عُهْدَةٌ (15)

ص 3 على أَنَّني رَاضٍ[5] بأن أحمِل الهوَى/ وَأَخْلُصَ منهُ لاَ عَلَيَّ وَلاَ لِيَا

وبالله تعالى التوفيق

أما قول الكُتَّاب : إنما نريد أن تَقْبلَ مِنَّا الحق فأقول : إِنِّي أعتقد أني[6] إن لم أقبل الحق من عبد أو (أَمَة)[7] أو صبي أَوْ مَعْتُوهٍ، لاَ أَعُدُّ نفسي مؤمناً. فكيف لا أقبل الحق من سلطان المسلمين أصلحه الله وأصلح به. وقولُهُ : لاَ نقول لك إلاّ حَقّاً. فأقول : ومن هو أولى بهذا من السلطان، وقد جعله الله على رقاب عبيده، وأمة نبيه ، يسعى في صلاح أمورها بقوله وفعله، وبسط له في اللسان واليد، فحقيق ألا يقول إلاَّ حقّاً، ولا يسعى إلاَّ في الحق ولا شك أن السلطان

---

1 — جـ « لا على ». 2 — جـ « ينسب ». 3 — جـ أسقط « بالحق ». 4 — في الأصل « لمسي » صححت من ص ومن لفظ المثل عند الميداني . 5 — ص . جـ « أرضي ». 6 — جـ أسقط « أني ». 7 — زيادة من جـ. ص

---

(13) الآية 4 سورة النجم.

(14) يعني رسالة المولى اسماعيل والذين كلفوا بتحريرها

(15) يضرب لمن يخرج من الأمر سالما لا له ولا عليه. أنظر الميداني ج 238/2

أيده الله عارف بالحق. قادر على قول الحق. ولا بد أن يُعلَمَ أنَّ الحق بالشرع يعرف. لا بالعقل. وقد حَكَّمَ قوم العقولَ فضلُّوا وَأَضَلُّوا (16) نعوذ بالله ونعيذ به سيدنا من مذاهبهم.

فالحق عند أهل الحق. هو ما جعله الله حقّاً. ويعرف ذلك بالكتاب والسّنة وإجْماع الأمة وقياس الأئمة. قال تعالى : «وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالحَقِّ نَزَلَ» (17) وقال تعالى : «هُدىً لِلْمُتَّقِينَ» (18) وقال تعالى : «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ» (19) وقال تعالى : «مَا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ» (20) وقال تعالى : «وما آتاكُمْ الرَّسُولُ فخُذُوهُ. وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتَهُوا.» (21) وقال تعالى : «لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ» (22) وقال تعالى : ... وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ المُومِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ» (23) وقال تعالى : «فاعتبرُوا يَاأُولِى الأَبْصَارِ» (24) إلى غير ذلك من الآيِ. وقال ﷺ : «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي. عَضُّوا عليها بالنواجد. وإياكم وَمُحدَثَاتِ الأمور. فإنَّ كلَّ مُحدثة بدعة. وكلَّ بدعة ضلالة. وكل ضلالة وصاحبها[1] في النار» (25) وقال ﷺ : «أصحابي كالنجوم بأيِّهم اقتدَيْتُم اهْتديتم» (26).

وقال ﷺ : «إنَّ هَذَا القرآن هو حَبْلُ الله المتينُ. وهو النورُ المبين. والشفاء النافع. عِصْمَةُ مَنْ[2] رَشَدَ[3] بِهِ. وَنجاةُ من تبعه. لا يَعْوَجُّ فيُقَوَّمُ. ولا يزيغ

---

1 — د أسقط « وصاحبها » 2 — د « لمن ». 3 — جـ « اشتد ».

---

(16) أظنه يعني «بالقوم» المعتزلة والجهمية والفلاسفة. فاليوسي رغم حملته العنيفة على الجلال السيوطي الذي حرم علم الكلام واعتبره : « فن خبيث مذموم يحرم الاشتغال به («أنظر ذلك مفصلا في كتاب اليوسي «الحاشية على كبرى السنوسي مخطوطة خ ع ر د 1771 ص 44 وما بعدها). أقول رغم هذا فاليوسي لم يصل به الأمر إلى إخضاع كل المسائل لمقياس العقل البشري وتحليله دون الاهتداء بالتوجيهات السماوية

(17) من الآية 105 من سورة الإسراء مكية
(18) من الآية 1 سورة البقرة مدنية
(19) من الآية 89 سورة النحل مكية
(20) من الآية 38 سورة الانعام مكية
(21) من الآية 7 سورة الحشر مدنية
(22) من الآية 44 سورة النحل مكية
(23) من الآية 115 سورة النساء مدنية
(24) من الآية 2 سورة الحشر مدنية

(25) جزء من حديث رواه أبو داود والترمذي عن أبي نجيع العرباض ابن سارية. وقالا حديث حسن أنظر شرح الأربعين حديثا النووية الحديث 28. مشكاة المصابيح الجزء 1 ص 58

(26) حديث رواه البيهقي من حديث ابن عباس : «أصحابي بمنزلة النجوم. فبأيِّهم اقْتَدَيْتم اهْتَدَيْتمْ. واختلافُ أصحابي لكم رحمةٌ» انظر فيض القدير ج 209/7

فيستَعْتِبُ. ولا تنقضي عجائبُه. ولا يَخْلَقُ من كثرة التَّرداد» الحديث(27) وفي حديث الأعور السلمي عن علي كرم الله وجهه قال : «ذكر النبي ﷺ الفتنة. فقلنا يا رسول الله. ما المُخرجُ منها ؟ قال : كتابُ الله عز وجل. فيه نبأُ ما
ص 4 قَبْلكُمْ وخبر ما بعدَكُم . وحكم ما بينكم . وهو الفصلُ ليس/بالهزل. من تركه من جبار[1] قَصمَهُ الله تعالى. وهو الصراط المستقيم. وهو الذي لاَ تُلَبِّسُ (28) لَهُ الألسنُ. ولا تَزِيغ به الأَهْوَاءُ. ولا يَخْلَقُ على كثرة التَّردَاد. ولا يشبع منه العلماء. ولا تنقضي عجائبه. وهو الذي لم تنته الجنُّ إذا سمعته فقالوا : «إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً. يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ» (29) من قال به صَدَقَ. ومن حكَمَ به عدلَ. ومن اعتصمَ به هُدِيَ إلى صِرَاطٍ مُستقيمٍ.»(30)[2]

ثم إنَّ هذا مَأْخوذ من أيدي العلماء (31) فإنهم حملتُه. والأُمناءُ عليه. وغيرهم يقلدهم فيه. ولا يَحِلُّ لأحد غيرهم أن يخوض في شيء منه. ما لم يأخذ عنهم قال تعالى : «فاسْأَلُوا أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ» (32) وقال تعالى : «هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ» (33) وفي الحديث : «لِكُل شيء قِوام، وقوام الدين الفقهُ. ولكل شيء دعامة. ودعامةُ

---

1 — جـ «خيار». 2 — في الأصل زيادة «خذها» ولا أصل لها في النسخ الأخرى ولا في متن الحديث

---

(27) هذا الحديث أخرجه الترمذي وقال غريب وإسناده مجهول. انظر المغني بذيل الإحياء ج 1 ص 297

(28) في نص الحديث بالمشكاة «لا تلتبس به الألسنة»

(29) من الآيات 1 و 2 من سورة الجن مكية

(30) هذا الحديث بنصه أخرجه الترمذي والدارمي من رواية الحارث الأعور وقال : وفي الحارث مقال أنظر مشكاة المصابيح ج 2 ص 661 — 662

(31) في هذا الفصل الذي يعقده اليوسي للتعلم والعلماء أورد الكثير مما ذكره الإمام أبو حامد محمد الغزالي في «إحياء علوم الدين» في باب فضيلة العلم. وهو الباب الأول في الكتاب أنظر من ص 11 — 19 طبعة الإحياء التي بهامشها «المغني عن حمل الأسفار»

(32) من الآية 43 سورة النحل مكية

(33) من الآية 9 سورة الزمر مكية

وفضل العلم وأهله شهير لا نطيل به. وفي الخبر المشهور : «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل» (35) وذلك أنه [1] في بني إسرائيل يكون النبي في قومه يوحى إليه، ويكون الملك على يديه ينفذ ما أمر به النبي ؛ فإذا كان علماء هذه الأمة، كأنبياء بني اسرائيل ، لزم أن يكون ملوكها كملوكهم [2] ينفذون ما يأمر به العلماء ، ولهذا قال الإمام أبو الأسود الدُّؤَلي (36) : ليس شيءٌ أعز من العلم ، الملوك حكام على الناس ، والعلماء حكام على الملوك. وسئل ابن المبارك (37) عن الناس فقال : هم العلماء، وعن الملوك فقال : هم الزهاد. فالعالِم له أن ينكر على غيره بالحق والتحقيق، وليس لغيره أن ينكر عليه اللهم إلاّ (إذا كان) [3] عالماً مثله أو فوقه. فإذا كان العالم مسَلَّماً له في علمه ، موثوقاً بإمامتِه، ثَبَت للناس حقٌ عليه أن يعلمَهم ، ويرشدهم بحسب الإمكان، وإذا كانت [4] تُعَابُ أفعالُه، وتُعْتَرَضُ أقوالُه، فذلك حكم عليه بأنه لا علم عنده، ولا وثوق به وحده، وتسقط عنه حقوق الناس، فالجمع بين الاعتراف له بالعلم والثقة، وثبوتِ حق الناس عليه، والإنكار عليه فيما يقول أو يفعل جمع بين متنافِيَيْن . والله الموفق.

---

1 — في الأصل زيادة «كان» لا يقبلها السياق. 2 — د «كملوك بني اسرائيل». 3 — زيادة من «د» 4 — جـ «كان».

---

(34) يشير إلى جزء من حديث : «ما عُبِدَ الله تعالى بشيءٍ أفضلَ من فقه في الدين. ولَفَقِيهٌ واحد أشد على الشيطان من ألف عابد. ولكل شيءٍ عماد، وعماد هذا الدين الفقه...» رواه الطبراني «في الأوسط» وأبو بكر الآجرى في كتاب «فضل العلم» وأبو نعيم في «رياضة المتعلمين» من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف وعند الترمذي وابن ماجة من حديث ابن عباس بسند ضعيف. أنظر المغني بذيل الإحياء ج 1 ص 6

(35) لم أجد لهذا الحديث تخريجاً والمشهور في الموضوع حديث «العلماء ورثة الأنبياء» رواه أحمد وأبو داود. والترمذي. عن أبي الدرداء انظر المقاصد الحسنة ص 286

(36) هو ظالم ابن عمرو الدؤلي الكناني (1 ق هـ — 69 هـ) من التابعين الفقهاء. رسم أصول النحو له شعر جيد في ديوان مطبوع انظر الأعلام ج 3 ص 340

(37) عبد الله بن المبارك المروزي أبو عبد الرحمان (118 — 181هـ) الحافظ صاحب التصانيف الكثيرة انظر أخباره وترجمته في تذكرة الحفاظ ج 1 ص 253 الاعلام ج 4 ص 256

وأما قول الكتاب : والله إلاَّ فجعنا[1] **الغرب (38) في مسألة العلم وخفنا عليه أن يندثر منه فأقول** : جَزَى اللهُ سيدنا، ومصباح وَقْتِنَا خيراً، حيث خاف
ص 5 هذا، وإنه والله هو أشد المصائب وأفظعُها فأي خير في الحياة/(بعد)[2] ذهاب العلم وأهله ؟ وفي الحديث الصحيح : «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من صدور الرجال، ولكن يقبضه بقبض أهله، حتى إذا لم يبق عالم، اتخذ الناس رؤساء جهالا فسُئلوا فأفْتَوْا بغير علمٍ، فضلُّوا وأضلوا» (39) وخطب يوماً زياد (40) على منبر الكوفة فقال : إني بِتُّ ليلتي هذه مهتماً[3] بثلاث : بذي العلم وبذي الشرف، وبذي السن، ولا والله لا أوتَى برجل ردّ على ذي علم ليضع بذلك علمه إلا عاقبته، ولا أوتى برجل ردّ على ذي شرف ليضع بذلك من شرفه إلا عاقبته، ولا أوتى بِرَجُلٍ ردّ على ذي شيبة ليضع بذلك منه إلا عاقبته، إنما الناس بعلمائهم وأعلامهم[4] وذوي أسنانهم. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لَمَوتُ ألف عابد قائم الليل والنهار، أهون من موت العاقل البصير بحلال الله وحرامه. وقال أبو عمر بن عبد البر (41) في كتاب «العلم» : روى ابن عباس (42) أنه قال : رُوِيَ أن شياطين قالوا لإبليس ياسيدنا مالنا نراك تفرح بموت العالم مالا تفرح بموت العابد ؟ فقال انطلقوا. فانطلقوا إلى

---

1 — جـ « والله فجعلنا ». 2 — في الأصل « محو » التوضيح من بقية النسخ 3 — خم أسقط « مهتما ». 4 — خم « أنسابهم ».

---

(38) الغرب في اصطلاح ذلك العصر : ما وراء الاطلس المتوسط نحو الشمال

(39) حديث متفق عليه رواه البخاري في كتاب العلم عن عبد الله بن عمر أنظر إرشاد الساري ج 1 ص 196 ورواه مسلم عن عبد الله بن عمر أيضا. أنظر مشكاة المصابيح ج 1 ص 72

(40) يعني زياد بن أبيه (1هـ — 53هـ) من القادة الفاتحين الوُلاة من أهل الطائف ولاه معاوية البصرة والكوفة وسائر العراق. قال الشعبي : ما رأيت أحداً أخطب من زياد. أنظر ترجمته ومصادرها في الأعلام : ج 3 ص 92

(41) يوسف بن عبد الله بن عبد البر القرطبي المالكي أبو عمر (368 — 463هـ) من كبار حفاظ الحديث مؤرخ أديب بحاثة ولي قضاء لشبونة توفي بشاطبة. له مؤلفات كثيرة منها «التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد كبير جدا طبعت منه أخيرا في المغرب أجزاء أنظر ترجمته في وفيات الأعيان وبغية الملتمس وآداب اللغة والاعلام ج 9 ص 316

(42) عبد الله بن عباس (3 ق هـ — 68 هـ) بن عبد المطلب حبر الأمة الصحابي الذي رويت عنه الأحاديث الكثيرة كانت مجالسه حافلة بالعلم من فقه وتأويل وشعر وغيره. كان آية في الحفظ

عبد قائم يصلي[1] فقال له إبليس هل يقدر ربك أن يجعل الدنيا في جوف بيضة ؟ فقال : لا. فقال : أترونه كفر في ساعة. ثم جاء إلى عالم في حلقته يضاحك أصحابه ويحدثهم. فقال : إننا نريد أن نسألك فقال : سل. فقال أيقدر ربك أن يجعل الدنيا في جوف بيضة ؟[2] قال : نعم قال : وكيف ؟. قال : يقول لذلك إذا أراده كن فيكون. قال إبليس أترون ؟ ذلك عبادته لا تعدو نفسه. وهذا يفسد عليَّ عالماً كثيراً (43) فشأن المؤمنين أن يحزَنُوا لموت العلماء كثيراً كما فرح إبليس بها وأن يخافوا ذلك كما فعل السلطان أصلحه الله وأصلح به. ونوّر الوجود بنيته الصالحة. ومن لم يحزن لموت العلماء أو فرح بموتهم فهو من جملة[3] الشياطين. ولا شك أنه لا بد من موتهم غير أنه متى كان فيهم التوالد. لَم يَضُرَّ مَوْتٌ من مات. لأنه يخلفه غيره من النَّشْأةِ (44) ومتى لم يحصل التوالد انقطعوا. كما هو (في)[4] التوالد الطيني. وإنما يحصل التوالد بالقراءة والدراسة وكثرة مجالس العلم (فلا يموت المعلم)[5] حتي يلد من يخلفه بأن ينشأ من المتعلمين بإذن الله تعالى عالم آخر أو أكثر وهكذا فيستمر هذا النوع.

ص 6 وحيث تفطَّنَ سيدنا لهذا المعنى واهتم به. فلا/بد أن نشرحه ونبين دعامته باختصار فنقول : إن طلب العلم (والاشتغال)[6] بالتعليم نوع من الجهاد. بل هو الجهاد الثاني. بل أهم الجهادين. (وذلك أن)[7] جهاد العدو ومطلوب للدفع عن بيضة الإسلام (45) والعلم مطلوب لدفع الجهل عنهم ثم إذا نظرنا وجدنا العدو لو تسلط على الأموال والرقاب. وهي أمور دُنْيَويّة لابد من فراقها أما بذلك أو بغيره. والموعد الآخرة. ولو تسلط الجهل عياذاً بالله لم تبق عقيدة صحيحة. ولا إيمان ولا عمل صالح. وهذا هو الهلاك الأبدي الذي يستمر إلى الآخرة.

---

1 — جـ زيادة « فقالوا له أنا نريد أن نسألك فانصرف » 2 — د « بيضاء ». 3 — د « بمنزلة ».
4 — زيادة من جـ. 5 — زيادة من جـ 6 — في الأصل « محو » أثبت ما في بقية النسخ.
7 — في الأصل « محو » أثبت ما في بقية النسخ.

---

(43) القصة التي وردت على لسان ابن عباس هي تمثيل للحديث : «...ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد» وقد سبق تخريجه.

(44) النشأة : ما ارتفع أو ظهر من النبات ولم يغلظ بعد. وهنا الطلبة الأحداث

(45) بيضة الإسلام : ساحة الإسلام

فنعلم أن الجهاد في دفع الجهل وتحصيل الدين أصلاً وفرعاً، أهم وأوكد من الجهاد في دفع العدو. ثم (إنّ)[1] نبينا ﷺ حين بعثه الله بدأ بالثاني الذي قلنا إنه الأهم، فكان يجاهد في دفع الجهل بالتعليم بأقواله وأفعاله[2] وتقازيره[3]. ولم يشتغل بجهاد العدو، إلا بعد ذلك حين أُذِنَ (له)[4] ثم إن الله تعالى أباح لهم الغنائم، فكانوا يتقوّون (بها على)[5] الجهاد كله، وكانت تدفع لكل من حضر المعركة حكماً شرعياً، والاستقراء قاضٍ بكون الناس في القتال ثلاثة : شخص يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا ومطلبه (رضاء)[6] الله تعالى ورحمته الباقية، لا تشوُّفَ له إلى المال ولا (إلى)[7] الدنيا أصْلاً، وهو خير الناس. وشخص يقاتل لذلك أيضاً مع التشوف، وهو في وسط الناس. وشخص يقاتل لطلب الدنيا إما (مع)[8] تَشَوُّفٍ إلى الآخرة أو لا، وهو شر الناس ولكن ينفع الله به بالدفع عن غيره، كما قال ﷺ في مسألة قُزْمَان (46) : «إنَّ الله يؤيّد هذا الدين بالرجل الفاجر» (47)

وكلٌّ من الأَصناف يقبض المال في جهاده. **أما الأول** : فهو وإن لم يكن هو الباعثُ له لكنه يتقوَّى به على شغله، والكل في ذات الله، ولا يُنقِصُه ذلك شيئاً عند الله، ولا حرج عليه أصلا. بل لو ترك نصيبه، وألجأته النفقة الواجبة على نفسه أو على عياله إلى أن يذهب ليحترف ويُعَطِّل الجهاد ربما حَرِجَ. **وكذا الثاني** وإن كان دون الأول. **وأما الثالث** فهو حظه من الله وأجره عُجِلَ له.

---

1 — زيادة من جـ. 2 — د « في أقواله وفعله ». 3 — في الأصل « تقاديره » الصواب من جـ و ص. 4 — في الأصل « الله » صححت من جـ 5 — محو في الأصل أثبت ما في بقية النسخ. 6 — زيادة من جـ 7 — في الأصل « للدنيا » الصواب من بقية النسخ. 8 — زيادة من جـ و ص.

---

(46) قُزمان : (بضم القاف) بن الحرث العبسي من المنافقين وهو المعني في الحديث الذي يلي.

(47) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان رواه أبو هريرة ونصه قال : شهدنا مع رسول الله ﷺ حُنيناً (ويقال « خيبر ») فقال لرجل ممن يدعي الإسلام هذا من أهل النار. فلما حضرنا القتال. قاتل الرجل قتالا شديدا فأصابته جراحة فقيل يارسول الله الرجل الذي قلت آنفا إنه من أهل النار. فإنه قاتل اليوم قتالا شديدا وقد مات فقال ﷺ إلى النار. فكاد بعض المسلمين أن يرتاب. فبيناهم على ذلك إذ قيل إنه لم يمت ولكن به جراح شديد. فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح فقتل نفسه. فأخبر النبي بذلك فقال : الله أكبر أشهد أني عبد الله ورسوله. ثم أمر بلالا فنادى في الناس أنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة. وأن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر. انظر شرح النووى على صحيح مسلم بهامش إرشاد الساري ج 1 ص 458 كما أخرجه البخاري في كتاب الجهاد و السير و كتاب المغازي أنظر إرشاد الساري ج 7 ص 175.

فإذا فُهم هذا في المجاهدينَ. وما يأخذون من الغنائم، فليفهم مثله في المجاهدين في العلم حرفا بحرف. فالمشتغلون بالعلم أيضا تعلماً وتعليماً محتاجون إلى
ص 7 مؤونة وكفاية يتقوَّوْن بها[1] على ما هم بصدده ولا بد أن/(يكونوا)[2] في هذا أيضا ثلاثة أصناف كما كانوا هنالك. وكما لاننقب عن قلوبهم، بل نعطيهم المال جميعاً وحسابهُم على الله[3] كذلك هنا. وكما أن الانتفاع هنالك يحصل بالجميع، من أخلص ومن لم يخلص، كذلك في الثاني. وكما أنه ينبغي أن يُنَفَّلَ هنالك أهل البلاء على حسب مراتبهم في الغنائم كذلك هنا ينبغي أن (ينفلوا)[4] بحسب مرتبة المعلم في العلم، وإحكام صنعة التدريس، ومرتبة المتعلم في الحذق، والنشاط، والملازمة. وكما أنه لولا الغنائم هنالك تارة، والأُعْطِيَاتُ أخرى تعطلت مراسم الجهاد، وتعطلت الثغور: أما في حق الصنفين الأخيرين فلأن المال باعث لهما، فإذا بطل الباعث وقع الفتور. اللهم إلا أن يَخْلَفَهُ باعثُ الإِكْرَاه، وهو لاَ يُجْدِي[5] كبير جدوى. وأما في الصنف الأول فلأن المال وإن لم يُقصد، لكنه هو القِوامُ. فهو كالشرط وبطلانه يوجب بطلان المشروط. اللهم إلاّ إن كان مكتفياً يجاهد بماله، وهو عزيز الوجود. كذلك (هنا)[6] (48) إن لم يكن المال تعطلت مراسم العلم غالباً، إلاّ أن يكون أيضاً إكراه. ولا تنتهض (معه)[7] همة المعلم، ولا يكون لصدره انشراح، ولا لقلبه إقبال، فلا يحصل للمتعلم انتفاع، بل يكون ضرباً في حديد بارد. أو يكون من له وَفْرٌ فيطلب العلم بماله، أو يعلمه بذلك وهو أيضاً عزيز الوجود. فإن أهل الدُّثُور (49) الناشئين في النعمة، لا يتفرغون غالباً لطلب العلم ولا يتحملون محنة[8] التغرُّب والترحُّل والتَّذَلُّلِ للمشايخ.

إن الشَّبَابَ والفَرَاغَ وَالْجِدَهْ (50) مفسَدةٌ لِلمَرْءِ أَيُّ مَفْسَدَهْ (51)

---

1 — خم إسقاط «بها» 2 — في الأصل محو في الأحرف الأولى الصواب من بقية النسخ 3 — في الأصل زيادة «ذلك» لا أثر لها في بقية النسخ. 4 — في الأصل «يفعل» صوابه من بقية النسخ. 5 — في الأصل «يجد» الصواب من بقية النسخ. 6 — الزيادة من جـ و ص. 7 — زيادة من جـ و ص. 8 — في الأصل وفي جـ «مهنة» الصواب من د و خم و ص

---

(48) يعني الاشتغال بالتعليم والتدريس

(49) الدَّثْر: المال الكثير ويجمع فيقال: دُثور

(50) الجِدَة: مِنْ وَجَدَ بمعنى استغنى

(51) البيت للشاعر أبي العتاهية أنظر الديوان ص 496. ومعنى هذا البيت يقترب من المثل السائر: إن يكن العمل مَجْهَدة فإن الفراغ مفسدة أنظر الميداني ج 1 ص 88

ولا بد في طلب العلم من مقاساة ذلك :

فمن لم يذق ذُلَّ التعلم ساعة[1]
تجرع كأسَ الجهل طُول حياته

(غبره)[2]

تَذَلَّلْ لمَنْ تهوَى لتكْسب عِزَّةً
فكم عِزَّةٍ قَدْ نالها المرء بالذل

(غبره)[2]

صَبَرْتُ على بعض الأذى خوف كلِّه ودافعتُ عن نفسي بنفسي فدلَّت
وجَرَّعْتُهَا المَكْرُوهَ حتَّى تدَرَّبَتْ ولو لم أجرعها الأذى لاَشْمَأَزَّتِ
ألا ربّ عِزٍّ ساق للنفس ذِلَّةً ويارب نفسٍ بالتَّذلُّل عَزَّتِ

وذلك يشق على أهل الأقدار . وأهل الإيسار[3] وإنما يحظى به أولاد المساكين، وهم المنتفعون (به)[4] في كثير . ولذلك يقال : لولا أولاد الفقراء
ص 8 لذهب العلم/وهم محتاجون إلى المؤونة . والعطاء نافع فيهم وفي غيرهم :

وأَحْسَنُ مِنْ نَوْرٍ[5] تَفَتَّحَهُ الصَّبَا
بياضٌ[6] العَطَايَا[7] في سَوَادِ المَآرِبِ(52)

والعطايا[8] تُطلق اللسان، وتَشْرح الجَنَان، وتُشَجِّع الجبان، وتنشّط الكسلان وتسُر الغضبان، سَجِيَّةٌ مطبوعة في الإنسان على مرور الزمان. وقيل لجرير : لِمَ كانت أشعارك في بني أمية أحسنَ منها في بني العباس ؟ فقال : إنَّ اللُّهَى (53) تَفْتَحُ اللَّهَا (54) أي العطايا تفتح اللسان. وذكر المعتمد ابن عباد (55) يوماً قول أبي الطيب :

---

1 — في الأصل « ساعته » الصواب من بقية النسخ . 2 — زيادة من ص . 3 — جـ . ص « اليسار » 4 — زيادة من د . 5 — في الأصل محو في بعض حروف الكلمة . 6 — في الأصل « في بياض » . 7 — في الأصل « العطاء » الصواب من ج و ص و د . 8 — في الأصل زيادة كلمة « هي » بعد « العطايا » التصحيح من سائر النسخ.

---

(52) النَّوْر : مصدر. الواحدة نَوْرَةٌ ج أنوارٌ : الزهرة. أو الأبيض منه وهو الراجح حسب معنى البيت.
(53) اللُّهَى : جمع لَهْوَة ولُهْوة : العطية من أفضل العطايا وأجزلها. ويقال أيضاً اللُّهية
(54) اللَّهَا : مفردها لَهَاة : اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى سقف الفم
(55) محمد بن عباد بن اسماعيل 431 — 488 هـ المعتمد على الله صاحب اشبيلية وقرطبة وما حولها وأحد أفراد الدهر شجاعةً وحزماً وأدباً. أسره يوسف بن تاشفين سنة 484 ونفاه إلى أغمات وبقي فيها إلى أن مات.

إذا ظَفِرَتْ مِنْكَ العُيُونُ بِنَظْرَةٍ
أَثَابَ بِهَا مُعْيِ[9] المَطِيِّ وَرَازِمُهْ(56)

فجعل يردده استلذاذاً له واستحساناً، وبين يديه عبد الجليل بن وهبون (57) الشاعر، فانبعثت منه عِثْرَةٌ[1] (58) فأنشأ يقول ارتجالا :

لَئِنْ جَادَ شِعْرُ بْنِ ٱلْحُسَيْنِ فَإِنَّمَا تُجِيدُ ٱلْعَطَايَا وَاللُّهَى يَفْتَحُ ٱللَّهَا
تَنَبَّأَ عُجْباً بِٱلْقَرِيظِ وَلَوْ دَرَى بِأَنَّكَ تَرْوِي شِعْرَهُ لَتَأَلَّهَا[2]

وقال بعض مشايخ الوعاظ ببغداد، انطلقت ألسنتُنا بالحكمة[3] وإذا كنا في غيرها لم نفعل، فقالت له عجوز : الطمع يحلُّ فَاكَ، فهو أصل هذه المسألة. فمن وفقه الله من الملوك، ونبّهه إليها قولاً وفعلاً، فأنفق الأموال في نشر العلم، وأقام المرَتَّبَاتُ، وأحسن[4] الجوائز، حَيِيَ العلمُ في زمانه، وأزهرت رياضه، وتفجرت حياضُه، وظهرت الفنون الغريبة، والفهوم العجيبة. ثم إن سهّل بابه

---

1 — جـ و ص « عبرة ». خم د « غيرة ». 2 — هذا البيت الثاني ساقط من المتن مثبت في الهامش وفيه محو كثير صححته من جـ و ص. 3 — في الأصل « في الحكمة ». 4 — في الأصل « واحسان »

---

(56) من قصيدة للمتنبي في مدح سيف الدولة مطلعها :

وفاؤكما كالرَّبْع أَشْجَاهُ طَاسِمُه بِأَنْ تسْعدا وَالدَّمعُ أَشْفَاهُ سَاجِمُهْ

يقال أثاب فلان . رجع إليه جسمُه بعد الهزال وصَلُح بدنه. المُعي : الكَلِيل. المطيُّ : جمع مطية الدابة تركب. الرازم : الرازح الذي سقط من الإعياء.يقول في هذا البيت : إن الإبل الرازحة التي كلت وعجزت عن المشي (أو أصحاب هذه الإبل) إذا نظرت إلى المحبوبة عاشت أرواحها وعادت قوتها وصلحت حالها. أنظر ديوان المتنبي شرح عبد الرحمان البرقوقي الجزء 4 ص 49

(57) عبد الجليل بن وهبون أبو محمد الملقب بالدمغة المرسي من فحول شعراء الأندلس ذكره ابن بسام في «الذخيرة» وأورد جملة من أشعاره وأخباره مع المعتمد. وذكر أنه جمع كتابا في أخباره وأشعاره سماه «كتاب الإكليل المشتمل على شعر عبد الجليل» . ذكر الضبي في البغية أنه توفي في حدود الثمانين وأربعمائة. أنظر ترجمته وأخباره أيضا في قلائد العقْيان الجزء 1 ص 278 تكملة الصلة ص 568 فوات الوفيات ص 513 وقد ذكر قصته مع المعتمد هذه كما رواها اليوسي.

(58) العِثرة :قلادة تعجن بالمسك والأفاويه. ونسل الرجل ورهطه. والريقة العذبة. والقطعة من المسك الخالص وأظن أن هذا المعنى الأخير هو المراد في النص للدلالة على جودة الأبيات. ولكني أرجح أن تكون «عبرة» أي دمعة كما جاء في جـ و ص

مع ذلك ، وَوطَّن مجلسه، وعاشر بالمعروف. وأظهر الجميل تسارع إلى مجلسه أهل العلم، فأشرق مجلسه، وتنور محله وعظمت أُبَّهتُه. ومن لم يفعل ذلك اندثر العلم في زمانه، فخلَتْ رسومُه. وهوتْ نجومُه. فأما الطلبة فلعدم وجود الكفاية ولا وجود المُعَلم. وأما العلماء فكذلك. (فمنهم)[1] من يشتغل بأسباب معاشه ومعاش عياله ويرى أن ذلك أوجب عليه من التعليم الذي هو فرض كفاية. وهو حق. فمن أين يتفرغ للعلم أو يفهمه ؟ وفي مثل هذا قال عظيم من الفقهاء (59) لو كُلِّفْتُ شراء بصلة ما حفظت مسألة. وقال عظيم من الصوفية : لو عُلتُ دجاجة خفت أن أكون جِلْوَازاً على الجسر[2] والجِلْوَازُ الشرطي أو التُّوْرُورُ[3] وهو التابع له.

ص 9 ومنهم من يرى لذلك إدباراً في الزمان وأهله ويرى/أنهم لا يستحقون نفعاً. فيدخل بيته ويشتغل بالتَّقييد والتصنيف نفعاً لمن يأتي بعده. وفي مثل هذا قال بعضُ الأئمة :

إنْ لَزِمْنَا ٱلْمُلُوكَ تَاهُواْ عَلَيْنَا ... وَٱسْتَخَفُّوا جَهْلاً بِحَقِّ ٱلْجَلِيسِ
أَوْ لزمنا التُّجَّارَ عُدْنَا إلى البُؤْسِ ... وصرنا إلَى عَدِيدِ الفُلُوسِ
فلزمنا البيُوتَ نستَعْمِل الحِبْرَ ... وَنَمْلاَ بِهِ وُجُوهَ الطُّرُوسِ
فَقَنِعْنَا بِمَا رُزِقنَا فصِرْنَا ... أُمَرَاءَ على المُلُوكِ الرُّؤوسِ

وقد ذيلها آخر فقال :

لو تُرِكْنَا وَذَاكَ كُنَّا ظَفِرْنَا ... بِأَمَانِينَا[4] بِعِلْقٍ نَفِيسِ
غير أن الزمان أعني بنيهِ ... حَسَدُونَا عَلَى حَيَاةِ النُّفُوسِ

وهذا، أعني الاستغناء بالتصنيف عن التدريس. قد فعله جماعة من العلماء المعتبرين منهم الجلالُ السيوطي (60) فقد حكى أنه ما كان يدرس بل يُصنف.

---

1 — زيادة من ص. 2 — جـ اسقاط على « الجسر ». 3 — جـ «التؤرون» ص « الثورون »
4 — في الأصل « أمانتنا » صححت من خم. جـ

---

(59) ينسب هذا القول للإمام الشافعي

(60) عبد الرحمان بن أبي بكر السيوطي جلال الدين (849 — 911هـ) إمام حافظ مؤرخ أديب. لما بلغ الأربعين اعتزل الناس وخلا بنفسه له نحو 600 مصنف أنظر ترجمته وأخباره في الأعلام ج 4 ص 71

وقد نفعه الله بتصانيفه اليوم، ومنهم تاجُ الدين بهرام (61) آخراً، فإنه حين شرح مختصر شيخه رام من الطلبة أن يقرأ بالشروح بين يديه تَصْحِيحاً فنفروا عنه وقالوا : لا نقرأ كتابك ولا كتاب شيخك ، فتركهم واشتغل بتصنيف «الشامل» (62)

ثم إن الملوك لم يزالوا مختلفين فيما ذكرنا حسب اختلافهم في حب العلم وأهله ، والرغبة فيه وفي سائر المصالح ، وفي الجود وكرم الطبيعة واطمئنان النفس وغير ذلك ، ولم يزل العلماء يتَرَحَّمُونَ على من أحيا اللهُ العلمَ على يديه أو غيره من المصالح، ويبالغون في الثناء عليه منذ الملوك الأمويين والعباسيين ، ومن بعدهم من أرباب الدول ، ولا سيما إن كانت سيرته في ذلك محمودة ، كصلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله (63) وكذا ملوك المغرب من الأدارسة والمرابطين وبني عبد المومن (64) وقد كان شيخهم المهدي بن تومرت جاهد في نشر العلم ، وبني عبد الحق (65) وقد كان فيهم أبو الحسن المريني ونظراؤه وكانت مدرسة الوادي ، وهي اليوم خَرِبَةٌ يقال إن فيها (نحو)[1] سبْعِمائة أو سَبْعَةِ آلاَفِ أستاذ وكان لا يُعْطَى البيتَ فيها إلاَّ من يحفظ جميع

---

1 — زيادة من جـ

---

(61) بهرام بن عبد الله الدميري تاج الدين (734 — 805هـ) الإمام المالكي الحافظ تلميذ الشيخ خليل وغيره قاضي القضاة بمصر برع وأفتى ودرس. له مصنفات كثيرة «كالشامل» في الفقه وشرح المختصر وأصول ابن الحاجب الخ...أنظر ترجمته في نيل الإبتهاج لأبي العباس التنبكتي ص 83 وفي إنباء الغمر بأنباء العمر ج 2 ص 242 تحقيق د حسن حبشي

(62) هذه الحكاية مذكورة في كتاب «نيل الإبتهاج بتطريز الديباج» للتنبكتي على هذا الشكل بزيادة بعض التفاصيل ص 83

(63) صلاح الدين الأيوبي (532 — 589 هـ) دفع غارات الصليبيين في بلاد الشام وهاجم حصونهم وقلاعهم. دانت له البلاد. أنظر ترجمته ومصادرها في الأعلام ج 9 ص 297

(64) بني عبد المومن هذا الإسم يطلق على دولة الموحدين أنظر الاستقصا ج 2 ص 99 لأنها قامت وانطلقت على يد أبي محمد عبد المومن بن علي الكومي (526 — 558هـ)

(65) بني عبد الحق : يعني بني مرين لأن عبد الحق بن محيو المريني هو مؤسس هذه الدولة (610 — ؟)

ص 10 مختصر[1] الحاجبي (66) ولذلك لما جاء الشريف (67) وهو لم يحفظه ولم يجد بيتاً. قعد عند سارية واشتغل بشرح الجرومية حتى أكمله. فرفعه إليهم ليُعْطَى بَيْتاً.

ثم اندثر بعد أولئك العلمْ بفاس وغيرها. حتى جاء السلطان أحمد المنصور (68) فأحيا باعَه وعمَّر رِبَاعَهْ. وجمع الكتب وخالطَ العلماء. وجالسهم وأعطاهم وأرضاهم. وكذا الوليد (69) بعده ومحمد الشيخ (70) غير أنه في بلدهم فقطْ. ثم جاء المولى محمد بن الشريف (أخو سيدنا. فأحيا العلم في بلده. وأعطى الفقهاء وَأَكْرَمَهُم وخالطهم)[2] وَحَرَّرَ أهلَ البلاد للقراءة في القصبة (71). فأقام لهم بذلك التحرير (72) مقام العطاء. وتسارعواْ حتى أن الرجل المُسِنَّ من أهل سجلماسة يكتب الجرومية (73) في لوحة يقرأها. وكَثُرتْ المجالس، وكنا هنالك، حتى أنَّا أكثر الأيام لا نذُوق طعاماً إلا من

---

1 — في الأصل «الأمهات» صححت من جـ و ص. 2 — زيادة في جـ و ص.

---

(66) عثمان بن عمر المعروف بأبي الحاجب المصري ثم الدمشقي كان علماً من أعلام الدين ومن كبار فقهاء المالكية له تصانيف مشهورة منها مختصره الذي اعتنى العلماء بشرحه شرقا وغربا ومنها الكافية في النحو والشافية في التصريف الخ.. ولد سنة 570 وتوفي سنة 646 انظر شجرة النور ص 167

(67) لعله يعني المولى علي الشريف جد أشراف تافيلالت الذي رحل إلى فاس واستوطنها مدة طويلة أنظر الاستقصا ج 7 ص 7

(68) أحمد المنصور السعدي المعروف بالذهبي (... 1012 هـ) كان أديباً محبّاً للعلم والعلماء مغرماً باقتناء الكتب. اقرأ أخباره في نزهة الحادي من ورقة 100 الخزانة العامة بالرباط.

(69) الوليد بن زيدان... 1045 هـ من الملوك السعديين. كان مولعاً بالسماع محبّاً للعلم والعلماء

(70) محمد الشيخ بن زيدان... 1063/هـ كان هو الآخر من المحبين للعلم والعلماء ولكن الفتن في عصره لم تدع له الفرصة للتوسع في ذلك.

(71) القصبة: القرية أو وسطها. وفي مدن المغرب القصبة هو الجزء القديم من المدينة. والأعظم اكتظاظا بالسكان من الطبقة المتوسطة.

(72) حَرّره تحريراً في لغة علماء وطلبة ذلك العصر. وحتى وقت ليس ببعيد في المعاهد التقليدية يعني منحه عطلة. ورخّص له بالتخلف عن الدراسة أو عن العمل

(73) الجرومية أو الأجرومية: كتاب صغير يشتمل على مبادئ النحو أقبل الناس عليه كثيراً ومؤلفه أبو عبد الله محمد الصنهاجي المعروف بابن جروم المتوفي عام 723هـ

الاسفرار (74) لانشغالنا بطلب العلم. وتقلبنا في المجالس طول النهار. فانتفع الناس. غير أن علوم الصحراء قاصرة. إنما هي ما قَرُب من فقهيات ونحويات. ولا يرتقون إلى ذروة العلم. ولا يخوضون في لُجج العلوم[1] العقلية والنقلية. ودائماً يُخيَّلُ لي أن ذلك باق في تلك البلاد من كلمة[2] أبي الفضل ابن النحوي (75) رضي الله عنه فإنه كان دخل سجلماسة فأخذ يقرأ أصول الدين وأصول الفقه. فرآه عبد الله بن بسام أحد أشياخ البلاد فقال : ما يُقْرِئُ هذا الإنسان ؟ فقالوا له : الأصول. وكان أهل البلد إذ ذاك مقتصرين على علم الرأي فقال : هذا يريد أن يُدخل علينا علوماً لا نعرفها. وأمر بإخراجه. فقام الشيخ أبو الفضل وقال لابن بسام : أَمَتَّ العلم أماتك الله هاهنا. وأشار إلى مكانه. فاتفق أن أُعْلِمَ بن بسام بنكاح يحضر عَقدَهُ في المسجد في صبيحة اليوم الثاني. فخرج إلى المسجد سحراً. فمرت جماعة من ملوانة[3] (76) فقتلوه (77) فكان هذا العلم الخاص قد مات هنالك. وقد مررت بعد ذلك بسجلماسة فوجدت الأمر لم يبق على حاله. بل وقع الفتور. وذهبت تلك المجالس[4] إلاَّ قليلا ولم يبق إلا أصحاب المجلس على حالهم. وأصحاب مجلس السلطان منفعتهم في المجلس وليس بذلك ينتشر العلم وتحيا رسومه ويتخلدُ ذكره. وإنما يكون ذلك بأصحاب المجالس في المساجد والرباطات[5] وفيها ينتفع الخاص والعام. ويبقى ذكره على

---

1 — في الأصل « العلم » صححت من بقية النسخ. 2 — في الأصل « كلمته » التصحيح من بقية النسخ. 3 — خم « ملواثة ». 4 — في الأصل « المحاسن » الصواب من جـ و خم.
5 — في الأصل « الرياضيات » الصواب من بقية النسخ.

---

(74) أسفر الصبح وسفِر أضاء وأشرق. اسفرار

(75) أبو الفضل يوسف بن محمد بن يوسف المعروف بابن النحوي (... 513هـ) من قلعة بني حماد وأصله من توزر. من أهل العلم يميل إلى النظر والإجتهاد. ولما أفتى فقهاء أهل المغرب بإحراق كتب الغزالي وأمر السلطان بإحراقها انتصر لأبي حامد وكتب للسلطان في ذلك. أنظر أخباره في كتاب «التشوف إلى رجال التصوف» من ص 72—78 وفي نيل الابتهاج ص 383

(76) ملوانة : قبيلة من صنهاجة أنظر كتاب التشوف ص 76.

(77) حكاية أبي الفضل مع ابن بسام منقولة حرفياً من كتاب «التشوف إلى رجال التصوف» لأبي يعقوب يوسف بن يحي التادلي المعروف بابن الزيات ص 75 والقصة أيضا حكاها صاحب نيل الإبتهاج في ترجمة أبي الفضل النحوي ص 384

ص 11 سائر الأيام/وفي الخبر «لن يَهْلَكَ العلمُ حتى يكون سِرّاً» (78). ثم جاء المولى رشيد بن الشريف، فأعلى مناره وأوضح نهاره، وأكرم العلماء إكراماً لم يُعْهَد، وأعطاهم ما لاَ يُعَدُّ، ولا سيما بمدينة فاس. فَضَحَ مَنْ قبله، وأتْعَبَ مَنْ بعدهُ. لو طالت مدتُه لجاءته علماء كُلِّ بلدة.

ثم قد انتهت النوبة اليومَ إلى سيدنا،ومصباح زماننا،وشمس غربنا، فأي شيء يمنعه وهمته (أعلى، وخزائنه أَمْلاَ، وقريحته أقوى، وبصيرته أضوى، من أن ينهض)[1] إلى بناء هذه المكارم وتأسيس هذه الدعائم، وتجديد هذه المعالم، وإحياء هذه المراسم. فيملأ مساجد فاس ومكناسة وسلا وتطاوين، ومراكش وسجلماسة ودرعة بمجالس العلم،وفرسان البحث والفهم. وتلك الحَرْكَاتْ (79) والغيبات لا تمنع شيئا من هذا، فإن بيوت المال بالحواضر وافرةٌ، وأُمناءَهَا بأبوابها حاضرة، ولم يبق إلاَّ الأمر السلطاني بالإعطاء، فإذا الدنيا زاهرة وأهل العلم متظافرة وليس من دون أن تسقط الطير إلا نثر الحب :

تَسْقُطُ الطيرُ حيث يُلْتَقَطُ الحـ ـبُّ وَتُغْشَى منازلُ الكرماءِ(80)

ولعمري لو فعل ذلك بنية صالحة لكان المرجُو من الله تعالى ببركة العلم والدين، أن يَكْفِيَهُ جميعَ المُهمات، ويُغْنِيَهُ عن تلك الحركات، ويمهد له البلاد، ويجعل في يده زمام الأرض والعباد، فإنه المالك القادر سبحانه. وإن

---

1 — زيادة من ص و جـ.

---

(78) جزء من كلام لعمر بن عبد العزيز أخرجه البخاري في كتاب العلم «باب كيف يقبض العلم» أنظر إرشاد الساري ج 195—196

(79) الحَرْكات : مفرد حركة كلمة يطلقها المغاربة على الحملة التي يقوم بها الحاكم لقتال وتأديب الخارجين على طاعته والمعروف تاريخياً أن السلطان المولى إسماعيل قد صرف وقتا طويلا لإجبار قبائل المغرب كلها على الإذعان لسلطانه وتثبيت دعائم الأمن في البلاد

(80) البيت لبشار بن برد يمدح فيه عقبة بن سلم أنظر الديوان ج 1 ص 111 تحقيق ابن عاشور وذكره الجاحظ في كتاب الحيوان ج 5 ص 445 بهذه الرواية :

يسقط الطير حيث ينثر الحـ ـب وتغشى منازل الكرماء

فات من ذلك شيءٌ لم يَهُل (81) أمرُه، فإن التطلعَ إلى المفقود يكدر المتعة بالموجود. وحينئذ يُلقي عَصَا ٱلتَّسْيَارِ، وتستقر به الدار، ويطمئن في مجلسه ومحل أنسه، وتحُفُّ به العلماء الأعلام، مقبلين من كل أفق بلا نداء ولا إعلام[1] :

الجود يَهدِي المُعْتَفِينَ (82) وَبِشْرُه مِصْبَاحُهَا

أَلَا قُلْ لسَارِي اللَّيْلِ لاَ تَخْشَ ضِلَّةً[2]
سَعِيدُ بنُ سَلْمٍ[3] نُورُ[4] كل بلاد(83)
يقودُ إليه طاعةَ الناس فضلُه
وإن لم يقدها نايل[6] وعِقَابُ(84)

وإنه لو كان ذلك، لظهرت العلومُ في كل بلد من البلاد المغربية (فإنَّ)[6] في كلِّ موضع بحمد الله (مَنْ يكفيه)[7] مِنْ طلبة العلم، وإنَّمَا خَمَدُوا بعدم المحرك. وما مثالُ العلم في صدور الرجال إلا مِثْلُ الجمر يغطى عليه الرماد، فَأَدْنى نفخ بؤججها، أو ٱلنَّارِ في الحَجَر، فأدنى اقتداح يُخْرجها. وليس يُزيلُ اِسم العلم عن
ص 12 العالم تقصيره في الجواب عن مسألة يسئل عنها/أو أكثر، بل ولا جهله بذلك رأساً. فما مثال العالم إلا كالتاجر في البَزِّ (85) أو العبيد أو الخيل أو نحو ذلك، فلا محالة قد تَطْلُب عنده حاجة موصوفة أو أكثر فلا تُوجَدُ عنده، ولا يخرجه ذلك عن سِماط(86) التجار.

---

1 — في الأصل « بالإنداء والاعلام » صوابه من جـ و ص. 2 — في الأصل وفي النسخ الأخرى « ظلمة » التصحيح من الكامل ج 7/3 وعيون الأخبار ج 32/2 والعقد ج 284/1. 3 — في الأصل « مسلم » صححت من النسخ الأخرى. 4 — في الأصل « لوز » التصحيح من جـ و ص. 5 — جـ « بابل » 6 — زيادة من جـ 7 — زيادة من جـ و ص.

---

(81) هال يهول الأمر فلانا : افزعه وعظم عليه.
(82) المُعْتَفي : كل طالب فضل أو معروف أو رزق
(83) ورد هذا البيت في العقد الفريد ج 284/1. «قال سعيدُ بن سَلْم مدحي أعرابي فأبلغ فقال :
ألا قل لساري الليل لا تخش ضِلَّةً سعيدُ بن سَلْم نور كل بلاد
لنا سيد أربى على كل سيد جوادٌ حشا في وجه كل جواد
(84) أظن أن هذا البيت لا علاقة له بالسابق. النائل : ما ينال يقال أصبت نائلا أي معروفا ويمكن أن يكون شطر البيت الثاني كالتالي : وإن لم يقدها نائل بعقاد. والعقاد ج عقدة : ما يستوثق به الرجل لنفسه.
(85) البز ج بزوز : السلاح. الثياب من الكتان أو القطن.
(86) سماط القوم : صفهم وهنا سماط التجار صنفهم.

وكان عبد الله بن عمر (87) يقول إذا سأله أهل العراق، وكانوا سَئالين : ياأهل العراق إنَّا لا نعرفُ ما تسألون عنه، ولَأَنْ يعيشَ الرجلُ جاهلا، خيرٌ من أن يقول في هذا الأمر بغير علم. وسئل إمام الأئمة مالك (88) رضي الله عنه عن أربعين مسألة فأجاب عن أربعة منها. وقال في الباقي لا أدري. ولم يَصِحْ أهلُ زمانه أن العلم قد اندثر.

وجاءه رجل مرة من بعض الآفاق سائلا عن شيء، فقال له لا أدري. فقال الرجل : إني أتيت من بلد بعيد فبأيِّ شيء أرجع إلى أهلي ؟ فقال له إذا رجعت إليهم فقل لهم : إن مالكاً لم يعرفها، وقال ذلك مرة أخرى فقام إليه ابنه، وكان قد صنَّفَ شَيْئاً من العلم : كيف تقول لا أدري ؟ كأنه يستحيي من قولها. فأقام حينئذ رضي الله عنه مُنادِياً يُعلم الناس أن لا يُتَّبَعَ اِبْنُهُ ولا يُعْمَل بكتبه. وكان رضي الله عنه يقول هو وغيره من العلماء جُنة (89) العالم لا أدرى، فمتى أخطأها أُصيبَتْ مَقَاتِلُه ونظم ذلك الشاعر فقال :

ومن كان[1] يَهْوَى أَنْ يُرَى مُتَصَدِّراً
وَيَكْرَهُ لاَ أَدْرِي أُصِيبَتْ مَقَاتِلُهُ[2] (90)

فإحاطة العلم بكل معلوم إنما هي لله وحده لا شريك له، والعباد يَغْتَرِفُونَ كُلٌّ بحسب ما قسم له، وقد قال الخَضِرُ لموسى عليه الصلاة والسلام «وما علمي وعلمك في علم الله إلا كما أخذ هذا العصفور من البحر» (91).

---

1 — في الأصل « يكن » صوابه من خم جـ و ص. 2 — في الأصل « مقالته » الصواب من بقية النسخ.

---

(87) عبد الله بن عمر (10 ق هـ — 73 هـ) ابن الخطاب نشأ في الإسلام جزيئاً جهيراً شارك في الغزوات له أحاديث كثيرة أنظر ترجمته ومصادرها في الاعلام ج 246/4

(88) مالك بن أنس (93 هـ — 179 هـ) إمام دار الهجرة وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة. إليه تنسب المالكية. له تصانيف كثيرة منها «الموطأ» أنظر ترجمته في الاعلام ج 128/6.

(89) الجُنَّة : كل ما يُتستَّر ويُتَّقى به

(90) المَقْتَل ج مقاتل : العضو الذي إذا أصيب لا يكاد صاحبه يسلم. ومعنى البيت مأخوذ من المثل السائر : من ترك قول لا أدرى أصيبت مقاتله. أنظر الميداني ج 285/2.

(91) حديث طويل عن أبي بن كعب : «قال رسول الله ﷺ قام موسى خطيباً في بني اسرائيل فسئل أي الناس أعلم إلى أن قال : «فجاء عصفور فوقع على طرف السفينة فنقر نقرة أو نقرتين في البحر فقال الخضر ياموسى ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كنقرة هذا العصفور في هذا البحر». أنظر الترغيب والترهيب من الحديث الشريف ج 93/1 قال رواه البخاري وغيره.

وما ذكرنا من العطاء حق على كل إمام من بيت المال، وقد نص علماؤنا على أنه إن لم يكن بيتُ مال، يكن على جماعة المسلمين أن يجمعوا ما يُرَتِّبُون به الجند للجهاد وحملةَ العلم. وقد أجاز هارون الرشيد الإمام مالك بثلاثة آلاف فقال له قائل : يا (أبا)[1] عبد الله ثلاثة آلاف ! كأنه يستكثرها. فقال : إذا كان مقدار ما لو كان إمامٌ عدلٌ. فأنصفُ أهل المرؤة أصابه شَبيهٌ لذلك، لم أر به بأساً(92) وأجاز زيادة[2] الله — عامل (93) من افريقية — الفقهاءَ فمنهم من قبل الجائزة ومنهم من ردّ. فاستنقص العامل كلَّ من قبلَ، فقيل ذلك لأَسَدٍ بْنِ الفرات (94) وكان مِمَّن قبِلَ فقال : لا عليه، إنما أوصلَنا إلى بعض حقنا والله حسيبُه فيما هو يمسكُه (عَنَّا)[3]

ووفدت أعيان العرب ذات مرة على هشام بن عبد الملك، وكانوا قد أَسْنَتُوا[4] (95) فجلس لهم وفيهم صبي يقال له دِرْوَاسُ بن حبيب، في رأسه دؤابة وعليه بردة يمانية، فأنكر هشام حضوره وقال للحاجب : ما يشاء أحدٌ أن يدخل علينا إلاَّ دخل حتى الصبيان. فقال الصبي : يا أمير المؤمنين إن دخولي لم يُنْقِصْكَ ولكن شرفني، وإن هؤلاء قدِمُوا لأمر فهابُوك دُونه، وإنَّ الكلام نَشْرٌ، والسكوت طَيٌّ لا يعرف إلاّ بنشره. فأعجَب هشاماً كلامُه وقال له : ٱنْشُرْ لا أُمَّ لَكَ ! فقال يا أمير المؤمنين أصابتنا سنُون ثلاث. فسنةٌ أَذهبت الشحم، وسنَةٌ أكلتِ اللحْمَ وسنة أَنْقَتِ[5] (96) العظْمَ، وفي أيديكم فُضُول أَموال، فإن كانت لله فَفَرِّقُوها على عباده، وإن كانت لهم فعلامَ تحبسونها عنهم ؟ وإن كانت

---

1 — زيادة من جـ. 2 — « زيادة الله عادل ». 3 — محو في الأصل أثبت ما في بقية النسخ
4 — ص. خم : استسنُّوا. 5 — في الأصل « ألقت » التصحيح من بقية النسخ

---

(92) جملة لا تخلو من بعض الإبهام فيما يبدو لي.

(93) زيادة الله بن أبي العباس التميمي عامل افريقية ؟ آخر أمراء الدولة الاغلبية بتونس أنظر ترجمته في الأعلام ج 94/3

(94) أسد بن الفرات (142 هـ 9 213هـ) مولى بني سليم قاضي القيروان وأحد القادة الفاتحين أصله من خرسان نشأ بالقيروان ثم بتونس ورحل إلى المشرق وهو أول من فتح صقيلية توفي من جراحات أصابته في حصار سرقوسة وهو مصنف «الأسدية» في فقه المالكية. أنظر ترجمته ومصادرها في الأعلام ج 1 291

(95) أَسْنَتَ القَوْمُ : أَصَابَهُم الجَدْبُ وَٱلْقَحْطُ

(96) نَقَى يَنْقِي نَقْياً العظْم : استخرج نِقْيَهُ. النَّقْيُ ج أَنْقَاء : مخ العظم

لكم فتصدَّقوا بها عليهم، فإن الله يُجزي المُتصدقين. ولا يُضِيعُ أَجْرَ
ص 13 المُحْسِنين. فقال هشام: ما ترك لنا / الغلام في واحدة من الثلاث عُذْراً. وأمر بمائة ألف تُفرق في البادية. وأمر للغلام وحده بمائة ألف. فقال الغلام أردُدْها في جائزة العرب فمالي بها حاجةٌ في خاصَّة نفسي. دون عامَّة المسلمين. فكان في هذا أَبْلَغَ.

وعندما يُوَفَّقُ سيدُنا لهذا الأمر فيفعله. لم يبق له حُزْن على العلم ولا أسف. بل تمتلئ مسامعه بطيبات الشكر والحمد وتخلُد مآثره في ديوان المجد. وَوَالله إني لو لم أُرِدْ الخير له ولعقبه لم أَفُهْ بهذا الكلام، ولا نَبَّهْتُ على هذا المرام. فإن هذه والله هي مفاتح الفلاح والنجاح، وبها يُرجى بقاء العز والملك في الأعقاب. كابراً[1] عن كابر لا بمجرد دعواتٍ مُلفَّقةٍ تَجْري بها الأَلْسُنُ على أَعْوَادِ المنابر. والله الموفق.

وأما قول الكتاب: ومن قديم الزمان لا تُعْرَفُ العلماءُ إلا مع الملوك الخ...

فأقول: لا شك أنه لم تخل مملكة بحمد الله من علماء ينفع الله بهم من هداه لطاعته، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ﷺ حيث قال: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خالفهم» (97) قال الأئمة: وهم أهل العلم، لأن أول الحديث وهو قوله ﷺ: «من يُرِدِ اللهُ به خَيْراً يُفقهه في الدين» (97) دال على ذلك.

---

1 — في الأصل «كابر» صححت من بقية النسخ.

---

(97) يشير إلى الحديث الذي رواه البخاري عن معاوية: «من يرد الله به خيرا يفقه في الدين وإنما أنا قاسم والله يعطي. ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله. لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله» إرشاد الساري ج 1/170. ورواه مسلم أيضا عن معاوية بلفظ آخر: «من يرد الله به خيرا يفقه في الدين. ولا يزال عصابة من المسلمين يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة» شرح النووي بهامش الإرشاد ج 8/124. ولعل اليوسي يقصد رواية البخاري وهناك روايات كثيرة أخرى لنفس الحديث.

وقال ﷺ : «يحمل هذا العلم من كل خلفٍ عُدُولُه يَنْفُون[1] عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين» (98). أما صحبة الملوك، وملازمة أبوابهم ومجالسهم، وطعامهم، فليس في العلماء على العموم ولا اللزوم، بل لم يزالوا تختلف أحوالهم في ذلك، فمنهم من يسارع إلى أبواب الملوك وهم الأقل ومنهم من يتجافى عن ذلك وهم الأكثر. فأما المنقبض فقد يكون انقباضه لشغل
ص 14 له في حاله بينه وبين الله تعالى أو شغل آخر في معاش أو في علم، أو لكونه نفور الطبع عن تلك الأبواب، أو لكونه لا يصلح لها أو لكونه لم يجد إليها سبيلا أو نحو ذلك. وأما المصاحب فقد يكون لإلْجَاء الوقت له، أو لطلب التوسع في الدنيا، أو طلب الجاه، أو لمجرد التمتع في الوقت، مأكلاً وملبساً ومنظراً أو حديثاً، أو يتمكن من الظفر بخصم[2] كأهل الأهواء الذين صاحبوا الملوك وداخلوهم ليتمكنوا من امتحان خصومهم أهل السنة. ولم تزل الملوك على هذا يَصْحَبُهُم هذا ويتخلف عنهم هذا من قديم الزمان، وفيما شاهده سيدنا كفاية. فقد كان أخوه مولانا محمد بن الشريف قد صاحبه مَنْ صَاحَبَه من الأشراف ومن أهل تجمعت (99) ومن أولاد القاضي (100) وقد تخلف عنه أكثر منهم وأفقه وأدين منهم : الإمام العالم شيخ الجماعة ومجيزها الولي الصالح مولاي عبد الهادي بن علي بن عبد الله بن علي بن طاهر (101) وأخوه مولاي محمد بن علي[3] (102) وسيدي مبارك الغرفي (103) ومولاي عبد الرحمان بن يوسف

---

1 — في الأصل محو التصحيح من النسخ الأخرى. 2 — في الأصل محو التصحيح من النسخ الأخرى. 3 — في الأصل «مولاي محمد ومولاي بن علي» صححت من جـ و ص.

---

(98) حديث أخرجه البيهقي عن إبراهيم بن عبد الرحمان العذري أنظر مشكاة المصابيح ج 82/1

(99) «تجمعت» من مدن تافيلالت في جنوب المغرب.

(100) يفهم مما جاء في الاستقصا ج 26/6 أن أولاد القاضي هم أصحاب زاوية القاضي بسلجماسة وإليهم ينتمي أبو العباس أحمد بن عبد الله المعروف بأبي محلي

(101) أبو محمد عبد الهادي بن الامام مولانا عبد الله بن علي بن طاهر الحسني السجلماسي كان من أهل العلم والدين أخذ عن أبيه وعن سيدي العربي الفاسي وهو مؤلف «فلك السعادة في فضل الجهاد والشهادة» توفي بالحرم الشريف عام 1056هـ أنظر الصفوة ص 152 — 153 م خ ع بالرباط رقم د 54. وأرجح أنه هو المعني في كلام اليوسي رغم اختلاف اسم الأب. لأنه هو الذي عاصر محمد الشريف.

(102) مولاي محمد المدعو بن علي بن مولاي عبد الله بن علي بن طاهر السجلماسي الحسني كان محدثا مشاركا في عدة فنون أخذ عن عبد القادر الفاسي توفي بالطاعون سنة 1089 هـ أنظر نشر المثاني ج 2 ورقة 15 ظ الصفوة ص 231

(103) يظهر أنه عالم فقيه معاصر لاشياخ اليوسي لم أعثر له على ترجمة.

(104) وسيدي محمد بن أحمد السوسي (105) وسيدي أحمد الدراوي (106) وسيدي القاسم بن المسكاني (107) وسيدي أبو القاسم الرجاني (108) وغيرهم ممن يكثر عده، وجلهم أشياخنا رحمة الله عليهم، فمن هؤلاء من يزوره في الأعياد، ومنهم من (لا) [1] يبرح مكانه.

وكذا مولانا الرشيد قد جمع العلماء، وأتوه من الآفاق بلا جمع، وقد تخلف غيرهم من أهل مملكته في كل مدينة وكل قبيلة، وهذا كله أمر واضح.

والذي يجب إعلام السلطان به نُصحاً لينصح به نفسه وغيره من المومنين، أن أكثر انتفاع الطلبة وأهل المسائل من العامة والخاصة إنما هو من المنقبض الجالس في داره أو في بيت من بيوت الله، فحيث ما جاء متعلمٌ أو سائلٌ وجده، ويصل إليه المسكين والعجوز ويباحث الطلبة حتى يقف على التحقيق، ص 15 ولا يرهبونه/ولا يستنكرونه [2] ولا يتهمونه، والمخالط بخلاف هذا كله، فإن أكثر أوقاته تذهب في الطلوع والهبوط، ثم إذا خرج في أبهته (وزيّه) [3] لم يقدر المسكين أن يصل إليه، ويستنكره [4] الطالب فيقول : هذا طالب دنيا لا ينفعني الله بعلمه، فيطلب غيره إلى غير ذلك. وإن الدين والأمانة غالبا في المنقبض دون المخالط، فإنه غالبا غير مأمون. ولا شك أنه يجوز أن يَكُونَ في صحبة الملوك من هو صحيحُ الدين، قائلٌ بالحق، وَاقِفٌ عنده ينفع الله به وبتنبيهه، ولكنه أعزُّ من الكبريت الأحمر [5] (109) والغالب عليهم رقة الديانة وطلب المرضاة [6]

---

1 — زيادة من خم. جـ. ص 2 — في الأصل محو صححت من بقية النسخ. 3 — في الأصل محو صححت من بقية النسخ. 4 — في الأصل محو صححت من بقية النسخ. 5 — محو في بعض الحروف التصحيح من بقية النسخ. 6 — في الأصل « المراضاة » صوابه من بقية النسخ.

---

(104) يظهر أنه عالم فقيه معاصر لاشياخ اليوسي لم أعثر له على ترجمة

(105) ذكره اليوسي في «فهرسته» ص 141 ممن اخذ عنهم علوم القرآن.

(106) ذكره اليوسي في «فهرسته» ص 133 قال : الاستاذ الصالح أبو العباس أحمد الدراوي قرأت عليه ختمة من القرآن وكان إمام الفريضة في جامع القصبة السجلماسة. م خ ع بالرباط ك 1239

(107) عالم معاصر لأشياخ اليوسي لم أعثر له على ترجمة

(108) عالم معاصر لاشياخ اليوسي لم أعثر له على ترجمة.

(109) أعز من الكبريت الأحمر : مثل يطلق على الشيء النادر ويقال : هو الذهب الأحمر. ويقال : بل هو لا يوجد إلا أن يذكر. الميداني ج 505/1

في كل شيء. ومنهم[1] من يسكت كما وقع للأحنف بن قيس (110) مع معاوية رضي الله عنهما. فإن معاوية لما عهد إلى ابنه يزيد. دخلت العرب فشقَّقوا الكلام (111) وجعلوا يُثْنُونَ على يزيد، وعلى نظر أبيه فيه. ويُطْرُونَ. والأحنف ساكت لا يتكلم. فقال له معاوية : مالك لا تتكلم يا أبا بحر؟ فقال الأحنف : أخاف اللهَ إن كَذبْتُ. وأخافُكم إن صدقْتُ. فقال له معاوية جزاك الله عن الطاعة خيراً يا أبا بحر وأمر له بألوف. فمثل هذا سالم. ولكنه غيرُ نافع. بل ربما ضَرَّ. وهو أن يوهم السلطان أو غيْرَه أنه ما سكت إلا لكون الأمر الواقع حقّاً. وأما كل من يتحبب. ويتقرب ويساعد ويساعف. في كل قول وفعل. فلا يومن (عليه)[2] فإنما الغالب عليه الحرصُ على الدنيا. واسترضاء القلوب لأجلها. لا يُومنُ عليه أن يُحَسِّنَ القبيح. ويقبح الحسن لأجل المرضاة[3] وربما أفتى بقول شاذّ لا يجوز العمل به طلباً لذلك. وكل ذلك فساد ومضرة على السلطان وغيره.

ولم يزل أهل العقول من الملوك يعرفون ذلك. فيتَحَرَّزُون (112) منه إذ العاقل لا يُخادِعُ نفسه ولا يخدَعُ. وكان يقال في عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو أعقل من أن يُخْدَع (وأتقى من أن يَخْدِعَ)[4] وكذلك كلُّ إمام ينبغي أن يكون كذلك فلا يرضى على من يخْدعه. ويسخطُ على من ينصحه. وقد تقدم رجل لمعاوية في المجلس المذكور آنفا فقال له : اعلم ياأمير المؤمنين أنك لو لم تُقدِّم هذا — يعني يزيد — على المسلمين. لكنت قد ضيعت حقوقهم. فلما خرج الأحنف لقيه الرجل فقال : يا أبا بحر إنَّ أبغض الخلق إلينا هذا — يعني معاوية — . وابنه — يعني يزيد — . ولكنهم استوثقوا من هذه الأموال. فلا نستنزلها/إلا بما ترى فقال الأحنف : اسكت أيها الرجل «فإن ذا الوجهين لا ص 16

---

1 — في الأصل « وأمثالهم » صححت من جـ. 2 — زيادة من جـ و ص. 3 — في الأصل « المرادات ». 4 — جـ زيادة « وأتقي » الزيادة كلها من ص.

---

(110) الأحنف بن قيس (3هـ — 72هـ) التَميمي أبو بحر أحد العظماء الدهاة الفصحاء الشجعان الفاتحين. خطبه وكلماته متفرقة في كتب التاريخ والأدب والبلدان أنظر الاعلام ج 1/262

(111) شقَّق الكلام : أخرجه أحسن مخرج

(112) تحَرَّز واحترز منه : توقاه

يكُون عند الله وجيها» (113) فهذا الصنفُ يَسْخَرُون من الملك وهو يرضى عنهم ويُرضيهم. وقد شهد النبي ﷺ على هؤلاء بما قلنا. وحذّر منهم. وليس بعد شهادة رسول الله ﷺ شهادة. ولا بعد قوله قول. ففي الحديث : «العلماء أمناءُ الرسول مَا لَمْ يُخَالِطُوا الملوك. فإذا خالطوهم فاتَّهموهم على دينكم» (114) أو كما قال ﷺ. ويقال : خير الملوك الزوارون للعلماء. وشر العلماء الزوارون للملوك. وليس في شيء من هذا منقصة للملوك بل لهؤلاء المتطورين [1] (115) وذلك أنَّ الملوك اقتحموا لجَوْر الدنيا وتحملوا سياسة الناس واسْتِصْلاَحَهُم. وبصلاحهم يصلح دينهم. وَقَوَّاهم الله تعالى على ذلك. فأعطاهم بَيَاناً وعقولا في ذلك. ولذلك يقال : عقول الملوك ملوك العقول. فلهم بذلك الخصلة الجسيمة. والمَأْثُرَةُ الكريمة. وإن أقاموا ميزان العدل [2] في ذلك فمنزلتهم عند الله عظيمة.

وأما العالم فماله ولهذه المداخل. والتَّرقي إلى هذه المنازل : ليس بعُشك فادْرُجِي (116)

وإنما شأنه أن يقعد في بيته، ويُدَوِّرَ عليه كُتُبَ العلم فينظر في هذا وفي هذا.

---

1 — جـ « المتصورين » د « المنظورين ». 2 — د « العقل »

---

(113) هذا حديث متداول وقد أورده أبو طالب المكي في قوت القلوب ج 278/2 بهذا اللفظ ولكني لم أقف له على تخريج. والحديث الصحيح في هذا المعنى هو عن أبي هريرة : «قال النبي ﷺ تجد من شر الناس يوم القيامة عند الله ذا الوجهين. الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه» والحديث أخرجه البخاري. أنظر إرشاد الساري ج 44/9 وأخرجه مسلم . شرح النووي على حاشية إرشاد الساري ج 10 ص 35 .

(114) الحديث : «العلماء أمناء الرسول على عباد الله تعالى. ما لم يخالطوا السلاطين فإذا فعلوا ذلك فقد خانوا الرسول فاحذروهم واعتزلوهم «حديث أنس أخرجه العقيلي في الضعفاء وذكره ابن الجوزي في الموضوعات. أنظر المغني بذيل الاحياء ج 68/1

(115) كذا في الأصل

(116) من الأمثال السائرة يضرب لمن يرفع نفسه فوق قدره ويتدخل في الأمر الذي لا حق له فيه. أنظر الميداني ج 130/2

وله في ذلك أنس ومشرب لا يعرفه غيره. وهي الجلساء المشار إليها بقول بعضهم : (117)

لَنَا جُلَسَاءُ لاَ يُمَلُّ حَدِيثُهم ... أَلِبَّاءُ مَأمونون غَيْباً وَشُهَّدَا
يُفِيدُونَنَا منْ علمهم علمَ مَنْ مَضَى ... وعقلاً وتأْديباً ورأياً مُسَدَّدَا
فَلاَ فتنةٌ تُخْشَى وَلاَ سُوءُ عِشْرةٍ ... ولاَ تَتَّقِي منهم لساناً ولا يداً
فإن قلت أحياءٌ. فَلَسْتَ بكاذب ... وإن قلت أمواتٌ فَلَسْتَ مُفَنَّدَا

حتى يجمع منها ما يحتاج إليه المسلمون فيُفيدهم. ولو احتاج السلطان إلى ما عنده وجده صحيحاً. فإذا خرج العالم عن حاله. ودخل مداخل السلطان فهو مَليمٌ (118) إلا أن يكون له عذر. فللنَّاس أعذار. فإذا علم السلطان هذا كله فلا ينبغي له أن يُلزم العلماءَ كلَّهم ملازمة مجلسه دائماً. فإنه يتعطل بذلك غالباً النفع العام للمسلمين. وإحياء رسوم العلم الذي هو بصدده. ولكن يتركهم على سجاياهم فمن جلس منهم لِنفع العباد لاَ غَيْرُ. فَلْيَحْمَدِ السلطانُ اللهَ على
ل 17 تأييده[1] ويَعْلَمَ أنه هو رِدْءُ (119)/الإسلام ويستوهب منه الدعاء. فإن درجته عند الله عاليةٌ. وفي الخبر[2] «إن معلم الخير يستغفر له كلَّ شيءٍ حتى الحيتان في البحر» (120) ومن جاء إلى السلطان منهم فَلْيُحْسن عِشْرَتَهُ ولا سيما إن كان سالم الناحية. والحقّ يظهر من مَعنىً ومنْ كَلِمٍ.

---

1 — في الأصل « عليه » صححت من جـ. 2 — في الأصل محو في بعض الحروف التصحيح من بقية النسخ

---

(117) تنسب هذه الأبيات لأبي الحسن اللخمي الفقيه المالكي المعروف (...478هـ) فيروايي الأصل نزل صفاقس وتوفي بها. له تصانيف كثيرة وقد وقفت على هذه الأبيات منسوبة في مخطوطة قـ 950 في معرض شرح الخزرجية ص 106

(118) من لام يلوم لَوْماً : كدَره بالكلام لإتيانه ما ليس جائزاً فهو لائم وذاك مَليمٌ ومَلُومٌ

(119) الرِّدْء : الناصر والعون

(120) هو حديث طويل رواه الامام أحمد بن حنبل في مسنده عن أبي الدَّرداء : «من سلك طريقا يطلب فيه علما. سلك الله به طريقا إلى الجنة. وإن الملائكة لتضع أجنحتها رِضىً لطالب العلم. وإنه يستغفر للعالم من في السماوات وفي الأرض حتى الحِيتَانُ في الماء. وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب إن العلماء هم ورثة الأنبياء لم يرثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر» مسند ابن حنبل ج 320/4 وأخرجه أبو داود في كتاب العلم والترمذي في كتاب العلم أيضا ورواه البزار من حديث عائشة مختصرا : معلم الخير يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر. وهذا اللفظ هو الذي استعمله اليوسي. أنظر الترغيب والترهيب ج 65/1

وللْعِلْمِ حَقٌّ يُؤَدَّى. وقد ركب زيد بن ثابت (121). فأخذ ابن عباس بركابه فقال له : خَلِّ عنك يا ابن عم رسول الله ﷺ فقال ابن عباس : هكذا أُمِرْنَا[1] أن نفعلَ بعلمائنا. فَقَبَّلَ زيدٌ رأسهُ وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبيِّنا. ثم لا ينبغي للسلطان أن يصحب كُلَّ واحد وهذه نصيحة أخرى لسلطاننا لا نبخل عليه بها. والحديثُ شُجُونٌ (122). بل من يَصْلُح[2] للصحبة وهم أهل الأدب والفهم والظرف الفصاح الأَلْسُن. الصِّبَاح الوجوه. فيكون للسلطان[3] بذلك متعة شاملة[4] لقلبه بالعِبَر. ولأُذنه بالخبر. ولعَيْنِه بالنَّظَر. ولا ينبغي أن يُهْمَل حُسْنُ ٱلْخلْقَةِ. وحسن الاسم. فإنه[5] معتبر شرعاً وطبعاً. وقد اتفق (123) الحكماء في الفِرَاسَةِ الحِكَمِيَّةِ على أن خلقةَ الإنسان تدل على الخُلُقِ المُودَعِ فيه من خير أَوْ شرٍّ وكان ﷺ. يقول لعماله : «إذا أَبْرَدْتُمْ إِلَيَّ بَريداً[6] فابْرِدُوه حسن الوجه. حسن الإسم» (124) وبدّل ﷺ أسماء رجال وبقاع لذلك. وكان يتفاءل ﷺ بحسن الإسم فقال يوم الحدَيْبِيَّة حين قالواْ هذا سهيل بن عمر : سَهُلَ عَليكم من أَمْرِكُمْ. وأراد عمر رضي الله عنه أن يستعمل رجلا فسأل عن إسمه فقيل له : خبأة بْنُ كِنَازٍ[7] فقال : هو

---

1 — خم «أمرت» د إسقاط «هكذا أمرنا — رأسه وقال». 2 — خم «يصحب». 3 — د أسقط «للسلطان» 4 — جـ «شافية». 5 — جـ زيادة «مهم». 6 — في الأصل «بريد أبردوه» والتصحيح من جـ. 7 — خم اسقاط «فقيل له خبأة بن كناز».

---

(121) زيد بن ثابت (11ق هـ — 45هـ) الأنصاري الخَزْرَجي صحابي من كتاب الوحي كان رأس أئمة المدينة في القضاء والفتوى والقراءة والفرائض. أحد اللذين جمعوا القرآن وهو الذي كتب المصحف لأبي بكر ثم لعثمان أنظر ترجمته ومصادرها في الاعلام ج 95/3.

(122) الحديث شجون : أي ذو طرق الواحد شَجْنٌ يضرب هذا المثل في الحديث يُتَذَكَّر به غَيْرُهُ. انظر الميداني ج 206/2

(123) تعرض اليوسي لنفس هذه الأفكار في موضوع العلاقة بين الخلقة والخُلق بكيفية أكثر تفصيلا في كتابه «المحاضرات» ص 82 وما بعدها طبعة فاس الحجرية

(124) حديث أخرجه البزار في مسنده عن بريدة ابن الحصيب الأسلمي قال الهيثمي وطرق البزار كلها ضعيفة ورواه الطبراني عن أبي هريرة وفيه لفظ «إذا بعثتم» وضعفه الجمهور فيض القدير ج 237/1

يَخْبَأ وأبوه يَكْنِزُ لا حاجة لي به «اطلبوا الخير عند حسان الوجوه» (125) وفي رواية : «إذا طلبتم الحاجةَ فاطْلُبُوها عند حسان الوجوه» وفي رواية «اطلب الخير إلى حسان الوجوه» قال رجل لابن[1] عائشة (126) : يا أبا عبد الرحمان إنما يعني من الوجوه الحسنة التي تَحِلُّ فقال ابن عائشة : اسكت لا علم لك بكلام العرب ، هذا من الوجوه التي يدل عليها الخير ثم أنشد :

ص 18 وَجْهُك الوَجْهُ لو يُسَالُ[2] به المُزنُ
مِنَ الحُسْنِ وَالْجَمَالِ اسْتَهَلاَ(127)/

وأنشد أيضا :

(وُجُوهٌ لَوْ أَنَّ الْمُدْلِجِينَ اعْتَشَوْا بِهَا
صَدَعْن الدُّجَا حَتَّى تَرَى اللَّيْلَ يَنْجَلِي)[3](128)

وأنشد أيضا :

---

1 — جـ اسقاط الجملة « يا أبا عبد الرحمان — ابن عائشة ». 2 — جـ ص « الذي لو يسأل » في الأصل « لو يسل » 3 — محو كثير في هذا البيت في الأصل. خم أسقط البيت أثبت ما في بقية النسخ .

---

(125) حديث رواه ابن حبان والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر وله طرق كلها ضعيفة أنظر المغني بذيل الإحياء ج 105/4

(126) عبد الرحمان ابن عبد الله التيمي المعروف بابن عائشة (... — 227هـ) شاعر متأدب من أهل البصرة قصد بغداد ومدح أمراءها أنظر الاعلام ج 88/4

(127) جاء هذا البيت في « المقاصد الحسنة » بهذه الرواية :

وجهك الوجه لو سألت به المز ن من الحسن والجمال استهلا

ص81. اسهل المطر : اشتد انصبابه مع صوت

(128) هذا البيت من قول مزاحم العقيلي :

يزين سنا المأوي كل عشية على غفلات الزين والمتجمل
وجوه لو أنَّ المدلجين اعتشوا بها صدعن الدجى حتى ترى الليل ينجلي

أنظر كتاب الحيوان للجاحظ ج 91/3 تحقيق عبد السلام هارون. المُدْلِجُونَ : السَّائِرُونَ بِاللَّيْلِ اعتشى النار : رآها ليلا فقصدها. صدعه : كفه وصرفه

دَل عَلى مـــعـــروفِـــه وجـــهُـــه
بُورِكَ هَـذا هَـادِيَـاً[1] مِنْ دَلِـيـلِ(129)

وأخذه بعض الشعراء فقال :

يَـدُلُّ على مَـعْـرُوفِـهِ حُسْنُ وجـهـه
وَمَا زَالَ حُسْنُ الوَجْهِ أَهْدَى[2] الشَّوَاهِدِ(130)

وللإمام الشافعي(131) رضي الله عنه اعتناء عظيم بهذا الباب . ويقال إنه صنَّف فيه وكان يقول : ليس سُرورٌ يعدل صحبة الإخوان ، ولا غمٌّ يعدل فراقهم . ويقول احْذَرُوا الأَعْوَرَ وَالْأَحْوَلَ وَالْأَعرج . والأجدبَ والأشقَر والكَوْسجَ(132) . وكلُّ من به عاهةٌ في بدنه فإن فيه التواءً[3] ومعاشرته عسيرة . وجرت له في ذلك قصتان :

إحداهما أنه بعث صاحباً له ليشتري[4] له من السوق نوعاً من العنب معْروفاً عندهم ، فلما جاء به ، وضعه بين يديه فقال له : عند من وجدته ؟ فقال له : عند فلان ، وإذا (هو)[5] متصف بشيء من الصفات المكروهة . فقال له الإمام : رد عليه عنبه فقال له صاحبه : يا أبا عبد الله إن لم تأكل العنب يأكله الناس (فقال)[6] . لا أريد أن يتمَّ التعامل بيني وبينه (133). فالإمام رضي الله عنه كره معاملته ولا يظن أن به شحّاً على الثمن . كيف وهو الذي أُعطي عشرة الآف دينار فطرحها . فكل من دخل عليه أعطاه . فما قام حتى فَنِيَتْ.

---

1 — في الأصل « حادثا » التصحيح من جـ و ص. 2 — جـ . د « إحدى ». 3 — في الأصل محو في بعض الحروف التصحيح من جـ. بياض مكان « التواء » في خم ود . 4 — في الأصل محو في حروف الكلمة التصحيح من بقية النسخ. 5 — زيادة من جـ. 6 — زيادة من « جـ » و « د ».

---

(129) أورده السخاوي في المقاصد الحسنة بهذه الرواية ولم ينسبه هو الآخر ص 81

(130) أورده السخاوي أيضا في المقاصد الحسنة ص 81 والشطر الثاني من البيت بهذه الرواية وما زال حسن الوجه إحدى الشواهد

(131) محمد بن ادريس الشافعي (150هـ — 204هـ)أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة ولد بغزة في فلسطين زار مكة وبغداد وقصد مصر سنة 199 فتوفي بها وقبره معروف له تصانيف كثيرة أنظر الاعلام ج 249/6

(132) الكوسج : الذي لحيته على ذِقنه لا على العارضين. الناقص الأسنان

(133) روى اليوسي نفس القصة في كتاب المحاضرات اقرأ ص 82 وما بعدها الطبعة الحجرية.

ثانيتهما[1] أنه جاء في سفر فمر ببلد. فخرج إليه رجل موصوف بالصفة المكروهة فعرض عليه المبيتَ عِنْده فكرهَ ذلك. فألح عليه الرجل حتى أدخله داره[2]. فلم يترك من الإكرام شيئاً إلاَّ صنعه مع غاية التأدب[3] والاحتفاء. والطلاقة[4] فلما رأى الإمام ذلك ساءه وقال في نفسه : هذا رجل على هذه الصفة المكروهة[5] وهذا الخير يخرج منه ؟ كيف يكون هذا ؟ فهذا يَنقضُ علينا القاعدة المقررة وبات من ذلك في غم عظيم. فلما أصبح وتهيأ للرحيل. جلس الرجل بين يديه وأخرج بطاقة فيها مكتوب كل ما أكل وانتفع (به)[6] في ليلته. مقوَّماً بقيمة مُضعَّفة وقال له : أَعْطِنِي مَالِي. وإذا هو رجل مخادع
ص 19 يتَّجر/بالضيافة[7] فيُغَرِّمُ الناس أكثر مما أكلوا فعند ذلك (سِرِّي) عن[8] الإمام. وعلمَ أنَّ الضَّابط لم ينْخَرم (134) ووزن له ماله عن طيب نفس وارتحل.

أما قول الكتاب : أين تجد السبيل في التباعد والتجافي عن حواضر[9] المسلمين إلى قوله : وأي عذر لك في التباعد عن حاضرتنا. وقولُه تسكن الزاوية (135) التي هي دار الفسق فأقول : أما الزاوية فإني لم أُردْ سُكناها. ولم يكن لي فيها وَلِيٌّ ولاَ قَريبٌ ولا حميمٌ ولا قبيلة. ولا كان في عمارتها نفعٌ لي. ولا في خلائها مضرةٌ. ولا طلبتها من السلطان قطُّ. ولا تَشَوَّفْتُ إليها. ولا خَطَرَتْ لي ببال. بل السلطان أصلحه الله هو ذَكَرَهَا لي في تكموست (136) فذكرت له أن يكون فيها خديم وما ذاك إلاَّ لأخرج أنا عن ذلك. ثم كتب لي إلى مراكش يأمرني أن أكتب إلى كل من يليق أن يسكن فيها ليجدها عامرةً. فأجبته بأنه لا مقالَ لِي ولاَ عَمَلَ لِي في ذلك. بل عِمَارتُهَا بأمر السلطان على يد خديمه. وهو المُتَوَلِّي لإدْخال الناس وإنزالهم والحكم فيهم. وأنا لا ناقة لي ولا جمل. وإنما أنا واحد من السكان. وإن سكنت فإنما أسكن

---

1 — في الأصل « ثانيها » التصحيح من د. 2 — د « إلى داره ». 3 — خم « التأديب ». 4 — جـ « الطلق » د « اللطافة ». 5 — د « الكريهة ». 6 — زيادة من د و خم. 7 — في الأصل محو التصحيح من سائر النسخ. 8 — في الأصل « سرى » لا تقرأ. الصواب من جـ./خم أسقطت الكلمة. 9 — د « حاضر ».

---

(134) خرمه : ثلمه وثقبه خرماً

(135) يعني الزاوية البكرية الدلائية كما يظهر ذلك جليا في رد اليوسي

(136) هل يعني تاسماكت بالأطلس المتوسط قرب الزاوية الدلائية ؟ أنظر الاستقصا ج 8 ص 200

مساعفة للسلطان، وإلا فلا شهوة لي فيها ولا في غيرها من الأمصار، فأجابني السلطان أيده الله بقوله لي : ما قلت إلاَّ الحقَّ والتَّحقيقَ، ثم سكتت عن ذلك حتى رجع سيدُنا إلى دار مُلكه وَمَقَرِّ سَلْطَنَتِهِ فلم يُفَاجئني إلا كتابُه لي يأمرني بالرحيل إلى الزاوية عَزْماً عَزْماً ولا بُدَّ.

فلم يمكني إلا الرحيل، ولقد ارتحلت في ذِروة البرد،[1] ولم أقدر على التراخي ولا الأعْذار، لِئَلاَّ يُظَن بي التعاصي[2]، ثم جئت الزاوية ولم أجد فيها داراً ولا جِداراً، فكنت فيها بين الشِّيحِ[3] والرِّيحِ إلى الآن، حتى أنه لو تأملني من هو جاهل بحال السلطان، لظن أنه إنما كلفني بها امتحاناً لي وتعذيباً، وحاشاهُ أن يُريد امتحانَ طلبة العلم بعدما عُرف منه من محبة العلم وأهله، والشفقة على المسلمين. فكيف يُنسبُ لي بعد هذا أني أريد الزاوية معاذ الله ! نعم، إذا بدا للسُّلطان فَلْيقلْ لي كُنَّا أمرناك بِسُكْنَى الزاوية، وقد بدا لنا أنها لا تصلح، فارْحلْ عنها. وحينئذ أرحل من ليلتي وأنا على السمع والطاعة، ولا أسأله في ذلك إلاّ الدَّواب لتي يعطيني في كل رحيل، فإني/[4] لا غِنىً لي عنها. ص 20

وأما سُكنى[5] الحاضرة فإني لم أذكر للسلطان أني استثقلته[6] ولا تَشَكَّيْتُ به عليه، ولا ذكرت ذلك لمن يذكره، بل أنا على السمع والطاعة في كل شيء والله المستعان. نعم أنا أستثقل ذلك ولكن لا بُغْضاً للسلطان، ولا عدمَ اهتمام بالعلم وانتفاع المسلمين معاذ الله !، أما بغض السلطان فإنما هو عند الخوارج الذين يَمْرُقونَ من الدِّين مروق السهم من الرمية (137) نعوذ بالله منهم وَمِنْ مَذَاهِبِهِم، وَمَذْهَبِ كل من يتشبه بهم. ولو قلت إنَّ عندي من محبة السلطان في قلبي أقوى

---

1 — في الأصل « برد البرد » صححت من جـ و خم. 2 — خم بياض مكان « التعاصي ». 3 — في الأصل « الصبح » صححت من ص. جـ « الثلج ». 4 — في الأصل « فإنها » الصواب من بقية النسخ 5 — في الأصل محو في بعض الحروف صححت من بقية النسخ. 6 — في الأصل محو في بعض الحروف صححت من بقية النسخ.

---

(137) هذه إشارة إلى الحديث النبوي في شأن ذي الخويصرة التميمي عند توزيع غنائم حنين عندما قال للرسول ﷺ لم أرك عدلت. فرد عليه الرسول : ويحك ! إذا لم يكن العدل عندي فعند من يكون ؟ فقال عمر يا رسول الله ألاَّ أقتله ؟ فقال : لا. دعه فإنه سيكون له شيعة يتعمقون في الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية. ينظر في النصل فلا يوجد شيء. ثم في القدح فلا يوجد شيء. ثم في الفوق فلا يوجد شيء. سبق الفرث والدم. سيرة ابن هشام ج 4 ص 144 تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد

مما يكون عند كثير ممن يتملقون بين يديه، ويدَّعون المحبة والحفاوة و «يقولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ» (138) لم أكذِب. وسأُبيّن ذلك آخر الكلام إن شاء الله.

وأما عدم الاهتمام بالعلم ونفع المسلمين فصفة المنافقين نَعُوذ بالله منها. وفي الحديث الكريم: «من لم يهتم بالمسلمين فليس منهم.» (139).

وأما عذري في اسْتِثْقالِ الحاضرة فَوُجُوهٌ كثيرة أقتصر على بعضها:

منها الطبع[1] فإني لم أولد فيها. بل في الفجاج الواسعة بين الشيح والريح[2]، والجنوب والشمال. فَأَيُّ عَجَبٍ إِذَا حَنَنْتُ إِلَى مَسْقِطِ رأسي. ومحلِّ أبناء جنسي. وفي الحديث الكريم: «حب الوطن من الإيمان» (140). وقال الحكماء: الكريم يَحِنُّ إِلَى وَطنه كما يحن النَّجيب إلى عِطْنِهِ. وفي النقل أيضاً: الكريم يحن إلى جنابه كما يحن الأَسَدُ إلى غابه. وفيه أيضا: مَيْلُك إلى مهدك من كَرِيمٍ مَحْتِدِك. وقال أبو عمر بن عبد البر: قيل لبعض الحكماء بأي شيء تعرفُ وَفَاءَ الرجل، وَذِمَامَ عهده دون تجربة واختبار، (قال)[3]: بحنينه إلى أوطانه، وتشوقه إلى إخوانه، وتلَهُّفه على ما مضى من زمانه. وقال الأصمعي (141): إذا أردت أن تعرف وفاء الرجل وذمام عهده، فانظر إلى حنينه إلى أوطانه، وتشوقه إلى إخوانه، وبكائه على ما مضى من زمانه. وقال الأعرابي (142)

---

1 — جـ اسقاط «منها الطبع». 2 — في الأصل «الحرمل» صححت من جـ. 3 — زيادة من خم يتطلبها السياق. خم «قيل».

---

(138) تضمين لجزء من الآية 11 سورة الفتح

(139) حديث أخرجه الحاكم من رواية حذيفة. والطبراني في الأوسط من حديث أبي ذر. وكلاهما ضعيف أنظر المغني بذيل الإحياء ج 208/2.

(140) أورده السخاوي في «المقاصد الحسنة» ص 183 وقال: لم أقف عليه. ومعناه صحيح في «المجالسة» للينوري أحمد بن مروان من طريق الاصمعي

(141) الأصمعي عبد المالك بن قريب (122هـ — 216هـ) راوية العرب وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان مولده ووفاته بالبصرة تصانيفه كثيرة وهو صاحب كتاب «الأصمعيات» جمع فيه القصائد التي تَفَرَّدَ بروايتها. الأعلام ج 307/4

(142) وقفت على هذه الأبيات في شرح أحمد الشريشي لمقامات الحريري قال ص 196: ومِمَّا ينتظم بهذا الموضع من ذكر الأوطان والتشوق إليها قول رفاعة بن عاصم الفقعسي. وأنشدها البكري لامرأة من طَيِّئ.

أَحَبُّ بلاد الله ما بين مَنْعِجٍ[1]
إِلَيَّ وَسَلْمَى[2] أنْ يَصُوبَ سحابُهَا(143)
بلادٌ بها عَـدَّ[3] الشبابُ تَمَائِمِي
وأَوَّلُ أرض مسَّ جلدي تُرابها

وقال آخر (144)

ص 21 ذكرت بلادي[4] فاستهلت مدامعي لشوقي إلى عهد الصبا المُتَقَادم/
(حَنَنْتُ إلى أرض بها اخْضَرَّ شاربي وقُطِّعَ عني فيه[5] عِقْدُ التَّمَائم)[6]

وقال ابن ميّادة[7] (145) :

ألا ليت شعري هل أَبِيتَنَّ ليلةً
بحِرَّةِ ليلي حيثُ رَبَّتَني[8] (146)أَهْلِي
بلادٌ بها نيطت عليَّ تَمَائِمِي
وقُطِّعْنَ عنِّي حِينَ أَدْرَكَنِي عقلي

وقال أبو هلال العسكري : (147)

---

1 — د خم جـ « منجع ». 2 — جـ « وسلني ». 3 — في الأصل « عن » الصواب من جـ. خم. 4 — د « أرضي ». 5 — في الأصل « قبل » صححت من الأبيات عند الشريشي. 6 — في الأصل البيت فيه محو كثير أثبت ما في جـ و ص/د وخم أسقطت البيت. 7 — خم « ابن نباتة » جـ « ابن لباد ». 8 — ص د « ربني » خم « ربني » الأصل « ربني » التصحيح من طبقات الشعراء ص 106.

---

(143) مَنْعِجٌ : بالعين المكسورة اسم موضع القاموس ج 210/1

(144) لم ينسب الشريشي في شرح مقامات الحريري هو الآخر هذه الأبيات واكتفى بقوله قال الأعرابي. ص 176

(145) هو الشاعر الرماح بن أبرد. وميادة أمه توفي سنة 149 هـ عاش في عصر بني أمية وأدرك بني العباس. شاعر مجيد. اقرأ أخباره في طبقات الشعراء لابن المعتز. ص 106 وقد أورد الأبيات المذكورة في النص

(146) رَبَّتَني : الربيت الربية

(147) أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري (.../395هـ) عالم بالأدب واللغة له شعر جيد. وله كتب كثيرة في اللغة من كتبه «كتاب الصّناعتين» و «شرح الحماسة» الخ انظر الاعلام ج 211/2

إِذَا أَنَا لاَ أشتاقُ أَرْضَ عَشِيرَتِي فليس مكاني في النُّهَى بِمَكِينِ
من العقل أن أشتاق أوّل منزل غُنِيتُ بِحِفْظٍ في دُرَاهُ و[1]لِينِ
وَرَوْضٍ رَعَاهُ بِالْأَصَايِلِ ناظِرِي وغُصْنٍ ثَنَاهُ بِالْغَدَاةِ يَمِينِي
وإِنِّي لاَ أَنْسَى العهودَ التي بها[2] إِذَا النَّوَى دُونَ الخَلِيطِ وَدُونِي[3]
إِذَا أَنَا لَمْ أَرْعَ العُهُودَ عَلَى النَّوَى فَلَسْتُ بِمَأْمُونٍ وَلاَ بِأَمِينِ

وسمع أبو دلف العجلي (148) قول القائل : (149)

لاَ يَمْنَعَنَّكَ[4] خَفْضَ العيش في دَعَةٍ نزوعُ نَفْسٍ إلى أهلٍ[5] وَأَوْطَانِ
تَلْقَى بكل بلاد إِنْ حَلَلْتَ بها أَهْلاً بأهل وجيرانا[6] بجيران

فقال : هذا أَلأَمُ[7] بَيْتٍ قالته العرب. وإنما قال ذلك لما فيه من قساوة القلب. وغِلَظِ الطبع. وقلة الوفاء وَرَعْيِ الذِّمَام والعهد. وقال ﷺ في امرأة دخلت عليه[8] فَهَش إليها[9] : «(إِنَّها»[10] كانَتْ تَأْتِينَا أيام خديجة، وإِنَّ حُسْنَ العهد من الإيمان» (150) وهذا أمر مجبول عليه طبع الآدمي فلا نقصان به على الإنسان وإن بلغ ما عسَى أن يبلغ من الكمال والصفاء. وقال[11] عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مدح السيد بلال : أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا يعني

---

1 — في الأصل «من لين» صححت من ص وخم. 2 — في الأصل «التي إذا» صححت من ص. 3 — في الأصل «وما دوني» صححت من ص. 4 — جـ خم د «يمنعك» 5 — في الأصل «نفسي إلى أهلي» التصحيح من شرح الشريشي للمقامات. 6 — في الأصل «جيران». 7 — في الأصل «الذم» التصحيح من ص و جـ 8 — في الأصل «إليه». 9 — خم. جـ. ص اسقاط «هش إليها» د بياض مكان الكلمة. 10 — زيادة من النسخ الأخرى. 11 — في الأصل «أسند» التصحيح من سائر النسخ.

---

(148) أبو دلف القاسم بن عيسى (.../226هـ) من بني عجل. أمير الكَرْخ. أخبار أدبه وشجاعته كثيرة كان من العمال والقواد في عهد الرشيد والمامون. وللشعراء فيه أماديح أنظر ترجمته ومصادرها في الأعلام ج 13/6

(149) هو ابراهيم بن العباس الصولي كما ذكر شارح مقامات الحريري. وعنه صححت الشطر الثاني من البيت الأول. أنظر شرح مقامات الحريري ص 103.

(150) جزء من الحديث عن عائشة قالت «جاءت عجوز إلى النبي ﷺ فقال : كيف أنتم ؟ كيف حالكم ؟ كيف أنتم بعدنا ؟ قالت بخير بأبي أنت وأمي يارسول الله. فلما خرجت قلت : يارسول الله تُقبل على هذه العجوز هذا الإقبال فقال : ياعائشة. إنها كانت تأتينا زمان خديجة وإن حسن العهد من الإيمان» أخرجه الحاكم والبيهقي من حديث عائشة أنظر إرشاد الساري ج 21/9.

بلالا رضي الله عنهما. فناهيك بهذا الذي اعترف له بالسيادة. يَعْني في الإيمان والدين، عُمَرُ الذي هو محدث هذه الأمة. ونزل القرآن على وَفْقِ لسانه. وحين حُمَّ بلال رضي الله عنه. كان إذا أقلعت عنه الحمى يرفع عقيرته وينشد : (151)

أَلاَ لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً

ص 22 بِوَادٍ (152) وَحَوْلِي إِذْخِرٌ وَجَلِيلُ(153)

وَهَلْ أَرِدَنْ يوماً مِيَاهَ مِجَنَّةٍ[1](154)

وهل يَبْدُوَنْ لِي شَامَةٌ[2] وَطَفِيلُ(155)

ثم يقول : لعن الله شيبة بن ربيعة (156)، وعتبة بن ربيعة (156) وأبا جهل بن هشام (156) كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوَبْل والوَخَم (157). فهذا ذِكرُ الوطن، وذكر مياه البادية البعيدة على الوخم، وفي رفع الصوت ما هو إلف للنفوس وتنجلى به الغُمة. وفي قوله ﷺ (لورقة : «أَوَ

---

1 — في الأصل محو في بعض حروف الكلمة التصحيح من جـ و د. خم «الجميل». 2 — في الأصل «نسامة» التصحيح من ص و جـ و «كتاب السيرة».

---

(151) وردت هذه الأبيات في سيرة ابن هشام في فصل ذكر من اعتل من أصحاب رسول الله ﷺ بالمدينة قالت عائشة : وكان بلال إذا تركته الحمى . اضطجع بفناء البيت ثم رفع عقيرته فقال (الأبيات) سيرة ابن هشام ج 221/2 وأورد الأبيات أيضاً صاحب العقد الفريد ج 282/5 برواية عائشة أيضا.

(152) في السيرة : بفخ. أو فج. بالخاء والجيم: موضع بمكة. وفي العقد بواد ج 282/5.

(153) الإِذْخِرُ : نباتٌ يشبه الأَسَلَ : وهو نبات دقيق الأغصان طويلها الواحدة أسَلَة. يُستعمل لصنع الحصر والسلال وغيرها والإِذْخر طيب الرائحة. الجليل : الثَّمَامْ. وَاحِدَتُه ثُمَامَةٌ : نَبْتٌ ضعيفٌ لا يطول وأهل الحجاز يسمون الثمام : الجليل

(154) موضع على أميال من مكة وفي العقد : جبل لبني الدِّئل خاصة بتُهامة بجنب طُفَيلٍ

(155) شامة وطفيلْ : جبلان قرب مكة : معجم البلدان

(156) من زعماء قريش وساداتها في الجاهلية الذين حاربوا دعوة الرسول ﷺ واضطروه للهجرة قتلوا جميعهم في وقعة بدر. السنة 2هـ.

(157) الوَبْل : المطر الشديد. الوَخَمْ : تعفن الهواء المُوَرِّثْ للأمراض الوبائية

مُخْرجيهم» (158) إشارة إلى هذا المعنى. وقد دخل (159) رجل على النبي ﷺ [1] في المدينة ومعه بعض أهله فأخبر أنه جاء من مكة وقال : «تركتها حين تَفَتَّحَ الجَلِيلُ [2] وكذا وكذا، يُعَدِّدُ أَعْشَابَهَا. فاغرورقت عيونهم بالبكاء. فقال ﷺ : لاَ تُشَوِّقنا يا فلان» (159) وقال ﷺ «اللهم حبب إلينا المدينة، كحبنا مكة أو أشد» (160) ووقع في بعض الكتب أنه ﷺ ليلة الإسراء لمّا زُجَّ بِهِ في النُّور، وفارقه جبريل أسمعه الله حينئذ كلام أبي بكر لِيَأْنَسَ (بِهِ) [3] طَبْعُه إِذْ هو أَلِيفُه [4] فيتَقَوَّى على ما يلاقي من الأمور العظام.

ومنها فساد طبع العِيَالِ والأولاد والأصحاب، ونخشى ذلك نحن أيضا في أنفسنا من جهات : **إحداها** : تَعَلُّمُ الشهوات والاتساع فيها. وإِنْ كُنَّا بالبادية لا نعرفها. ووجدنا آباءنا يعيشون بما وجدوا قانعين [5] به، يَلْبَسُونَ الصوف الخشين، ويأكلون البُرَّ تارة، والشَّعِير أخرى، والدُّخن (161) أخرى، والتَّمْرَ أخرى، والبلوط وحَبَّ العَرْعَار أخرى، حامدينَ شاكِرين، ما رأوا قَطُّ لُبَابَ البُرِّ، ولا

---

1 — زيادة من جـ و د و ص . 2 — في الأصل « أجليل » صوابه من بقية النسخ 3 — زيادة من جـ و ص. 4 — في الأصل « أهله » التصحيح من جـ و ص. خم بياض مكان الكلمة 5 — د « وما يعيش به » بدل « قانعين به ».

---

(158) جزء من حديث بدء الوحي أخرجه البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها وهو حديث طويل. أخرجه البخاري في خطبة الكتاب والتفسير والإيمان والترمذي والنسائي في التفسير. أنظر إرشاد الساري ج 61/1 وما بعدها وبهامشه في ج 38/2 من شرح النووي على صحيح مسلم.

(159) في حاشية سيرة ابن هشام : «قال السهيلي : جاء في حديث أُصيل الغفار ويقال فيه البذلي أنه قدم من مكة فسألته عائشة : كيف تركت مكة ياأصيل ؟ الحديث. ويروى أنه ﷺ قال له : «دَعِ القُلُوبَ تَقِرُّ» السيرة ج 222/2.

(160) الحديث أخرجه مسلم عن عائشة قالت : «قدمنا المدينة وهي وَبِيئَة فاشتكى أبو بكر واشتكى بلال فلما رأى النبي شكوى أصحابه قال : «اللهم ...» الحديث. وزاد : «وصححها وبارك لنا في صاعها ومدها وحول حماها إلى الجحفة. أنظر هامش إرشاد الساري ج 86/6. كما أخرجه البخاري في الحج عن عائشة أيضا ج 229/6 و ج 342/3.

(161) الدُّخْنُ : الواحدة دُخْنَةٌ. نبات من فصيلة النَّجيليَّات. حَبُّه صغير أملس. يقدم طعاماً للطيور والدجاج

إبزاراً ولا عطراً، ولا كَتَّاناً، ولاَ مَلْفاً (162). حتى درجوا سالمين غيرَ تابعين ولا
ص 23 متبوعين/وكنا نتمني أحوالهم لَوْلاَ مَا امْتَنَّ الله علينا به من حفظ كتابه. والتفقُّهِ في دينه. نسأل الله تعالى أَنْ يَزِيدَنَا بذلك إِقْبَالاً عَلَيْهِ. وَإِدْبَاراً عن زهرة الدنيا حتى نلقاه آمين.

فلما دخلنا الحاضرة ظهرت الشَّهوات، ونظر النساء إلى النساء. والصبيان إلى الصبيان، والرجال إلى الرجال، فطلبواْ الاتساع كما اتَّسَعُوا، وابْتُلِينَا كَمَا ابْتُلُوا. **ثانيها** : الوقاحةُ في ذلك وقلةُ الحياء. فقد كُنّا في البادية تستحي المَرْأَةُ أَن تطلبُ اللحْمَ، فكيف بما وراءه، ولكن تَتَشَوَّفُ إِلَى المواسم، أو ضَيْفٍ نزل فيُذْبحُ له، أو يُشْتَرَى له، أو إنفاق يأتي به الله من غير استدعاء. فوجدنا المرأة في الحاضرة تُرَاعِي الباب وتقول للرجل : انْفق، وارجع للسوق. ولا تسمع إلاَّ سوق : سوق اللحم، سوق الحوت، سوق الزعفران وهكذا. وإن لم يكن ذلك وقع التداعي وجاء رجل القاضي (163) وقد قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه : كنا معشر قريش نغلب النساء، فأَتَيْنَا قَوْماً تَغلبهم نِسَاؤُهُم، فأخذ نساؤنا يتعلمن[2] من نسائهم...(164) **ثالثها** : أن يتعلم الصبيان اللُّؤْمَ والبخل وقلة السماحة، كما هو دأْبُ أهل الحاضرة. وما فسدت طبائع العرب إلاَّ في الحواضر. فأين كرماءُ غَطَفَانَ، وأين كرماء بني نبهان[3] الذين ينحرون الكَرَايِمَ غِبْطَةً، ولا يَقْرُونَ إلاَّ لَحْماً غَرِيضاً. ولقد حَدَّثَ[4] بَعضُ صعاليك العرب فقال : نزلت على رجل من طَيِّءٍ، فنحرَ لِي، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا نَحَرَ أَيْضاً فقلتُ لَهُ : اللَّحْمُ عندَكَ كثيرٌ فقال : لاَ أُحِبُّ أن يأكل ضَيفي إلاَّ لحماً غَرِيضاً أيْ طَرِيّاً، فلما أمسى نَحَرَ، وكذلك كل غداة وعَشِيٍّ.

---

1 — د «سق» بدون إشباع. 2 — في الأصل «يتعلمون» التصحيح من جـ وخم و ص.
3 — خم «نعمان» 4 — في الأصل «تحدثت» أثبت ما في جـ و ص لموافقته للسياق.

---

(162) المَلْفُ : نسيج صوفي فاخر معروف في المغرب

(163) يعني أن النزاع يبلغ القاضي فيبعث عونه للبحث

(164) جزء من حديث طويل رواه البخاري في صحيحه عن ابن عباس في كتاب النكاح «باب موعظة الرجل ابنته لحال زوجها». أنظر إرشاد الساري ج 92/8 ولفظ البخاري في الجزء المذكور من الحديث في النص كالتالي : «وكنا معشر قريش نغلب النساء فلما قدمنا على الأنصار اذا قوم تغلبهم نساؤهم. فطفق نساؤنا يأخذن عن أدب نساء الأنصار.»

فبعد أيام خرجتُ فتركت إبِلَهُ حَتي أَصْحَرَتْ[1] فَطَرَدْتُهَا (165) واستقبلت بها الفَجَّ. فبلغ الغَوْثُ إليه، فتَبِعَني فإذا هو قد أدركني فلما رآني قبض[2] قوسه وقال : انْجُ بنفسك لا أُمَّ لك ! فقلت : أَرِني آيةً. قال : انظُر إلى ذلك الوَزَغِ على الصخرة، أضعُها في ذَنَبِه، فرماه فما أخطأ ذنبه، وزاد أخرى، فلما رأيت ذلك اسْتَأْسَرْتُ[3] (166) فساق الإبل وأنا معه، فسار ساعة، فالتفت إليَّ فقال : ما أرى بيننَا وبينك عداوة، وما أرَى حَمَلَكَ على ما فَعَلْتَ إلاَّ الحاجَةَ فقلت[4] : هو ذاك. فقال : اعْزِلْ منها خَمْسَمائة (فقلت)[5] إذاً لاَ تَبْرحْ حتَّى
ص 24 تسمع ثنائي عليك. قال : فأثنيت عليه بكلمات/فاستحيا وأعرض بوجهه وقال : سُقها كلَّها.

فأين طبع هؤلاء في أعقابهم اليَوْمَ[6] وهم في حَلَب، وَأَنْطَاكِيَّة، ودمشق، والمدائن (167) ومصر، وغيرها وهم لا يبيضُون (168) بقطرة[7] وذلك مما اكْتسبوه من البلد. وأيُّ ضَرُورَة أعظم من هذه الضرورة. وقد قال ﷺ : « أي داء أدوى من البُخل» (169).

ومنها مقاساة أهلها والتعرض لإذايتهم وفتنتهم، ولا سيما أبناء الجنس. ولقد طلبني السلطان مولاي الرشيد بالرحيل إلى فاس وقال : تُصيبُ الظلَّ والماء البارد، وتأكلُ الخالص، وينتفع بك المسلمون، ولم أكن قط رأيت فاساً[8] قبلَ

---

1 — جـ « سرحت » بدل « أصحرت ». 2 — في الأصل « أقبض » الصواب من سائر النسخ.
3 — خم « استترت » د « استاتر ». 4 — في الأصل « فجلت » التصحيح من بقية النسخ.
5 — زيادة من جـ و ص. 6 — في الأصل محو في بعض الحروف التصحيح من سائر النسخ.
7 — في الأصل « ولا يبصرن بنظرة » أثبت ما في جـ لموافقته للسياق. د ولا تتصدى بفطرة . خم بياض مكان الكلمة ص « يبصون ». 8 — د اسقاط كلمة « فاساً ».

---

(165) أصحر : خرج إلى الصحراء. طرد الإبل : ضمها من نواحيها وساقها
(166) استأسر : أسلم نفسه أسيراً
(167) المدائن مدينة كسرى قرب بغداد ولعله هنا يعني العراق
(168) باض السحاب : قطر
(169) جزء من حديث طويل أخرجه الإمام أحمد من حديث جابر بن عبد الله أنظر نفثات صدر المكمد وقرة عين المسعد لشرح ثلاثيات الإمام أحمد ج 228/1 وذكره شارح إرشاد الساري في أمثلة عن جوامع كلم للرسول ﷺ ج 300/10

ذلك، ولا كان لي علم بحالِهِ ولا حال أهله. فقلت هذا والله خير. وقبلت قول السلطان، وارتحلت بنية صالحة، على أَنِّيْ أُعَلِّمُ من جاءني. وإن كان هناك من هو أَسَنُّ مني كسيدي عبد القادر (170) لَقِيتُه وتبركت به. فبتّ خارج فاس نحو ليلتين، والطلبة يترددون إِلَيَّ، فلم أدخل المدينة، حتى لم تبق لي نية من كثرة القيل والقال ثم بدأنا القراءة فاصطفقت[1] (171) علينا الطلبةُ أهلُ البلاد والغرباء وكان المجلس حافلا[2] وذلك في غيبة السلطان إلى السوس، فتحرك الحسد والوسواس، وكَثُر القيل والقال وجعل كل من يُحِبُّني يحذرني من الناس، ومنْ أَكْلِ طعامهم فما يمكنني أن أشرب ماءً، ولا آكل طعاماً من يد أحد ولا أجلس على سليخة[3] (172) الكرسي حتى يقلبها أصحابي ولا تفريط. فصرنا في فتنة وبلاء، ثم لم ألبث قليلا حتى مَرِضْتُ، فبقيت حتي نقهت، واسترحت. فذهبت للقراءة، فلم يكن إلاَّ أن طلعت على الكرسي أصابني ذلك فنزلت. وجئت الدار فرقدت أيضا حتى تَعِبْت. فرجعت فكان الأمر كالأول[4] فعند ذلك قام إِلَيَّ أصحابي وقالوا: هذا أمر واضح بيِّن، هذا عمل (173) (عُمل)[5] لك على مجلس القراءة لئلا تشتغل به، فإنك شتت[6] عن الناس تلاميذتهم، وأخليت مجالسهم (174) وجعلوا يكتبون لي معاذات لم تزل اليوم عليَّ. فمن ثم أمكنني باذن الله أن أحضر الميعاد. ثم لمَّا رجع السلطان من السوس، وخرجت العطايا (للفقهاء)[7] ولطلبة العلم، وكانت عطايا الطلبة

---

1 — د «فاطفقت» جـ خم «فاصفقت». 2 — خم «حاملا». 3 — د اسقاط «سليخة» 4 — خم اسقاط «كالأول». 5 — زيادة من سائر النسخ. 6 — جـ «ميلت» د «سلبت». 7 — زيادة من جـ و ص.

---

(170) يعني الشيخ عبد القادر بن علي الفاسي (1007هـ — 1091هـ) الفقيه الصوفي نشأ بالقصر الكبير رحل إلى فاس للقراءة بالمدرسة المصباحية ثم تصدر لبث العلم ونشره فشاع في المغرب خبره. ولأهل فاس فيه اعتقاد عظيم ومحبة صادقة. كان زاهداً في الدنيا لا يتقوت إلا من النساخة. أنظر ترجمته وأخباره في أزهار البستان ص 138 الصفوة 217 التقاط الدرر ص 52 نشر المثاني ج 1 ورقة 146 وجه

(171) اصفق القوم واصطفقوا : اضطربوا لكثرة وفودهم وجماعاتهم

(172) سليخة الكرسي : أظنه يعني ما يوضع على الكرسي من جلد منسلخ عن ضأن أو غيره في القاموس السَّلخ اسم ما سلخ عن الشاة.

(173) يعني به السحر أو نحو ذلك

(174) أنظر الإشارة لهذا الموضوع في المحاضرات ص 72 طبعة حجرية

تنفذ(175) إلى القضاة . يتولون قسمتها عليهم . فعند ذلك جعل الطلبة يتسللون من مجلسي ويذهبون إلى حيث كانت العطايا حتَّى لم يبق في مجلسي بحمد الله إلاّ من همته العلم لا الدنيا . وأكثرهم/من الغرباء وقليل من أهل البلد . وأكثر أهل البلد إنما هِمَّتُهُم في جائزة يَقْتَنِصُونَهَا . أَوْ مِحْرَابٍ . أَوْ كُرْسِيٍّ أَوْ شَهَادَةٍ يَتَوَلَّوْنَهَا . 25

ثم لمَّا رآني الناس أطْلَعُ إلى السلطان لبعض الأَحْيَانِ. جعلوا يَتَعَلَّقُونَ بي طلباً للشفاعة، ويُثْقِلُونَ عَلَيَّ. وأنا ما أُحِبُّ أن أفتح ذلك الباب على نفسي. لأنه يتركني بلا شُغْل ولأنِّي لا أقدر على ذلك، ولا أصْلُح له، فإنه محتاج إلى مزيد حداقة وإبانة، وحسن تأن[1] وتدرب، وأنا بعيد عن هذا كله، إنما أنا رجل بَدَويٌّ. فصار هذا أيضا فتنة عليَّ وشغلا. ثم إنَّ تلك العطايا كانت تتأخر إلى الشهر والشهرين، وكثير من الأحيان[2] لا تصل إلينا العطية[3] حتى نكون قد أخذنا من السوق أشياء بالدَّين، مع أني كنت من أكثرهم عطاء، ولكن لم يكن ذلك إلاَّ كماء فاس، يدخل ويخرج، حتى أنَّا خرجنا من فاس ولم يتبعنا درهم واحد من ذلك. ولما مات السلطان انقطع ذلك فصرنا في فتنة مع العيال. فقلت لأصحابنا إن هذه الحاضرة ليست لنا بدار مقام، فإنا لسنا من أهلها : لا دار بحمص ولا مال[4] (176) وقد تعرضنا فيها لما رأيتم من البلاء والفتن من كل ناحية حتى لو حققنا النظر لم يجز لنا أن نبقى فيها مع هذا. قال تعالى : «وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمُ إِلَى التَّهْلُكَةِ» (177).

وإن أهل الحاضرة لم يشتغلوا بالعلم وإنما اشتغلوا بالحظوظ الدنيوية[5] وهؤلاء الغرباء الطالبون للعلم،[6] البادية أرفق بهم، لأنهم يقرأون فيها بلا بضاعة[7] وينجون مع ذلك من الكُلْفة. ومن أن تسترق طباعُهم طباعَ هؤلاء

---

1 — في الأصل « تأت ». صححت من جـ بما هو أنسب. 2 — د « العطايا » بدل « الأحيان ». 3 — د اسقاط « العطية ». 4 — د و جـ اسقاط الجملة « لا دار بحمص ولا مال ». 5 — جـ اسقاط « الدنيوية ». 6 — خم زيادة « أهل ». 7 — خم « طاعة ».

---

(175) أنفذ : أرسل.

(176) ربما كان هذا من الأمثال. ولم أعثر عليه

(177) من الآية 195 سورة البقرة مدنية

المتلاعبين، فكان خروجنا إلى البادية راجحاً أو واجباً، والعلم صنعتنا، فنحن أعرف بما يصلحها[1] وأهل مكة أَعْرَفُ بشعابها، غير أنا عرض لنا قلب سيدنا، وخفْت أن أتحرك أو أطلب ذلك حين خروج آيت عياش (178) وأخونا سيدي عثمان (179) وبنو يزناسن، فيقول : كنتم مع حبيبي [2](180) واليومَ تهربون كلكم عني، فصَبَرْتُ وَفَوَّضْتُ الأمر إلى الله تعالى، حتى جاء الله بالسبب وهو خلاف أهل فاس (181) فخرجت بإذن من سيدنا ونزلت بالشِّعْب الذي كنت فيه وبنيت دُويرات بغير مؤونة، واتَّسعت وجعلت لنفسي موضعاً وباباً لا أَرَى
ص 26 فيه قط امرأة من غير عيالي، وبنيت بيتاً ملتصقا بالمسجد/فإن رأيت خُلْطَةً لا تعجبني، نقرت لهم فأقاموا الصلاة، وصليت معهم، وأنا أسمع قراءة الإمام، وأبقى على ذلك إن شئت الشهر والشهرين لا أرى أحداً ولا يراني، أَنْظُر في كتبي

---

1 — جـ « يصلحنا » 2 — د « معي حسبي ».

---

(178) من المعلوم أن إخلاء زاوية آيت عياش قد تم على يد الرشيد سنة 1082هـ. ونقلوا إلى فاس حيث اشتغلوا هم كذلك بالتدريس كعلماء زاوية الدلاء وتفاصيل ذلك مذكورة في كتاب « الإحياء والإنتعاش في تراجم سادات آيت عياش » تأليف أبي محمد عبد الله بن عمر العياشي. ويذكر المؤلف أن إسماعيل قد أمرهم بالرجوع إلى زاويتهم وذلك أواخر المحرم فاتح عام 1083هـ انظر مخطوطة الخزانة العامة بالرباط رقم د 1433 ص 15. وأظن أن هذا هو ما يعنيه اليوسي بخروجهم من فاس وعودتهم إلى زاويتهم. والعلاقات الودية بين اليوسي وبين الزاوية العياشية معروفة خصوصا مع أبي سالم العياشي.

(179) أبو سعيد عثمان بن علي اليوسي (...1084هـ) من أكبر تلامذة الزاوية العياشية ابن عم الحسن بن مسعود اليوسي. حكى عنه في محاضراته أنه مدحه بأبيات يقول فيها :

نفسي عشيةَ قيل مَرَّ أبو علي مثل الرِّيَاحِ إذَا تَمُرُّ بِأَثْأَبِ

أخذ العلم عن أهل الزاوية العياشية. وهو تلميذ صاحب الرحلة عبد الله بن محمد أعياش له معه مراسلات تحدث عنها في الرحلة. أنظر أخباره في نشر المثاني ج 13/2 — 15 (المطبوع)

(180) أظن أن إسماعيل كان يسمي أخاه الرشيد بهذا الإسم

(181) يعني انتقاض أهل فاس بيعة إسماعيل ونصرتهم لابن أخيه أحمد بن محرز سنة 1083هـ وفي هذه الفتنة قتلوا قائد الجيش زيدان بن عبيد العمري. وقامت حرب أهلية هلك فيها خلق كثير انتهت بعد حصار إسماعيل لهم. وإذعانهم في رجب 1084هـ أنظر الاستقصا ج 47/7 وما بعدها.

حتى تُقام الصلاة ولا يضيع على شيء من أوقاتي. وساقيتان تجريان[1] في وسط الدار. والخُضْرَةُ في وسط الدار وعلى بابها. والحطَب في باب الدار. والمؤونات مكفية. وما لم يوجد يُستغنى عنه. إذ لاَ جارَ[2] يَفْتِنُ ولا سوق يقطعُ العُذْرَ. وجاءت طلبة فكنا ندرس العلم لله لا يتشوف منا أحد لمرتب[3] ولا يرائي أحدٌ أحداً. ولا نسمع قال فلان ولا قرأ فلان فاسترحنا وحمدنا الله تعالى ووجدنا صلاح ديننا وراحة قلوبنا وأبداننا

فهذا سبب استثقالنا للنزول إلى الحاضرة ومن جرب أو ذاق مرارتها ثم وجد الراحة منها. كيف يُحبُّ الرجوع إليها. هذا لا يفعله العاقل بنفسه[4] ولا يلومه إلاّ من لا يعرف حاله: لعلَّ لنا عذراً وأنت تلوم (182).

هذا مع أن سيدنا أيده الله مطلع على أكثر أمور لم تخف عليه. وهذا كله إنما شرحناه جبراً لقلب السلطان نصره الله على الحق. فيعلم أنه إنما لم نُبادر لإصلاحِ قلبه ومرضاته[5] لتعذر الأمر علينا شرعاً وطبعاً. ولو أمكننا ذلك لبادرنا إليه. فإن تغيُّرَ قلبه أَمْرٌ عَظِيمٌ علينا. وإن كان يَحْلُم (183) وَيَصْبِر لكنه سلطان المسلمين وسلالة سيد المرسلين. فوددنا أن لو أمكننا أن نخدمه بأشفار عيننا. وأما لو نظرنا للشريعة المحمدية فلا نحتاج إلى شيء من هذا. ولا حجة علينا ولا حق. فإنه لا يجب علينا أن نرتحل إلى المَدَاينِ لِيَتَعَلَّمَ[6] أَهْلُها عِلْمَنَا ففي بيته يُوتَى الحَكَمُ (184) ولم يوجب الشرع قط على بدوي أن يتحضر. كما لم يوجب على

---

1 — في الأصل « تجرى » التصحيح من بقية النسخ. 2 — في الأصل « ر أخبار » الصواب من جـ و ص. خم « لا أخبار. د « لا خبر ». 3 — خم « لرتب » د « للدق » 4 — جـ اسقاط « بنفسه ». 5 — في الأصل « مراضاته » الصواب من سائر النسخ. 6 — في الأصل « لتعلم » الصواب من خم. جـ « يتعلم ».

---

(182) هذا مثل سائر يضرب لمن يلوم من له عذر ولا يعلمه اللائم. وهو شطر من بيت كالتالي :

تَأَنَّ ولا تعجل بلومك صاحباً لعل له عذراً وأنت تلوم

أنظر الميداني ج 141/2

(183) حَلُم يحلم حِلماً : صفح وكان ذا حِلْم. والحِلْم ضد الطيش

(184) هذا مما زعمته العرب على ألسن البهائم. أنظر القصة في مجمع الأمثال للميداني ج 19/2. وفي النص يعني اليوسي أن من أراد العلم فليرحل إليه ويأتي العلماء في أماكنهم

حضري أن يَتَبَدَّى. نعم. كان في صدر الإسلام أمر الهجرة حيث كانت العرب على كفرها. فكان من أسلم يفرّ بدينه من الفتنة. فلما فتحت مكة وأسلمت العرب انقطع ذلك الأمر فقال ﷺ : «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونيّة» (185) وقال لأعرابي : «اعمل من وراء البحار فإن الله لم يترك من عملك شيئاً» (186) وبقي الأمر على ذلك. فإن من احتاج إلى العلم رحل إليه وطلبه (قال ﷺ : «اطلبوا العلم ولو في الصين» (187) وهو خطاب للمتعلمين ولم يخاطب المعلمين أن يتحركوا ليُؤْخَذ عنهم)[1] وقال ﷺ : «سيضرب الناس أكباد الإبل في طلب العلم» الحديث (188)

ص 27 وقد سافر أهل الأندلس من حاضرتهم[2] إلى الحجاز/حتى أخذوا العلم عن الإمام مالك. وكذا أهل مصر وغيرهم. وطلب العلم إذا لم تكن معه قريحةٌ وقادةٌ لا يُنْتِجُ وصاحب القريحة لا تتركه قريحته أن ينتظر من يأتيه. فمن كان بالقيسارية مُكِبّاً على فلوسه. حتى إذا سمع بعالم دخل المسجد أرخى غَلَقَ (189) الحانوت وجاء يستمعُ، وقلبُه باقٍ في الحانوت يَحْسِبُ. فمتى يحصل له العلم هيهات هيهات ! إنما يرجو العلم من انْبَعَثَتْ جمرة في قلبه تُذَكِّرُهُ ضياع أيامه

---

1 — زيادة من جميع النسخ لا توجد في الأصل. 2 — في الأصل محو في بعض الحروف التصحيح من النسخ الأخرى.

---

(185) جزء من حديث طويل أخرجه البخاري عن ابن عباس في «كتاب الحج» يوم فتح مكة : «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية. وإذا استنفرتم فانفروا...» ارشاد الساري ج 308/3. وذكره أيضا في كتاب الجهاد ج 33/5.

(186) أخرجه مسلم من حديث أبي سعيد الخدري. أنظر شرح النووي على صحيح مسلم بهامش الإرشاد ج 61/8

(187) حديث أخرجه ابن عدي والبيهقي في المدخل والشعب من حديث أنس وقال البيهقي متن مشهور وأسانيده ضعيفة. أنظر المغني بذيل الاحياء ج 9/1

(188) هو حديث «يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل يطلبون العلم فلا يجدون أحداً أَعْلَمَ من عالم المدينة» رواه الترمذي في جامعه من حديث أبي هريرة وقال حديث حسن. أنظر مشكاة المصابيح ج 82/1

(189) غَلَقٌ : ج أغلاق : ما يغلق به الباب

وتنسيه جميع أولاده وأمواله ، ويقول كما قال الإمام ابن القاسم (190) حين تهيأ للرحيل إلى مالك رضي الله عنهما :

أَقُولُ لَهَا وَالعِيسُ تَسْرَحُ[1] لِلنَّوَى أَعِدِّي لِفَقْدي ما استطعت من الصبر
أَلَيْسَ من الحرمان أن لَيَالِياً[2] تَمُر بلا نفع وتُحسَبُ مِنْ عُمْرِ

فبالرحلة يُعرف من فيه أَهْلِيَّةٌ للعلم فَيَلْزَم حقه. فإن العلم ما ينبغي أن يُبذل لكل أحد وإنما يبذل لأهله، وفي الخبر : لا تُوتُوا الحكمة غير أهلها فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم» (191) وفي الحديث أيضا عن الأعمش قال «قال رسول ﷺ : آفة العلم النسيانُ، وإضاعتُه[3] أن يُحَدَّثَ به غَيْرُ أهله» (192) ويروى عن عيسى عليه السلام قال : لا تمنعوا العلمَ أهلَه فتأْثَمُوا، ولا تضعُوهُ عند غير أهله فتجْهَلُوا، وكن طبيباً رفيقاً يضع دواءه حيث يعلم أنه ينفع. وقال عكرمة : (193) إن لهذا العلم ثمنا قيل وما ثمنه ؟ قال : أن تضعه عند من يحفظه ولا يُضَيِّعَه. وروى أيضا عن عيسى عليه السلام قال : لا تطرح اللؤلؤ إلى الخنزير، فإن الخنزير لا يصنع باللؤلؤ شيئاً ولا تعط الحكمة من لا يريدها. فإن الحكمة خيرٌ من اللؤلؤ ومن لا يريدها أشر من الخنزير.

---

1 — د خم «تسرج». 2 — في الأصل «ليالي» الصواب من ص. 3 — د «أضاعه»

---

(190) هو عبد الرحمان بن القاسم أبو عبد الله العتقي المصري (132هـ — 191هـ) يعرف بابن القاسم . فقيه جمع بين الزهد والعلم وتفقه بالإمام مالك ونظرائه مولده ووفاته بمصر له « المدونة » مطبوعة ستة عشر جزءا وهي من أجل كتب المالكية رواها عن الإمام مالك . أنظر الاعلام ج 97/4 .

(191) لم أقف لهذا الحديث على تخريج في كتب الحديث التي بين يدي . ذكره العقد الفريد قال : « وقال عليه الصلاة والسلام لا تضعوا الحكمة عند غير أهلها فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم » أنظر العقد ج 254/2 .

(192) قال الخطيب التبريزي صاحب «مشكاة المصابيح» رواه الادرمي مرسلا وعلق ناصر الألباني محقق الكتاب : بل هو معضل فإن الأعمش لم يسمع من أحد من الصحابة حتى ولا من أنس. وإنما رآه فقط. أنظر مشكاة المصابيح ج 88/1

(193) عكرمة بن عمار (...159هـ) الحنفي العجلي اليمامي أبو عمار شيخ اليمامة في عصره من رجال الحديث أصله من البصرة حدث بها وبمكة وتوفي ببغداد بعد قدومه إليها. أنظر تهذيب التهذيب ج 263/7 حلية الأولياء ج 326/3 الاعلام ج 44/5

والأخبار والآثار في هذا كثيرة. وقال بعضهم : (194)

أأنثر دُرّاً[1] بين سائمة الغنم ... أم أنظمه نظماً لمهملة النعم
فإن يشفني الرحمان مِنْ طُولِ مَا لَدَيْ ... وصادفتْ أهلاً للعلوم وللحِكَمْ
بَثَثْتُ مفيداً واستفدتْ مَوَدَّةً ... وإلاَّ فَمَخْزُون لَدَيَّ وَمُكْتَتَمْ
فمَن منح الجُهَّالَ علماً أضاعهُ ... ومن منع المُستَوْجِبِينَ فَقَدْ ظَلَمْ

وفي «صفوة الصفوة» (195) قال كميل بن زياد (196) : «أخذ علي بن أبي طالب رضي الله عنه بيدي/فأخرجني إلى ناحية الجبال. فلما أصحرنا[2] جلس ثم تنفس ثم قال : ياكميل بن زياد. إن القلوب أوعية فخيرها أوْعَاهَا. فاحفظ ما أقول لك : الناس ثلاثة : عالم رباني. ومتعلم على سبيل النجاة. وَهَمَجٌ رَعَاعٌ. أتباع كل ناعق. يميلون مع كل ريح. لم يستضيئوا بنور العلم. ولم يلجأوا إلى ركن وثيق. العلم خير من المال. العلم يحرسك وأنت تحرس المال. العلم يزكو على العمل. والمال تنقصه النفقة. العلم حاكم والمال محكوم عليه. وصنيعة المال تزول بزواله. ومحبة العلم دِينٌ يُدَانُ بها[3] تكسبه الطاعة في حياته. وجميل الأُحْدُوثة بعد مماته. مات خزان المال وهم أحياء. والعلماء باقون ما بقي الدّهر. أعيانهم[4] (197) مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة. إن هاهنا —

ص 28

1 — جـ «علما» بدل «ذرا» خم بياض مكان الكلمة. 2 — خم جـ «ضجرنا». د «سحرنا».
3 — ص «العالم دين يدان بها» جـ «العلم دين يدان الله تعالى به». 4 — جـ «أشخاصهم».

(194) أورد الغزالي هذه الأبيات في كتاب «الإحياء» بالرواية التالية دون أن ينسبها

أأنثر درا بين سارحة النعم ... فأصبح محزونا براعية الغنم
لأنهم أمسوا بجهل لقدره ... فلا أنا أضحي أن أطوقه البهم
فإن لطف الله اللطيف بلطفه ... وصادفت أهلا للعلوم وللحكم
نثرت مفيداً واستفدت مودة ... وإلا فمخزون لدي ومكتتم
فمن منح الجهال علما أضاعه ... ومن منع المستوجبين فقد ظلم

الإحياء ج 58/1

(195) «صفوة الصفوة» مختصر «حلية الأولياء» لأبي الفرج عبد الرحمان بن علي المعروف بابن الجوزي المتوفي سنة 597 هـ

(196) كميل بن زياد (12هـ — 82هـ) تابعي ثقة من أصحاب علي بن أبي طالب كان شريفاً مطاعاً في قومه شهد «صفين» مع علي وسكن الكوفة وروى الحديث. قتله الحجاج صبراً. أنظر ترجمته ومصادرها في الأعلام ج 93/6

(197) أعيانهم : أجسامهم أجسادهم

وأومأ إلى صدره — علماً لو أصبت له حَمَلَةً، بل قد أصبت له لَقِناً[1] غير مأمون عليه، يستعمل الدين للدنيا. يَسْتَظْهِرُ (198) بنعم الله تعالى على عباده، ويَحْجُبُهُ على كتابه، أو معانداً لأهل الحق ولا بصيرةَ له في إحيائه[2] يقتدح الشك[3] في قلبه بأول عارضٍ من شُبْهَةٍ[4] لاَذَا وَلاَذَا مُنْهَدِمٌ يُسْلِسُ القياد للشهوات. أو مُغْرَى بجَمع المال والادِّخارِ أقربُ شَبَهاً بهم الأَنعام السائمة.

كذلك يموت العلم بموت حامله، اللهم بَلَى !. لن تَخْلُوَ الأَرضُ من قائم لله تعالى بحُجَّة، لكيلا تبطُلَ حجج الله وبيِّناتُه، أولئك هم الأقلون عدداً الأعظمون عند الله قدراً، بهم يحفظ الله حججه حتى يؤدوها إلى نُظرائهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم[5] هجم بهم العلم على حقيقة الأمر، فاستلانوا ما استوعر المُتْرَفُون، وأنسو بما استوحش منه الجاهلون، طلبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى آه ! آه ! شوقاً إلى رؤيتهم. واستغفر الله العظيم لي ولك، إذا شئت فقم[6] انتهى

فانظر إلى أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه كيف أفصح بأنه لم يجد من هو أهل للتعليم مع كثرة من حوله من الصحابة والتابعين، لا من جمود وعدم فهم، فإنه يقول قد وجد اللّقن[7] الذي يحفظ ويفهم، ويحفظ العلم، ولكنه غير مأمون لاتِّبَاعه الدنيا. فيتخذ العلم آلة لاستجلابها عند أربابها. وهذا في زمنه الفاضل، فكيف يكون في حال زماننا/. وأنت تراه مع ذلك معترفاً بموت علمه، ومع ص 29
ذلك لم يتحرك إلى أمصار المسلمين ليلقي من يَصْلُح للعلم فَيُفْشِي علمَه ولا يُضَيِّعُه. وماذاك إلا لكونه لا يلزمه أن يطلب من يأخذ علمه، بل وليس ذلك من الأدب.

واعلم أن آداب العلم وذكر من يصلح أن يُعَلَّم ومن لا، (كل)[8] ذلك مشروح في كتب الأئمة، ومبسوط لو اشتغلنا به طال. وقد ذكر الشيخ العارف

---

1 — في الأصل « أخا » صححت من ص بما يناسب السياق. 2 — جـ « اخباته ». 3 — في الأصل « الشدة » صوابه من جـ 4 — في الأصل « شبه » صوابه من جـ و خم. 5 — من هنا يبدأ اسقاط كبير في د من آخر ص 28 حتي ص 30. 6 — جـ و ص إسقاط « إذ شئت فقم » 7 — خم « الفتي » جـ أسقط الكلمة. 8 — زيادة من جـ و ص

---

(198) استظهر عليه : علاه . غلبه

أبو عبد الله محمد بن عباد (199) في «شرح الحكم» (200) (شيئا)[1] من ذلك وما ينشأ عن ذلك من المفاسد والآفات. ثم قال : «فعلى المُعلم النَّاصحِ نَفْسه، السَّالم في عقله وحديثه[2]، العامِلِ على تصحيح أعماله وهِمَمِه، المشفقِ على دينه الذي (هو)[3] مَنُوط بلحمه ودمه، أن يتأمل هذه المفاسد، ويَقِيس بها ما توهمه من المصالح الناشئة عن تعليمه بزعمه، ويدقق النظر في ذلك كما يدققُه في أكثر المسائل التي لا يحتاج إليها. ولا يُقْدِمُ على التعليم في هذه الأزمنة ذوات العلل المزمنة حتى يقطع بوجوب ذلك عليه، من غير تردد ولا تجويز وقوع خطإ في نظره ولا سبيل له إلى هذا، ولا يسعه خلاف ذلك إذا كان منصفاً.

قال بعضهم : رأيت سفيان الثورى (201) حزيناً فسألته عن ذلك (فقال)[4] وهو بَرِمٌ مُغَيَّر[5] ما صرنا إلاَّ متجراً لابناء الدنيا قُلْتُ وكيف ذلك ؟ قال يلزمنا أحدهم حتى إذا عُرف بنا وحمل عنا[6]، جُعل عاملاً أو حاجبا أو قهرمانا أو جابياً فيقول حدثنا سفيان الثوري . وعليه أن يحرص على مخالفة نفسه فيما تدعوه إليه من التعليم لأن كل ما تستحليه النفس ويوافق غرضها مصحوب

---

1 — زيادة من جـ و ص. 2 — خم «وحدسة». 3 — زيادة من جـ و ص 4 — زيادة من جـ و ص. 5 — ص. جـ «يدم» وأسقطت «مغير». خم أسقط «برم» بياض بين «مغير» و «معاصرنا». 6 — في الأصل «عنه». صوابه من جـ و خم.

---

(199) هو محمد بن ابراهيم بن عبد الله الحميري الرندي أبو عبد الله المعروف بابن عباد (733—792هـ) متصوف باحث من أهل رندة بالأندلس تنقل بين فاس وتلمسان ومراكش وسلا وطنجة. واستقر خطيبا للقرويين بفاس وتوفي بها له كتب منها : «غيث المواهب العلية بشرح الحكم العطائية «المشار إليه في النص مطبوع وله : «الرسائل الكبرى» مطبوع واليوسي يشير إليها في تعليقه بعد الاستشهاد أنظر ترجمته ومصادرها في الأعلام ج 190/6

(200) «الحكم العطائية» الكتاب في التصوف لتاج الدين أحمد ابن عطاء الله الأسكندري.

(201) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري (97هـ—161هـ) أبو عبد الله كان سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى ولد ونشأ في الكوفة. راوده المنصور العباسي على أن يلي الحكم فأبي وخرج من الكوفة سنة 144هـ فسكن مكة والمدينة وانتقل إلى البصرة وبها مات مستخفيا له كتب كثيرة منها «الجامع الكبير» والجامع الصغير» كلاهما في الحديث. ولابن الجوزي كتاب في مناقبه أنظر ترجمته ومصادرها في الأعلام ج 158/3

بالآفات والعلل التي تقدح في الإخلاص انتهى الغرض منه (202)

وقد رأيتَ كلامه مصرحاً بأن العالم لا يقدم على التعليم حتى يتحقق وجوب التعليم عليه لأنه متى لم يجب دخلته الآفات المفسدة. فضل سعيه، وأنه لا سبيل إلى تحقق الوجوب، فلم يبق إلا الترك والفرار من ...[1] أكيس، وقد أكثر من هذا في رسائله (203) وإنما قال ذلك لما رأى في زمانه، وزماننا مثله أو أشر منه، وهذا لا يوجب انقطاع العلم، فإن حكمة الله جارية، وعادته مطردة أن يحفظ رسوم العلم ويؤيد الدين إمَّا بصالح أو بفاجر (204) لا يبالي بنفسه ولا يبكي على حلول رمسه، فالعاقل البصير يبدأ بنفسه فينظر لها فيما يزلفها عند ربه
ص 30 أولا ثم في مصالح/المسلمين ثانيا، وأحمق الحمقى من ضيع نفسه وتطاول بجور الناس، فيتعاطى العلم رياء وسمعة واستجلاباً للدنيا، ويضعه حيث لا ينبغي ويكتفي بما يحسه من أنه أحيا العلم وأحيا الدين. نعم ربما أحيا غيره وقتل نفسه بسهام العلل والرعونات. فهذا يكون من الذين ورد أنهم يدخل الناس بعلمهم وأدبهم الجنة، وهم يدخلون النار نعوذ بالله من هذه الطرقات. وإنما قررنا هذا ليعلم أن التعليم[2] ليس مطلوباً على كل حال بل له شروط أشرنا إلى بعضها وما بقي أكثر. فمن نظر إلى صاحب علم فرآه قد اقتصر على قدر قليل من التعليم، أو ترك التَّعليمَ (رأسا)[3] أو نزل حيث لا يمكنه التعليم فلا يجوز أن يُتسارع إليه بالطعن، وينسب إليه أنه ضيع العلم حتى يبحث عن حاله، هل توجه إليه الطلب بالتعليم[4] أولا، فإن توجه إليه ووجد الإمكان، ومن هو أهل للأخذ وتركه، فحينئذ يستحق الإنكار.

وهيهات متى يتحقق ذلك !، وهبه اطلع على حالته من خارج فمتى يطلع على قلبه، والفرض أنه متى آنس من قلبه رياء وشهوة فالمطلوب منه الترك لأن التعليم ليس فرض عين كالصلاة حتى يفعل على كل حال. بل هو كفاية فمن لم

---

1 — بياض في الأصل وفي خم و ص. أما جـ فأسقط من « من » ولم يترك بياضا : « والفرار أكيس ».
2 — هنا ينتهي اسقاط نسخة د الذي بدأ من آخر صفحة 28. 3 — زيادة من ج و ص.
4 — في الأصل « العلم » التصحيح من ص.

---

(202) انتهى استشهاده بابن عباد

(203) رسائل إبن عباد المعروفة «بالرسائل الكبرى» في التوحيد والتصوف ومتشابه الآيات.

(204) إشارة إلى الحديث النبوي : «إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر» وقد سبق تخريجه

يجد فيه إخلاصاً فليتركه، وغيره يقوم به، ويشتغل بعبادة أخرى يجد فيها ذلك. وقد كان بعض السلف من العلماء[1] ترك الحديث وكان يقول : إني أشتهي أن أحدث، ولو انقطعت عني شهوة الحديث لحدثت[2]. فالعالم إذن لو ترك التعليم أصلا، كانت له جهات يخرج فيها، ولا ينسب إليه لوم ولا تضييع. كأن يكون لم يجد متعلماً صادقاً عاقلا. وذلك يدركه العالم ذوقاً. حتى أنه إذا خاطب لبيباً حاضر القلب فكأنه وضع يده في الزبد عند أكله، وإذا خاطب غبياً أو مشغولا عنه، فكأنه ضرب بمعوله على الصخر، فرجع إلى رأسه. وكأن يكون لم يجد من نفسه إخلاصاً، والفرض أنه لم يتعين عليه، أو لم يجد امكاناً أو مكاناً أو زماناً أو يكون مشغول القلب بكفاية أو خوف على نفس أو مال أو عرض أو نحو ذلك ويرى الاشتغال بالتصنيف أَعْوَدَ على الناس[3]. وأثبت وأبقى من قلقلة المجالس بلا تحصيل، ولا سيما طلبة المغرب (205). فإنهم لا همة لهم في التقييد. فينثر الشيخ في المجلس الفرائد والنُّكَت (206) وتذهب ضائعة لا يقيدها أحد. ولو
ص 31 اشتغل/بالتصنيف لقيد ذلك لمن يجده.

أو يرى أن التعليم كفاية، والغير قد قام به في غير بلاده. فيشتغل هو بخويصة نفسه وفي الحديث : «إذا رأيت شُحاً مطاعاً، وهوىً مُتبعاً، وإعجاب كل ذي رأى برأيه فعليك بخويصة نفسك» (207) أو يرى هواناً على نفسه أو على علمه فينقبض حفظا[4] لمرتبة العلم :

يقولون لي فيك انقباض وإنما
رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما(208)

---

1 — في الأصل «سلف العلماء». 2 — في الأصل «فحدثت» صوابه من جميع النسخ.
3 — خم «النفس» بدل «الناس» 4 — «حرصا».

---

(205) الغرب والمغرب في اصطلاح ذلك الوقت هو ما وراء الأطلس المتوسط شرقا وشمالا
(206) النكتة ج نكت ونكات هنا تعني المسألة الدقيقة أخرجت' بدقة نظر وإمعان فكر
(207) حديث أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه. وابن ماجة أنظر المغني بحاشية الاحياء ج 377/369/3
(208) هذه الأبيات للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني. أنظر يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر : للثعالبي. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ج 23/4. وقد تصرف فيها اليوسي تقديماً وتأخيراً ونقصاً في الأبيات.

إذا قيل هذا مورد قلت قد أرى ولكن نفس الحر تحتمل الظما
ولم أبْتَذِل في خدمة العلم مهجتي لأَخْدِمَ من لاقيت لكن لأُخدما
أأغرسه عزاً (209) وأجنيه ذلة إذاً فاتباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه في النفوس لعُظما(210)
ولكن أهانوه فهانوا ودنسوا محيـــاه بـــالأطماع حتى تجهّما

أو يرى أنه قد بلغ سن العبادة وهي أربعون، فيشتغل بنفسه ويكتفي بما مضي منه من نفع العباد أيام الشباب، وكان يقال : العلم إلى أربعين ثم العبادة. وفي هذه قال حجة الإسلام الغزالي (211) رضي الله عنه وقد طرح التعليم وسلك محجة السلوك فلقيه بعض أصحابه ويقال هو الإمام ابن العربي (212) فأنشأ يقول (213) :

تركتُ هوى سعدى وليلى بمعزل وصرت إلى تصحيح أو منزل
فنادتني الأطلال أهلا ومرحبا ألا أيها الساري رويدك فانزل
غزلت لهم غزلا رقيقاً فلم أجد لِغَزْلِيَ نسَّاجاً فكسرت مغزل

فما في الكتاب من أني ضيعت العلم بسكنى البادية، أو أن الناس قد ضاع حقهم قد تبين جوابه بكل مامَرَّ، فلو كنت حضرياً عن أبي وجدي، ثم خرجت

(209) جاء شطر البيت في «يتيمة الدهر» بهذه الرواية :
أأشق به غرسا وأجنيه ذلة .....
(210) لم يثبت صاحب اليتيمة هذا البيت
(211) الإمام أبو حامد محمد الغزالي الفقيه الشافعي المتكلم الصوفي الشهير (450هـ—505هـ) آثر التجربة الصوفية بعد أن وجد فيها الحقيقة الكبرى. من أشهر تصانفيه : إحياء علوم الدين. تهافت الفلاسفة الخ أنظر ترجمته في الوفيات ج 586/1 وطبقات السبكي ج 101/4 شذرات الذهب ج 60/4 الاعلام ج 247/7.
(212) أبو بكر محمد بن عبد الله المعافري المعروف بأبي بكر بن العربي (468هـ—543هـ) ولد باشبيلية ورحل إلى المشرق. بلغ رتبة الاجتهاد في علوم الدين. مات بقرب فاس ودفن بها. له مصنفات كثيرة أنظر الاعلام 106/7.
(213) وقفت على هذه الأبيات في نسيم الرياض في شرح الشفا للقاضي عياض لشهاب الدين الخفاجي ج 538/4 بهذه الرواية وأنشد الغزالي يقول :
تركت هوى ليلى ولبنى بمعزل وصرت إلى مصحوب أول منزل
ونادتني الأكوان حتى أجبتها ألا أيها الساري رويدك فانزل
فعرفت في دار الندى بعزيمة قلوب ذوي التعريف عنها بمعزل
غزلت لهم غزلا رقيقاً فلم أجد لغزلي نساجا فكسرت مغزل

إلى البادية لم يكن عليَّ حَرَج. فكيف والبادية أصلي ومنشإي، فمتى يجب عليَّ دخول الحاضرة، وإلقاءُ نفسي وعيالي في الحرج والضيق والفتن التي تقدم شرحها. لأن يجلس إليَّ طلاب المناصب والمراتب. هذا ما لا يجب ولا يندب وربما لا يباح أصلا.

هذا ولو تركت العلم أصلا فكيف — والحمد لله — ما تركته ولا خلوت عنه قط حتى في الطريق، وكما أن أهل الحاضرة محتاجون فأهل القرى، وأهل البادية محتاجون أكثر وكلهم عباد الله المومنون، والبلاد/بلاد الله والعباد عباد الله. وأمة ص 32
النبي ﷺ في الأمصار وفي القرى وفي العمود[1] والقرى وسط بين الأمصار والعمود وخير الأمور أوسطها. وقد ابتلى[2] أهل العمود بالجفاء والغلظة، وأهل الأمصار بالخديعة والملق، وفاز أهل الأمصار بالظرف والأدب، وفاز أهل العمود بالعز والكرم. وقال الاعرابي (214) :

فمن تكن الحِضارَةُ (215) أعجبته
فأيَّ رجالِ باديةٍ ترانا

وقال ابن الرومي : (216)

هذا أبو الصقر فرداً في مَحَاسِنِهِ من نَسْلِ شَيْبَانَ بين الطَّلْحِ[3] والسَّلَمِ

---

1 — في الأصل محو في آخر كلمة « العمود » التصحيح من جميع النسخ 2 — في الأصل محو في أول حروف « ابتلى » التصحيح من سائر النسخ . 3 — في الأصل وفي جميع النسخ « الضال » التصحيح من ديوان المعاني » لأبي هلال العسكري .

---

(214) ورد هذا البيت في الكامل ج 61/1 منسوبا للقطامي كما ورد في شرح مقامات الحريري ج 206/2 منسوبا أيضا للقطامي وهو لقب غلب على الشاعر واسمه عمير ابن شبيم شاعر اسلامي. مقل كان نصرانيا. حسن التشبيب.

(215) الحِضارة ضد البداوة والمراد أهل الحضر. يقول من أعجبه أهل الحاضرة في حاضرتهم فإنَّا أحق بالإعجاب منهم نحن رجال البدو. يريد أن كل ما أعجبك عن رجال الحضر فهو أكثر بيننا منهم وإن كنا أهل بادية

(216) جاء في ديوان المعاني لأبي هلال العسكري ص 42 «واعترض ابن الرومي كلام الخنساء في أخيها صخر (كأنه علم في رأسه نار) :

هذا أبو الصقر فردا في محاسنه من نسل شيبان بين الطلح والسَّلَمِ
كأنه الشمس في البرج المنيف به على البرية لا نار على علم

والطلح والسلم : من أشجار البادية لها شوك ترعاها الإبل

أي فهو عزيز . وفي الحديث « رأى النبي ﷺ أداة الحرث فقال : ما دخل هذا بيت قوم إلا دخله الذل[1] »(217) وقال أبو العلاء المعري في بَنِي مَطَرٍ[2] (218) :

المُوقِدُون بنجد نار بادية
لا يَحْضِرُونَ وفقد العز في الحضر (219)

غير أن هذا في البادية البعيدة، وأما هذا الغرب فقريب بعضه من بعض، أما القرى ففي حكم الحاضرة. أما البادية فسميت بذلك لبدو ما فيها أي ظهوره للعين إذ لا جدار فيها ولا باب ولا سقف. والقرية بخلاف ذلك وفيها جل ما في الحاضرة من المصالح، وفازت بخفة المؤونة وقلة الشغَب[3]، وفي الحديث : «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن» (220)

وفيه أيضا : « أفضل الناس رجلان: رجل آخذ بعنان فرسه كلما سمع هيعة

---

1 — في الأصل « الربا » صوابه من جـ و ص . 2 — جـ . « مضر » « يطرف » وفي الأصل « بني مطرف » التصحيح من شروح سقط الزند . 3 — في الأصل الشعب صححت من د . في جـ الشعف

---

(217) يشير إلى الحديث الذي أخرجه البخاري عن أبي أمامة الباهلي : «قال ورأى سكة وشيئا من آلة الحرث فقال سمعت النبي ﷺ يقول لا يدخل هذا بيت قوم إلا أدخله الذل «أنظر إرشاد الساري ج 171/4. 172

(218) قصيدة أبي العلا التي منها البيت هي في مدح بني مطر بن زيد بطن من مازن ومطلعها :
ياساهر البرق أيقظ راقد السَّمُرِ لعلَّ بالجزْعِ أَعْوَانٌ على السهر
وإن بخلت عن الأحياء كلهم فاسق المواطن حيّاً من بني مَطَر
شروح « سقط الزند » تحقيق الأساتذة مصطفَى السقاط وعبد السلام هارون ص 114 .

(219) وصفهم بأنهم يألفون البدو ويكرهون الحضر. والنجد أصله العلو والارتفاع. والنجد من بلاد العرب يُسمى نجدا لارتفاعه عن انخفاض تهامة. المرجع المشار إليه اعلاه ص 142

(220) رواه البخاري في كتاب الإيمان باب (من الدين الفرار من الفتن) عن أبي سعيد الخدري ولفظه في البخاري : «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال (رؤوسها) ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن» إرشاد الساري ج 106/1 كما أخرجه أبو داود والنسائي وهناك رواية فيها :«يأتي على الناس زمان» بدل «يوشك أن». أنظر المغني بهامش الاحياء ج 232/2

طار إليها، ورجل في غنيمة في شعبة...» الحديث (221). وفي الحديث الآخر: «ورجل معتزل في شعب يعبد الله ويدع الناس من شره» (222) وكلها عامة يندرج فيها العامي والعالم، ويختلف الناس في هذا بحسب الأحْوال والأزمنة والنيات؛ وأما ما ورد في السنة من الحضّ على لزوم الجماعة، والوعيد على مفارقتها (223) فصحيح، ويتصور في شيئين **أحدهما**: لزوم الطاعة وترك الخلاف ومنازعة الأمر أهله، وهذا عام عند جمهور أهل السنة لكل أحد وفي كل زمان. وهو يرجع إلى الاعتقاد وما يستتبع من الاعتراف والتسليم، وأداء الحقوق، لا إلى المعاشرة والمساكنة. فلو أن رجلا مسلما كان في جزيرة من البحر، وهو يدين بما يدين به المسلمون ويعترف بما يعترفون به، ويوافق على ما
ص 33 عليه/يتفقون[1]، لكان داخلاً جماعة المسلمين، ولو أن رجلاً في المصر، بين ظهرانيهم، وهو لا يعترف ولا يوافق كفعل القُعَّد من الخوارج، لكان خارجاً عن الجماعة، داخلاً في الوعيد.

---

1 — في الأصل محو في بعض حروف الكلمة تصحيحه من سائر النسخ.

---

(221) يقصد الحديث: «من خير معاش الناس لهم، رجل ممسك عنان فرسه في سبيل الله، يطير على متنه، كلما سمع هيعة أو فزعة طار عليه يبتغي القتل والموت مضانه، ورجل في غنيمة في رأس شعفه من هذه الشعف أو بطن واد من هذه الأودية يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعبد ربه حتّى يأتيه اليقين، ليس من الناس إلا في خير». أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة واللفظ لمسلم. أنظر شرح النووي بهامش الإرشاد ج 91/90/8.

(222) يقصد به الحديث: «قال رجل أي الناس أفضل يا رسول الله؟ قال مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله. قال ثم من؟ قال رجل معتزل في شعب من الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من شره» أخرجه مسلم من حديث أبي سعيد الخدري. شرح النووى على صحيح مسلم بهامش الإرشاد ج 89/8 كما أخرجه البخاري أيضاً من حديث أبي سعيد الخدري أنظر إرشاد الساري ج 283/9.
الشّعْبُ: الطريق في الجبل ومسيل الماء

(223) في الحث على لزوم الجماعة أحاديث كثيرة منها الذي رُوي عن عبد الله بن مسعود: «لا يحل دم امرئ إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة» رواه البخاري في الديات ومسلم في الحدود ومن حديث ابن عباس: «من رأى من أميره شيئاً فكرهه فليصبر، فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبراً إلاّ مات ميتة جاهلية «أنظر إرشاد الساري ج 230/10 وشرح النووى على صحيح مسلم في حاشية الإرشاد ج 47/8 ولعل الحديث هو الذي يشير إليه كلام اليوسي

الثاني المعاشرة والصحبة قصداً للتعاون على الخير علماً وعملاً وجهاداً، وهذا مخصوص بخصوص، فقد كان ذلك في الصدر الأول، حيث أن الدين والهدى والخير في الجمهور، يتعاونون كما أمرهم الله تعالى ويتناصحون، ويتناصفون ويتعلم الجاهل من العالم، والجافي من الأحب، ويتعظ المتهاون بالمجتهد، والراغب بالزاهد إلى غير ذلك، فكانت العزلة إذْ ذاك مرغوباً عنها. ولذلك روى أن قوماً خرجوا إلى الجَبَّانَةِ[1] (224) فبنوا بناء وجعلوا يتعبدون هنالك، فخرج إليهم ابن مسعود رضي الله عنه فلامهم وقال[2] ارجعوا، فعلّموا من هو دونكم، وتعلموا ممن هو فوقكم، وامروا بالمعروف وانهوا عن المنكر، ولم يزايلهم حتى هدموا ما بنوا ودخلوا.

فلما فسد الأمر وغلبت الشهوة، واتُّخذ الهوى إلاهاً، وظهر المراء والجدال، ووقع التقاطع والتدابر، والتحاسد والتباغض، حلت العزلة وربما وجبت، وصارت الجماعة المطلوب لزومها إنما هو من بقي على الهدى الأول لأنه الذي في لزومه المنافع والمصالح ولو كان قليلا أو لم يكن إلا واحداً وقد سئل ابن المبارك (225) عن الجماعة المأمور بلزومها فقال : أبو بكر وعمر فقيل له : مات أبو بكر وعمر، فقال : فلان وفلان قال : مات فلان وفلان فقال أبو حمزة السُّكَّري (226) جماعة. وروى عن (سفيان بن)[3] سعيد الثوري رضي الله عنه قال في تفسير الجماعة : لو أن فقيها على رأس جبل لكان هو الجماعة. فإذا فهم هذا، وعلم أن المراد الدّين، وانتهاج سني السنة، فأينما وجد الإنسان ذلك

---

1 — في الأصل « الحيانة » صححت من ص. د 2 — في الأصل « فقال » اثبت ما في سائر النسخ الأخرى. 3 — في الأصل « انتاج » صوابه من ج و خم.

---

(224) **الجَبَّانَةُ : ما استوى من الأرض في ارتفاع ولا شجر فيه. المقبرة. الصحراء. ج جبابين**

(225) **هو عبد الله بن المبارك الحنظلي المروزي (118هـ—181هـ) أبو عبد الرحمان الحافظ المجاهد التاجر صاحب التصانيف والرحلات. أفنى عمره في الأسفار حاجاً ومجاهداً وتاجراً. جمع الحديث والفقه والعربية كان من سكان خراسان ومات بهيت على الفرات منصرفا من غزو الروم له كتاب في الجهاد وهو أول من صنف فيه أنظر ترجمته ومصادرها في الاعلام ج 256/4**

(226) **أبو حمزة السكري (...—167هـ) هو محمد بن ميمون المروزي. شيخ خراسان في عصره وأحد ثقاة المحدثين كان نبيلا سمحاً حلو الكلام ولذلك لقب بالسكري. أنظر ترجمته ومصادرها في الاعلام ج 343/7**

فليغتنمه، ومن وجد عنده ذلك فليلزمه[1] ومن كفاه الله في نفسه بل حصل عنده من العلم ما يكتفي به فليعبد الله حيث أمكنه من بر أو بحر كما قال ﷺ للأعرابي : «اعمل من وراء البحار فإن الله لن يترك من عملك (شيئا)[2]» (227) وكان أبو عبد الله الهواري[3] التونسي (228) من أكابر العلماء ومن أكابر الصالحين، فترك الحاضرة وسكن البادية فقال له بعض المشايخ : لم سكنت البادية وتركت الحاضرة ؟ فقال ما أسكنني البادية إلاّ هذه اللّقمة. أريد
ص 34 أن أنظر إليها من وقت دخولها إلى وقت/خروجها، وأكون على علم بأمر معيشتي[4]. فكان يبذر البذر ويلازمه إلى وقت حصاده، وكان الإمام أبو الحسن ابن الصائغ (229) يحكى عن (شيخه)[5] أبي بكر بن ورق[6] (230) (أنه أقام مدة لم يأو إلى» [7] عمران، قال : وما كنا نقرأ عليه إلا في بطون الأودية وشعاب الجبال رضي الله عنهما.

وهذا كله بيان للحقّ وأن التعليم ليس بلازم للعالم على الإطلاق ولا أن يقتحم عليه تغرباً عن وطنه، ولا اقتحاماً لمشقة نفسه، أو عياله، وإن كان بعض ما قررناه مما يستغرب اتباعاً للعادة الجارية والإلف المألوف، فإن العادة جرت باحتفال أهل الحاضرة للتعلم والتعليم، ونصب المجالس لذلك فمن رأى ذلك من العامة أو قاصري الأفهام من غيرهم لم يشك أن في ذلك هو الدّين القويم وأنه حياة العلم، ووضوح السنة، واستقرار الفقه. وأهل البصيرة يعلمون أن ذلك بهرج زائف، وعمل في غيرِ مَعمل، وضلال في صورة هدى، وذلك لفساد

---

1 — خم « فليراجعه » د « فليلتزمه ». 2 — زيادة من جـ 3 — في الأصل « المولدي » صوابه من جميع النسخ. 4 — في الأصل محو في « أمر معيشتي » اثبت ما في سائر النسخ 5 — في الأصل محو في الكلمة صححت من بقية النسخ. 6 — جـ « زورق » ص « ورزق ». 7 — محو في الأصل أثبت ما في النسخ الأخرى.

---

(227) سبق تخريج هذا الحديث

(228) هل هو محمد بن عمر الهواري أبو عبد الله (751هـ—843) ؟ متصوف فقيه مالكي عالي الشهرة في المغرب له أخبار كثيرة. ولد في مغراوة وتعلم بباجة وأقام بفاس ورحل إلى المشرق رحلة واسعة. كان زاهدا متقشفا متباعدا عن الملوك والأمراء له تآليف كثيرة منها «كتاب التسهيل» «والتبيان» وغيرها أنظر ترجمته ومصادرها في الاعلام ج 205/7

(229) لم أقف له على ترجمة

(230) لم أقف له على ترجمة

النيات وكثرة الآفات. (فَقلَّ الفلاح وعز)[1] النجاح. فما أكثر الركب وما أقل الحاج :

تُـعَيرنـا أنَّـا قـلـيـل عـديـدُنـا
فقلت لها إن الكرام قليل (231)

وفي هذا المعنى يقال : إن الناس كلهم هلكى إلا العالمون، والعالمون كلهم هلكى إلاّ العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلاّ المخلصون، والمخلصون قليل أي فهم قليل من قليل. والمشتغلون أكثرهم لا يحصل على طائل، إما لجمود، وإما لعدم تفرغ، فإن العلم كما قيل إن أعطيته كلك أعطاك بعضه، وإن أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً. وأما الانخرام قبل الوصول، وأما الانقطاع كرهاً أو اختياراً أو جهلاً، وذلك أن نعجل الاستقبال ويظن أنه قد وصل. وقديماً كان يقال : العلم ثلاث درجات : من بلغ الأولى ظن أنه من العلماء بجهله، ومن بلغ الثانية علم أنه مقصر، وذلك لإشرافه على بحار العلم المتلاطمة الأمواج، ومهامهه[2] الواسعة[3] الفجاج، وأما الثالثة فلا سبيل إليها.

والمحصل قد ينتفع بما حصل، وقد لا. فالعالم المنتفع به قليل من قليل. وقد أثنى رجل على الأعمش (232) رضي الله عنه بنشر العلم وقال له : إنك أحييت العلم بكثرة من أخذه عنك فقال الأعمش : هم ثلاثة أصناف : صنف يموتون قبل الإدراك فيذهب علمهم، وصنف يصحبون الملوك فيذهب علمهم، وصنف ينسون/ما علموا فيذهب علمهم. وهذه الثلاث التي ذكر الأعمش هي أيضا كثيرة. ص 35

---

1 — هو في الأصل صوابه من جميع النسخ. 2 — في الأصل «مهامه» صوابه من ص.
3 — في الأصل «واسعة» صوابه من جـ و ص.

---

(231) البيت للشاعر السموأل من قصيدة مطلعها :
إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل
أنظر ديوان الحماسة : شرح العلامة التبريزي ص 28 الطبعة الأزهرية

(232) هو سليمان بن مهران الأسدى بالولاء أبو محمد الملقب بالأعمش (61هـ—148هـ) تابعي مشهور أصله من بلاد الري ومنشأه ووفاته في الكوفة كان عالما بالقرآن والحديث والفرائض يروي نحو 1300 حديث وكان يقال : لم ير السلاطين والملوك والأغنياء في مجلس أحقر منهم في مجلس الأعمش مع حاجته وفقره أنظر ترجمته ومصادرها في الاعلام ج 198/3

فلو نظر المجتهد في ذلك لأفتى بالمنع والكراهة لأنه إما يسعى لغرض ممنوع فيمتنع، أو عبث وعمل في غير معمل فيكره، أو يمتنع أيضا. وشرهم من يحضر لطلب المراء أو لتعلُّمِه، أو للتجسس على من يقول أو يفعل قصداً للإفساد. وفي هذا النوع قال الإمام بن عباد: فعلى المسكين المدرس أن يفعل ما فعل أبو سفيان في غزوة الأحزاب حيث أراد أن يتكلم فخاف من يسترق السمع فقال: ليسأل كل منكم جليسه، قال: ومن حداقة هذا الصنف، وكمال خداعه أن يفعل ما فعل حذيفة بن اليمان (233)، اذ بادر فسأل جليسه قبل أن يسأله فلم ينفع التحذر. انتهى بمعناه. غير أن حكمة الله تعالى جارية باستمرار هذا الأمر، أما على وفق الحكم التكليفي، أو الحكم التصريفي، والحكمة في ذلك بقاء[1] الرسم[2] ووجود الواحد من مائة أو من ألف (يحصل العلم)[3] وينفع الله به فذلك الواحد هو الضالة المنشودة في تلك المجامع، وإليها يساق الحديث عند السامع، ويقال عند ذلك ما قالت صاحبة المرقعات: فإن بنتا لبعض الملوك كانت في عُلية (234) تكون لها، وكانت ألقيت عليها محبة الفقراء أصحاب المرقعات تتشوّف[4] (235) من (لِيَدِهَا)[5] فكلما بصرت بواحد منهم أمرت به أن يكرم، وأن تأخذ مرقعته على وجه التبرك، فإذا أوتيت بمرقعته أمرت أن تطرح في بيت بأسفل ذلك المنزه، فلما كثرت المرقعات خرج منها قُمَّل كثير، وطلع مع الحيطان حتى ظهر للناس، ووصل الأمر إلى الملك أبيها فغضب، وأمر بالمرقعات تحرق، فكلما قذفت واحدة منها في النار احترقت إلاّ واحدة بقيت لم تؤثر فيها النار (شيئاً)[6] فعجب الملك لها، وعلم أن لها ولصاحبها شأناً. فلما رأت البنت ذلك قالت: يا أبت. لولا تحمل هذه المحترقات لما ظفرنا بهذه التي لم تحترق.

---

1 — خم اسقاط «بقاء». 2 — جـ «الأمر». 3 — في الأصل محو اثبت ما في سائر النسخ.
4 — في الأصل «بياض» بعد: «تتشوف من» خم «تشرف من مكان» جـ «تشوف من يهواها» د سقط الجملة 5 — زيادة من ص. 6 — زيادة من جـ و ص.

---

(233) حذيفة بن حسل بن جابر العبسي أبو عبد الله (...36هـ) صحابي من الولاة الشجعان الفاتحين. كان صاحب سر النبي ﷺ في المنافقين لم يعلمهم أحدٌ غيره أنظر ترجمته وأخباره في الأعلام ج 180/2

(234) العُلِيَّة والعِلِيَّة ج علالي بيت منفصل عن الأرض ببيت

(235) شَوَف من السطح نظر وأشرف. شوف إلى الشيء تطلع إليه.

غير أن هذا الواحد الذي يظفر به من طلبة العلم ليس مخصوصاً بأن لا يوجد إلاّ[1] في الحاضرة بل هو بحسب مشيئة الله تعالى واختياره المطلق، يفعل ما يشاء حيث شاء. فكما يخرج أي بقل وأي ماءٍ عذب حيث شاء. وأي معدن حيث شاء. كذلك له أن يخرج العلم والدين حيث شاء. فهو سبحانه الذي أنزل النبوة
ص 36 في ديار ثمود، وفي مدين وفي أحقاف[2] (236) الرمل، وأنزل أشرفها في/البلدة العطشى حسّاً ومعنى (237) بواد غير ذي زرع. فكذلك لم يزل سبحانه يخرج أئمة العلم من القرى الشاذة، والأمكنة المجهولة حيث تستنير بهم. وتشرف ويحدث لها مجد لم يكن كما قيل :

وما عرف الأرجاء إلاّ رجالُها وإلاّ فلا فضل لترب على ترب

وتعداد ذلك يطول

هذا، وإلاّ فالتعليم متى أمكن بنية صالحة، مع وجود أهله لا ننكر فضله. فهو من أفضل العبادات، وأرفع القربات، ولا يزهد فيه حينئذ إلا من تركه لأمر أرفع منه في خاصة نفسه كمسألة الإمام الغزالي. ويقال إن الشيخ الإمام أبا محمد عبد العزيز التونسي (238) دفين أغمات[3] درس الفقه في بلدة تونس فلما رأى أصحابه يتولون الخطط والعمالات تركه وقال : صرنا في تعليمنا إياهم كبائع السلاح من اللصوص. وكان ورعاً هارباً من الدنيا وأهلها. وفي رواية أخرى عنه : أن المصامدة أخذوا عنه الفقه ورجعوا إلى بلدهم، فسادوا في قومهم، وصاروا قضاة وشهوداً وخطباء. ثم إن الشيخ عبد العزيز سار في سياحة إلى بلاد الغرب فكان (239) كلما مر بقوم تلقوه، فوجد تلامذته (قد نالوا الخطط والمراتب بما تعلموه منه فقطع تدريس الفقه وأمر تلامذته)[4] بالنظر في

---

1 — جـ اسقاط « إلاّ ». 2 — جـ « أحقاب » 3 — في الأصل « غمات » صوابه من جـ.
4 — زيادة من ص مثبتة في « كتاب التشوف » ينقل عنه اليوسي هذا الاستشهاد ويتطلبها السياق. ولا شك أن الناسخ أسقط الجملة عند النقل من « تلامذته » إلى « تلامذته ».

---

(236) الاحقاف : ما أعوج من الرمل واستطال

(237) أي مكة المكرمة

(238) الشيخ عبد العزيز التونسي (...هـ 486هـ) أخذ الفقه عن أبي عمران الفاسي وأبي اسحاق التونسي استقر أخيرا بأغمات وبها مات أنظر ترجمته وأخباره في كتاب «التشوف إلى رجال التصوف» للتادلي ص 68 ومن ترجمته في هذا الكتاب نقل اليوسي استشهاده في النص

(239) من هنا يبدأ اليوسي في النقل حرفيا عن كتاب التشوف ص 70

«رعاية» (240) المحاسبي[1] (241) وغيرها من كتب التصوف. ثم إنه وقع على بعض تلامذته وقد وقع في مسألة الربا جهلا فقال سبحان الله قطعت الفقه لئلا تنال به الدنيا. فضاعت معرفة الحلال والحرام. فرجع إلى تدريس الفقه والله أعلم. ويترشح هذا الوجه بأن يقال : طلب العلم مظنة الخير. فكما أن النطق بالشهادتين فعل مظنته الأَمْن[2] حتى وجب به احترام صاحبه نفساً ومالا (242) إلا بحقه مع تيقن (أن)[3] من ينطق منافقاً كذلك طالب العلم يُحسن به الظن ويُسعف بمطلوبه. فيتأكد التعليم على الاجمال من غير تفصيل ولا توقف على الاحتِرَاز[4] ما لم يظهر أمر يتعين تجنبه. وبهذا جرى العمل في الاعصار على الدوام والاستمرار. أو بأن يقال إن إسداء العلم (يكون)[5] كإسداء المعروف. وقد قال قوم في المعروف أنه يتحرى به أهله. وإلا لا ينفع به كما قيل :

إن الصنيعة لا تكون صنيعة
حتى يصاب (بها)[6] طريق المصنع (243)

وقال آخر :

ومن يجعل المعروف في غير أهله
يلاقي الذي لاقى مجير أم عامر (244) / ص 37

---

1 — د «الحسابي» 2 — في النسخ جـ خم د «الإيمان». 3 — زيادة من جـ و ص. 4 — في الأصل «الاحترام» صوابه من جـ و ص. 5 — زيادة من جـ 6 — زيادة من جميع النسخ.

---

(240) هو كتاب «الرعاية لحقوق الله عز وجل» للصوفي الكبير الحارث المحاسبي.

(241) الحارث بن أسد المحاسبي (...هـ 243هـ) أبو عبد الله كان عالما بالأصول والمعاملات واعظا مبكيا وله تصانيف في الزهد والرد على المعتزلة وغيرهم ولد ونشأ بالبصرة ومات ببغداد أنظر الاعلام ج 153/2

(242) اشارة الى الحديث : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم» حديث متفق عليه من رواية أبي هريرة أنظر الاحياء ج 25/1

(243) نسب هذا البيت لحسان بن ثابت في شرح مقامات الحريري للشريشي ج 289/1.

(244) هذا البيت يضرب مثلا في التنكر للمعروف. وقصة البيت كما يرويها شارح مقامات الحريري كالتالي: «أثار فتيان في صيد لهم ضبعة وتلقب بأم عامر. فلجأت إلى بيت رجل فخرج إليهم بالسيف مسلولا فقالوا له لم تمنعنا من صيدنا؟ فقال: انها استجارت بي. فخلوا بينها وبينه فجعل يسقيها حتى سمنت وحسنت حالها. فبينما هو ذات يوم متجرد عدت عليه فشقت بطنه وشربت دمه فقال ابن عم له:

ومن يصنع المعروف في غير أهله يلاقي الذي لاقى مجير أم عامر

الخ الأبيات. أنظر مقامات الحريري ج 289/1

وقال آخرون : بل يصطنع المعروف على العموم لا ورَأَوْا في هذا حديثاً وهو قوله ﷺ : «عش ما شئت، (فإنك ميت)[1] وأحبب ما شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مُجْزىً به، واصنع المعروف إلى من هو أهله، وإلى من ليس أهله، فإن أصبت أهله فهو أهله، وإن لم تصب أهله فأنت من أهله» (245) وقال شاعر في هذا المعنى :

بثّ الصنائع لا تحفل بموقعها فيمن نأى أودنا ما كنت مقتدرا
فالغيث ليس يبالي حيثما انسكبت منه الغمائمُ تراباً كان أو حجرَا

وإلحاق العلم بالمال في هذا ليس على السوية، فإن العلم أشرف خطراً وأعظم قدراً[2] فيكون هذا مع انبهام الأمر على المعلم فيظن الخير كما في الوجه الأول. أما حيث علم أو ظن عدم الأهلية فلا، وبذلك يوافق ما مر من الشروط. وتختلف الأنظار بحسب الالتفات إلى الأصل[3] وإلى ما جرت به العادة الفاشية. وقد يقال : العلم أعز جناباً من أن يصل إلى غير أهله. وقيل للإمام الجنيد (246) إلى متى تنادي على الله بين يدي الناس (فقال)[4] ما فعلت ولكن أنادي على الناس بين يدي الله تعالى. «والأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى» (247)

---

1 — زيادة من متن الحديث. 2 — في الأصل «حظرا» صوابه من جـ خم و ص. د أسقط «أعظم قدرا» 3 — في الأصل «الأهل» صوابه من بقية النسخ. 4 — زيادة من جـ و ص

---

(245) في هذا الاستشهاد عرض اليوسي لحديثين اثنين: الأول «إن روح القدس نفث في روعي: أحبب من أحببت فإنك مفارقه وعش ما شئت فإنك ميت واعمل ما شئت فإنك مجزى به» أخرجه الشيرازي في الألقاب من حديث سهل بن سعد. وأخرجه الطبراني في الأصغر والأوسط من حديث علي أنظر المغني بذيل الإحياء ج 367/4. الثاني: «اصنع المعروف إلى أهله فإن لم تصب اهله فانت أهله» ذكره الدارقطني في العلل وهو ضعيف أنظر المغنى بذيل الاحياء ج 196/2

(246) الجنيد بن محمد الجنيد البغدادي الخزاز أبو القاسم (...هـ — 297هـ) شيخ مذهب التصوف. إمام زمانه. مولده ومنشأه ووفاته ببغداد. هو أول من تكلم في علم التوحيد ببغداد. من كلامه: «طريقنا مضبوط بالكتاب والسنة. من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ولم يتفقه في الدين لا يقتدى به». أنظر ترجمته ومصادرها في الاعلام ج 137/2

(247) تضمين لحديث طويل مشهور: «إنما الأعمال بالنيات. وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته...» حديث متفق عليه أخرجه البخاري ومسلم من رواية عمر بن الخطاب أنظر إرشاد الساري ج 150/1 وشرح النووي على صحيح مسلم بهامش الإرشاد ج 111/8 كما أخرجه غيرهما

وقول الكتاب : أما علمت أن ملوك الموحدين وبني مرين كانوا ينقلون العلماء الخ. فأقول : نعم، قد كان من يفعل ذلك ولكن نجل سلطاننا وهو قريشي هاشمي، علوي فاطمي، أن تنحط همته حتى يقتدى بملوك البربر من الموحدين وبني مرين. ولا يقتدى بأسلافه القريشيين المهديين أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، الذين هم أهل الخلافة حقاً، ولهم شهد المصطفى ﷺ بصحة القدوة ووجوب الاتباع، فقال : «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي» (248) وقد فتحت البلدان في زمنهم : الشام ومصر وافريقية واليمن والعراق. وأسلم من أسلم من أهلها وهم في غاية الجهل والخلو من العلم والمدينة المشرفة مشحونة بالعلماء المهاجرين والأنصار، فهل ثبت عند سيدنا أن الخلفاء
38 كانوا ينقلون أولئك العلماء من بلد إلى بلد ليفشوا العلم ؟ فهلا نقلوا علّيا/ وأُبياً (249) ومعاذاً (250) وأبا هريرة، وسلمان (251) وزيد بن ثابت (252) وجابر بن عبد الله (253) وغيرهم من أهل العلم إلى الآفاق ليعلموا من هو أحوج إلى العلم من عامتنا اليوم، فهل نحن (و) [1] أولئك الملوك أحرص منهم على الخير، أو أشد اهتماماً بأمور الدين وأمور المسلمين ؟ كلا والله ! لا نبلغ غبار نعالهم، فهم أحرص وأعرف وأتقى لله، فلذلك لم يتسلطوا على أحد فيلزموه ما لا يَلْزَمُه والله المستعان .

---

1 — زيادة الواو من ص و خم د « هؤلاء ».

---

(248) سبق تخريج الحديث

(249) هو أبي بن كعب (...21هـ) من بني النجار من الخزرج صحابي أنصاري كان قبل الاسلام حبرا من أحبار اليهود مطلعا على الكتب القديمة يكتب ويقرأ ولما أسلم كان من كتاب الوحي شهد الغزوات كلها مع النبي ﷺ وكان يفتي على عهده. أنظر ترجمته ومصادرها في الاعلام ج 1/78

(250) هو معاذ بن جبل (20ق هـ — 18هـ) الأوسي الأنصاري صحابي جليل. كان أعلم الأمة بالحلال والحرام وهو أحد الستة الذين جمعوا القرآن على عهد النبي ﷺ بعثة الرسول قاضيا ومرشدا لأهل اليمن. أنظر ترجمته ومصادرها في الاعلام ج 8/166

(251) سلمان الفارسي (...36هـ) أصله من مجوس أصبهان كان صحيح الرأي عالما بالشرائع نصب أميرا على المدائن فأقام فيها إلى أن توفي. وكان إذا خرج عطاؤه تصدق به ينسج الخوص ويأكل الشعير أنظر ترجمته ومصادرها في الأعلام ج 3/169.

(252) سبقت ترجمته. أنظر ص 157 تعليق رقم 121 .

(253) جابر بن عبد الله الخزرجي (16 ق هـ — 78هـ) صحابي من المكثرين في الرواية عن النبي ﷺ كانت له حلقة في المسجد النبوي يؤخذ عنه العلم روَى له البخاري ومسلم . أنظر ترجمته ومصادرها في الأعلام ج 922 .

وأما فعل أولئك الملوك بالعلماء فيكون[1] على ثلاثة أحوال : **الأول** : أن ينثُر الملك الحبَّ، ويظهر الجميل والخير، فتأتيه العلماء وهذا لا عجب فيه فالنفوس مجبولة على حب من أحسن إليها ، ولم يزل العلماء يرغبون فيمن تظاهر بالإحسان وتصدى للإعانة على الخير لأنهم يستعينون به على ما هم بصدده. وقد قيل إن الإمام حجة الاسلام الغزالي رضي الله عنه سافر إلى بلاد المغرب للقاء عبد المومن بن علي (254) أول ملوك الموحدين إذ بلغه أنه كان ينوه به وذلك من جهة شيخه ابن تومرت لأنه تلميذ الغزالي، فلما بلغ الاسكندرية أو طرابلس بلغه موته فرجع إلى بلاده.

الثاني : أن يبعث إلى العلماء بوجه الخير والمحبة لا الإكراه. والعلماء في هذا تختلف أحوالهم فمنهم من يسعف ويأتي[2] ومنهم من يمتنع ، ثم الممتنعون منهم من لا[3] يعتذر ولا يبالي، كابن عباس (255) رضي الله عنه، فإنه استعمله علي كرم الله وجهه على البصرة فلما اجتمع في بيت مالها من المال قدر نافع أخذه جميعاً وجاء إلى مكة، فاشترى جواري واستوطنها. فكتب إليه عليٌّ في ذلك فلم يلتفت إليه، ووقع بينهما كلام[4] الإمساك عنه أولى. وكسفيان الثوري (256) فإنه لما ولى هارون الرشيد الخلافة، وجاءته الوفود، فتح بيوت الأموال، وجعل يعطى تشوفاً إلى سفيان، وكان صديقاً له قبل ذلك في صحبة العلم، فلما لم يقدم عليه كتب إليه مع عباد الطالقاني[5] فلما دخل عليه عباد وجده مع أصحابه في المسجد، فلما رآه سفيان قام إلى الصلاة فانتظره حتى فرغ فدفع إليه الكتاب فلم يمسه وقال لبعض أصحابه اقرأه فإذا فيه : إنَّا اِنتظَرنا قدومك علينا، ونحن على المحبة والعهد الذي بيننا إلى آخر كلامه، فقال سفيان لصاحبه : اكتب على ظهره فقالوا ياأستاذ/(تكتب) [6] له في قرطاس نقي فقال[7] على ظهر قرطاسه فإن ص 39

---

1 — جـ اسقاط « فيكون » 2 — في الأصل « سيأتي » صوابه من ص و جـ. 3 — جـ اسقاط « لا ». 4 — خم أسقط « كلام ». 5 — جـ « الطلماني » 6 — في الأصل محو صححت من بقية النسخ. 7 — في الأصل محو صححت من بقية النسخ.

---

(254) هذا خطأ من اليوسي. إنما تجهز أبو حامد الغزالي لمقابلة يوسف بن تاشفين (410هـ/500) لما سمع عنه من ميله إلى أهل العلم. أنظر الاستقصا الذي أورد قول ابن خلكان في هذا الصدد ج 2/58. فالغزالي توفي سنة 505 هـ بينما بويع عبد المومن بن علي سنة 526.

(255) سبقت ترجمته أنظر ص 137 رقم 42.

(256) سبقت ترجمته انظر 177 ورقم (201).

كان اكتسبه من حلال فسيكون، وإن كان اكتسبه من حرام لم يبق عندنا ولم يفسد علينا ديننا فكتب : إلى هارون المغرور، الذي سُلب حلاوة القرآن، واستمر على هذا الأسلوب إلى أن قال له : إنك فتحت بيت مال المسلمين وجعلت تفرقه في شهواتك، فهل أذن لك المجاهدون ؟ وهل أذن لك اليتامى والأرامل ؟ إلى غير ذلك مما ذكره. ثم قال له : أما المحبة فقد قطعناها فلا عهد بيننا ولا محبة، ولا تكتب لنا بعدها فإنك إن فعلت لانقرأ كتابك، ولا نجيبك ودفعه لعباد. فلما رأى عباد تلك الحالة[1] خرج إلى السوق ونزع ثيابه ولبس دونها، ووكل بالبرذون (257) من يبلغه لدار الخلافة وتاب إلى الله تعالى وجاء بالكتاب إلى الرشيد[2] فلما رآه الرشيد فطن به فصاح وقال : أفلح الرسول وخاب المرسل وناوله الكتاب فقرأه وبكى حتى رحموه. فقال له الجلساء : قد تجرأ عليك سفيان، فأرسل من يأت به إليك فقال : اسكتوا المغرور من غررتموه (258) ولم يزل كتاب سفيان عند هارون يخرجه الحين بعد الحين فيقرأه. ومنهم من يعتذر، وقد أرسل المعتمد بن عباد (259) إلى أبي العرب[3] الصقلي (260) يستوفده عليه، وبعث مع الرسول مائة دينار ليتجهز بها في الطريق، فامتنع أبو العرب[3] وكتب مع الرسول :

لاَ تَعْجَبَنَّ لرأسي كيف شاب أسىً ... واعجب لأسود عيني كيف لم يشب

البحر للروم لا تجري السَّفينْ به ... إلاَّ على غَرَرٍ (261) والبر للعرب

---

1 — جـ اسقط « رأى عباد تلك الحالة ». 2 — محو في الأصل صححت من بقية النسخ.
3 — في الأصل وفي كل النسخ « أبو العربي » التصحيح من كتب التراجم.

---

(257) البُرذونْ دابة الحمل الثقيلة. التركي من الخيل. وخلافها العراب

(258) «المغرور من غررتموه» هذا من كلام لعمر بن الخطاب عند احتضاره مخاطبا ابن عباس. أورد ذلك البخاري في صحيحه في حديث طويل أنظر ارشاد الساري ج 6/104 باب مناقب عمر.

(259) سبقت ترجمته أنظر ص 141 رقم 55.

(260) أبو العرب : مصعب بن محمد بن أبي الفرات القرشي العبدري الصقلي (423هـ 508هـ) شاعر عالم بالأدب من أهل صقلية. كان المعتمد بن عباد يعرف قدره ويبالغ في إكرامه له ديوان شعر. أنظر أخباره مع المعتمد في الذخيرة. وأنظر ترجمته في الاعلام ج 8/151.

(261) الغرر : التعريض للهلاك

وأرسل بمثل ذلك إلى الامام الحُصْرى[1] (262) بالقيروان. فامتنع أيضا وكتب مع الرسول :

أمرتني بركوب البحر أقطعه غيرى لك الخير فاخصصه بذا الداء
ما أنت نوح فتُنجيني سفينته ولا المسيح أنَا أمشي على الماء

الثالث : أن يُلزمهم ذلك إكراهاً وضغطاً وهذا لا يقتدى به لأنه ظالم محارب لله ولرسوله. وفي الخبر : يقول الله تعالى : «من آذى لي وليّاً فقد آذنته بالمحاربة» (263) وقال الإمام الشافعي (264) : إن لم يكن العلماء العاملون أولياء الله. فليس لله ولي (265) وتحدث بعض أصحاب الشيخ أبي العباس
ص 40 السبتي (266) قال : بتنا معه ليلة في الفندق فارتفعت أصواتنا/بالمذاكرة فسمعنا الحراس، فجاءوا إلى باب الفندق وقالوا للقيم : ما هذه البدعة ؟ ما هذه الأصوات ؟ ألم يعلموا أن من رفع صوته بالليل يقتل وجلس اثنان منهم (على الباب)،[2] ليحملونا إذا أصبحنا فنقتل. فأعلمنا بذلك قيم الفندق، فدخلنا من

---

1 — جـ «المهدي». 2 — محو في بعض الحروف في الأصل التصحيح من بقية النسخ.

---

(262) هو ابو الحسن علي بن عبد الغني المعروف بالحُصري القيرواني (...488هـ)العالم الإمام في القراءات السبع الثقة شاعر مشهور له القصيدة التي مطلعها : ياليل الصَب متى غده — كان ضريرا من أهل القيروان انتقل إلى الأندلس ومات بطنجة اتصل ببعض الملوك ومدح المعتمد بن عباد بقصائد وألف له كتاب «المستحسن من الأشعار» انظر شجرة النور الزكية ص 118 الأعلام ج 5 114.

(263) جزء من حديث رواه البخاري. وفي رواية «من عادى» وفي أخرَى «من أهان» ورواية «من آذَى» رواية مسلم عن أبي هريرة وعن أنس : شرح الأربعين حديثا النووية ص 218 — 240

(264) سبقت ترجمته أنظر ص 159 رقم 131

(265) الولي ماخوذ من الولْي بسكون اللام وهو القرب والدنو مما يليك. لأنه والى الله بالطاعة والتقوى. وضابط الولي : المحافِظ على فعل الطاعات واجتناب المنهيات

(266) احمد بن جعفر الخزرجي السبتي ابو العباس (524 هـ — 601هـ) مولده بسبتة نزل مراكش وبها مات أحد متصوفة المغرب أخذ عن الشيخ ابي عبد الله الفخار. تقوم طريقته على الصدقة. وان «الوجود ينفعل بالجود». اقرأ الترجمة الطويلة التي جمعها له ابراهيم المراكشي في كتاب «الإعلام بمن حل بمراكش واغمات من الأعلام» ص 239 وما بعدها أخذها عن كتب كثيرة منها كتاب التشوف للتادلي ونفح الطيب للمقري وغيرها والقصة المذكورة في النص أشار إليها صاحب الإعلام ص 244

ذلك غم عظيم. والشيخ أبو العباس يضحك ويمازح. ولا يبالي حتى كان وقت السحر فخلا بنفسه ساعة ثم جاء فقال : لا خوف عليكم قد استوهبتكم من الله تعالى والجالسان على الباب لكم يقتلان غداً. قال فقلت له أنت ترى المجازاة في الأفعال على الخير والشر. فكيف يقتل هاذان. ولم يعملا عملا يستوجبان به القتل. وجزاؤهما أن يروعا كما روعونا. فقال أبو العباس : العلماء ورثة الأنبياء وترويعهم عظيم لا يقابله منهم إلا القتل.

قال : فلم أزل أنازعه في هذا كله إلى أن قال فيضرب إذاً كل واحد منهما مائة سوط عقوبة. فاجتاز بالليل عبد الله الخزان (267) وكان صاحب الوقت بالجامع الأعظم فوجد حانوته مفتوحة ورأى الحارسين على قرب منه فلم يشك في أنهما فتحاه. فحملا إلى رَحْبَةِ[1] (268) القصر قبل طلوع الفجر فقال لنا أبو العباس : احضروا على ضربهما مائة سوط.

وقول الكتاب : كان العلماء الأعلام مع أهل الزندقة الذين يجبروهم أن يقولوا بخلق القرآن الخ ... فأقول : الذي كان يجبر على القول بخلق القرآن (269) هو المامون العباسي ومن تبعه من إخوته (270) وليسوا زنادقة. بل

---

1 — خم بياض الكلمة . د « خصوصه » ص « جرجوة ».

---

(267) لم أقف له على ترجمة .

(268) في الأصل « جرجة » وأظن أن الكلمة حرفت عند النسخ عن « رحبة » كما أثبت ذلك صاحب الإعلام ج 244/1 .

(269) نظرية خلق القرآن ونفي الصفات عن الله تعالى تأثر فيها المعتزلة ومن شايعهم بالجعد بن درهم. وجهم بن صفوان وقد اعتبرهم ابن تيمية من المتأثرين بالصابئة والمسيحية وقد تصدّى لهم علماء السنة وكان اثبتهم شهيد محنة خلق القرآن الامام احمد بن حنبل (164هـ 241هـ) فهو يقول: القرآن غير مخلوق. ومن الخطإ تأويل الآية: «إنا جعلناه قرآنا عربيا» بان المجعول هو المخلوق وينتهي ابن حنبل إلى القول بان الله تعالى إذا قال «جعل» فإنها تاتي على معنيين: معنى خلق: «الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور» ومعنى فعل: «رب اجعل هذا البلد امنا» يريد الله ان لا يجعل لهم حظا في الآخرة» يقول ابن حنبل: فلما قال الله تعالى: «إنا جعلناه قرآنا عربيا» جعله جعلا على معنى فعله فعلا من افعال الله تعالى. انظر كتاب «نشاة الفكر الفلسفي في الإسلام» ج 1 278 — 287 ضحى الإسلام ص 299 الطبعة السابعة

(270) يعني المعتصم والواثق

المامون له مشاركة ظاهرة في العلوم، وهو الذي استخرج العلوم الفلسفية من أيدي العجم إلى هذه الأمة، وقاضيه أحمد بن أبي دُواد[1] (271) — أبعده الله — هو القائم بالفتنة بخلق القرآن وليس معهم في صحبتهم بل تسلطوا على الإمام أحمد (بن حنبل)[2] (272) فامتحنوه وامتحنوا غيره ممن أراد الله رفع درجته، وفي آخر الأمر بعث إلى الإمام أحمد ومن معه من الأئمة الأعلام فأتي بهم من بغداد في الحديد، فلما كانوا في بعض الطريق بلغهم موته فرجعوا إلى بلدهم

وعلماء السوء — نعوذ بالله منهم — هم المؤجّجون لنار الفتنة[3] كم من حِمىً سَعَوْا في هتكه، وكم من دم دلوا على سفكه، دخل سيف الدين[4] الآمدي (273) مصر وطبّق أرضها علوماً فحسدوه، ونسبوا إليه رأى أهل الأهواء وكتبوا في ذلك وثيقة وجعلوا يتعاطونها فيوقعون شهاداتهم حتى
ن 41 انتهت/إلى بعض من وفقه الله وعصمه فكتب تحت شهاداتهم :

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه فالقوم أعداء له وخصوم

ثم استمر عليه ذلك الحسد حتى خرج من مصر إلى الشام. ودخل أبو الفضل ابن النحوي (274) مدينة فاس حين أخرجوه من سجلماسة، فتسلط عليه

---

1 — في الأصل وفي النسخ الأخرى « داوود » التصحيح من كتب التاريخ. 2 — زيادة من جـ و د و ص 3 — جـ خم د « الفتن ». 4 — جـ « الدولة » بدل « الدين ».

---

(271) احمد بن ابي دواد (160هـ/240هـ) احد القضاة المشهورين من المعتزلة وراس فتنة القول بخلق القرآن قال ابو العيناء: ما رايت رئيسا قط افصح ولا انطق من ابي دواد وفيه يقول المامون: إذا استجلس الناس فاضلا فمثل احمد. قال الذهبي كان جهميا بغيضا حمل الخلفاء على امتحان الناس بخلق القرآن ولولا ذلك لاجتمعت الألسنة عليه. انظر الاعلام ج/120

(272) احمد بن محمد بن حنبل (164هـ — 241هـ) إمام المذهب الحنبلي وأحد الأئمة الأربعة أصله من مرو سافر كثيرا وصنف كتبا كثيرة سجنه المعتصم لامتناعه عن القول بخلق القرآن وتوفي في خلافة المتوكل انظر ترجمته ومصادرها في الأعلام ج 1/192

(273) علي بن محمد بن سالم التغلبي ابو الحسن سيف الدين الآمدي (551هـ/631) اصولي باحث تعلم في بغداد والشام وانتقل إلى القاهرة فدرس فيها واشتهر. وحسده بعض الفقهاء فتعصبوا عليه ونسبوه إلى فساد العقيدة والتعطيل ومذهب الفلاسفة فخرج مستخفيا إلى حماة ومنها إلى دمشق فتوفي بها له مصنفات كثيرة انظر ترجمته ومصادرها في الاعلام ج 5/153

(274) سبقت ترجمته أنظر ص 146 رقم 75.

القاضي بن دبوس (275) بالإذاية. فلما طال الأمر على ابن النحوي. عزم على الخروج من فاس. فبات تلك الليلة التي يخرج في صبيحتها. ويقال أنه قطعها بسجدة واحدة قال في آخرها : اللهم عليك يا ابن دبوس. فأصبح القاضي ميتاً. وأصبح الشيخ أبو الفضل خارجاً، وخرج الطلبة يشيعونه وفيهم ابن القاضي. ولا علم له بموت أبيه فقال له الشيخ : ارجع لتحضر جنازة أبيك. ووشَوْا بالشيخ أبي الحكم ابن برجان (276) أحد كبراء الصوفية فبعثوا[1] إلى السلطان بمراكش، فبعث إليه فجيئ به من العدوة وقد نسبوا إليه مقالات، فأجاب عن ذلك كله، فأطلقه السلطان فقال : والله لا عشت ولا عاش من أشخصني فمات رحمه الله فطرح في المزبلة ودخل رجل على الشيخ سيدي علي بن حرازم[2] (277) وكان إذ ذاك بمراكش فأخبره بموته وإنه لم يدفن، فدعا بعض أصحابه فقال: أتَشْتَري نفسك وتفعل ما آمرك فقال: نعم، قال فاخرج وسر في أزقة مراكش وأنت تقول : يقول لكم ابنُ حرزهم من لم يحضر جنازة الولي الزاهد العارف أبي الحكم بن برجان فعليه لعنة الله، فلما سمع الناس بادروا إليه من كل ناحية ودفنوه وبلغ ذلك السلطان فقال : من علم أنه ولي ولم يحضر

---

1 — في الأصل «فبعث» صوابه من خم ص 2 — خم جـ «حرزم» ص «حرزهم».

---

(275) هل هو عبد الحق بن عبد الله بن أحمد بن دبوس ؟ من بيت بني دبوس بفاس بينهم بيت علم وثروة . إليهم تنسب عقبة ابن دبوس وكان عظيم القدر والجلالة في العلم توفي بفاس سنة 557هـ أنظر جذوة الإقتباس ص 274 .

(276) عبد السلام بن عبد الرحمان ابن برجان أبو الحكم : (...536هـ) متصوف من مشاهير الصالحين. عاش باشبيلية له كتاب في تفسير القرآن أكثر كلامه فيه على طريق الصوفية ولم يكمله توفي بمراكش وروى صاحب التشوف القصة المذكورة في النص وحكاها عنه صاحب الاستقصا ج 76/2 — 77. انظر ترجمته ومصادرها في الاعلام ج 129/4.

(277) علي بن اسماعيل بن حرزهم ولد ونشا بفاس وكان فيها من كبار الفقهاء. سالكا سبيل اهل التصوف رحل إلى مراكش ودرس العلم بها وكثر اتباعه وتلاميذه. اخذ عنه ابو مدين الغوث الشهير باحواز تلمسان وابو يعزى.كانت وفاته سنة 559 او 560. ترجمته واسعة وممن ترجم له: التادلي في «التشوف». وسلوة الأنفاس ج 71/3 — 76

جنازته فعليه لعنة الله. وسعوا بالشيخ أبي العبس بن العريف (278) أيضا إلى علي بن يوسف (279) فأمر بإشخاصه إلى حضرة مراكش. فلما بلغها توفي بها وندم السلطان على[1] ما كان منه إليه. وفي رواية أن القاضي بن الأسود (280) هو الذي وفد على السلطان فسعى[2] بابن العريف عنده وخوفه منه لما رأى من ظهوره وإقبال الناس عليه. فكتب إلى عامل أغمرية بإشخاصه إلى مراكش. فأمر به العامل. فأدخل إلى القارب ليخرج به إلى البحر إلى سبتة. فأشار القاضي على العامل بتكبيله. فأمر إليه من يقيده. فأدركه رسول العامل وهو في البحر لم يخرج منه بعد وكبله. وذهب راجعاً إلى أغمرية في البحر فقال الشيخ : روّعنا روّعه
ص 42 الله. فلقيه العدو في البحر فحملوه/أسيراً. فلما وصل الشيخ إلى سبتة لقيه رسول السلطان بالأمان. وأن تحل قيوده ويسرح. فقال الشيخ : كنت أريد أن لا يعرفني السلطان. وقد عرفني الآن فلا بد من رؤيته. فوصل إلى مراكش. فأقبل عليه السلطان وأكرمه وأمر أن يعرض عليه حوائجه. فقال الشيخ : ليس لي حاجة إلا أن أرحل وأذهب حيث شئت. فأذن له في ذلك. فلما رأى القاضي ما حصل له من الإكرام. سأل عن أحب الطعام إليه. فقيل له الباذنجان. فصنعه وسمه واحتال عليه حتى أكله ومات رحمه الله. فلما علم السلطان ما كان من ابن الأسود في جانب الشيخ ابن العريف قال : لأعذبنه ولأسمه كما فعل بابن العريف. فبعثه إلى السوس الأقصى وأمر أن يسقى السم هنالك ففعل به ذلك ومات هنالك. ولما ظهر شيخ الجماعة أبو الحسن الشاذلي (281) رضي الله عنه بتونس وأقبل الخلق عليه. وتصدر لتربية المريدين سعى به القاضي ابن البراء[3] إلى سلطانها وقال له : إن رجلا من شاذلة سراق الحمير. قد اشتغل

---

1 — في الأصل « إلى » صوابه من جميع النسخ. 2 — د : زيادة « له ». 3 — د « أبو البراء ».

---

(278) هو احمد بن محمد الصنهاجي الاندلسي المعروف بابن العريف (481هـ — 536هـ) فاضل شهير بالصلاح له شعر ومشاركة في العلوم. توفي بمراكش. انظر ترجمته ومصادرها في الأعلام ج 1 208

(279) علي بن يوسف بن تاشفين من امراء الدولة المرابطية (477هـ — 539هـ)

(280) لم اقف له على ترجمة

(281) علي بن عبد الله الشاذلي ابو الحسن (591هـ — 656هـ) راس الطائفة الشاذلية من المتصوفة ولد بغمارة وتفقه وتصوف بتونس وسكن شاذلة. رحل إلى بلاد المشرق وسكن الاسكندرية توفي ضريرا بالصحراء عند عودته من الحج انظر ترجمته ومصادرها في الاعلام ج 5 120

بالبدعة. وأفسد عليك العامة. فبعث السلطان إليه. وأجلس له العلماء فناظروه ووجدوه متمكناً في العلم. فلما رأى السلطان ذلك خلّى سبيله. فلما خرج رجع إليه القاضي وقال له: الآن إذا لم تنفذ الأمر يفسد الناس كلهم فيتبعونه. ويتركونك. فأمر السلطان به فسجن. فأرسل الشيخ إلى الفقراء أصحابه وقال لهم: لا تجزعوا فإنّا نخرج إن شاء الله ولا بأس علينا. وسقط ابن السلطان في تلك الليلة. وقدم أخ للسلطان لم يحضر وكان من المُعتَقِدين للشيخ. فلام أخاه[1] وقال له: أتعمد إلى ولي من أولياء الله فتسجنه. فلما رأى السلطان ذلك أطلقه. وبقي أياماً بتونس. فأثر عليه القاضي. فلما رأى الشيخ ذالك خرج من تونس اتقاء للفتنة. وتوجه إلى الديار المصرية. فلما رأى القاضي أنه قد نجا من السلطان الذي بتونس كتب فيه رسما إلى مصر يقول إن رجلا بدعيّاً قد أفسد بلادنا. وقد جاء إلى بلادك ليفسدها فاحذره. أو نحو هذا الكلام. وسبقت الوثيقة إلى سلطان مصر. فلما كان الشيخ ببعض الطريق. تعلق به أعراب من أعراب مصر يشفع لهم في كلفة لهم[2] عند السلطان. فلما دخل مصر ذهب إلى السلطان فذكر أمر الأعراب فقال له السلطان: أنت تشفع في الناس. ومن
ص 43 يشفع فيك أنت؟ هذه وثيقة قاضي تونس/فيك. فحينئذ تحرك الشيخ رضي الله عنه فقال للسلطان أنا وأنت والقاضي في قبضة الله تعالى. فقام منصرفاً فرام السلطان أن يتحرك فلم يستطع. فجعل يتوب ويستغفر. واسترد الشيخ واسترضاه وقضى حوائجه. ولم يدعُ الشيخُ على ابن البراء حتى بلغ عرفة في حجته. فقال لأصحابه: الآن أذن لي في الدعاء على القاضي فدعا عليه بطول العمر. وأن يبتلى بخدمة الظلمة وبالفتنة.[3] فبقي ابن البراء على ذلك (حتى)[4] مات عليه. نعوذ بالله من قضاة السوء. وإنما ذكرنا هذه القصص ليعلم أن الأفاضل من أهل العلم ومن أهل الطريق يبتلون بشياطين الإنس عند أولى الأمر: «والعاقبة للمتقين» (282) فلا يغترر صاحب الأمر بمن ينتصح له بالوقيعة في الناس. فإنه هو

---

1 — خم «أخاك» 2 — ص. جـ «عليهم». 3 — في الأصل «والفتنة» التصحيح من جـ و ص
4 — زيادة من جميع النسخ.

---

(282) تمام الآية: «تلك الدار نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض ولا فسادا. والعاقبة للمتقين» الآية 83 من سورة القصص مكية

المؤذى له على التحقيق، والغاش كما قال النابغة:

لئن كنت قد بُلِّغْت عني خيانة
لَمُبْلِغُكَ[1] الواشي أغش وأكذب (283)

وقال الآخر:

لَعَمْرُكَ ما سبَّ الأميرَ عدوُّه ولكنما سبَّ الأميرَ المبلِّغُ(284)

وذلك من وجهين: أحدهما: أنه يغير قلبه، ويكدر عليه العيش وأي فائدة للمُلك إذا لم يتنعم صاحبه ظاهراً وباطناً، فمن توالى عليه السُّعاة، لا يزال في نكد وضيق. الثاني: أنه يوقعه في أمور يندم عليها عاجلا وآجلا، (ويفسد قلوب الرعية، وقد أكثر الناس من ذم السُّعاة والتحذير منهم)[2] وفي ذمهم قال الأحنف بن قيس (285): مابالك بقوم الصدق محمود إلا منهم[3] (286). وقال بعض القدماء: لو فتش عن السُّعاة لم يوجدوا إلا لغير رَشَد. وقال الآخر:

فلا تُفْشِ سرك إلا إليك فإن لكل نصيح نصيحا
وإني رأيت غَوَاشَّ الرجال لا يتركون أديماً صحيحا

وقال غيره:

فلا تَعْدِلْ إلى الواشين سمعاً فإن كلام أكثرهم كلام

---

1 — جـ «لمبلك» 2 — زيادة من جـ و ص. 3 — خم بياض مكان: «الصدق — منهم».

---

(283) هذا البيت جاء في ديوان النابغة بهذه الرواية:
لئن كنت قد بلغت عني رسالة لمبلغك الواشي اغش واكذب
انظر ديوان النابغة تحقيق شكري فيصل ص 77.
الواشي: النمام الذي يشي إليه بالكذب كما يوشي الوشي

(284) ذكر شارح مقامات الحريري هذا البيت بهذه الرواية دون ان ينسبه هو الآخر انظر شرح الشريشي ص 221

(285) الأحنف بن قيس التميمي (ق هـ — 72هـ) سيد تميم وأحد العظماء الدهاة الفصحاء الشجعان. الفاتحين. يضرب به المثل في الحلم. ولد بالبصرة وأدرك النبي ﷺ ولم يره ووفد على عمر حين آلت إليه الخلافة. شهد الفتوح في خراسان واعتزل الفتنة يوم الجمل. أخباره كثيرة جدا وخطبه وكلماته متفرقة في كتب التاريخ والأدب والبلدان حرية بالجمع. انظر ترجمته ومصادرها في الأعلام ج 1 262

(286) لعل كلام الأحنف اشارة إلى الحديث النبوي في الغيبة.

وان الوُدَّ عندهم نفاق ... إذا طَوَعْتَهم والحمد ذَامُ
وللأقوال إن سمعت سهام ... تقصر عن مواقعها السهام
فما نَصَحُوا لمجدك بل مرادا ... لما قد ساءني قعدوا وقاموا
فليتك تسمع القولين حتى ... تبين لي[1] من الحق الخصام

وقال الآخر:

لا تسمعن من الحسود نميمة ... فكلامه ضرب من الهذيان
إن كان قد أوحي إليك تخرصاً[2] ... فالناس قد كذبوا على الرحمان/ 44
سل غيره عني لتعلم إفكه ... واسخط عليه فبالمحال رمان
لا يثبت الحق المبين لحاكم ... في الشرع حتى ينطق الخصمان

وليس بعد تحذير الله تعالى تحذير، قال تعالى: «إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ» (287). وكل من اغتاب الناس فهو فاسق، والفاسق لا تقبل شهادته ولذلك لما قال معاوية للأحنف في أمر بلغه عنه فأنكر الأحنف قال معاوية: الثقة بلغني عنك. قال الأحنف: الثقة لا يبلغ. ورفعت بطاقة إلى أمير المؤمنين السفاح (288) في بعض عماله فكتب عليها: هذه نصيحة لم يرد بها ما عند الله، ونحن لا نقبل من آثرنا على الله[3] ورميت أخرى في طريق الصاحب (289) فيها أن رجلاً هلك وترك أموالا جليلة، ولم يترك إلا ولداً لا تصلح له تلك الأموال، فوقع الصاحب عليها وقال: الهالك رحمه الله. والولد أصلحه الله والمال ثمرة الله والساعي لعنه الله.

---

1 — د «فيهما» 2 — ص. د. جـ. «تحرصا» خم «تحزما» 3 — في الأصل «آثارنا على الله» صوابه من خم جـ ص. د «أشارنا».

---

(287) الآية 6 من سورة الحجرات مدنية

(288) عبد الله بن محمد أبو العباس السفاح (104هـ — 136هـ) أول خلفاء الدولة العباسية واحد الدهاة من ملوك العرب. شديد العقوبة عظيم الانتقام ويوصف أيضا بالجود والفصاحة والعلم والأدب أنظر ترجمته ومصادرها في الاعلام ج 4/257

(289) هل إسماعيل بن عباد (322هـ — 385هـ) الصاحب؟ وزير مؤيد الدولة البويهي وأخيه فخر الدولة. وزير غلب عليه الأدب كان من نوادر الدهر علما وفضلا وتدبيرا وجودة رأي. وله مصنفات كثيرة أنظر ترجمته ومصدرها في الأعلام ج 1/312

ولما ولى عبد العزيز بن عبد الملك دمشق وكان لبيباً مع حَدَاثَةِ سنه، قال أهل دمشق هذا غلام لا معرفة له بالأمور، ويستمع منا فقام إليه رجل فقال: أصلح الله الأمير، عندي نصيحة فقال له: ليت شعري ما هذه النصيحة التي بدأتني بها من غير يد سبقت مني إليك؟ قال: جار لي عاص وكذا وكذا. فقال: ما اتقيت الله، ولا أكرمت أميرك، ولاحفظت جارك. إن شئت نظرنا فيما تقول، فإن كنت صادقاً لم ينفعك ذلك عندنا. وإن كنت كاذباً عاقبناك وإن شئت أقلناك. قال: أقلني. قال: اذهب حيث شئت لاصحبك الله. ثم نهاهم عن السعاية، وذمها غاية وقال: فلا يأتيني أحد منكم بسعاية على أحد بشئ ،فإن الصادق فيها فاسق و الكاذب بهات . وَمنْ أحسن ما فعل بهذا الجنس الخبيث ما روى أن أمير المؤمنين أحمد القادر بالله (290) كان يمشي ليلة في أسواق بغداد، إذ سمع شخصاً يقول لآخر: قد طالت علينا دولة هذا المشؤوم، وليس لأحد عنده[1] رزق، فأمر به فأخذ، فلما حضر بين يديه سأله عن صنعته فقال: إنه من السعاة الذين يستعين بهم أرباب الأمر في تعرف أحوال الناس، وأنه منذ ولى أمير
ص 45 المؤمنين أقصانا، واستغنى عنا، فتعطلت معيشتنا. فقال: أتعرف من في بغداد من السعاة؟ قال: نعم. فأمر بكتب أسمائهم وأجرى عليهم رزقاً معلوماً ونفاهم/إلى الثغور يكونون هناك عيوناً على الكفار. ثم التفت إلى من حوله فقال: اعلموا أن هؤلاء ركَّب الله فيهم شراً، وملأ صدورهم حقداً على العالم، ولا بد له من إفراغ ذلك الشر، والأَوْلَى أن يكون ذلك في الأعداء، ولا ننغص بهم على المسلمين. وقد اتفق مثل هذا للأمير الناصر (291) رحمه الله أنه جاء إنسان إلى

---

1 — في الأصل «عنه» صوابه من جميع النسخ.

---

(290) احمد بن اسحاق بن المقتدر القادر بالله الخليفة العباسي (336هـ — 422ه) كان محبوبا مطاعا جدد ناموس الخلافة كما يقول ابن الأثير من الخلفاء الائمة الزهاد العلماء. كان كثيرا ما يلبس لباس العامة ويخرج متجولا في بغداد متفقدا امور اهلها. انظر ترجمته ومصادرها في الاعلام ج 1 91

(291) محمد قلاوون بن عبد الله الصالحي ابو الفتح الملك الناصر (684هـ — 741هـ) من كبار ملوك الدولة القلاوونية ولي سلطنة مصر والشام له تاريخ حافل بجلائل الأعمال اوردها المقريزي في مجلد ضخم انظر السلوك للمقريزي: القسمان الأول والثاني من الجزء الثاني وفيهما استيفاء سيرته وتاريخ الدولة في ايامه. انظر ترجمته ومصادرها في الأعلام ج 5 232

وزيره فاستأذن إليه في إبلاغ قوم ذكرهم بالقبيح إلى السلطان فبلّغ الوزير الأمر. فقال له السلطان: عَلَيَّ بالرجل. فأدخله إليه فقال: هل تعرف بالقاهرة من هو أعرف بشيء من هذه الأحوال؟ قال نعم: جماعة وعدَّهم. فقال السلطان للوزير: احتفل بهذا الرجل حتى يحضر كل من ذكره فعرفني بهم. فلما اجتمعوا قال له: اخرج في هذه الساعة وجهز الجميع إلى قصي[1] (292) ولا تدع أحداً منهم بالقاهرة. فإن هؤلاء مناحيس[2] فنفاهم أجمعين.

ووقع ذو الرئاستين (293) في رقعة ساع: نحن نرى قبول السعاية شرا منها ولأن السعاية دلالة. والقبول اجازة. فاتقوا الساعي. فإنه إن كان في سعاية صادقا كان في صدقه آثماً، إذ لم يحفظ الحرمة، ولم يستر العورة، وقال رجل للمهدي (294) : عندي إليك نصيحة يا أمير المؤمنين. قال المهدي لمن هي؟ ألنا أم لعامة المسلمين أم لنفسك؟ قال: لك يا أمير المؤمنين. قال المهدي: ليس الساعي بأعظم عورة ولا أقبح حالا من قابل سعايته. ولا تخلو من أن تكون حاسد نعمة[3] فلا نشفي[4] غيظك، أو عدوا فلا نعاقب لك عدوك. ثم أقبل على الناس فقال : لا ينصح لنا ناصح إلا بما فيه رضا الله، وللمسلمين فيه صلاح. فإنما لنا الأبدان، وليس لنا القلوب. ومن استتر لم نكشفه، ومن ندم قبلنا توبته ومن أخطأ أقلنا[5] عثرته، إني رأيت التأديب بالصفح أبلغ منه بالعقوبة. والسلامة مع العفو أكثر منها مع المعالجة. والقلوب لا تبقى لوال[6] لا ينعطف إذا استعطف ولا يعفو إذا قَدَرَ ولا يغفر إذا ظفِر، ولا يرحم إذا استُرحم.

---

1 — د. «أقصي». 2 — ص د جـ «منافس». 3 — في الأصل «نعمته» صوابه من جميع النسخ. 4 — في الأصل «يشتفي» صوابه من خم ص. 5 — في الأصل «قبلنا» التصحيح من خم جـ. ص. 6 — في الأصل «لا تبغي لو أن لا ينعطف» صوابه من ص جـ د

---

(292) لعله يقصد إلى ناحية بعيدة.

(293) ذو الرئاستين: هل يعني ذا الوزارتين لسان الدين ابن الخطيب الفقيه الشاعر المؤرخ (713 — 776هـ)؟ الذي تولى شؤون الدولة في دولة بني الأحمر بغرناطة.

(294) محمد بن عبد الله المنصور العباسي أبو عبد الله المهدي بالله (127هـ — 169هـ) من خلفاء الدولة العباسية كان محمود العهد والسيرة محبا للرعية. أنظر ترجمته ومصادره في الأعلام ج 91/7.

وهذا الباب لا يسلم فيه إلاّ رجلان: رجل متين الدّين كريم السجية، واسع الصدر لا يُقَعْقعُ له بالشِّنَانِ[1] (295) كما قال المعتمد بن عباد يخاطب الذين وشوا إليه بابن زيدون:

كذبت مُناكُم صَرِّحُوا أو جَمْجِمُوا (296)
الـدّيـن أمـتـنُ والسـجـيـة أكـرَمُ
أأردتم تَضـيـيـقَ صـدرٍ لم يضق
والسُّمْرُ[2] (297) في ثُغَرِ الصدور تُحَطَّمُ/ ص 46
وزحفتم[3] بِمِحالكم (298) لمجرب ما زال يثبُتُ للمِحال[4] فَيَهْزِمُ
أنّى رجوتُم[5] غدر من جرّبتم منه الوفاء وَجُورَ من لا يظلم
أنا(ذلكم)[6] لا البغي يُثمر غرسُه عندي ولا مَبْنَى[7] الصنيعةِ يُهْدَمُ

ورجل حازم يقطع مواد ذلك. إما بنفي الجنس عن البلد أو بإظهار عقوبة تردعهم. وقد كان ﷺ وشرّف وكرّم، مع كرم خلقه وكمال عصمته، يحتاط عن ذلك فيقول لأصحابه: «لا يبلغني أحد منكم عن أحد شيئاً، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سالم القلب والخاطر»(299) أو كما قال ﷺ.

---

1 — في الأصل «الشنآن» التصحيح من ص و د. جـ «الشاد». 2 — د «والشر». 3 — في الأصل «ورجفتم» التصحيح من ص د خم. 4 — خم «للمال» ص «للمجال». 5 — في الأصل «رجوت» التصحيح من ص. 6 — في الأصل محو أثبت ما في سائر النسخ. 7 — في الأصل «مني» صححت من ص.

---

(295) يقعقع له بالشنان: يضرب لمن لا يتضع لحوادث الدهر ولا يروعه ما لاَ حقيقة له. القاموس ج 72/3.

(296) **جمجم الكلام: لم يبينه. جمجم شيئا في صدره أي أخفاه ولم يبده.**

(297) **السمر: الرماح. الثغر ج ثغرة**

(298) **المحال والمحل: المكر والكيد. روم الامر بالحيل. محل به محلا ومحالا: كاده بسعاية الى السلطان**

(299) **الحديث: «لا يبلغني احد منكم عن احد من اصحابي شيئا. فإني احب ان اخرج إليكم وانا سليم الصدر.» أخرجه أبو داود والترمذي من حديث ابن مسعود وقال غريب من هذا الوجه. انظر المغني بذيل الإحياء ج 2 378**

وقول الكتاب : نحن مسلمون موحدون أقول: أما هذا فمازلنا بحمد الله تعالى عليه، ونقول أن من يطلب الدنيا وينقص فيها أسلم وأسهل مما لو ابتلى الناس بمن يزاحمهم في دينهم ليتركوه أو يبدلوه ولله الحمد والمنة على هذا.

وقول الكتاب: أوما يكفيك ملاّح (300) تعيش به، أو قبيلة تقبض زكاتها أقول: أما الملاح فمن لي به ومن يتركه (لي)[1] ولم أسلم من ألسنة المتعرضين للجزية وأنا في قعر عريشي أستف الرماد، فكيف لو رأوا في يدي[2] ما يطلبون. وأما القبيلة فلا تليق بي فإن المراد أن أتفرغ للعلم، فإن اشتغلت بالخروج إلى القبائل ضاع العلم وجاءت الفتنة تترا (301)، وإن اتخذت أعواناً يكفوني مؤونة ذلك لم يقم ما يحصلون بواجب حقهم، فماذا يحصل لي أنا، وهبني حصلت لي معهم صحيفات من الزرع فأين كيت وكيت؟

وأما قول الكتاب: وهل يستفتونك وأنت في البادية، فأقول: نعم أما أهل البادية فلا يطلبون غيري. وأما أهل الحاضرة فعندهم من يكفيهم، ومن احتاج إليَّ فليأتني[3]، وقد قررنا أن الشرع لم يكلف صاحب العلم أن يدخل إلى الحاضرة بل يبقى حيث أمكنه، والله تعالى قد ألزم العامة أن يسألوا مطلقاً فقال: «فاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» (302)، فإذا لم يسألوني فالحجة عليهم لا علي. وقوله: **فما يستفتيك أحد وأنت بها**: هذا حكم على الغيب لا يكون إلا بعد النظر ومعرفة أن الأمر كذلك، وهو بحمد الله ليس كذلك. فإن أهل البادية (يستفتون)[4] وأهل الحاضرة أيضاً: ما يوم حليمة بسر (303)

---

1 — زيادة من د. 2 — في الأصل «أيدي» التصحيح من جـ و د. 3 — في الأصل «فليأتنا» صوابه من جـ و خم و ص. 4 — زيادة من جـ و ص

---

(300) الملّاح: مكان خاص بسكني اليهود. وتؤخذ منهم جزية خاصة تقبضها الدولة

(301) تترا: تاتي بكيفية متواترة.

(302) سبق تخريج الآية.

(303) يضرب مثلا في كل امر متعالم مشهور انظر قصة حليمة في مجمع الأمثال للميداني ج 2

وقول الكتاب: بوجوه شتّى الخ ... هذه أمور مقدرة في العقل. والأمر في الخارج ليس كذلك. ولو كانت العامة يتبصرون فيمن يستفتون. لكان الناس
ص 47 بخير. ولكنهم الهَمَجُ الرَّعَاعُ لكل/ناعق أتباع [1] يشارطون (304) شابّاً صغيراً من الأفارد[2] (305) لا يحسن الوضوء. فيتخذونه إماماً راتباً (306). ويتداعَوْن إليه في الخصومات. ويستفتونه في النوازل التي تحار فيها العلماء. وذلك تارة قلة مبالاة بأمر الدين. وتارة اعتقاداً أن كل من يقرأ يعرف كل ما يحتاجون. ثم يستحيي أن يقول لا أدري فيفتي أو يحكم بغير علم. فَيَضِلُّ ويُضِلّ نعوذ بالله من الفتن. وهذه حالة أكثر (أهل العمود)[3] فأمثال هؤلاء كيف يتوقفون عليّ؟ ويقولون لو كان عالماً لكان في الحاضرة وهم يعرفونني ويعرفون حلق المتعلمين والمستفتين[4] حولي من شُبَّ إلى دُبَّ (307)

ويرحم الله أمير المؤمنين عليا — كرم الله وجهه — فإنه لما رجع من صفين ووقع التحكيم قال لبعض خواصه: ما يقول الناس؟ قال: يقولون عليّ شجاع ولكن لا معرفة له بالحرب فقال: لله دَرّهم! ومن هو أعرف بها مني؟ فقد خَبِبْتُ[5] (308) فيها وأنا ابن عشرين سنة. ولكن لا رأى لمن لا يطاع. فأنا بحمد الله كان كل هؤلاء وغيرهم يسألونني وأنا ابن عشرين سنة. أفبعد ما لاح

---

1 — د «يتبعون كل ناعق اتباعا» بدل «لكل ناعق اتباع». 2 — في الأصل محو في حرف الفاء فقط تصحيحها من ص «الأفارد». جـ «الأمراد» خم د «الأفراد». 3 — في الأصل «العموم» جـ و ص «أهل العمود» وهي الأنسب. 4 — جـ «المستبقين». 5 — خم «خيرت» د «خبتت».

---

(304) المشارطة في البادية المغربية هي ان القبيلة تتكلف بالفقيه ماكلا ومسكنا وتتفق معه على مرتب سنوي يدفع له نقدا او قمحا. ويسمى هؤلاء «الفقهاء» المعلمون «المشارطية» مفرده «المشارطي» وعمله يتلخص فيما يلي: تعلم الصغار المبادئ الاولى للقراءة والكتابة والقرآن. إمامة مسجد القرية وتوضيح الفرائض للعامة والسائلين

(305) الأفارد: ج إفريد لفظ يطلق على الطالب المغربي قديما.

(306) راتب هنا بمعنى دائم. عيش راتب: دائم ثابت

(307) اي من شبابي إلى ان دببت على العصا وهو مثل يطلق بمعنى منذ زمن بعيد وحتى الآن

(308) خببت: خب البحر هاج واضطرب. والخبب ايضا ضرب من العدو. وهنا خببت في الحرب اي خضت غمارها وصلت وجلت فيها

الشيب في عارضي ينفون العلم عني بكوني لم أكن في الحاضرة؟ ولقد كنا نضحك أيام كنا بفاس مما يبلغنا عنهم. وذلك أنهم بحمد الله. والتحدث بالنعم شكر. رأوا ما بهر عقولهم علماً وفهماً وفصاحة. فكانوا يقولون: نرى الرجل بربرياً. ثم إذا تكلم (تكلم)[1] بلسان أهل الحاضرة. وكان يبلغنا عن بعض الحمق منهم (أنهم)[2] يقولون ما فاته شيء إلا أنه لم يقرأ بفاس. وهذا كلام جاهل لا يعرف حكمة الله ومشيئته الباهرة. وأنه يخص من شاء بما شاء. ويودع ما شاء أي موضع شاء: «لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ» (309) وما أشبه نزغة (310) هؤلاء (بنزغة)[3] اليهود حيث أنكروا نبوّة نبينا ﷺ. إذ لم يكن من الشام أو من بني اسرائيل. واعلم أني شبهت النزغة بالنزغة لاشتراكهما في الجهل وتحجير رحمة الله الواسعة. فلا يذهب وهمك إلى أني أريد محاكاة نفسي بجانب النبوة. ومثل هذا ما ذكر الشيخ أبو العباس المرسي (311) رضي الله عنه من تشبيه المنكرين لأولياء زمنهم مع تصديقهم بمن مضى. باليهود في إنكار نبوّة نبينا ﷺ. لكونه في زمنهم. وقد صدقوا بمن مضى من الأنبياء. وهو تشبيه صحيح ولا يلزم فيه تشبيه الولي بالنبي. ولا تقل أيضاً لم تشبه المسلمين باليهود؟ لأنا نقول لا عجب
ص 48 فيه. فإن للمسلمين أشباهاً باليهود وبالنصارى والمجوس وبالشياطين كما لهم/أشباه بالملائكة. وقد رأيت في كلام الشيخ تشبيههم باليهود وقال في محل آخر: من

---

1 — زيادة من جميع النسخ. 2 — زيادة من جـ و ص. 3 — زيادة من جـ و ص.

---

(309) الآية 23 من سورة الأنبياء.

(310) النزغة ما توسوس به النفس مما يؤدى إلى الفساد والمعاصي

(311) أحمد بن عمر المرسي ابو العباس (616هـ — 686هـ) فقيه متصوف مشهور اصله من الاندلس من مرسية. رحل إلى المشرق في سن العشرين أقام بتونس مدة وبها اتصل بأستاذه أبي الحسن الشاذلي ولزمه ورحل معه إلى مصر استقر بالأسكندرية. تبحر في العلوم الدينية وبلغ درجة كبيرة في التصوف أنظر نفح الطيب ج 2 643 الاعلام ج 1 179

رأيته من فقراء هذا الزمان، مشتغلا بالسماع (312)، آكلا لأموال الظلمة ففيه نزغة يهودية. فإن الله تعالى يقول في اليهود: «سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ» (313).

وقول الكتاب: أو يقولوا ليس علم الحسن لله وإنما يَخْتِلُ (314) به الدنيا

أقول: هذه حجة مقلوبة[1]، فإن الذي يتقرب من أبواب الملوك، بل ومن الحواضر كلها التي هي محل المرتبات هو الذي يمكن أن يقال فيه أنه يطلب الدنيا. فإن تلك الجهة منها يكون للعلم نَفَقٌ[2] (315)، ويكون له ثمن وأما البادية فلا. ويقل أن يوجد في تلك الجهة علم يتعاطى لله تعالى. ورب عالم في القرى يعلم ويفتي لله تعالى ويطعم طلبته وربما كساهم، ولا يترقب على ذلك جزاء ولا شكورا إلا من الله تعالى، ويحرث حرثه كما يحرث الناس ويعيش كما يعيشون فهذه التجارة الرابحة.

وقول الكتاب: لا سلامة من الخلق أقول: هذا هو الحق، فالواجب على الإنسان أن يكبّ على ما فيه صلاح دينه ودنياه، ويلغي النظر عن الخلق فإن رضاهم غاية لا تدرك، وطالب ما لا يدرك لا عقل له[3] والسلامة من جانبه

---

1 — خم «مقبولة». 2 — د «نفاق» جـ «سبق» خم «نفي». 3 — في الأصل «لأنه» تصحيحه من جميع النسخ.

---

(312) السماع عند الصوفية من المسائل التي تحرك النفس ومن الدواعي إلى رقتها وتهذيبها. ومضمونه الأقوال الشعرية المتضمنة لذكر الهوى وأوصاف المحبين ومواجدهم وأحوالهم التي بلغ بهم إليها الكلف. والمنشدون لهذه الأشعار ربما استعانوا في بعض الاحيان بالآلة الموسيقية لتلطيف الأسرار وتهذيب النفوس. ومن آدابه أن تكون أقواله مما لا تنكره الحشمة ولا يمنع منه الدين. وآلته مما لا تناله خسة العادة. وفي جواز السماع اختلاف بين العلماء والمتصوفة. والمجيزون للسماع يستندون للآيات: «فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله. واؤلئك هم أولوا الالباب» وقوله عز وجل: «وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق» عن عوارف المعارف ص 173 وما بعدها. وسوف يتحدث اليوسي باسهاب في الرسالة الغياثية وهي رسالة في التصوف عن هذا الموضوع ويدلى فيه برأيه الخاص.

(313) من الآية 44 سورة المائدة

(314) ختل يختِلُ: خدع وهنا يطلب الدنيا ويتستر بالعلم فهو يخادع الناس بادعاء العلم

(315) نفق: نفاد ورواج.

متعذرة. ويكفي في ذلك قصة لقمان (316) الذي شهد الله له بالحكمة (317) وذلك أنه أراد أن يُرِيَ إبناً له هذه المسألة. فأخرجه إلى السوق ومعهما حمار. فجعلا يسوقانه فقال الناس: إثنان يمشيان. والحمار يمشي بظهره. فقال له: اركب. فقالوا: شيخ يمشي على رجله وابنه راكب. فقال له: انزل وركب هو. فقالوا: رجل راكب وابنه صغير يتبعه. فقال له اركب معي. فقالوا: اثنان على حمار هذا جور. وإنما فعل ذلك ليري ابنه أن السلامة منهم لا تكون[1]. فيقصد الإنسان إلى ما هو اللائق بفعله. وأنا[2] كذلك إنما أفعل ما أمكنني في الوقت ولا أبالي فإني إن كنت في القرى[3] فلا أخلو ممن يقول لو كان في المدينة لكان له وكان، ولو دخلت المدينة فسكنت في حجر كحجر الضبّ فإذا دخلت تدافعت أنا والنساء الأجنبيات بالأكتاف. وإن دعاني من يسأل عن مسألة أو يُشَقِّقْ لوحاً (318) جلست معه في الطريق فقيل: «بَالَكُم بالكم» (319) فحينئذ أهرب أتطلب مسجداً، وعسى أن يكون الوقت ضحوة فتجدها كلها مغلقة (320) فإما سافرنا إلى خارج البلدة، وإما دفعته عني بلا قضاء حاجة. فلا بد
أن يقال/ما أحوجه إلى هذا الضيق وإن جاءني ضيف دفعته وقلت: لا مثوى. 49 س
وإن تحرجت من ذلك أفتاني من تمكن في البخل قبلي وقال: ليس على الفقيه من ضيافة، وحينئذ أحطُّ عن ظهري ثقل ما تحمله الكرام، وأنخرط في سلك

---

1 — خم «تمكن». 2 — في الأصل «فأنا» صوابه من جـ ص 3 — في الأصل «قرى» صوابه من جـ و ص.

---

(316) لقمان بن باعوراء. عاش إلى مبعث داود فلما بعث قطع الفتوى قال ابن عباس: لقمان لم يكن نبيا ولا ملكا ولكن راعيا اسود رزقه الله العتق ورضي قوله ووصيته وحكاها في القرآن وهي من:

(317) قوله تعالى «ولقد آتينا لقمان الحكمة ان اشكر لله...» الآيات من 12 إلى 19 من سورة لقمان. اخباره وحكمه متفرقة في الكتب. انظر تفسير القرطبي ج 14 59 ثمار القلوب ص 97 دائرة المعارف ج 8 370

(318) أي طلب منه أن يشرح له.

(319) صيغة التحذير من «البال» في جمع المخاطب اي «انتباهكم» يرددها في ازقة فاس الضيقة الحمالون الذين ينقلون السلع على ظهور الدواب

(320) تغلق المساجد ابوابها في المغرب بعد صلاة الصبح عند الإنتهاء من قراءة الحزب ولا تفتح إلا بعد الضحى.

اللئام نعوذ بالله من الانحطاط. ولقد كنت باسطت (321) رجلا من أهل الحاضرة رأيت له فهماً فقلت: ما الذي أوجب تقصيركم في الضيافة فقال: لو لم يكن إلاّ تعذر منزل الضيف لكان كافياً. فقلت: والكريم يعطي المال إذا تعذر الإنزال. فلو كان لكم كرم لظهر في السوق بإعطاء الفلوس فقال: لمَّا كانَ الضَّيْقُ نُسي الضيف فاستمر الحال حتى عم البخل في الطعام وغيره. فقلت له صدقت. فهذا من أعظم عيوب الحاضرة. وأما السلطان فلا سلامة له أيضاً. فإن كلفني الحاضرة وأنزلني إليها قصداً قال الناس: قد ظلمه وتعدى عليه. وهيهات كان العلماء يحترمون ويكرمون واليوم يظلمون. وإن تركني فربما قال قائل: لو كان عنده من الإحسان والعطايا ما عند من قبله لاجتمع العلماء عليه. فالذي يخرجه من القول أن يبسط الخير. وحينئذ تأتيه العلماء طوعاً ومن تخلف منهم فلا عيب به.

وقول الكتاب: أو ما تعرف إلا أن تتورع وتقول لا آكل لحرام إلى قوله وأي فرق بين ما نعطيه وما يعطيه أخونا الرشيد أقول: ما ذكرت لأحد قط أني أتورع ولا أني لا آكل الحرام. فإن نقله أحد عني. فليخرج قدامي. وإن كان ظنّاً فالله تعالى يقول: «إِنَّ بَعْضَ الظَّنِ إِثْمٌ» (322). والفرق بين ما يعطى اليوم وبين ما يعطيه مولانا الرشيد أن ذاك موجود وهذا غير موجود لا فرق بينهما غير ذلك. وإلا. فمتى أعطانا السلطان اليوم عطاء فرددناه عليه وقلنا لا نأكل الحرام؟

نعم. كنت في الأول مُتَشَوِّفاً. واليوم لا أتشوف. ووجه ذلك أني كنت إذ ذاك في شباب وصحة. قَوِيّاً على التدريس. وكنت في المدينة لا حرث لي ولا معاش. فعلمت أن لي حقاً في بيت المال بما يجرى الله على يدي[1] من النفع مع وجود الحاجة. واليوم قد جاء الضعف. وتوالي الأمراض. وخفت الحاجة حين نكون في البادية فإنّا نكتفي بالميسور. فغيرى اليوم ممن هو بالحاضرة أولى وأشد حاجة بالعطاء.

---

1 — خم «يده»

---

(321) مازحت

(322) من الآية 12 سورة الحجرات مدنية

ص 50 **وأما قول الكتاب: أي موضع/تقطع السبل وتنهب فيه القوافل إلا تلك المواطن (323) الخ...** أقول: أما رعية السلطان فليس فيها من يرفع يده إلى رأسه لا من أهل البلاد ولا من أهل ملوية. وأما قطع الطريق. فإنما كان في آيت عطا (324) وذلك ديدانهم [1] من قديم الزمان: شِنْشِنَةٌ أعْرِفها من أَخْزَمٍ [2] (325) وما تركوا ذلك قط. ولا دخلوا في الطاعة دخول غيرهم. وإنما يخادعون [3] (326) تارة على التمر. وتارة على الزرع. وسراياهم سارية (في كل أرض) [4] من هاهنا إلى درعة لا في هذه الأرض وحدها. وما تحركوا هنا حتى قضوا الغرض في الصحراء فقتلوا الفقراء «أولاد من لايخاف» (327) خارج النخل. واستباحوا تلك البلد كلها كما بلغكم. فلا يسافر أحد إلا على خطر وكم أغنام نهبت لأهل الرتب (328) وغيرهم وكم قافلة وكم جريح وكم قتيل. وأما هذه البلاد (329) فلم يتحركوا (330) فيها إلا نحو ثلاث مرات أو أربع في ناحية هذه القبيلات الضعاف [5] الذين لم يعرفوا قط بمنعة [6] ولا نجدة. أيام

---

1 — خم «دأبهم». 2 — في الأصل «أخدم» التصحيح من بقية النسخ. 3 — في الأصل «يخذعون» صوابه من جـ و ص. 4 — زيادة من جـ و ص. 5 — جـ «الأضعاف». 6 — في الأصل «منعه» زيادة الباء في جـ خم د ص.

---

(323) يفهم من جواب اليوسي ان الكلام ربما عني به قبائل البربر خصوصا منها قبائل ملوية من ايت يوسي وايت شغروشن وايت علاهم وايت حيون التي غزاها إسماعيل زمن تحرير هذه الرسالة سنة ست وتسعين والف انظر الاستقصا ج 7 ص 68

(324) آيت عطا من برابرة الصحراء. عرفت بالعدوان والغلبة والخروج عن الطاعة انظر الاستقصا ج 7 60 ج 9 67

(325) شنشنة اعرفها من اخزم: الشنشنة الطبيعة والعادة. اخزم بن اي اخزم الطائي انظر خبره في مجمع الامثال ج 1 375

(326) خادعه الحق به انكروه من حيث لا يعلم

(327) اولاد من لاتخاف: اصحاب زاوية من زوايا الصحراء.

(328) اهل الرتب الذي يجمعون ضريبة الترتيب المضروبة على الفلاحين.

329) اظنه يعني مواطن القبائل البربرية المجاورة للزاوية الدلائية حيث يوجد حين تحرير هذه الرسالة

(330) اظن الضمير يعود على ايت عطا.

كانت لهم العدة والخيل. فكيف اليوم وهم عزل محاويج لا طاقة لهم على دفاع ولا امتناع. وليس هؤلاء المحاربون كالسباع. فإن السبع يختل الماشية في الغابة معها صبية[1]. فإذا صاحت الصبية هرب. ولا ترى قط سباعاً تتقدم إلى الأحياء لتأكل أموالها وتفترس رجالها. وأما هؤلاء فيتقدمون بالعساكر. ويتنزلون للطعن[2] والضرب. ولو كانوا يتحركون نهاراً لأمكنت الناس مدافعتهم ولكن يكمنون[3] في قنة الجبل حيث لا يعثر عليهم راع ولا صياد. فإذا أليلوا نزلوا. فلو تقدموا إلى دوار أو أكثر لامتحقوهم نهباً[4] وقتلاً. فإن الدوار تكون فيه أربعون رجلا بين قوي وضعيف وشيخ هرم بلا سلاح. وهؤلاء يأتون بالستين والسبعين وأكثر وأقل. كلهم رماة يقفزون في الهواء ويتضاعفون بالرعب. فهذه القبائل تبقى في حيرة عظيمة إِنْ هَرَبُوا وَجَلَوْا عن بلادهم. ضاعوا وضاعت المطالب السلطانية. ثم لا يُتركون لذلك. وإن بقوا فإن عقدوا مع هؤلاء الظُّلام هدنة إلى أمد ما. أنكر الخدام ذلك وسعوا به إلى السلطان وأنهم اتفقوا مع البغاة فيأمر بعقوبتهم. وإن بقوا بلا شيء أهلكهم اللصوص. فينهبون كل ليلة دواراً. فلا بد للسلطان أن ينظر في أمرهم كيف يصلح. فإنهم رعيته. وهذا الكلام لا مدخل لنا فيه وإنما ذكرناه حيث ذكر في الكتاب تبصرة ونصحاً للسلطان/ونصحاً للرعية والله المستعان. ل 51

وأما قول الكتاب: صدق الصادق المصدوق إلى قوله في البربر لا يجاوز إيمانهم تراقيهم فأقول: هذا بعض معنى الحديث الذي في الصحيح: «وأنه يأتي

---

1 — د «ظبية». 2 — في الأصل «الطعن» صوابه من د. جـ. ص 3 — خم «يكونون».
4 — خم «نسبا».

في آخر الزمان قوم حدثان الأسنان سفهاء الأحلام» (331) الخ ... قد اتفق السلف والخلف فيما علمنا أن الحديث خرج في الخوارج ولم يعرف[1] منهم إلا الذين خرجوا عن علي كرم الله وجهه يوم التحكيم وصار منهم الشُّراةُ[2] والصفرية وسائر النحل[3] واستمرت[4] شوكتهم إلى أن انحسمت في خلافة عبد الملك بن مروان على يد المهلب بن أبي صفرة (332) وأولئك كلهم عرب وليس فيهم بربري واحد. ولا يجوز التحدث عن النبي ﷺ بغير سند معتبر.

وقول الكتاب: فأراك رجلا بربرياً فأقول: نعم هو ذاك في الظاهر. والأصل يعلمه الله. فإن اتقيت الله تعالى لم يحططني نسب. فإن نسب الإنسان طينه وحسبه دينه «أنتم بنو آدم وآدم من تراب» (333) «إن أكرمكم عند الله أتقاكم» (334)

---

1 — في الأصل «يعلم» صوابه من جميع النسخ. 2 — جـ «التراث والصفية» خم «الشداة والصفوية» د أسقط الجملة. 3 — في الأصل العمل صححت بما يناسب السياق. ص «العقد». 4 — خم «واشتهرت».

---

(331) هذا الحديث اخرجه البخاري عن علي بن ابي طالب في «علامات النبوة» «وفضائل القران» مع اختلاف في الزيادة والنقص في المتن والسند ونصه التام الذي في علامات النبوة: قال علي رضي الله عنه إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ فلأن أخر من السماء احب إلي من ان اكذب عليه وإذا حدثتكم فيما بيني وبينكم فإن الحرب خدعة سمعت رسول ﷺ يقول: «يأتي في آخر الزمان قوم حدثان الاسنان سفهاء الاحلام. يقولون من خير البرية يمرقون من الإسلام كما مرق السهم من الرمية. لا يجاوز إيمانهم حناجرهم. فاينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن قتلهم اجر لمن قتلهم يوم القيامة. انظر إرشاد الساري ج 6 59 — 60 م ج 7 486

(332) المهلب بن ابي صفرة ظالم بن سراق ابو سعيد (7هـ — 83هـ) نشا بالبصرة قدم المدينة في ايام عمر ولى إمارة البصرة لمصعب بن الزبير م انتدب لقتال الازارقة.. فاقام يحاربهم تسعة عشر عاما واخيرا تم له الظفر بهم ثم ولاه عبد الملك بن مروان ولاية خراسان. انظر ترجمته ومصادرها في الاعلام ج 8 260

(333) من خطبته ﷺ يوم فتح مكة «...يامعشر قريش إن الله قد اذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء. الناس من آدم وآدم خلق من تراب. م تلا الآية: ياأيها الناس انا خلقناكم... انظر اعجاز القران للباقلاني ص 132 تحقيق احمد صقر.

(334) من الآية 13 سورة الحجرات مدنية

إلى عرق الثَّرى وشَجَتْ عروقي وهذا الموت يسلبني ثيابي(335)

وإن أريد الغدر والوفاء، والخبث والصفاء، فالناس فيه معادن، وقد يوجد فيه من الوفاء عند العجم ما لا يوجد عند العرب اليوم، والتجربة قاضية بذلك

وعين الرضا عن كل عيب كليلة
ولكن عين السخط تبدي المساويا(336)

فبالله، لو لم تكن الاعراب الغربية[1](337) ساكنة في مجال الخيل والبحر من ورائها هل تذعن ذلك الإذعان وقد عرفت حميتها[2] ولا سيما عند استخفاف[3] الدول فكم من عصا شقوا، وكم من ذي أمر اغتالوا. وأما البربر فإنما يغترون[4] أحيانا بالجبال المنيعة، كما يغتر أعراب الصحراء بالمهامه:

فالعُرْبُ منه مع الكُدْرِيِّ طائرة والروم طائرة منه مع الحَجَلِ(338)

---

1 — في الأصل « العربية » التصحيح من جـ و ص. 2 — جـ ص « حيلتها ». 3 — جـ خ م « استحقاق ». 4 — د جـ « يعتزون ».

---

(335) البيت للشاعر امرى القيس من قصيدة له مطلعها:

اراك موضعين لامر غيب ونسحر بالطعام وبالشراب

ورواية البيت الذي في النص جاءت في الديوان كما يلي:

إلى عرق الثرى وشجت عروقي وهذا الموت يسلبني شبابي

عرق الثرى: ادم اصل البشر. وشجت عروقي: اي اشتبكت واتصلت. انظر ديوان امرئ القيس تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ص 97 — 98.

(336) البيت ينسب لعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن ابي طالب كان شاعرا مجيدا. والبيت من قصيدة له قالها في الحسن بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس. انظر الاغاني ج 11 72. ثمار القلوب ص 261. كتاب الحيوان ج 3 488 ويقول فيه وهو قريب من قول الروح ابو همام:

وعين السخط تبصر كل عيب وعين اخي الرضا عن ذاك تعمى

(337) الاعراب الغربية: التي تسكن غرب المغرب في السهول

(338) البيت لابي الطيب المتنبي من قصيدة له في مدح سيف الدولة مطلعها:

أجاب دمعي وما الداعي سوَى طلل دعاه فلباه قبل الركب والإبل

الكدري: ضرب من القطا وهو طير السهل. الحجل: طائر في حجم الحمام وهو يعيش في الجبال.

فالعرب بلادها المفاوز والصحاري. والروم بلادها الجبال. يقول: العرب تفر من بطش سيف الدولة مع القطا في الفلوات. والروم تفر منه مع الحجل في جبالها. انظر ديوان المتنبي تحقيق عبد الرحمان البرقوقي ج 3 198 — 207.

ولم تزل الجبال معاقل اللّائذين بها من القهر. قال الأعرابي (339) :

أَعْرُوا عن الناقة الحمراء رحلكم
والجمل الأصهب المصنوع فاصطنعوا[1]

وقال النابغة: (340)

وحَلَّتْ بيوتي في يَفَاعٍ[2] مُمَنَّع تخال به راعي الحمولة طائرا

إلى أن قال:

حِذَاراً على أن لا تُنَال مقادتي ولا نِسوتي حتى يمتن حرائرا

وقال امرؤ القيس:

كأني إذا نزلتُ على «المُعَلَّى» نزلت على البواذخ من شَمَام (341)
52 فما مَلِكُ العراق على المعلى بمقتدر ولا ملك الشآم(342)
أقرَّ حَشَى امرئ القيس بن حجر بنو تيمٍ[3] مصابيح الظلام(343)

---

1 — في الأصل «للصنوع» «فاصطنعوا» صححت من النسخ الأخرى. 2 — في الأصل «يماع» صوابه من خم جـ ص 3 — د «بنو تميم».

---

(339) وقفت على هذه الابيات في «امالي» القالي ص 7 على هذا النحو :
حلوا عن الناقة الحمراء ارحلكم والبازل الاصهب المعقول فاصطنعوا
ونسبه إلى رجل من تيم كان اسيرا فكتب به إلى قومه

(340) من قصيدة للنابغة مطلعها:
كتمت ليلا بالحمومين ساهرا وهمين هما مستكنا وظاهرا
اليفاع: مرتفع مشرف يحسب الذي به يرعى الإبل طائرا لارتفاعه. المقادة: الغلبة: انظر الديوان ص 133 تحقيق الدكتور شكري فيصل.

(341) هذا مطلع قصيدة لامرئ القيس في مدح المعلَى أحد بني تميم وكان أجاره والمنذر بن ماء السماء يطلبه فمنعه ووفّى له (ديوان امرئ القيس ص 140) البواذخ ج باذخ وهو الشامخ العالي يقول : نزولي على المعلَى لامتناعي به وتحصني كنزولي على أعلَى الجبال.

(342) قوله ملك العراق يعني النعمان بن المنذر . وأباه المنذر بن ماء السماء . وملك الشام هو الحارث بن أبي شمر وهو من ملوك غسان.

(343) يعني أنه أمن فيهم واطمأنت نفسه . ولم تضطرب أحشاؤه فزعاً . بنو تيم : هم رهط المعلى . قوله مصابيح الظلام مدحا لهم لشهرتهم وكرمهم وفضلهم.

وقال ابن الزبير الأسدي: (344)

تخيَّر فإما أن تزور ابن ضابئ(345) عُميراً[1] وإما أن تزور المُهَلَّبَا(346)
هما خطتا خسف نجاؤك منهما ركوبك حَولِيّاً من الثلج أصهبا

وقال أيضا:

أبتْ أجني[2] أن تُسلِمَ العُدْمَ جَارها فمن شاء فلينهض لها من مقاتل

وأول ناكث في هذه الأمة العرب، فإنهم بفور ما سمعوا بوفاة النبي ﷺ ارتدوا ومنعوا الزكاة، وهذا مع النبي ﷺ ووجود خليفته الذي لم تطلع الشمس ولا غربت بعد الأنبياء على مثله، فكيف بغيره. ولا أقول هذا اهتضاماً للعرب وتفضيلا لغيرهم كلا، بل الناس كلهم في هذا المعنى أبناء طبع واحد مَجْبُولُون على التأدي بمن يتحكم عليهم أو يقهرهم [3] أو يطلب منهم دنياهم، وقد قال الله تعالى في حقِ نبيه الذي هو رحمة للعالمين، القائم بالعدل والهدى والدّين: «وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ، إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجَ أَضْغَانَكُمْ» (347). فكل من يسأل الناس أموالهم بالقهر لابد أن يبغضوه[4] وإن كان بغير قهر فلا بد مع التكرار أن يملوه كما قال زهير:

---

1 — في الأصل «عيرا» صوابه من جـ د ص خم «عسيرا» 2 — كذا في الأصل. د «أجلي» جـ «أجيئ». 3 — في الأصل «يغيرهم» التصحيح من جـ و ص 4 — خم «ينقضوه».

---

(344) عبد الله بن الزبير بن الأشيم الأسدي (... — 75هـ) من شعراء الدولة الاموية ومن المتعصبين لها انظر اخباره في الأغاني ج 14/245 تحقيق احسان عباس اثبت القطعة الي من أبيات النص ومطلعها:

اقول لابراهيم ما لقيته ارى الأمر امسى واهيا متشعبا

(345) عمير بن ضابئ من أهل الكوفة رفس عمان وهو مقتول لأنه سجن والده ضابئ حتى مات. فقتله الحجاج انظر الاغاني 14/244.

(346) المهلب بن ابي صفرة كان على قتال الخوارج وقد سبقت ترجمته. الخسف: الذل. الحولي: ما اتى عليه حول.

(347) الآيتان 37 — 38 سورة محمد مدنية

ومن لم يزل يستحمل الناس نفسه
ولا يغنيها يوما من الدهر يُسْأَمِ (348)

وقال غيره:

ولو سئل الناس التراب لأوشكوا
إذا قيل هاتوا أن يَمَلُّوا ويَمْنعوا (349)

والملوك لا ينبغي أن يهملوا هذا الأمر. بل ينبغي أن يكونوا أعرف الناس به. فيعذرون الناس ويكتفون منهم بالطاعة الظاهرة كما تقدم في كلام المهدي. ولا يكلفونهم المحبة والإذعان الباطني. فإن هذا أمر ليس في طوقهم. والله تعالى الذي هو ملك الملوك وله تحق الطاعة والعبادة. وهو العالم بذات الصدور. لم يكلفنا ما لا نطيق. قال الله تعالى: «لا يكلف الله نَفساً إلا وُسْعها»(350) ولم يكلفنا أن نفعل طاعة بطريق المحبة. فلا يلزمنا أن نصلي ولا أن نصوم أو نحج محبة، بل من فعل ذلك مع المحبة كان من المقربين. ومن جاهد نفسه وراغمها خوفاً من الله تعالى. فالله تعالى يُثيبُه ويدخله جنته رحمة منه. مع اطلاعه على ما في قلبه وأنه لم يعبد إلا خوفاً من النار وطمعاً في الجنة. فكيف يمكن للعبد أن يكلف عبداً مثله ما لا يطيق من المحبة[1] حتّى إنه يظل الغواة المتحذلقون[2]
53 بين/يدي الملوك نهارهم يقولون: فلان يحبك يامولاي وفلان

---

1 — خم «المحنة» د «الجنة». 2 — خم «المتخذون» جـ أسقط الكلمة. د «المتخذ».

---

(348) في الديوان :
ومن لا يزل يستحمل الناس نفسه ولم يغنها يوما من الناس يسام
وعلق الشارح : وروى الاصمعي: ولم يغنها يوما من الدهر يسام
وهناك رواية اخرى:
ومن لا يزل يسترحل الناس نفسه ولم يعفها يوما من الذل يندم
شرح ديوان زهير بن ابي سلمى ص 32 تحقيق الإمام ابو العباس احمد بن يحى الشيباني
(349) هذا البيت انشده ثعلب في «اماليه» عن ابن الاعرابي ولم ينسبه لأحد وقبله:
ابا مالك لا تسال الناس والتمس بكفيك فضل الله والله واسع
تاج العروس الجزء 191/7 مادة «وشك».
(350) الآية 285 سورة البقرة مدنية.

يبغض[1] وذَوُوا فلان لولا السيف لم يخدموا. وذووا فلان لولا مايطمعون من كذا لم يخدموا. وذووا فلان هم المحبون المخلصون. يحبونك يامولاي طوعاً. فهذه كلها زخارف من القول يضحك منها العقل. وعقلاء الملوك لا يلتفتون لمثل هذا لمعرفتهم بالحقائق التي قررناها. فالناس إنما يخدمون الملوك خوفاً أو طمعاً. وذلك الخوف يغني عن المحبة. بل سوطه[2] أقوى. ولذلك لما سجن الحجاج القَبَعْثَرَى (351) وكان من البلغاء. قال الحجاجْ ذات يوم. اليوم يكذب القبعثريَّ. عليَّ به فأُخْرِجَ من السجن فإذا هو صالح الجسم[3] فقال له قد سمنت ياقبعثري. فقال: القيد والرتعة (352) ومن يكن ضيف الأمير يسمن. ثم قال له أتحبني ياقبعثري وقدر الحجاج في فكره أنه يقول: نعم خوفاً فيكذب فقال القبعثري أو فرق خير من حب (353) يريد إني لا يخلو حالي من أن أحبك أو أفرق أي أخاف منك والخوف خير من حبي. وأنى بأو الإبهامية (354) فصدق. اذ لا يخلو عن واحد من الأمرين. والسلطان كذلك الفَرَقْ منه خير من حبه. ولذلك قيل في المثل: رهبوت خير من رحموت (355) فلو سمع السلطان

---

1 — في الأصل « بغيض » صوابه من جـ و ص خم « يبغضك » د « ينقض ». 2 — خم « شرطه ».
3 — جـ اسقاط الجملة: « قال الحجاج — صالح الجسم ».

---

(351) لم أقف له على ترجمة

(352) المثل: القيد والرتعة قاله عمر بن الصعق وكانت قبيلة من همدان اسرته فلما وصل إلى قومه قالوا اي عمروخرجت من عندنا نحيفا وانت اليوم بادن فقال القيد والرتعة اي الحصب ولا يعدم شيئا يريده (القاموس)

(353) يقال في المثل: فرق خير من حب اي ان يهاب خير من ان يحب الميداني ج 1/300

(354) «أو»: يكون في أغلب استعمالاته عاطفا فيعطف المفردات والجمل ولهذا الحرف معان واردة قياسية تحددها السياق وحده: فمن معانيه:—
— الإباحة والتخيير: تابع هذه الدراسة او تلك
— الشك: قضيت هنا ساعة أو ساعتين
— الإبهام من المتكلم إلى المخاطب شرط أن يكون قبله جملة خبرية وهو ما أشار إليه اليوسي في النص.
ومن معانيه التفصيل بعد الإجمال والإضراب ومعنى الواو.

(355) أي لأن ترهب خير من أن ترحم الميداني ج 1/300.

أحداً يتكلم بما يقتضي بغضاً أو تبريماً بالدولة أو يفعل ذلك. ورفع إليه ذلك. فلا ينبغي أن يعاقبه لأنه يعلم أن الناس كلهم أو جلهم كذلك. نعم من أعلى ذلك أفشاه في الناس فهو يستحق. والناس متحببون[1] ومضطرون للحب رغبة ورهبة. فلا يدل قربهم ولا خدمتهم. ولا تأدبهم. ولا تملقهم على المحبة المطلوبة كما لا يدل البعد والتجافي على البغض المحذور. فالناس أبناء حاجاتهم. فلا فرق بين متقرب لطلب حاجته ومتباعد لعدم طلبها. بل ولا من أَحَبَّ لِأَجل الحاجة. ومن لم يحب لعدمها والله الموفق.

ومن أراد محبة الناس فليزرعها فيهم «بالعدل والإحسان» (356) كما قال الله تعالى. وقد «جلبت القلوب على حب من أحسن إليها» الحديث (357).

وأما قول الكتاب: وعرض عليك القضاء فأبيت وهربت لتدريس العلم فاشترط عليك بفاس فأقول: ليس كذلك وقع. والخائضون في القيل[2] والقال يكذبون. وما ينبغي التكلم ولا سيما في مجالس أولى الأمر إلَّا بعد التثبت وفي الحديث: «حسب الرجل من الكذب أن يحدث بكل ما سمع» (358) أو كما قال ﷺ. وإنما صورة القضية أنه وقع تشاجر بين القاضي والمفتي بين يديه فعزلهما معاً وأنا غائب عن ذلك المجلس. فلما وقع/ذلك تكلم في شأني وسأل الحاضرين هل أقبل الفتوى والقضاء فقال الحاضرون كسيدي عبد المالك (359). أما القضاء فلا يقبله بوجه ولا بحال. وأما الفتوى فليس فيها

54

---

1 — في الأصل «يتحببون» صوابه من جميع النسخ 2 — في الأصل «القول» صوابه من جـ و ص.

---

(356) تضمن لجزء من الآية الكريمة 90 سورة النحل

(357) سبق تخريج هذا الحديث

(358) الحديث: كفى بالمرء كذبا ان يحدث بكل ما سمع رواه مسلم من حديث ابي هريرة. انظر مشكاة المصابيح ج 1 55.

(359) هو عبد المالك التجمعي ابو مروان (... 1118هـ) كان إماما محدثا خطيبا ولى قضاء سجلماسة كانت له وجاهة عند السلطان. وكانت له منازعات علمية مع اليوسي خصوصا في موضوع العلم النبوي انظر اخباره في الدر المنضد الفاخر مخطوطة الخزانة العامة بالرباط رقم د 1584 ونشر المثاني ج 2 وفهرس الفهارس لعبد الحي الكتاني ص 184.

مضرة. إنما فيها زيادة علم. فلما حضرت من الغد. خاطبني بكلام لطيف وقال يافلان هل تقوم لنا بهذه الفتوى؟ فاعتذرت له بنوازل قد ألقت برأسي[1] تمنعني من كثرة السهر والمطالعة. فأمسك ولم يزد. ولم أهرب له للتدريس. ولا شرطه عليَّ في فاس ولا غيرها. ولا أسمعني كلمة موحشة. على أنه لو شرط التدريس بفاس لم يلزم. فإن كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل. شرط الله أحسن وأوثق. وما يُذْكَرُ عن بعض الفقهاء من أن جميع فروض الكفاية تتعين بتعيّن الإمام. لا يصح التعلق به في هذا المحل لوجهين: **أحدهما** أن ذلك مشروط بالصلاحية والإمكان كما هو شأن سائر التكاليف. والإمكان في مسألتنا أن يكون المدرس مكفي[2] المؤونات من بيت المال مسكناً ومأكلاً ومشرباً ومبساً وغير ذلك في نفسه. وفيمن تعلق به ليتأتي تفرغه للنظر والإملاء. وهذا كان منه شيء في حياة السلطان المذكور. فلما مات انقطع البتة. **الثاني**: أن يُنْظَرَ أي شيء هنا هو فرض الكفاية. فإن القيام بالعلم الذي هو المطلوب في الجملة. إما أن يكون بمجرد الإخبار بالأحكام الشرعية وهو الفتوى. فقد قام به المنصوب للفتوى. وأما أن يكون بالإخبار بذلك على وجه الإلزام. وهو القضاء. فقد قام به القضاة. وتبقى صورتان الأولى: تعلم العلم وتجديده ليتصل سنده ولا ينقطع. الثانية: تقرير قواعده ومسائله والتخلص من إشكال المُشْكِل من ذلك على قدر الطاقة. وكلتاهما تحصل بالتدريس المعهود بالسؤال والجواب. والتصنيف. فلا يتعين التدريس للفرضية الكفائية اذ هو واحد من أشياء لا بعينه. فتعينه بالشرطية شرط باطل.

وقد علم من أحوال الأئمة كما ذكرنا في غير هذا المحل أن منهم من كان دأبه الاشتغال بالتصنيف دون التدريس. وعلم في عصر الصحابة إنه لم يكن هذا التدريس المعهود ولا التأليف. وإنما هو السؤال والجواب. والخطبة والموعظة ونحو ذلك من ضروب لإرشاد. ثم مع هذا كله التقييد بالمحل المخصوص ليس داخلا في مفهوم الفرض الكفائي قطعاً. فإن المراد هنا أن كل قطر يشق الوصول منه إلى غيره/كقطر الغرب مثلا. لابد أن يكون فيه من يقوم بهذا الشأن. وليكن ص 55

---

1 — د «القيت». 2 — في الأصل «يكفي».

في أي موضع كان. إما في مصر أو قرية أو بادية عمود. أو جزيرة في البحر فمن أراده ركب إليه. ومن أراد أن يعين ذلك بفاس أو في موضع آخر مثلا فقد أخطأ. وإن شَرَطَهُ فشرطُه باطل. ولاسيما في مسألتنا[1] (فانه)[2] لا يشتغل بها إلا خصوص الناس. وفيها تضرب أكباد الإبل. أما المنتصب لفتوى العامة في الأحكام الشرعية. فالأفضل له أن يكون بين ظُهرانيهم بحيث يصل إليه المسكين والضعيف. والشيخ الهرم والعجوز. وهو من باب الرفق والإحسان بالناس. وهو محبوب شرعاً مع الإمكان. وكذا العالم على الجملة ينبغي له ذلك مع الإمكان[3] وإن لم يجب. ولكن لا يختص ذلك بالحاضرة. فإن أهل البادية أحوج. فـ: «الأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْراً ونِفَاقاً. وأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ» (360) فالاعتناء بهم أهم. وإن منهم من يكون التعليم في حقه كأنه تبليغ الدعوة من أهلها. فيعظم أجر القائم به. وبالجملة فالحاضرة لا تتعين للاستقرار لا في صاحب الفتاوى. ولا صاحب التدريس. **أما الأول** فَلِتَعَلُّقِ عامة الناس به لا أهل الحاضرة فقط. **وأما الثاني**: فكذلك وإن روعي أن المشتغلين به في الحاضرة بحسب العادة أكثر فلا يضر. لأن شأن العلم الرحلة. فقل أن يظفر به من لم يرحل إليه. والله المستعان. وأما وجوب التعليم على العالم على ما ذكره الشيخ أبو حامد في «الإحياء» من أنه يجب على العالم أن يعلم من حوله ثم ينتقل إلى من ورائهم وهكذا حتى لا يبقى على وجه الأرض جاهل بدينه. فهذا أمر متعذر متعطل كما تعطلت أمور دينية لتعذر أسبابها. وما أظن أن أحداً قط اشتغل به ولقد ذاكرت به بعض أشياخنا رحمهم الله. فجنح إلى الاعتذار بتعذر ذلك من عدم الاستطاعة حتى في القوت[4] فإن العالم محتاج إلى كفاية تكون معه. وإلا تعلق بالناس فوضع في كلفة أو شبهة وأنا أقول: إنه متعذر من كل جهة. فإنه لو اشتغل به أحد اليوم لاتهمه أهل الرياسة بطلب الدنيا وطلب الظهور فيها. فرموه بكل عظيمة.

---

(360) الآية 98 سورة التوبة مدنية

وقد رأينا اليوم صاحب العلم يبتلى منهم (بالإذاية)[1] وهو جالس بيته على مجرد حضور من يسأله أو يشاوره في دينه. فكيف لو خرج إلى الناس وجعل
56 يستقرئ القرى والقبائل. ولابد إذ ذاك من أن يعظم ويجزى ويبجل/ويكرم وذلك مصلوب شرعاً. فإن من علمك من القرآن حرفاً فهو مولاك. والمولى مخدوم. ولأن المكافأة لازمة فقد قال ﷺ: «من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه» (361) وأي معروف أعظم من فائدة دينية يعرف بها ربه أو يقرب بها من الجنة أو يبعد بها من النار. فلو خدمه[2] عمر الدنيا ما أدى شيئاً من حقه. فإذا أكرم واتبع فكيف يكون حاله مع أبناء الدنيا الغيارين عليها أشد من غيرة النساء على الرجال. والرجال على النساء. الظانين بكل واحد ما في قلوبهم من حب الدنيا والكدح لها. نعم قد يكون بعض ذلك أحياناً بمعونة أهل الأمر المنتبهين[3] إلى الخير أو غيرهم من أهل الدّين كعبد الله بن مسعود (362) حين بعثه أمير المؤمنين عمر رضي الله عنها لأهل العراق. وكلسان الأمة القاضي أبي بكر

---

1 — زيادة من جـ. 2 — في الأصل «خدم» صوابه من جـ و ص. 3 — د «المنتصبين».

---

(361) جزء من حديث اخرجه البيهقي عن ابن عمر: «من استعاذكم بالله فاعيذوه. ومن سالكم بالله فاعطوه ومن اسدى اليكم معروفا فكافئوه فإن لم تجدوا فادعوا له» انظر المغني بذيل الاحياء ج 1 223

(362) عبد الله بن مسعود ابو عبد الرحمان الهذلي (... 32هـ) صحابي من اكابرهم فضلا وعقلا وقربا من رسول الله ﷺ من اهل مكة ومن السابقين للإسلام كان خادم رسول الله وصاحب سره ورفيقه في حله وترحاله وغزواته ولي بعد وفاة النبي ﷺ مال بيت الكوفة. انظر ترجمته ومصادرها في الاعلام ج 4 280.

الباقلاني (363) حين بعثه صاحب وقته (364) إلى الروم ليناظرهم. وكالفقيه عبد الله بن ياسين (365) حين بعثه شيخه واجاج ابن زلو (366) عن إشارة شيخه أبي عمران الفاسي (367) إلى أعراب الصحراء فعلمهم ونفعهم الله به. فخرجوا من الجهل المفرط وضياع الدين. فصاروا متعبدين مجتهدين مرابطين مجاهدين. حماة الإسلام وأهله. وهذا أيضاً كما تراه غير مختص بالحواضر بل هو في البوادي أوكد وأفيد. وأما الحواضر فهي غالباً مكتفية بمن فيها من طلبة العلم ولا تخلو غالبا عن ذلك والله المستعان.

وقول الكتاب: نحن بالله وشريعة الله معك (368) اقول: أنا الذي أقول هذا وأطلبه لو أجده. وأما السلطان اليوم ففي يده الشريعة وغيرها فما شاء فعل فيّ وفي غيري شرعاً كان أو غيره. إن سبق به القضاء وأما أنا فلو وجدت شريعة

---

(363) القاضي ابو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (338هـ/403هـ) من كبار علماء الكلام على مذهب أهل السنة. انتهت إليه رئاسة المالكيين بالعراق. كان جيد الاستنباط. سريع الجواب. صنف كتبا كثيرة منها «اعجاز القرآن» مطبوع «والإنصاف» مطبوع وغيرها. انظر أخباره في تاريخ بغداد ج 5/379. وفي وفيات الاعيان ج 1/481. وشجرة النور الزكية ص 92 الأعلام ج 7/46.

(364) وجهه عضد الدولة العباسي سفيرا عنه إلى ملك الروم فجرت له في القسطنطينية مناظرات مع علماء النصرانية بين يدي ملكها. انظر مقدمة كتاب «اعجاز القرآن» للباقلاني تحقيق أحمد صقر سلسلة ذخائر العرب طبعة دار المعارف.

(365) عبد الله بن ياسين الجزولي (...هـ/451هـ) من حداق طلبة واجاج بمدينة نفيس ومن أهل الدين والورع والسياسة مشاركا في العلوم خرج مع يحيى بن ابراهيم الكدالي إلى قبائل كدالة ولمتونة بالصحراء فشرع يعلمهم ويقيم بهم رسم الدين حتى ظهر واسس دولة المرابطين. انظر الاستقصا ج 2/7 — 19

(366) واجاج بن زلو اللمطي (388 هـ؟) من اهل السوس الأقصى رجل إلى القيروان وأخذ عن ابي عمران الفاسي ثم عاد إلى السوس بمدينة نفيس وبنى بها دارا سماها دار المرابطين لطلبة العلم وقراء القرآن وكان المصامدة يزورنه ويتبركون بدعائه وهو أستاذ عبد الله بن ياسين مؤسس دولة المرابطين الاستقصا ج 2/7

(367) موسى بن عيسى بن ابي حجاج الغفجومي ابو عمران الفاسي (367هـ — 430هـ) شيخ المالكية بالقيروان نسبه إلى غفجوم فخد من زناتة. واصله من فاس. زار الأندلس والمشرق وصنف «التعاليق على المدونة» ولم يكمله و «الفهرست» انظر ترجمته ومصادرها في الأعلام ج 8/278.

(368) تركيب ماخوذ من العربية الدارجة المغربية ويقال عند الخصام إذا اراد احد الخصمين ان يبرئ مذمته. (حقه وحرمته)

الله لم احتج إلى شيء من هذا الكلام. فو الله ما أعلم حداً[1] أتيته ثابتاً عند السلطان. فيطالبني بإقامته عليّ. ولا جناية على أحد في مال ولا نفس. ولا أنا عبد آبق ولا رام؟ ولا فارس هربت براتب السلطان ولا عامل يُبْقِي على حساب الجباية. فأي شيء يطالبني السلطان بشريعة الله؟ أما كون علمي حجة لي أو على عند الله تعالى. فالأمر إلى الله تعالى. والتعليم اشتغلت به جهد طاقتي ولو لم اشتغل به لم أقبض به لأنه كفاية لا فرض عين. فأي شيء ثبت عليّ شرعاً يامعشر المسلمين حتى أطالب فيه! وقد اعترفت على نفسي بطاعة السلطان.
57 وجعلت يدي مع أيدي المسلمين. لم أنازع/ولم أخالف ولم أحارب. ولم أخلط. وهذا القدر هو المطلوب من الطاعة. أما ما خرج عن ذلك كخروج أحد من داره أو بلده أو لزومه[2] بلداً أو لزومه جهة. أو انتقاله من موضع إلى موضع. فلا مدخل له في الطاعة. لأن السلطان خليفة الله في الأرض. فليس له أن يكلف العباد إلاّ بما كلفهم الله تعالى إما وجوباً بأن يقول صلّوا. زكّوا. حجّوا جاهدوا. وأما ندباً: بأن يقول تصدقوا. تَنَفَّلوا. الأول على سبيل الإلزام فمن لم يفعله عاقبه أو قتله[3] عنه[4]. والثاني على سبيل الترغيب. ومن لم يفعل فلا عقاب عليه. وما خرج عن هذا فإن كان منهياً عنه شرعاً فليس له أن يأمره به. وإن كان مباحاً فله أن يطلبه خيرية. فإن لم يفعل فلا عقوبة عليه فلو قال لأحد طلق زوجتك. أو بع جاريتك. أواعتق عبدك. أو تصدق بثلث مالك على فلان. أو اخرج من دارك أو اخرج من بلدك وارحل إلى بلد كذا. أو اسكن في موضع كذا. لم يلزمه من ذلك لأن الشرع لم يكلفه به. ومن كلفه به فهو معتد وليس بخليفة الله بل هو تابع لشهواته مخالف للشريعة فإن لم يفعل ذلك فليس للسلطان أن يعاقبه. ولا أن يقول له: قد عصيتني وأين طاعة أولى الأمر. فإن المعصية لا تكون إلا حيث تجب الطاعة وهذا الوجه لا تجب فيه الطاعة فلا معصية. وقوله تعالى: «وأطِيعُوا الرسولَ وأولي الأمرِ مِنْكُم» (369) اختلف فيه

---

1 — في الأصل «أحدا» صوابه من ص. 2 — جـ «نزوله». 3 — في الأصل «فعله» صححت من جـ 4 — في الأصل «منه» صححت من ص.

---

(369) من الآية 58 سورة النساء مدنية

المفسرون فذهب كثير إلى أن أولي الأمر هم العلماء لأن في أيديهم أمر الشريعة ونهيها. فيجب اتّباعهم وهذا كما في الآية الأخرى «وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ»(370) وقيل لهم أمراء السرايا عند النبي ﷺ، وقيل هم السلاطين وهذا القول منسوب إلى علي كرم الله وجهه قال: إن هذه الآية مقيدة بالتي قبلها وهو قوله تعالى: «إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالعَدْلِ» (371). فأولوا الأمر تجب طاعتهم أي إذا حكموا بالعدل وذلك أن يأمروا بما أمر الله به وينهوا عما نهى الله عنه كما قلنا أولا. وهذا أمر واضح. ولكن يقع فيه للملوك ولكثير من الناس الغلط وذلك مما يسمعون من/الفقهاء في المسألة. فإن السلطان 58
لو أمر أحداً مثلا أن يحضر عنده أو يخرج من بلده (أو يبيع داره أو نحو ذلك)[1] مما تقدم. فإن ذلك المأمور إن صح[2] في اعتقاده أنه إن لم يفعل ذلك توجهت إليه الإذاية[3] في نفسه أو ماله أو حريمه أو ما يتعلق به فإنه يجب عليه أن يفعل ذلك دفعاً للظلم عن نفسه ومن معه. وتقية. ولا يجوز له أن يعرض نفسه للهلاك اللهم إلا أن يكون من المتجردين عن الأسباب المتوكلين على الله تعالى فلا يجب عليه وأمره إلى الله تعالى. فإذا فرض من أهل الاسباب وقلنا إنه يجب عليه الامتثال تقية فربما يخاطبه الفقهاء فيقولون: يجب عليك امتثال أمر السلطان أو تجب عليك طاعته أو يخاصمونه فيقولون: لم لا تمتثل أمر السلطان فيسمع السلطان ذلك فيغلط[4] ويظن أنهم إنما قالوا ذلك لكون (الحق ثابتاً)[5] على هذا الشخص للسلطان في امتثال أمره. وإن للسُّلطانِ عليه حجة شرعاً. وليس ذلك كذلك. فإن هذا الشخص إنما وجب عليه ذلك بينه وبين الله تعالى على سبيل الحفظ لنفسه ودفع الأذى عنها. كما لو لقي سَبُعاً وجب عليه أن يحتال حتى يخرج من هلاكه ولا حق للسبع. وكذا السلطان هاهنا لا حق له ولا حجة له بل الحجة عليه. فإذا فهم هذا فهمت مسألتي. فإنها داخلة في

---

1 — محو في الأصل اثبت التصحيح من جميع النسخ. 2 — في الأصل «لم يصح» صوابه من جـ و ص. 3 — محو في الأصل في بعض حروف «الاذاية» صححت من بقية النسخ. 4 — خم «فليغلط» 5 — محو في الأصل اثبت ما في سائر النسخ.

---

(370) من الآية 82 سورة النساء مدنية

(371) من الآية 57 سورة النساء مدنية

الأمثلة. وعُلم إذاً أنّي (أنا)[1] الذي يحِقّ لي أن أطالب بالشريعة لو كنت أجدها وهذا الذي ذكرنا إنما هو ما يحق شرعاً حين يسأل عن الشرع. وأما السمع والطاعة للأمراء كيف ما كانوا فمطلوبة من الناس شرعاً (372) فمن كان عدلا فحق له ذلك. ومن لم يكن له ذلك. فطلباً للمصلحة. وحفظاً للنظام ودفعاً للفتنة. وارتكاباً لأخف الضررين. فيجب السمع والطاعة ولو تأمر عبد حبشي (373) كما في الحديث.

وأما قول الكتاب: وإن قلت بأن هذا حرام رأساً. وإن القبائل لا يجب عليها أن تعطي شيئاً أصلا فبيّن لنا ذلك الخ... فأقول: لا شك أنه يجب على أهل العلم أن يتكلموا على الحق ويبينوا الحلال والحرام ولكن فيما يظن قبوله. ولا يخشى عليه فتنة. أما مالا يقبل. وتقع الفتنة به فساقط عنهم. وقد كان يحى بن يحى الليثي (374) سأل الإمام مالكاً رضي الله عنهما عن الفتن التي تقع في
ص 59 الأندلس/فلم يجبه فقال أنا رسولٌ منْ ورائي[2] فقال: دع عنك هذا وإني لك من الناصحين. فهذا الإمام أمسك عما نخشى فيه الفتنة وهو بالحجاز. في حرم (المدينة. فكيف بمن كان بين ذراعي)[3] وجبهة الأسد. فنقول: إن الكلام في

---

1 — زيادة من جميع النسخ.
2 — خم «مرسول». 3 — محو في الأصل اثبت ما في سائر النسخ.

---

(372) إشارة الى الحديث الذي ورد في شرح الاربعين حديثا النووية : سال مسلم بن يزيد الجعفي رسول الله (ص) فقال : يا نبي الله ارايت إن قامت علينا امراء يسالوننا حقهم ويمنعوننا حقنا فما تامرنا ؟ فاعرض عنه . ثم ساله فقال : « اسمعوا واطيعوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم » انظر الاربعين حديثا النووية ص 234

(373) الحديث «اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة» أخرجه البخاري من حديث أنس كما رواه ابو داود والترمذي عن العرباض انظر إرشاد الساري ج 10 219

(374) يحيى بن يحى بن عيسى الليثي (152هـ 234هـ) عالم الاندلس في عصره بربري الأصل من قبيلة مصمودة من طنجة. فرا بقرطبة ورحل إلى المشرق سمع الموطا من الإمام مالك انظر ترجمته ومصادرها في الاعلام ج 9 223

مسألة الكتاب لا تكون لنا ولا لأحد غيرنا. وقد انقضى الكلام عنها[1] منذ ذهب الخلفاء الراشدون. وذلك أن الله بعث نبيه ﷺ بالهدى والدين. فتوفاه[2] إلى كرامته وترك أصحابه على المحجة البيضاء علماً وحلماً[3]. أتقياء أصفياء. لا يزيغون عن الحق. ولايبغون به بدلاً. متواضعين متناصحين. أذلة على المومنين. أعزة على الكافرين «أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ» (375) كما وصفهم الله تعالى يعتدلون في الحق. شريفهم ومشروفهم. أميرهم ومأمورهم. من قال الحق سمعوا منه رجلا أو امرأة (حرّاً أو عبداً)[4] ومن أخطأ الحق ردوه إليه كبيراً أو صغيراً. فكان الخليفة منهم يشاور العلماء. ويصدر عن رأيهم ويقف عند حد الشرع الثابت. ومن خاطبه بالحق قبل منه بلا أنفة ولا إذاية. فكان علماء الصحابة يتكلمون بالحق ويجاهرون[5] به الخلفاء ولا يخشون منهم إلا المجازاة بخير. فلما انقضت الخلافة. وجاء الملك وتبدلت السيرة المحمدية كسروية وقيصرية. وقامت الشهوة مقام الحق. والجبروت مكان التواضع. أمسك العلماء وهربوا. وطلبوا نجاة أنفسهم والكلام في هذا يطول ولا حاجة إليه. فمن أراد اليوم من الملوك أن ينصح لنفسه فليفعل ما فعله عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه. فإنه لم يأت حتى كانت ملكاً وجبروتاً فجاهد في الله حق جهاده حتى ردها إلى السيرة الأولى. فكان أول ما فرغ من دفن صاحبه سليمان بن عبد الملك (376) وكان استخلفه. سمع للأرض رجفة[6] فقال ما هذا؟

---

1 — خم «عنا». 2 — في الأصل «متوفية» صوابه من جـ و ص خم. 3 — في الأصل «علماء» «حلماء» صوابه من ج و ص. 4 — زيادة من ص جـ خم 5 — د «يجاهدون». 6 — في الأصل «وجبة» التصحيح من خم د

---

(375) من الآية 29 سورة الفتح

(376) سليمان بن عبد الملك (54هـ 99هـ) خليفة اموي احسن إلى الناس كان عاقلا طموحا إلى الفتح في عهده فتحت جرجان وطبرستان انظر ترجمته ومصادرها في الأعلام ج 3 192

قالوا: هذه مراكب الملك[1] لتركب قال: اصرفوها عني فإنما أنا واحدٌ من المسلمين (وهلم بغلتي. فركب عليها وسار. فإذا بصاحب الشرطة يسعى بين يديه. فقال له تَنَحَّ عنِّي فإنما أنا واحد من المسلمين.)[2] فلما دخل صعد المنبر. واجتمع الناس فقال: إن سليمان قد قلدني هذا الأمر. ولا حاجة لي به. وقد جعلتكم مني في حل فانظروا لأنفسكم من ترضون. فصاح الناس صيحة واحدة: «رضينا بك رضينا بك» فلما هدأت الأصوات خطب وبين للناس معالم الدين ثم قال بالأخيرة[3]: أطيعوني ما أطعت الله. فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم. ثم نزل
60 فذهب ليدخل/الدار فقال له ابنه عبد الملك رضي الله عنه وكان شديداً في الدين[4]: يا أبت ما تريد أن تفعل؟ قال: يابني (أريد)[5] القيلولة فإني قد سَهِدْتُ[6] في هذا الأمر وتعبت قال يا أبت وأين حقوق الناس بالباب؟ قال يابني إلى الظهر قال: ومن لك بأن تعيش إلى الظهر؟ فأخذه وقبل ما بين عينيه وقال: الحمد لله الذي أخرج مني من يعينني على ديني[7] وانطلق ولم يَقِل. ونادى: من كان له حق فليأتنا. فكان يرد على الناس ضياعهم وأملاكهم التي أخذها الملوك قبله. وينصف المظلوم من الظالم. ويتَّبع الحق ولا يَزِلُّ عنه. ولا يخشى أحد بين يديه طغياناً ولا حيفاً. على سيرة أهل العدل. ففاز برضا الله ورضا الناس. وقد اتفق العلماء على حسن سيرته. وأخذوا بأقواله وأفعاله. وسئل الإمام مالك هل يقاتل دون الإمام إن قام عليه آخر فقال: إن كان كعمر بن عبد العزيز فنعم. وإلا فدعوه ينتقم الله من الظالم بالظالم حتى ينتقم من الجميع.

فمن أراد أن يسلك هذه المحجة فليؤسس بنيانه على الشرع من أول. فإذا عُرِف منه الجد في ذلك وجب نصحه. ومن لم يبلغ هذا المبلغ من نفسه فلا أقل أن يتشبه بالملوك الأولين. قرباء العهد بالدين. فإنهم كانوا يستبصرون في كثير من الأمور. ويسمعون الحق ويجنحون إلى الإنصاف. فهذا أبو جعفر

---

1 — جـ «الملوك». 2 — زيادة من ج و ص. 3 — ص «بالآخرة». 4 — جـ ص: «وكان له مكانة في الدين» خم «فقيها في الدين». 5 — محو في الأصل أثبت ما في النسخ. 6 — ص د «سهرت». 7 — أسقط «ديني».

المنصور (377). وهو معروف بالغلظة وسفك الدماء. يُسعى عنده بشيخ أظنه من أهل الشام. وأنه عنده ذخائر بني أمية فأتي به. فلما دخل إليه وجلس قال له: أيها الشيخ. قد عرفنا ما عندك من أموال بني أمية فقال له الشيخ: يا أمير المؤمنين أنت وارث بني أمية؟ قال: لا قال: فأنت وصيهم على أموالهم. قال: لا قال: فما سؤالك عما بيدي من أموالهم؟ فتوقف أبو جعفر وتحير ساعة ثم قال: هي أموال المسلمين وأنا وكيلهم. فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين. إن لبني أمية أموالا غير أموال المسلمين. فمن يشهد بأن الذي عندى من أموال المسلمين. لا (من)[1] أموالهم. فقال أبو جعفر: صدق الشيخ. يا ربيع[2] إن لبني أمية أموالا. ثم قال أطلقوه. فأطلق فقال له: اطلب حاجتك. فقال: حاجتي أن أرد إلى أهلي قال نعم. وأن يجمع بيني وبين خصمي أي الذي سعى بي. فقال هلم خصمه. فأتي به فإذا هو عبده فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين هذا مملوكي سرق مِن مالي أربعة آلاف دينار. فخاف أن أعاقبه فجاء ليسعى بي. لأشتغل
61 عنه فهدد العبد فاعترف/فقال الشيخ: اِشهد يا أمير المؤمنين أني أعتقه. ووهبت له ذلك المال وأزيده مثله. ووالله يا أمير المؤمنين ما عندي قِيراطٌ من أموال بني أمية. فقال له أبو جعفر: فهلا قلت ذلك أولا. قال (قد علمت أني لا ينجيني إلا صميم الحق)[3] فكان أبو جعفر يتعجب منه. فانظر إلى أبي جعفر كيف سمع هذه المحاجة[4] وكيف رأى الرجل قد أعتق العبد وأعطاه ثمانية آلاف. وذاك (دليل الثروة)[5] العظيمة فلم يحركه في أن يحتال عليه في استنزال المال منه. فهذه حالة الملوك أرباب الهمم. وفي الخبر: «أول هذا الأمر نبوة ثم خلافة. ثم ملك.

---

1 — زيادة في ص. 2 — في الأصل « رفيع » صوابه من جميع النسخ. 3 — محو في الأصل أثبت ما في سائر النسخ 4 — في الأصل « الحاجة » صوابه من جـ و ص. 5 — محو في الأصل أثبت ما في بقية النسخ

---

(377) عبد الله بن محمد أبو جعفر المنصور العباسي (95هـ/158هـ) ثاني خلفاء بني العباس. وأول من عني بالعلوم من ملوك العرب. كان عارفا بالفقه والأدب. مقدما في الفلسفة والفلك. محبا للعلماء ولي الخلافة سنة 136 بعد وفاة أخيه السفاح. أنظر ترجمته ومصادرها في الاعلام ج 4 259

ثم عتو وفساد في الأرض» (378) فمن لم يوفق أن يكون من الخلفاء فليكن من الملوك. ولا يكون من أهل العتو والفساد. ثم من وفقه الله للحق فذلك. ومن ابتلى بالشهوة فليعترف بها:

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر
ولا تسقني سرّاً إذا أمكن الجهر
وبح باسم من تهوى ودعني من الكنا
ولا خير في اللذات من دونها ستر(379)

غيره :

إن تكن ناسكا فكن كأويس(380) أو تكن فاتكاً فكن كابن هاني

والصدق فضيلة. فمن أتى الخطيئة معترفاً فهي خطيئة واحدة. ومن أتاها موهماً أنها حسنة فهما خطيئتان إحداهما وهي جعل ما ليس بشرع شرعاً، قريبة من الكفر عياذاً بالله، ولم يزل أهل الفضل والعدل يعترفون على أنفسهم بالتقصير ويشفقون على أنفسهم. كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يقول: لولا علي لهلك عمر، وقال يوم احتضر لو أن لي طِلَاع(381) الأرض ذهباً لافتديت به من عذاب الله قبل أن أراه وأنشأ يقول:

وأوعدني كعب ثلاثا أعدها ولاشك أن القول ما قاله كعب
وما بي حذار الموت إني لميت ولكن حذار الذنب يتبعه الذنب

وجاء رجل إلى عمر بن عبد العزيز فقال: رأيت كأن القيامة قد قامت وذكر أبا بكر وعمر وعثمان وعليّاً. وأنهم نجوا قال: ثم دعى علي ومعاوية فإذا بعلي

---

(378) لم أقف على هذا الخبر في كتب الحديث التي بين يدي
(379) الأبيات مشهورة لأبي نواس
(380) أويس يعني: أويس القرني (... 37هـ) أحد النساك العباد المقدمين من سادات التابعين أصله من اليمن يسكن القفار والرمل أدرك حياة النبي ﷺ ولم يره فوفد على عمر بن الخطاب ثم سكن الكوفة شهد وقعة صفين مع علي ويرجح الكثيرون أنه قتل فيها أنظر ترجمته ومصادرها في الأعلام ج 1/375.
(381) طلاع الأرض : مِلْؤها.

يقول: قضِي ورب الكعبة! وإذا بمعاوية بعده يقول غفر لي ورب الكعبة! ثم نصب الصراط فوضع يزيد رجله فهوى في النار ثم وضع عبد الملك فهوى في النار. ثم وضع الوليد فهوى في النار. وهكذا إلى أن قال: ثم وضع سليمان فلم يبق إلا هو. فصاح وسقط وجعل يتمرغ ويضرب رجليه والرجل يصيح ويقول:
62 والله لقد رأيتك نجوت يا أمير المؤمنين/(فكيف)[1] ينبغي لأمثالنا أن نرضى عن أنفسنا ونثيت لها فضلاً وندعي أن لا نقول إلا (الحق ولا نأمر إلا)[2] بما فيه الصلاح والسداد. ونحن غرقى في بحار التخليط. نسأل الله أن يعفو عنا آمين.

وأما قول الكتاب: وأردت أن تدنس العلم وتنجسه بتفقرت (382) الخ

فأقول: لا بد أن يبحث عن معنى «تفقرت» المذكورة لتعرف. فإن الحكم على الشيء فرع تصوره. فإن أريد بها أحوال الجهال من المتبدعين المدعين بغير علم ولا دين فلا شك أنها نجاسة وقذارة ونحن لا نريدها بل نعوذ بالله منها ومن أهلها. وإن ادعاها أحد علينا لابد أن ينص لنا على عين ما ارتكبناه من ذلك لنعرفه فنتوب إلى الله منه إن وفقنا. وإلا فلا يجوز أن يظن بالمسلم السوء وينسب إلى ارتكاب ما لم يرتكب. وإنْ أريد بها العمل لله بما يرضى من حيث يرضى. والسلوك على المنهج المرضي[3] عند أرباب الطريق أو المعرفة أو المشاهدة فلا شك[4] أنها بهذا المعنى ليست بنجاسة. ولا تنجس العلم بل هي ثمرة العلم ولبابه. وهي أحد ركني الدين. فإن الشريعة لها ظاهر وهو للفقهاء[5] وباطن وهو للصوفية[6] وإنما يكمل الأمر بهما معاً ولهذا يقال: من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق. ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق. ومن جمع بينهما فقد تحقق. فمن أنكر هذا وجعله نجاسة أو جعل صاحبه داخلا في حزب الشياطين فقد أنكر الشريعة.

---

1 — محو في الأصل اثبت ما في باقي النسخ. 2 — محو في الأصل أثبت ما في باقي النسخ. 3 — في الأصل «إلرضي» صوابه من جـ و ص. د «الأرضي». 4 — في الأصل «يشك» جـ «فلا شك» صححت من جـ. 5 — في الأصل «الفقهاء» صوابه من جـ و ض. 6 — في الأصل «الصوفية» صححت من جـ و ص.

---

(382) الكلمة مشتقة من «فقير» وهو الإسم الذي يطلق على المتصوف في عموم المغرب. «وتفقرت لفظة بربرية للدلالة على اتباع الطريق الصوفية

هذا ونحن لم نشتغل بهذا الفقر الموصوف أيضاً ولا وصلنا إليه ولكنا نحبه ونحب أهله، ونرجو الله تعالى أن يمن به علينا إنه الكريم المنان. وأن يحشرنا في زمرة أهله فضلاً منه وإحساناً فإنه قد قال على لسان نبيه ﷺ: «المرء مع من أحب» (383) وإنما نحن مشتغلون بالتعليم جهدنا. فالطلبة يتعلمون العلم فيتفقهون. والعوام يتعلمون عقائدهم وفرائضهم وسننهم. والتوبة وشروطها وأَذْكاراً يعمرون بها أوقاتهم حيث لم يكن عندهم علم يعمرونها به. فإن كان هذا القدر بدعة أو تنجيساً للعلم أو دخولا في حزب الشيطان. فنحن عليه. نسأل الله تعالى أن يعيننا عليه. (ويجعله له)[1] ويديمه علينا حتى يتوفانا عليه آمين.

هذا ما احتيج إليه من الكلام. على مقتضى الكلام. ولو ترك القطا لنام
ص 63 (384). وإنما تعرضت لذلك مساعفة للسلطان **في قوله/: إن كان عندك ما تقول فقله وأجبنا عن هذا حرفاً حرفاً** فتكلمت على ما (لابد)[2] منه وتركت من الكلام أكثره. لعدم الحاجة إليه أو لتعذر ذكره وعندي والحمد لله ما أقول. فأي شيء يعوزني لو أردت القول : اللسان عربي. والمعقول والمنقول تحت جنبي. واستغفر الله من هذا وأعترف على نفسي أني أضعف الناس وأجهل الناس. وأني منقاد إلى السلطان سميع مطيع. وتجنبي للسلطان ليس بغضاً فيه. بل لافتراق الدار فأنا في بلد وهو في آخر. ولأني لا أقوى على تلك الأبواب. ولايألفها طبعي ولا أصلح لها ولا تصلح لي ولها قوم غيري:

وللحقائق أقوام لها خلقوا وللحروب لدى الهيجاء فرسان

---

1 — محو في الأصل أثبت ما في سائر النسخ. 2 — محو في الأصل أثبت ما في سائر النسخ.

---

(383) أخرجه البخاري في مناقب عمر عن أنس رضي الله عنه أن رجلا سأل النبي ﷺ عن الساعة فقال متى الساعة ؟ قال وماذا أعددت لها ؟ قال لا شيء إلا أني أحب الله ورسول الله ﷺ فقال أنت مع من أحببت ... » أنظر إرشاد الساري ج 103/6 .

(384) مثل يضرب لمن حمل على مكروه من غير إرادته . أنظر مجمع الأمثال للميداني ج 162/2 .

وإلا فأنا أحب السلطان من ثلاثة أوجه: الأول: النسب فإنا أُمِرْنَا بحب أهل البيت النبوي. الثاني: الوجاهة فإنه كبير المسلمين. وقد أمرنا أن ننزل الناس منازلهم فنعظم من عظَّمَهُ الله تعالى. الثالث: فَإِنَّهُ قد وقرنا واحترم عيالنا، وكان يحملنا إذا رحلنا. والإحسان يشكر والصنائع تذكر. والمحبة بالوجهين الأولين لا تتبدل لأنها من حقيقة الإيمان. نسأل الله تعالى أن يثبتنا بالقول الثابت. وبالوجه الثالث: هي أيضا ثابتة لأنها عن شيء وقع. (لكن)[3] يمكن فسادها بمساءة أعظم، نسأل الله العافية. وفي هذا يقول الحكماء فلان يربي الصنيع أي أنه إذا فعل صنيعاً من الخير زاد فيه، ولم يتبعه بإذاية تفسده. وبعد هذه الأوجه الثلاثة، فالأفعال والمعاملة تزيد حباً أو تنقصه، ولما كانت البواعث النفسانية في كثير من الخلق أقوى، كانت المحبة الدنيوية أظهر آثاراً وأكثر ثماراً، والناقد بصير وإلى الله المصير. وكتب أول ذي الحجة الحرام من سنة ستة وتسعين وألف الحسن بن مسعود كان الله له آمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

---

3 — زيادة من جـ و ص

الرسالـة الثانيــة

رسالة «براءة اليوسي»

هذه الرسالة المشهورة تحت إسم «براءة اليوسي» تعرف أيضاً «بالرسالة الصغرى». مقابلة لها «بالرسالة الكبرى» أو «جواب الكتاب» التي سبق ورودها في هذه المجموعة الخاصة بالشؤون العامة وأحوال المجتمع وهي أقل طولاً من سابقتها. وقد تناولت بالمناقشة: الجباية. الجهاد. العدل. يصف اليوسي الحالة التي هي عليها هذه الأمور الثلاثة من الاختلال والفساد. ويعطي وجهة نظره لإصلاحها. ولهجته فيها لا تخلو من الجرأة والقوة التي عرفناها في «جواب الكتاب».

مخطوطات الرسالة:

وقفت لهذه الرسالة على تسع نسخ مخطوطة واحدة منها مبثورة:

الأولى : ضمن مخطوط : «الجيش العرموم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي الشريف السجلماسي» لمحمد بن أحمد أكنسوس (.../1294هـ) مخطوطة الخزانة العامة بالرباط تحت رقم 965 د. ورسالة اليوسي فيها من ورقة 60 ظ إلى 63و. ورمزها «د

الثانية : ضمن مخطوط « نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني » لمحمد بن الطيب القادري المتوفى سنة 1187هـ. مخطوطة الخزانة العامة بالرباط تحت رقم ك 2253. والرسالة فيها من ورقة 28 و إلى ورقة 29 ظ الجزء الثاني. ورمزها «ك»

الثالثة : مخطوطة مستقلة للرسالة بالمكتبة الملكية تحت رقم 7150 في ثلاثة أوراق ورمزها «خـ»

الرابعة : مخطوطة مستقلة للرسالة بالمكتبة الملكية تحت رقم 7154 في ستة أوراق رمزها «ز»

الخامسة : مخطوطة مستقلة بالمكتبة الملكية تحت رقم 5356 في ثلاثة أوراق رمزها «أ»

السادسة : مخطوطة مستقلة بالمكتبة الملكية تحت رقم 9249 في سبعة أوراق رمزها «ن»

السابعة : مجموع فيها رسائل لليوسي بالمكتبة الملكية تحت رقم 7704 من ص 23 — 27 رمزها «ة»

الثامنة : من مجموع في خزانة الاستاذ المرحوم الفاسي بفاس من ص 12 — 15 رمزها «ف»

التاسعة : مجموع الخزانة العامة بالرباط فيه الرسالة مبتورة وهو تحت رقم د 163 لم أخذ بها في المقارنة واستأنست بها أحيانا فقط.
كما توجد لهذه الرسالة نسخة مطبوعة ضمن كتاب «الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى» لأحمد الناصري الجزء السابع ص 82 — 86 طبعة دار الكتاب 1956

وصف المخطوطات:

أمكنني الاطلاع على هذه المخطوطات وتصويرها، ثم قارنت بينها. ويمكن حصرها في مجموعتين:

المجموعة الأولى : مجموعة الخزانة العامة «د». «ك»
المجموعة الثانية : مجموعة الخزانة الملكية «خ». «ز». «أ». «ن». «ة»

أما مخطوطة «ف» فالراجح أنها نقلت عن أصل كثير الأخطاء والإسقاطات ثم

صححت من نسخة من الخزانة العامة بالرباط. فالتشطيبات والكتابات فوق السطور وفي الهامش كثيرة جداً. ولم أعتبر عند المقارنة إلا التصحيحات في الجمل والكلمات المصححة. وقد قال صاحبها في آخر الرسالة : «انتهى بحمد الله وحسن عونه، وبلغت المقابلة من خطه بواسطة ثقة عالم ضابط».

* **وصف المجموعة الأولى : مجموعة الخزانة العامة «د» و «ك»**

الكتابان اللذان أوردا الرسالة يُعدان من المراجع الأساسية في التاريخ والسياسة والاجتماع والتعريف بأعلام مغرب القرن الحادي عشر والثاني عشر الهجري. وقد طبع «الجيش العرمرم» طبعة حجرية بفاس سنة 1336هـ. كما طبع جزء من «نشر المثاني» طبعة حجرية أيضاً سنة 1310هـ. وقد اعتمدت في المقارنة على مخطوطات هذه الكتب. والخط فيها لا بأس به. ونص الرسالة فيهما أكثر أمانة منه في غيرهما. ولم يذكر المؤلفان الأصل الذي نقل عنه كل منهما. ورغم أن «نشر المثاني» أقرب إلى عصر اليوسي زمنياً. إلا أنني اعتمدت في المقارنة على نص «الجيش العرمرم» لجودته وأمانته وقلة إسقاطاته. وعنه نقلت المتن مع إثبات الزيادات من النسخ الأخرى في حالة وجودها.

* **وصف المجموعة الثانية: مجموعة الخزانة الملكية «خ». «ز». «أ». «ن». «ة»**

تتفق في كثير من الاسقاطات والتحريفات وكأنها منقولة عن أصل واحد. ومخطوطة «ة» أكلتها الأرضة في أماكن كثيرة وفيها محو في الصفحة الأولى. وتنفرد بين جميع المخطوطات بذكر اسم الناسخ. جاء في الصفحة الأخيرة: «ونقلها كما وجد عبد الله سبحانه محمد بن ابراهيم التدررتي كان الله له آمين».

الرسالة الثانية

ورقة 60 ظ الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

قُطب المجد ومركزه، ومحاز الفخار ومأرزه[1] وأساس الشرف الباذج ومنبعه، ومناط الفضل الشامخ ومجمعه، السلطان الأعظم، الأجل الأفخم، مولانا إسماعيل بن مولانا الشريف، لا زالت أعلامه منصورة[2] وأيامه على العز واليمن مقصورة، سلام على سيدنا ورحمة الله تعالى وبركاته.

هذا، ولا زائد عندنا سوى المحبة لسيدنا وغاية التعظيم والإجلال، والدّعاء لسيدنا بصالح الأحوال. وذاك بعض ما أوجبته يده المنبسطة علينا بالبرّ والإحسان، والتفضل والامتنان، والتوقير والاحترام، والإنعام والإكرام، مع ماله علينا من الحقوق التي أوجبتها منزلته السلطانية، ومثابته (1) العلوية الفاطمية، فكتبنا هذه البطاقة وهي في الوقت منتهى الطاقة. وكنا كثيراً ما نرى من سيدنا التشوف إلى الموعظة والنصح، والرغبة في استفتاح أبواب الربح والنجح، فأردنا أن نرسم لسيدنا[3] بعض ما إن وُفّق للنهوض إليه، رجونا له[3] ربح الدنيا والآخرة، والارتقاء إلى الدرجات الفاخرة. ورجونا وإن لم نكن أهلاً لأن نعِظ، أن يكون سيدنا أهلا لأن يتّعظ، وأن يحتميَ من جميع المذَامّ ويحتفظ.

فيعلم سيدنا — نصره الله — أن الأرض وما فيها ملك لله تعالى لا شريك له، والناس كلهم عبيد له سبحانه وإماء له، وسيدي واحد من العبيد وقد ملّكه الله تعالى عبيده ابتلاءً وامتحاناً، فإن قام عليهم بالعدل والرحمة والإنصاف
ورقة 61 و والإصلاح[5] فهو خليفة الله في أرضه (2)، وظل الله على/عباده، وله الدرجات العالية عند الله تعالى. وإن قام بالجور والعنف والكبرياء،[6] والطغيان

---

1 — كـ «فخار الفخار ومئزره» خ. ر «حائز الفخر ومحرزه». 2 — كـ «منشورة». 3 — في الأصل «نرسل» اثبت ما في بقية النسخ لموافقته للسياق. 4 — في الأصل «إليه» صححت من سائر النسخ. 5 — خ. ز. أ. ن. «والصلاح». 6 — زيادة في الأصل لا وجود لها في النسخ الأخرى.

---

(1) المثابة: مجتمع القوم بعد تفرقهم

(2) إشارة إلى الحديث النبوي: «السلطان ظل الله في الأرض. يأوي إليه كل مظلوم من عباده» أخرجه البزار بسند من حديث ابن عمر. أنظر المغني بذيل الإحياء ج 4/99

والفساد. فهو متجاسر على مولاه في مملكته. ومتسلّط ومتكبّر في الأرض بغير الحق. ومتعرّض لعقوبة الله تعالى الشديدة وسخطه. ولا يخفى على سيدنا حال من تسلط على رعيته يروم تملكهم بغير إذنه. كيف يفعل به يوم يتمكّن منه. ثم نقول : إن على السلطان حقوقاً كثيرة لاتفي بها البطاقة. ولنقتصر منها على ثلاثة هي أمهاتها :

الأول : [1]جمع المال من حقّ وتفريقه في حقّ[2]

الثاني : إقامة الجهاد لإعلاء كلمة الله. وفي معناه : تعمير الثغور بما تحتاج إليه من عدد وعدة.

الثالث : الانتصاف من الظالم للمظلوم. وفي معناه كف (كل)[3]يد عادية عليهم منهم ومن غيرهم.

وهذه الثلاثة كلها قد اختلت في دولة سيدنا. فوجب علينا تنبيهه لئلا يعتذر بعدم الاطلاع أو بالغفلة. فإن تنبه وفعل فقد فاز. وفي ذلك صلاح الوقت وصلاح أهله وسبوغ النعمة وشمول الرحمة. وإلا فقد أدينا الذي علينا.

أما الأمر الأول فليعلم سيدنا أن المال الذي يُجْبَى من الرعية قد أعده الله للمصالح التي ينتظم بها الدين وتصلح الدنيا من أهل البيت والعلماء. والقضاة والأئمة. والمجاهدين والأجناد. والمساجد والقناطر. وغير ذلك من المصالح. ومثال هؤلاء كأيتام لهم ديون. قد عجزوا عن قبضها إلا بوكيل. ومثال الرعية مثال المديان (3) والسلطان هو الوكيل. فإن استوفى الوكيل الدَّيْن بلا زيادة ولا نقصان. وأدّاه إلى اليتامى بحسب ما يجب لكلٍّ. فقد برئ من اللوم. ولم تبق عليه تِباعة (4) للمديان ولا لليتيم. وحصل له أجران : أجر القبض وأجر الدفع. وإن هو زاد على الدَّين بغير رضا المديان فهو ظالم للمديان[1] (وإن

---

1 — أ. خ. ز. ف. ن. «الأمر الأول». 2 — في جميع النسخ «بحق». 3 — زيادة من ك. ف. ة. أما أ. خ. ز. ن. : اسقطت الجملة

---

(3) المديان : رجل مديان يقرض كثيرا ويستقرض كثيرا. (القاموس)

(4) تِباعة ج : تِباعات. وتبعة ج : تبعات : ما يترتب على الفعل من الخير أو من الشر. إلا ان استعماله في الشر أكثر. لهذا الفعل تبعة : أي لحوق شر وضرر.

نقص بغير موجب فهو ظالم لليتيم)[2] وكذا إن استوفى الديون وأمسكها ولم يدفعها لأربابها فهو ظالم (لهم)[3]. فلينظر سيدنا. فإن جباة مملكته قد جرّوا ذيول الظلم على الرعية. فأكلوا اللحم وشربوا الدم. وامتشوا[4] (5) العظم. وامتصوا المخ. ولم يتركوا للناس ديناً ولا دُنيا : أما الدنيا فقد أخذوها. وأما الدّين فقد فتنوهم[5] عنه وهذا شيء شهدناه لا شيء ظنناه. ثم إن أرباب الحقوق قد ضاعوا ولم تصِلْ إليهم حقوقهم. فعلى السلطان أن يتفقد الجباة. ويكف أيديهم عن الظلم. ولا يغتر (بكلام)[6] من يزين له الوقت. فإن كثيراً من الداثرين به طلاب الدنيا. لا يتقون الله تعالى. ولا يتحفظون من المداهنة والنفاق والكذب. وفي أفضل منهم قال جد أمير المؤمنين مولانا على بن أبي طالب كرم الله وجهه : (المغرور من غررتموه (6) وأن يتفقد المظالم)[7] ويبسط الفضل على خواص الناس من أهل (العلم)[8] والدين والخير ليكتسب محبتهم وثناءهم ونصرهم كما قيل :

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا

وقد جُبلت النفوس على حب من أحسن إليها (7). ولا يهملهم فيتمنوا غيره. ويتطلبوا دولة أخرى كما قيل :

إذا لم يكن للمرء في دولة امْرِئ نصيب ولا حظ تمنى زوالها
وما ذاك من بغض لها غير أنه يريد سواها فهو يَهْوَى انتقالها[9]

---

1 — في الأصل « لليتيم » التصحيح من جميع النسخ . 2 — زيادة من جميع النسخ . 3 — زيادة من جميع النسخ . 4 — ة. « امتشطوا ». 5 — أ. بياض مكان « فتنوهم ». 6 — في الأصل « بكل » التصحيح من سائر النسخ . 7 — زيادة من ة. ك. أ. ز. ن. 8 — في الأصل « الفضل » صححت بما في جميع النسخ 9 — في الأصل « زوالها » صححت بما في بقية النسخ

---

(5) امتش العظم : مصه ممضوغا

(6) المغرور من غررتموه. أوردها البخاري في مناقب عمر بن الخطاب منسوبة إليه عند احتضاره وبين يديه عبد الله بن عباس انظر إرشاد الساري على صحيح البخاري ج 6 105

(7) تضمين لحديث نبوي : «جبلت النفوس على حب من أحسن إليها...» سبق تخريجه في رسالة جواب الكتاب

وليعلم سيدنا أن السلطان إذا أخذ أموال الرعية[1] العامة ونشرها في الخاصة وشيد بها المصالح. فالعامة يُذْعِنُونَ (له)[2] ويعلمون أنه سلطان. وتطيب قلوبهم بما يرون من إنفاق أموالهم في مصالحهم[3]. وإلا فالعكس. وأيضا السلطان متعرض للسهام الراشقة من دعوات المظلومين من الرعية. فإذا أحسن إلى الخاصة دعوا له بالخير والسلامة والبقاء. فيقابل دعاء بدعاء والله الموفق.

وأما الأمر الثاني : فقد ضاع أيضاً وذاك أنه لم يتأت في الوقت إلا عمارة الثغور، وسيدنا قد غفل عنها. فقد ضعفت اليوم غاية. وقد حضرت بمدينة تطاوين أيام مولانا الرشيد رحمه الله تعالى. إذا سمعوا الصريخ (8) تهتز الأرض خيلاً ورماة. وقد بلغني اليوم أنهم/سمعوا صريخاً من جانب البحر ذات يوم. فخرجوا يسعون على أرجلهم، بأيديهم العِصِيُّ والمقاليع. وهذا وهن في الدين وعذر (9) على المسلمين. وإنما جاءهم الضعف من المغارم الثقيلة، وتكليفهم الحركات، وإعطائهم العدة كسائر الناس. فعلى سيدنا أن يتفقد السواحل كلها من القَلَّعِيَّة[4] (10) إلى ماسة (11) ويحرضهم على الجهاد والحراسة بعد أن يحسن إليهم ويعفيهم مما يكلف به غيرهم، ويترك لهم خيلهم (ورجالهم)[5] وعدتهم ويزيدهم ما يحتاجون إليه. فهم حماة بيضة الإسلام[6] ويتحرى فيمن يوليه تلك النواحي أن يكون أشد الناس رغبة في الجهاد، ونجدة في المضايق، وغيرة على الإسلام وأهله. ولا يولي فيها من همته ملأ بطنه والاتكاء على أريكته والله الموفق.

ورقة 62 و

---

1 — جميع النسخ الأخرى أسقطت « الرعية ». 2 — زيادة من النسخ الأخرى. 3 — أ. خ. ز. ن « المصالح ». 4 — في الأصل « قليعة » صححت من أ. ك.ة. خ. ز. 5 — زيادة من جميع النسخ. 6 — أ. خ. ن. ز. « حمية لبيضة الاسلام ».

---

(8) الصريخ : المغيث والمستغيث (ضد) وكذلك الصارخ

(9) عذر : تقصير

(10) القلَعِيَة : ثغر من ثغور شمال المغرب تحرفت عن بعض الكتاب الى قليعة بتقديم الياء على العين. تنطق بالقاف المعقودة و تشديد اللام مفتوحة وهي شبه جزيرة تقع على مقربة من مليلية تمتد زهاء أربعين كيلومترا غربي المدينة المحتلة والغالب أنها مرسى غساسة الشهيرة في التاريخ القديم (البحث العلمي عدد 24 — 1975)

(11) ماسة : ثغر من ثغور جنوب المغرب بالسوس (جنوب أكادير)

أما الأمر الثالث : فقد اختل أيضاً لأن المنتصبين للانتصاف بين الناس هم العمال في البلدان وخدّامهم. وهم المشتغلون بظلم الناس فكيف يُزيلُ الظلم من يفعله. ومن ذهب يشتكي سبقوه إلى الباب فزادوا عليه[1] فلا يقدر أحد أن يشتكي. فليتق الله سيدُنا وليتق دعوة المظلوم فليس بينها وبين الله حجاب. وليجتهد في العدل فإنه قِوام الملك وصلاح الدين والدنيا. قال الله تعالى : «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى. وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ. يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» (12) وقال تعالى : «وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ. إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ» (13). ثم ذكر تعالى المنصورين[2] وشروط النصر فقال : «الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ» (14) فضمن تعالى للملوك النصر. وشرط عليهم هذه الأمور الأربعة. فمتى اختلَّ عليهم أمر الرعية. أو تسلط عليهم من يفسد عليهم (أمر)[3] الدولة. فليعلموا أن ذلك من إخْلالِهِمْ بهذه الأمور. فكان عليهم الرجوع إلى الله تعالى وتفقُّدِ ما أمرهم به. ورعاية ما استرعاهم. وقد اتفقت حكماء العرب والعجم على أن الجور /لا يثبت معه الملك ولا يستقيم. وأن العدل ورقة 62 ظ يستقيم معه الملك ولو مع الكفر. وقد عاش الملوك من الكفرة المئين من السنين في الملك المنتظِم. والكلمة المسموعة. والراحة من كل منغص. لما كانوا (يتحفظون)[4] عليه من العدل في الرعية استصلاحاً لدنياهم. فكيف لمن يرجو إصلاح الدنيا والدين[5] قال بعض الحكماء : المُلك بناء والجند أساسه. وإذا ضعف الأساس سقط البناء[6]. فلا سلطان إلاّ بجند. ولا جند إلاّ بمال. ولا مال إلاّ بجباية. ولا جباية إلاّ بعمارة. ولا عمارة إلاّ بالعدل. فالعدل أساس الجميع. وصنع أرسطوطاليس الحكيم للأسكندر الشكل المستند عنه وكتب

---

1 — خ. ز. إسقاط « فزادوا عليه ». 2 — خ. ز. ن. إسقاط « ثم ذكر تعالى المنصورين »
3 — زيادة من أ. خ. ف. 4 — زيادة في أ. ف. خ ز. 5 — ك. ة. زيادة « والآخرة »
6 — اسقاط « البناء »

---

(12) من الآية 90 سورة النحل مكية
(13) من الآية 40 سورة الحج مدنية
(14) من الآية 41 سورة الحج مدنية

عليه : العالم بستان سياجه الدولة. الدولة السلطان تعضده السنة. السنة سياسة يسوسها الملك. الملك راع يعضده الجيش. الجيش أعوان يكفلهم المال. المال رزق تجمعه الرعية. الرعية عبيد يقودهم العدل. العدل مألوف وبه صلاح العالم. العالم بستان. انتهى[1] وقال ﷺ : «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» (15) وقال ﷺ : «إن رجالا يخوضون في مال الله بغير حق لهم النار يوم القيامة» (16) أو كما قال. وقال ﷺ : « ما من وال يلي ولاية إلا جاء يوم القيامة ويداه مغلولتان. فإما عدل يفكه وإما جور يوبقه» (17) وعن عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه قال : رأيت عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)[2] على قتب (18) يعدو به بعيره[3] بالأبطح (19). فقلت يا أمير المؤمنين أين تسير؟ فقال : بعير شرد من إبل الصدقة أطلبه. فقلت :[4] أذللت الخلفاء من بعدك. فقال : لا تلمني[5] فوالذي بعث محمداً بالحق. لو أن عَناقا (20) ضلت[6] بشاطئ الفرات لأخذ بها عمر يوم القيامة. لأنه لا حرمة لوال ضيع المسلمين. ولا لفاسق روع المومنين. وقد رأى رضي الله عنه شيخاً يهودياً. يسأل على الأبواب فقال : ما أنصفناك. أخذنا منك الجزية ما دمت شباباً ثم
63 ظ ضيعناك/اليوم. وأمر أن يُجْرَى عليه قوته من بيت المال.

---

1 — أ. خـ. ز. ن اسقاط : « وصنع أرسطوطاليس — صلاح العالم. العالم بستان هـ » 2 — زيادة في جميع النسخ. 3 — أ. خـ. ز. ن. « تعدوابه » وأسقطت « بعيره ». 4 — أ. ز. زيادة « مهلا عليك » خـ « ميلا عليك ». 5 — أ. خـ. ز. أسقطت « لا تلمني ». 6 — في الأصل « ضات » صححت بما في سائر النسخ.

---

(15) من حديث طويل أخرجه البخاري من رواية عبد الله بن عمر. كما اخرجه مسلم ايضا من حديث عبد الله بن عمر. انظر إرشاد الساري ج 8/89. وشرح النووي على صحيح مسلم بهامش الإرشاد ج 8/19

(16) أخرجه البخاري من رواية خولة الأنصارية أنظر بلوغ المرام ص 303

(17) اخرجه أحمد من حديث عبادة بن الصامت كما أخرجه البزار والطبراني في الأوسط في حديث ابي هريرة أنظر المغني بحاشية الإحياء ج 3/324.

(18) قتب وقتب ج أقتاب : الرحل الي توضع فوق الإبل

(19) الأبطح : هو ما اتصل ببطون الأودية. وقيل الأبطح مسيل واسع فيه حصى صغار.

(20) العناق : الأنثى من أولاد المعز قبل استكمالها السنة.

وليعلم سيدنا أن أول العدل أن يعدل في نفسه. فلا يأخذ لنفسه من المال إلا بحق. ويسأل العلماء عما يأخذ وما يعطي. وما يأتي وما يذر[1] وقد كان في بني إسرائيل يكون الأمير على يد نبي. فالنبي يأمر. والأمير ينفذ لا غير. ولما كانت هذه الأمة المشرفة. انقطعت النبوة بنبينا خاتم النبيئين ﷺ وعلى إخوانه النبيئيين. فلم يبق إلاّ العلماء يقتدى بهم[2] قال ﷺ : «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل» (21). فكان حقّاً على خلفاء هذه الأمة أن يتبعوا العلماء ويتصرفوا على أيديهم أخذاً وعطاءً.

وقد توفي ﷺ. واستخلف أبو بكر رضي الله عنه. وكان قبل ذلك يبيع ويشتري في السوق لعياله. فلما بويع أخذ متاعه[3] الذي للتجارة وذهب إلى السوق على عادته حتى رده علماء الصحابة وقالوا (له)[4] إنك في شغل بأمر الخلافة عن السوق. وفرضوا له ما يكفيه مع عياله. وجعلوا المال على يد أمين[5] فكان هو وغيره فيه سواء يأخذ منه بما اقتضته الشريعة لنفسه ولغيره. وهكذا سيرة الخلفاء الراشدين من بعده. فعلى سيدنا أن يقتدى بهؤلاء الفضلاء. ولا يقتدى بأهل الأهواء. ويسأل من معه من الفقهاء الثقاث كسيدي محمد بن الحسن (22) وسيدي أحمد بن سعيد (23) وغيرهما من العلماء العاملين الذين

---

1 — بقية النسخ أسقطت « ما يأتي وما يذر » 2 — خ أسقطت الجملة « فلم يبق ... بهم » 3 — في الأصل « ماله » صححت ما في سائر النسخ . 4 — زيادة من أ. خ. ن. ك. ف 5 — ك. « أمير ».

---

(21) قال الدميري والزركشي : حديث لا أصل له. وزاد بعضهم ولا يعرف في كتاب معتبر. ولأبي نعيم في «فضل العالم» بسند ضعيف عن أبي عباس رفعه : «أقرب الناس درجة من النبوة أهل العلم والجهاد». والمشهور في الموضوع : «العلماء ورثة الأنبياء» رواه أحمد وأبو داود والترمذي وآخرون عن أبي الدرداء : انظر المقاصد الحسنة ص 286

(22) يعني محمد بن الحسن المجاصي (...1103هـ) قاضي الحضرة الرشيدية الإسماعلية بفاس. كان من أهل التثبت والتحري في قضاياه. أخذ عن سيدي عبد القادر الفاسي. كان مجلسه حفيلا بمسجد القرويين انظر ترجمته وأخباره في نشر المثاني ج 2 ورقة 33 ظ. أزهار البستان ص 183. التقاط الدرر ص 66

(23) أبو العباس أحمد بن سعيد المكيلدي. شيخ الجماعة في إقراء «المختصر» له مشاركة في علوم كثيرة. ولي قضاء فاس الحديد أزيد من أربعين سنة. وولي قضاء مكناس بعد عزل القاضي أبي مدين عنها. له مصنفات منها «اختصار المعيار» في مجلد ضخم. وشرح المختصر الخليلي سماه «أم الحواشي» وقد جاء في نشر المثاني أن اليوسي أخذ عنه بعض فنون العلم توفي سنة 1094هـ. انظر ترجمته وأخباره في نشر المثاني ج 2 ص 4 وجه وظهر. صفوة من انتشر ص 217. سلوة الأنفاس ج 3/206.

يتقون الله. ولا يخافون في الله لومة لائم. فما أمروه به مما ذكرناه ومما لم نذكره فعله. وما نهوه عنه انتهى. هذه طريق النجاة إن شاء الله تعالى. نسأل الله أن يرزق سيدنا توفيقاً وتسديداً. وإرشاداً وتأييداً. وأن يُصلح بوجوده البلاد والعباد. وأن يُحسم بسيفه أهل الزيغ والفساد[1] والحمد لله رب العالمين (وكتب الفقير الذليل الحسن بن مسعود اليوسي تاب الله عليه)[2]

1 — أ. خ. ز. ن. ف. «وأن يقع به أهل الكفر والفساد». 2 — زيادة من خ. ن.

رسالة ندب الملوك للعدل

أفكار هذه الرسالة تدور حول مفهوم الخلافة في الإسلام. يطرح اليوسي أولا المفهوم ويعطي الأمثلة عن أحوال الخلفاء الراشدين وأحوال الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز. ثم يناقش ما صارت إليه الأمور عندما انعدم هذا المفهوم للخلافة.

ولم أقف لهذه الرسالة إلا على نسخة واحدة هي التي بين أيدينا وتوجد ضمن مجموع مخطوطة الخزانة العامة بالرباط تحت رقم د 364.

وصف المخطوطة :

خط مغربي ردئ جداً. أخطاء كثيرة وتصحيفات وإسقاطات تدل على جهل الناسخ بما ينقل. ونظراً لعدم تمكني من نسخ أخرى أو على الأقل نسخة ثانية فإني لم أتمكن من تصحيح كثير من الأخطاء. ورغم كثرة هذه التصحيفات والتحريفات. فإن الشك لا يمكن أن يتسرب إلى نسبة الرسالة إلى اليوسي وذلك نظراً لاعتبارات كثيرة منها أن أفكار اليوسي معروفة في هذا الموضوع في « جواب الكتاب » و « براءة اليوسي ». وهي التي ركز عليها في هذه الرسالة أيضاً.

ويحتوي المجموع الذي أورد رسالة ندب الملوك إلى العدل على التآليف التالية :

1 — تأليف مولانا سليمان بن محمد العلوي في الغناء : 1 — 38

2 ـــ تأليف الشيخ زروق في النصيحة : 39 ـــ 75
3 ـــ تأليف الشيخ محمد أبي بكر الدلائي في الحديث : 77 ـــ 135
4 ـــ تأليف عبد الحق الإسلامي في الرد على اليهود : 136 ـــ 160
5 ـــ تأليف رد التشديد في مسألة التقليد : أحمد بن مبارك السجلماسي : 161 ـــ 185
6 ـــ تأليف رسوم الخلفاء وخدمتهم : 186 ـــ 221
7 ـــ وللعلامة اليوسي في ندب الملوك للعدل : 121 ـــ 228
8 ـــ تفسير الفاتحة 229 ـــ 233
9 ـــ وللعلامة المغيلي فيما يجب على الملوك : 233 ـــ 243
10 ـــ القصيدة الزينبية المنسوبة لسيدنا علي : 243 ـــ 245

والمجموع كله بخط ناسخ واحد يستعمل الألوان في كتابة العناوين والتصليات الخ ... وقد كتب في نهاية رسالة « ندب الملوك إلى العدل » لليوسي : من خط خط من نقل من خطه بلفظه ، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

الرسالة الثالثة

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

(وللعلامة اليوسي في ندب الملوك إلى العدل والوقوف مع السنة والشرع . رحمة الله تعالى ورضي الله عنه ونفعنا به)[1]

أما بعد فإن الله تعالى قد شرع دينه . وبعث نبيه المصطفى ﷺ ليبين للناس ما نزل إليهم من ربهم . فكانت الحجة علينا من كتاب الله تعالى وسنة نبيه محمد ﷺ . وكان ﷺ هو القدوة في أقواله وفي أفعاله وتقاريره وكانت القدوة بعده من شهد الله له ورسوله ﷺ قال تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه . وما نهاكم عنه فانتهوا » (1) وقال تعالى : « واتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ » (2) وقال تعالى : « وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُومِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً » (3) إلى غير ذلك من الآيات . وقال ﷺ : « اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر » (4) وهما حبل الله المَمْدود . من تمسك بهما فقد تمسك بالعروة الوثقى . وقال ﷺ : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي . عضوا عليها بالنواجد . وإياكم ومحدثات الأمور . فإن كل محدثة بدعة/وكل بدعة ضلالة . والضلالة وصاحبها في النار » (5) وفي الحديث 222
الآخر : « يارسول الله إنَّا كنا في جاهلية وشر . فجاء الله بهذا الخير . فهل بعد

---

1 — مقدمة من قول الناسخ .

---

(1) من الآية 7 سورة الحشر . مدنية

(2) من الآية 14 سورة لقمان . مكية

(3) تمام الآية : « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المومنين نوله ما تولى ونصله جهم وساءت مصيرا » سورة النساء الآية 115

(4) في شرح الأربعين النووية . وفي معرض شرح الحديث الثامن والعشرين ص 235 قال الشارح « قال ﷺ اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر » ولم يخرجه ولم أقف أنا على هذا الحديث في الكتب التي بين يدي .

(5) تم تخريج هذا الحديث في الرسالة « جواب الكتاب »

هذا الخير من شر قال: نعم.. إلى أن قال قوم يَهْتَدُون بغير هَدْيِي [1] تعرف منهم وتنكر» (6) يعني جمهور الملوك (7)

وقال ﷺ: «الخلافة من بعدي ثلاثون سنة. ثم تصير ملكاً عضوضاً» [2] (8) وفي الخبر الآخر: «أول هذا الأمر نبوة ثم خلافة ثم ملك ثم هتك وفساد في الأرض» (9) إلى غير ذلك مما لا نطيل به فكان ﷺ أقام الأمور على ساقها وأعطى كل ذي حق حقه وتصرف في هذا المال بما أمر الله به. يأخذه بحقه ويصرفه في مستحقه. فلما توفاه الله إلى رضوانه. قام بالأمر خليفته أبو بكر الصديق الذي ما طلعت الشمس ولا غربت بعد النبيئين والمرسلين على أفضل منه رضي الله عنه. وبعد البيعة له أخذ قماشه الذي يحترف به لأهله وخرج إلى السوق وأراد أن يصنع كما كان يصنع من الأكل من كسب يده. ولم يلتفت إلى مال الله لأنه علم أنه لجماعة المسلمين وليس أحق به منهم. فلما رأى الصحابة ذلك منعوه وردوه عن السوق وقالوا: والله إنك في شغل بأمور الناس عما تريد وعوضوا له من المال كفايته مع الاقتصاد من غير سرف ولا تقتير. فلما توفي خلفه أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه فمشى بسيرته في الاقتصاد حتى كان يرقع ثوبه برقع. وقال للصحابة: إن رأيتم فينا شيئا فقولوه. وكان يقول:

---

1 — في الأصل هدى التصحيح من متن الحديث كما ورد في الصحيحين 2 — في الأصل «عضودا» صححت من متن الحديث. (ملك عضوض) فيه عسف وظلم.

---

(6) جزء من حديث طويل رواه البخاري عن حذيفة بن اليمان يقول: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير. وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني فقلت يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير. فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم. قلت وهل بعد هذا الشر من خير قال نعم وفيه دخن (كدر) قلت وما دخنه؟ قال: قَوْمٌ يَهْدُون بغير هدي تعرف منهم وتنكر...» الحديث وهو طويل أخرجه البخاري في باب علامات النبوة وأخرجه مسلم في المغازي والترمذي في الفتن أنظر إرشاد الساري ج 55/6 — 56 وشرح النووي على صحيح مسلم ج 44/8 — 45.

(7) تفسير اليوسي: «يعني جمهور الملوك» تعليقا على الحديث هو من شرح القاضي عياض أنظر إرشاد الساري ج 183/10 وما بعدها قال القاضي عياض: المراد بالذين تعرف منهم وتنكر الأمراء.

(8) أورده شارح الأربعين النووية في معرض شرح الحديث الثامن والعشرين ص 235: قال ﷺ الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تصير ملكا عضوضا. ملك عضوض: فيه عسف وظلم.

(9) لم أقف على تخريج هذا الحديث.

رحم الله امرأ أهدى إلينا من عيوبنا (10) فقيل له لو رأينا فيك شيئاً لقومناك بسيوفنا . ومرة قدم بلال رضي الله عنه فقال ذلك . فقال : بلغني أن لك ثوبين ثوب بالليل وثوب بالنهار . وأكل على مائدتك لونان فقال : هل غير هذين ؟ فقال : أما هذان فقد كفيتهما . يعني لا أفعلهما بعد . ثم صار عثمان رضي الله عنه بنحو ذلك إلى أن غلبت عليه نخبة رهطه ورفقائه . قدمهم لبعض الأمور فوقع الإنكار عليه وبيان ذلك يطول . ثم وَلِيَ عَلِيٌّ كرم الله وجهه فصار بذلك . وكان يلبس القميص . ويجعل طرفه عَلَى العضد ثم يقول : الحمد لله الذي (جعل)[1] هذا من رياشي ويقول : ياصفراء . ويابيضاء غري غيري ولا تغريني (11) في كثير كلام من هذا المعنى . فلما ذهب الأئمة المقتدى بهم دخل
الناس هذا الأمر بالعنف والشهوة وانقطعت الخلافة/وجاء الملك العضوض كما 223 ر
أخبر به ﷺ وذهبت السيرة المحمدية إلا قليلا وجاءت الكسروية والقيصرية (12) . وتصرفوا في هذا المال بالشهوة وعاملهم الناس بالرغبة والرهبة . وصدق فيهم قوله ﷺ : « إذا بلغوا بنو أبي العاص ثلاثون رجلا اتخذوا عباد الله خَوَلاً (13) ومال الله دُوَلاً » (14) وذكر هذا الحديث لمروان ابن الحكم بن أبي العاصي فقال : أنا والله أبو عشرة . وأخو عشرة . وعم عشرة . وقال ﷺ : « إن رجالا يتخوضون (15) في مال الله بغير حق . لهم النار يوم القيامة . وصاروا يغضبون غضب الملوك ويرضون رضى الملوك » (16) كما في الحديث أي الملوك الماضين من فارس والروم . بالشهوة والجبروت . فإن الخلفاء الراشدين كان غضبهم ورضاهم لله في الحق . كما كانت شيمة نبيهم ﷺ وسيرته . وانقطع حينئذ الاقتداء بأولئك الملوك . حيث لم يكونوا على قدم

---

1 — زيادة يتطلبها السياق وأظنها من اسقاط الناسخ.

---

(10) ذكره صاحب كتاب مجمع الامثال : رحم الله من اهدى إلي عيوبي ونسب قوله لعمر بن عبد العزيز . انظر مجمع الأمثال للميداني ج 1 326

(11) رواه الإمام احمد في مناقب علي من حديث علي بن ربيعة . انظر قصة ذلك في كتاب المقاصد الحسنة ص 475 .

(12) أي أن خصائص حكم كسرى ملك الفرس وقيصر ملك الروم . دخلت الخلافة الإسلامية .

(13) خولا : العبيد والإماء وغيرهم من الحاشية

(14) دولا : ما يتداول فيكون مرة لهذا ومرة لذاك . والحديث لم اقف له على تخريج

(15) يتصرفون بالباطل

(16) حديث اخرجه البخاري عن رواية خولة الانصارية . انظر بلوغ المرام ص 303

(17) النبي ﷺ . كما كان عليه الخلفاء . بل متصرفين بأهوائهم : « وأبغض إلَاهٍ (18) عبد في الأرض ... » الحديث المروي (19) . قال تعالى : « أفرأيت من اتخذ إلَاهَهُ هواه وأضله الله على علم » (20) ولم يبق إلا الاقتداء بالنبي ﷺ ومن كان على قدمه من الخلفاء . وكذلك جميع أصحابه ﷺ لقوله ﷺ : « أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهْتَدَيْتُم » (21) وكذا التابعون لهم بإحسان . وأهل العلم والدين وهلم جرّا ولم يزل ملوك بني أمية على ذلك إلى أن أحيا الله الأرض بعد موتها . وأنارها بعد ظلمتها بالإمام العادل أبي حفص عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه . فقد —والله— وجد الدولة فرثاً (22) ودماً فقلبها بإذن الله وتوفيقه لبناً خالصاً سائغاً للشاربين وكان من شأنه أن سليمان استخلفه . فلما مات سليمان وفرغ من دفنه سمع للأرض ضجة فقال : ما هذا؟ قالوا هذه مراكب الخلافة . فقال : اصرفوها عني وآتوني ببغلتي . فركب وصار . فإذا بصاحب الشرطة يسعَى بين يديه على عادة الملوك قبله فقال : تنح عني . إنما أنا واحد من المسلمين . فلما انتهَى إلى الجامع رقي المنبر فقال : معشر المسلمين . إن سليمان بن عبد الملك قد قلدني هذا الأمر . ولا أرب لي فيه فقد خلعته من عنقي وجعلته إليكم . وجعلتكم من أمري في حل/فانظروا لأنفسكم ص 224
من ترضون . فصاح الناس صيحة واحدة : رضينا بك رضينا بك فلما هدأت الأصوات خطبهم وبين أسماء[1] الدين ثم قال في آخر كلامه : أطيعوني ما أطعت الله . فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم . ثم نزل فذهب يدخل الدار . فقام إليه ابنه عبد الملك بن عمر وكان هو أيضاً من الصالحين فقال له : ما تريد يا أبت ؟ فقال : يابني إني قد سهرت في هذا الأمر وتعبت . فأريد قيلولة أستجم بها نفسي . فقال له : ياأبت وأين حقوق الناس بالباب ؟ فقال : يابني إلى الظهر. فقال : له : ياأبت ومن لك أن تعيش إلى الظهر؟ فأخذه وقبله ما بين عينيه

---

1 — كذا في الأصل.

---

(17) قدم : السابقة في العمل. الطريق

(18) في الأصل « إلى الله » التصحيح من نص الحديث

(19) هذه إشارة إلى الحديث : « أبغض إلاهٍ عبد في الأرض عند الله تعالى هو الهوى » اخرجه الطبراني من حديث أبي أسامة باسناد ضعيف انظر المغنى بذيل الاحياء ج 1/34

(20) الآية 22 من سورة الجاثية مكية

(21) سبق تخريج الحديث في أوائل رسالة جواب الكتاب أنظر ص 134 رقم /26/ .

(22) الفرث : السّرْجِينْ ما دام في الكرش .

وقال : الحمد لله الذي خلق مني من يعينني على ديني . وخرج إلى الناس . ولم يَقِلْ . ونادى من كانت له مظلمة عند بني مروان (23) أو غيرهم فليأتنا . فأتاه الناس فجعل يرد عليهم ما غصب منهم من ديار وضياع . وجدار وعبيد وغير ذلك من الدول قبله حتى لم يترك مظلمة إلا وأزالها . ولا حقّاً إلا أداه — رضي الله عنه — مع السكينة وخفض الجناح وسلامة النفس . وأمن الغائلة (24) والشفقة والرحمة على عهد السلف الصالحين . وكان أنكر عليه بنو مروان ما فعل بأموالهم فكتب إليه عمر بن الوليد[1] وهو يومئذ أسنهم كتابا يعاتبه ويقول له : إنك قطعت أرحام أهلك . ودفعت ضياعهم . وأتلفت أموالهم . فقمت بهذا الأمر لتصلح فأفسدت . ورمت التقرب إلى الله تعالى فبعدت . فياليتك لم تل هذا الأمر . فأجابه عمر أمير المؤمنين رضي الله عنه بكتاب مقزع (25) يقول فيه : طال ما تِهتُم في الضلال وعتوتم في الفساد . فسقكم اعوجاجكم . إلى أن قال له من آخر كلامه : أبيعك وأقسم ثمنك على المسلمين فإن أباك الوليد قد اشترى أمك من بيت مال المسلمين فاستولدك . وهم أحق . من كلام اخترناه . وكان رحمه الله عازماً على هذا الذي ذكر أن يفعله غير أنه أخره تدريجاً لِتَمَهُّدِ الأمر . وخاف أن يفعل ذلك فتنفر الناس وربما اختل النظام . وكان ابنه عبد الملك استعجله في ذلك حتى قال له : ياأبت وددت أني وإياك في طنجير يحمى علينا في ذات الله . فقال له أبوه : مهلاً يابني ! مهلا ! فإن الله تعالى قد ذم الخمر مرتين وحرمها في الثالث . وذلك تدريجاً للعباد كما درجهم في التنزيل حيث أخر الخمر . والفواحش . والقتال/على الدّين . ونحو ذلك . فكأن عبد الملك رضي الله عنه طارت به قوة الإرادة وعنوان الديانة فقال ما قال . وأبوه رضي الله عنه كان أفقه بالدين . وأعرق في العلم . وأفقه في مواد الشرع . وأعرف بمصالح العباد . ثم اختار قبل أن يكون ما عسى أن

ص 225

---

1 — في الأصل زيادة أبي . « أبي الوليد » وهذا سهو من الناسخ وسيظهر ذلك في السياق .

---

(23) بنو مروان الأمويون من عقب عبد المالك بن مروان (65هـ—86هـ) الذي يعتبر بحق المؤسس الثاني للدولة الأموية . لأنه انتشلها من الفتنة والفوضى . انظر تاريخ الإسلام ج 1/292 تأليف الدكتور حسن ابراهيم حسن

(24) أمِن غائلته : لم يخش شره

(25) مقزع : أقْرَعَ له في المنطق . تعدى في القول .

يكون .

ثم جاءه الشعراء على عادتهم في تهنئة الملك فامتنع منهم وقال : مالي وللشعراء ؟ حتى أثبتوا له أن النبي ﷺ قد سمع الشعر وأثاب عليه . فأذن لجرير بن الخطفا وطرد الآخرين . ثم قال له : اتق الله يا جرير . ولا تقل إلا حقاً . فأنشده شعره . فلما فرغ قال له رضي الله عنه : إني قد وليت هذا الأمر وليس عندي إلا ثلثمائة : مائة لأم عبد الله . ومائة لعبد الله ومائة لك يا جرير . ولم يمس بيت المال . وإنما أعطى من خالص ماله . فخرج جرير فتلقاه الشعراء . وقالوا له : ما وراءك يا أبا حزرة ؟ فقال : ما يسرني وإني عنه لراض . فقال : رأيت رقي الشيطان لا تستفزه (26) البيت . وسمع مسلمة ابن عبد الملك بكاء في داره رضي الله عنه فدخل إلى أخته فاطمة بنت عبدالملك زوجة أمير المؤمنين فقال لها : ما شأنكم ؟ فقالت : دخل علينا فقال إنه نزل بي من هذا الأمر ما يشغلني عنكم . فمن أرادتم منكن أن تبقى وتحتسب وتعبد الله تعالى وتصبر فلتفعل . وكان رضي الله عنه يقول : إن اشتغلت بهن في النهار ضيعت الناس . وإن اشتغلت بهن في الليل ضيعت نفسي . وكان لفاطمة ثوب منسوج بالذهب أتت به من دار أبيها . فلما ولى قال لها رديه إلى بيت مال المسلمين . ويقال إنهم دخلوا عليه في مرضه وهو على حصير . وثيابه وسخة . فأرسلوا إلى فاطمة يقولون لها : لم تتركين أمير المؤمنين في هذه الحالة ؟ فقالت : إنه والله ما بيده مال . وبيت المال ملئان . ولما حضرته الوفاة لامَهُ الناس وقالوا له : إنك تركت أولادك فقراء محاويج فقال سبحان الله . إني لم أمنعهم حقا كان لهم . ولست بالذي أعطيهم ما ليس لهم . ثم دعا بهم فاجتمعوا بين يديه ونظر إليهم فبكى . ثم وعظهم وبصرهم ودعا لهم . فيقال إنه لم يفتقر ولد لعمر بن عبد العزيز ببركة دعوته وصدقه مع الله تعالى . وقد ذهب أولاد الملوك قبله وبعده شذر مذر .
والأمر لله الواحد/القهار .. وأخباره رضي الله عنه أكبر من هذا وأكثر . فمن كان ذا بصر في أمره وطلب النجاة لنفسه . فقد رأى فريقين : فريق أهل الحق وفريق أهل الهوى . فلينظر أيهما يتبع . والحق أحق أن يُتَّبع . وقد جاء رجل

ص 226

---

(26) لم اقف على هذا البيت لا في ديوان جرير ولا في كتب الادب التي اطلعت عليها

إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه . فقال له : رأيت القيامة قد قامت وإذا بالصراط قد نصب فجاء أبو بكر فعبر . ثم عمر كذلك . ثم عثمان . ثم جيء بعلي ومعاوية فأدخلا للمحكومة بينهما . فخرج علي وهو يقول : قسم لي ورب الكعبة ! ثم خرج معاوية وهو يقول : غفر لي ورب الكعبة ! ثم جاء عبد الملك فوضع رجله فسقط في النار . وجاء الوليد فسقط . وجاء سليمان فسقط . فلما لم يبق إلا أمير المؤمنين جعل يبكي ويصيح ويشهق حتى كاد يموت . والرجل يقول : والله ياأمير المؤمنين لقد رأيتك نجوت . فمن تخيل هذا الموقف وتذكر قوله ﷺ : « ما من وال يلي ولاية إلا جاء يوم القيامة ويداه مغلولة إلى عنقه . فمن عدل يفكه ومن جار يوبقه » (27) . استعد لأمر . وارتكب الجد . وأمّا جعفر (28) فهو رجل من الملوك يعمه ما يعمهم . ولم يأت حتى كان المال قبله دُوَلاً . وعباد الله عبيد خَوَلاً . وليس من الخلفاء المقتدى بهم . مع أن كلامه غير خارج عن الصواب . فإن قوله لابنه : تركت لك ما فيه كفاية الجند . وكفاية الذرية صحيح . وليس فيه ما يقتضي أنه يأخذ ذلك كما أحب لمجرد الشهوة . بل إخاله[1] إن كان من أهل الهدى . على ما علم من هذا الأمر . من الأخذ بالعلم والتقوى . كفعل السلف الصالحين . وإن كان من أهل الهوى والشهوة . فلا سؤال عنه . ولا استدلال به وليس التحفظ مخصوصاً بما يصرفه في البيوت . بل في الجند أيضاً . فلا بد من العلم والتقوى في الجميع . حتى لا يمنع الحق . ولا يفسد المال في غير حق . وأما التعرض لما يستحقه صاحب الأمر من بيوت المال . وما يكون له أن يأخذه من الناس وما يكون به استحقاق المرتبة من الأوصاف والشروط . والفرق بين الخلافة المعتبرة شرعاً . والتغلب ونحو ذلك . فهذا أمر متعذر لا يستطاع ذكره ولا الحوم بساحته . وقد ذهب الحديث عنه منذ الخلفاء/الراشدين . فإنهم رضي الله عنهم كانوا قد قاموا في هذا ص 227

---

1 — في الأصل « أحاله » وأظنه خطأ من الناسخ . صححت بما يناسب السياق .

---

(27) حديث اخرجه احمد من رواية عبادة ابن الصامت . رواه البزار وابو يعلى والطبراني في الاوسط من حديث ابي هريرة . انظر المغني بحاشية الاحياء ج 3 324 . فيض القدير ج 1 469

(28) لعله يعني ابا جعفر المنصور . وإنما اسقط الناسخ « ابو » وهو ثاني الخلفاء العباسيين بعد ابي العباس المنصور . والدليل على ذلك ان اليوسي يوقف عنده الاستشهاد . ويؤكد انه ليس خليفة حتى يشتشهد به . اي ان الدولة العباسية لا صلة لها بالخلفاء على نحو ما كانت الاموية بواسطة عمر بن عبد العزيز

الأمر لله تعالى واتخذوه عبادة . ولو وجدوا من يحمله عنهم لم يكرهوا . وكانوا مستقيمين على الصراط المستقيم لا تُتَّقى بوادرُهم ، ولا تُخْشَى غائلتُهم ، ولا يأنفوا من الحق أن يسمعوه ، بل يطلبونه ويحبون من ينصحهم وينصفون من أنفسهم ، فكان علماء زمانهم قد علموا ذلك منهم وتحققوه ، فكانوا ينصحونهم بكل جليلة ودقيقة لا يتوقعون منهم إلا المجازاة بالخير آمنين مطمئنين ، فلما انقلبت الدولة مُلكاً من عهد الأمويين[1] كما ذكرنا ، وحدثت الشهوة المتبعة والغضب لغير الله ، والصولة على أعراض الناس ودمائهم وأموالهم بغير حق ، انخنس (29) العلماء وهربوا بأنفسهم طلباً للنجاة ، وعلموا أن النصح لا ينفع ، وعملوا بقوله ﷺ « إذا رأيت شُحّاً مُطاعاً وهوىً متبعاً ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، فعليك بخويصة نفسك » (30) وتفرغوا للإستعداد لمعاهدهم ، وتركوا الخلق في بلواهم والله تعالى أعلم بمصالحهم ، ومراده ما هم عليه . وهذه سيرة السلف رضي الله عنهم ، فكان الملوك إذ ذاك يغلبونه ويأتونه . وكان العلم أعز شيء ، والعلماء أعز الناس . كما قال أبو الأسود الدؤلي (31) رضي الله عنه : لا شيء في الدنيا أعز من العلم ، الأمراء حكام على الناس ، والعلماء حكام على الأمراء . ثم دارت جولة الدنيا عليهم ، وداخلهم الطمع ، فَطَلَبوا التقرب إلى الملك ، واشتغلوا بالمداراة بل بالمداهنة معهم ، والتحبب إليهم بكل مِحالٍ (32) ، فعاقبهم الله تعالى بزهدهم فيهم ، والتعزز عليهم ، فهان العلم وهان أهله كما قال القائل (33) :

يقولون لي فيك انقباض وإنما ... رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
أأغرسه عِزّاً وأجنيه ذِلة ... إذاً فاتباع الجهل قد كان أحزما

---

1 — في الأصل « الأمرين » صححت بما يناسب.

---

(29) انخنس عنه : تأخر وانقبض وتخلف .
(30) حديث أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجة . أنظر المغني بذيل الاحياء ج 3/369/377 .
(31) سبقت ترجمته في رسالة جواب الكتاب أنظر ص 136 رقم /36/ .
(32) المحال : رَوْمُ الأمر بالحيل والمكر .
(33) الأبيات للقاضي الجرجاني وقد سبق التعليق عليها في رسالة جواب الكتاب .

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظّموه في النفوس لعظما
ولكن أهانوه[1] فهانوا[2] ودنسوا محياه بالأطماع حتّى تجهما

وهذا كلام على الغالب . وإلاّ ففي كل زمان والحمد لله سادة وفي كل قطر قادة . ثم إن الله تعالى لم يُخْل بفضله وإحسانه وطوله (34) وامتنانه . كل ما أظهر للوجود/من حكمة وفائدة . ومنة وعائدة . فقد جعل تعالى في الملوك على ما هم عليه مصالح العباد جمة . طوقهم بها كل منة ونعمة . وذلك كتأمين السبل وحسم الفتنة . وحماية البيضة وإعزاز الملة . وإظهار أئمة الإسلام وغير ذلك . ولذلك ورد في الخبر : « السلطان ظل الله في الأرض » (35) و « السلطان الجائر خير من الفتنة » (36) وقال ابن المبارك (37) رضي الله عنه : 228 ب

لولا الأئمة لم تأمن لنا سبل وكان أضعفنا نهباً لأقوانا

وليسوا على وصف واحد ولا في درجة واحدة . بل هم متفاوتون في الفضل . متفاضلون في النبل . فمن كان منهم أقرب شبهاً بالخلفاء الراشدين في مراعاة العدل والفضل . وحسن الخلق والسيرة . وكثرة السعي في مصالح الرعية . وتوقي مضارهم . كان أفضل وأكمل . ولم يزل في كل دولة من الدول من يتطاول إلى نسمات أهل الخير . ويزاحم أهلها . وكل من فعل خصلة حميدة فهو محمود عليها . ومنسوب عند الانتماء إليها . ولو لم يكن إلا الإنصاف بسماع الحق . وقد حمدنا الله تعالى إذ كنا في دولة سلطان هاشمي علوي فاطمي . يستمع الحق ويطلبه ولا يأنف عنه . ولا يستفزه كبرياء ولا أشر ولا

---

1 — في الأصل « أهانوا » صححت من « يتيمة الدهر ». 2 — في الأصل « فهان » التصحيح من نفس المرجع .

---

(34) الطول : الفضل والقدرة .

(35) حديث أخرجه البزار بسند ضعيف من حديث ابن عمر . أنظر المغني ج 99/4 . وأخرجه الطبراني والبيهقي أيضا وذكره الذهبي في الضعفاء . أنظر فيض القدير ج 142/4 .

(36) ورد هذا الحديث بهذا اللفظ : « الإمارة الفاجرة خير من الهرج » رواه الطبراني في الكبير أنظر المغني بذيل الإحياء ج 99/4 .

(37) سبقت ترجمته في الرسالة الأولى « جواب الكتاب » انظر ص 136 رقم /37/ .

بطر (38) . فهذا من فضل الله علينا ومنته لدينا . نسأله سبحانه أن يديم علينا نعمته . وأن يديم على سلطاننا أيامه الصالحة . ويديم عليه غوادي فضله وروائحه . وأن يكمل عليه نعمة الاستماع . بنعمة العزم على الخير . ونعمة العزم بنعمة العمل . ونعمة العمل بنعمة الإخلاص والقبول . حتى يبرز في الدارين بأسنى المراتب . وأشرف المناقب وأن يصلح به البلاد والعباد . ويحسم به كل فتنة وفساد . إنه على ذلك قدير . وبالإجابة جدير . وكتب عبد الله الحسن بن مسعود كان الله له آمين .

(من خط خط من نقل بلفظه والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين والحمد لله رب العالمين .)[1]

---

1 — زيادة من قول الناسخ

---

(38) الأشر : البطر : المرح والخيلاء والتكبّر على الحق . والطغيان بالنعمة وكراهية الشيء من غير ان يستحق الكراهية .

جواب اليوسي في موضوع فتح العرائش

هذه الرسالة بعثها أبو علي اليوسي إلى السلطان المولى إسماعيل ، ردّاً على استفتائه لعدد من علماء عصره ، في موضوع صحة الأمان الذي أعطى لنصارى ثغر العرائش عند فتحها . (1) وقد نقل الناسخ أيضاً مقدمة للجواب ، وجدها في الأصل الذي نقل منه ، كما ذكر ذلك في آخر الجواب تقول هذه المقدمة :

« ومما كتب به شيخنا العلامة القدوة أبو المعالي سيدي الحسن بن مسعود اليوسي قدس الله سره جواباً على نازلة نصارى فتح العرائش ، أدامها الله للإسلام وحاطها ، على ما تضمنه كتاب مولانا أمير المؤمنين ، المبعوث إليهم ، أنهم لما انقطع رجاؤهم من البر والبحر ، بعثوا راهباً منهم مع نصراني آخر ، وطلبوا من أمير المؤمنين أن يجعل لهم أجلاً من مدة شهر مُهادنة ، فقال لهم أمير المؤمنين فيما كتب لهم فيه : انزلوا واستسلموا للأسر ، ونعطيكم أمان رقابكم ، ونعطي السراح لمائة تختارونها منكم تذهب لذلك البر . فلما بلغهم ذلك ماجوا ، وجلُّهم ما صدق ، حتى هرب منهم نحو الخمسة في البحر . فقتل المسلمون بعض هؤلاء الهاربين وأسروا بعضهم ، وما نجى منهم أحد . هذه صورة القضية . »

---

(1) تم هذا الفتح في الثامن عشر من المحرم سنة إحدى ومائة والف . وكان الإسبان قد استولوا على هذا الثغر سنة 1019هـ بعدما وعدوا الملك السعدي الشيخ المامون بنصرته على أخيه زيدان في الفتنة التي قامت بينهما حول الخلافة أنظر الاستقصا ج 6ص 20 وما بعدها .

وتحدث في مسألة هذا الأمان الذي أعطى للنصارى صاحب « النزهة » فقال : (2) «فتحها المسلمون بعد معاناة شديدة . وذلك أنهم حفروا المينات تحت خندق سورها الموالي للمرسى . وملأوها بارود . ثم أوقدوها بالنار . فنفطت وسقط جانب من السور . فاقتحم المسلمون منه . وتسلقوا إلى ما كان من النصارى على الأسوار . فوقعت ملحمة عظيمة . وفر باقيهم إلى حصن « القبيبات » الذي بناه المنصور السعدي . واعتصموا به يوماً وليلة . فخامر قلوبهم الجزع وطلبوا الأمان . فأمنهم القائد أبو العباس (أحمد بن حدو البطوئي) على حكم السلطان . فنزلوا عليه . فأخذوا أسارى بأجمعهم ولم يعتق منهم إلا أميرهم وحده .»

ومن الذين أجابوا في مسألة الأمان الذي أعطى لنصارى العرائش . قاضي مكناسة في ذلك الوقت أبو عبد الله محمد بومدين (3) قال أبو القاسم العميري (4) في فهرسته عند التعرض لفتح العرائش :

« وكان النصارى الصبانيون تملكوه على يد محمد الشيخ بن مولاي أحمد . افْتكّ به بنيه الذين كان تركهم رهناً . فيمَا صَيَّروه عليه وعلى حاشيته في ضيافته عندهم ما يزيد على العام لقضية مشهورة . وحادثة غير مشكورة . ثم إن الله تعالى امتن — ولله الحمد — بفتحها على يد مولاي اسماعيل رحمه الله ..... إذ فتحت عليهم عنوة . وَعْدِموا في الرد عنده منهم الحول والقوة . وما شاع من التأمين لفئة من عتاتهم وقائدهم إلى ربقة أسرهم وشكاتهم . فقد حال القدر بينهم وبين تمامه ..... وهذا القاضي أبو عبد الله سيدي محمد بومدين تكلم في نازلتهم وأبان حكم حادثتهم ».

---

(2) انظر « نزهة الحادي » لليفراني ورقة 182 ظ . 183 مخطوطة الخزانة العامة بالرباط رقم د 1406.

(3) أبو عبد الله محمد بومدين السوسي (.../1120هـ) إمام في المعقول . برع في الفتيا واشتهر فيها كان قاضيا بمكناسة الزيتون . له شرح على سلم الأخضري . من تلامذة اليوسي . أنظر ترجمته في نشر المثاني ج 2/64 و.

(4) أبو القاسم العُميري (.../1131هـ) من الفقهاء المتأدبين . أنظر ترجمته في فهرسته . مخطوطة الخزانة العامة بالرباط ك 1361 .

ثم أورد العميري جواباً طويلا للقاضي المذكور (5) وهو الجواب الوحيد الذي وقفتْ عليه حتى الآن في هذه المسألة رغم أن اليوسي يذكر في مقدمة جوابه أنه « نظر في أجوبة الفقهاء أصلحهم الله وسدد رأيهم . وأدام وجودهم للإسلام »

مخطوطات الرسالة :

جواب اليوسي في نازلة العرائش يوجد مع جوابه في طائفة « العكاكزة » في نسخة فريدة في مجموع الخزانة العامة بالرباط مخطوطة رقم ك 1224 من ص 188 إلى ص 194 . ولم أقف رغم البحث والتنقيب على نسخة أخرى من هذا الجواب .

وسوف أتعرض لوصف المخطوطة في جواب « طائفة العكاكزة »

واعتمدت على هذه النسخة الفريدة واعتبرتها أصلا رغم خلوها من كل تعليق أو تمليك . اللهم إلا ما كتبه ناسخها في آخر الجواب . قال : « انتهى جواب العلامة اليوسي رحمه الله . وترجمة الجواب التي صدرنا بها جوابه . كذا وجدتها في المنتسخ منه صدره أيضاً . فكتبتها كذلك . اللهم ياذا الفضل العظيم عُمَّني بفضلك ورحمتك في الدنيا والآخرة بجاه رسولك سيدنا محمد ﷺ . واختم لي بالحسنى وَبَوِّئني المقر الأَسْنى . مع الذين أنعمت عليهم من النبيئين والصدقين والشهداء والصالحين بفضلك وكرمك ياأرحم الراحمين والحمد لله رب العالمين » .

---

(5) أنظر الفهرست للعمري ص 881

الرسالة الرابعة

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه .

أما بعد . فإنا قد نظرنا في مسألة نصارى العرائش أدامها الله تعالى للإسلام . ونظرنا في أجوبة الفقهاء (6) أصلحهم الله وسدد رأيهم وأدام وجودهم للإسلام . على حسب ما التمس سيدنا الأصعد . الرفيع الأمجد . أدام دولته منصورة الأعلام . مشرقة الليالي والأيام . مصونة بالحفظ والتأييد . والرشد والتسديد . نظراً بحسب ما تيسر من حالي في الوقت وإلى الله تعالى المشتكَى . ولم تمكن مراجعة الأصول لتعذرها عليَّ في الوقت . ومع ذلك لا حاجة إليها . فإن المسألة واضحة . في الفقه شهيرة . فغاية الأمر أن ينظر في ثبوت الأمان وعدمه . فإن صح — على ما وقع في الجوابين (6) وما سمعنا من ألفاظ حملته — أنهم لم يقبلوا الأمان بحسب ما ظهر من أفعالهم . وأنهم حين ورد عليهم كتاب أمير المؤمنين نصره الله . اشمأزوا وحاصوا (7) وماج بعضهم في بعض حتى ألقى البعض منهم نفسه في اليم . وأن ذلك كله ونحوه كان منهم كراهية للغلبة ولو على التأمين . فلا أمان لهؤلاء بل هم ملك للمسلمين . فإن اعترفوا بذلك أو ظهر ظهوراً بيناً لا يدفع فلا مقال لهم . وإن زعموا أنه لتأمين المتوسط استندوا لا لتأمين الإمام . فإن كان يومئذ خائفاً منهم فللإمام النظر فيهم . وإن ادعوا من ذلك شيئا آخر واحتيج إلى الترافع فلا مندوحة عنه . وعرفاء الجند المظفر الأعز . بصراء بذلك لا تخفى عليهم أفعالهم . ولا مظاهر نيانهم .

وكذا لو عزموا بعد علمهم بالتأمين . على الفتك بالمسلمين أو بعضهم . مع

---

(6) لم أقف على أجوبة كل العلماء المعاصرين لليوسي في هذه المسألة . ما وجدته هو جواب أبي عبد الله بومدين قاضي مكناسة في ذلك الوقت . أنظر فهرست العمري مخطوطة الخزانة العامة بالرباط رقم ك 1361 ص 188

(7) حَاصَ يحيص : عَدَلَ وحاد عن الشيء .

ممالاة (8) الآخرين . أو تكثيرهم السوداء من غير إنكار . فهذا أيضاً يوجب عليهم انتقاض العهد على تقرير ثبوته والله الموفق .

وإن ثبت الأمان بموجبه فلا محيد عن العمل به والغدر.....[1] وحديث
ص 189 التأمين والوفاء به/محكم لا ينسخ . وثابت لا يفسخ . ولو كان من أدنى الناس . كما قال ﷺ في « المسلمين يسعى بذمتهم أدناهم » (9) فكيف من أميرهم .

وقد اتفق الأئمة الأربعة على صحة تأمين كل مسلم مميز . لكافر واحد أو جماعة من كل عدد محصور قال في « القوانين » : فتدخل في ذلك المرأة عند الأربعة والعبد عند الثلاثة يعني مالكاً والشافعي وأبا حنيفة . والصبي الذي يعقل الأمان في المذهب . يعني مذهب مالك .

وأما الإمام فله التأمين مطلقاً وسواء في ذلك كله كانت مصلحته أو لا . إنما يشترط أن لا يكون ضرر . وليس الضرر مجرد ما يقع اسمه كفَوَاتِ نفس أو مال . فإن التأمين قلما يخلو من ذلك . وإنما الضرر ما يسرى إلى الناس . كتأمين جاسوس أو طليعة كما مثّلوا . وليس في الواقعة بحمد الله إن قُدر ثبوت الأمان والقيام به ضرر على المسلمين . فبعد أن أظفرهم الله بحصن عظيم كانوا يتمنون أن لو هرب عنه العدو وأَعْرَوْهُ (10) فتملكناه . ثم مكنه الله بما فيه من الأموال . وجماعة وافرة من العدو . فأي شيء بعد ذلك إنْ مَنَّ مولانا أيده الله على نفر منهم فذهبوا . فهذا كله فيض من فضل الله . وكان الذاهب منهم بصفة نبدها أعزه الله في بحر الروم[2] . وهبهم مُعينين عند أهلهم السفلة أمثالهم . أو لهم أموال في بلادهم . فأي شيء في ذلك وكل يوم في بلاد الله مثل ذلك أو أكثر . شرقاً وغرباً . وذلك كله تافه في جنب أموال أمير المؤمنين . وعظمة

---

1 — كلمة غير مفهومة في الأصل . 2 — كذا في الأصل .

---

(8) من : مالأَ يُمالِئُ : مُمالأَةً على الأمر : ساعد وعاون عليه .

(9) من حديث طويل رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن علي بن أبي طالب . أنظر إرشاد الساري ج 5/238 وشرح النووي على صحيح مسلم بهامش الإرشاد ج 6/79 . كما أخرجه أيضا أحمد وأبو داود والنسائي والحاكم . أنظر بلوغ المرام ص 273

(10) أعرى الرجل من الثوب : نزعه عنه . أعرى الحصن تركه.

ملكه . ووفور ذخائره . وعار الغدر لا يقوم به ذلك . فكيف نرضى أن تمسح الروم عوارضها ضحكاً منّا . وأنّا غدرنا . فلم نُقم شرعنا ولا فعلنا فعل الكرام .

وقد وقع في كلام الإمام اللخمي (11) رحمه الله أن الأسير إذا ائتمن مكرهاً لا يجوز له الهرب خلاف ما هو مشهور المذهب . قال لأن ذلك يدخل ضرراً على المسلمين . والتضييق على ما بأيدي العدو من الأسارى . ويرون أن المسلمين لا يوفون بعهد . فهذا فِرَارٌ واحد قد يعتذر له بالفاقة . وغيرها . فكيف بمن غدر في مستقر بلده . وفي محل اختياره . فأي عذر له ؟ فلينقلبن به النهار ليلا . ولتجرين به الفتنة رِجْلاً وخيلاً .

وأما توهم أن هذا تأمين بعد الإشراف على الفتح فغير سديد . فإن الإشراف على الفتح ظاهر فيما إذا تسنى . وليس دونه عائق معتبر . والفتح في مسألتنا دونه
190 ما يشيب الرؤوس/ويتلف المئين من النفوس . فالافتداء عن ذلك بزمرة من العدو ليس بضرر بل هو من المصالح التي تُعتبر .

وأما تحسين ذلك (12) بالنظر في أفعال الآباء وأفعال الجنس (13) من غير مشاركة في الفعل بوجه من الوجوه فلا يستقيم . كيف والقوم أهل حرب وعداوة متصدون لكل شر وفتك وغدر . ومكر وإضرار . منذ خوطبوا بالإسلام . ولم يُسلموا . وهلم جرّاً ؟. ولم ينقطع هذا الحكم عنهم — أعني التأمين — قط ولا رُوعِيَ فيه ما عسى أن يجره الأجداد على الأولاد . إذ كل نفس إنما تكلف بما جنت فعلا . أو إعانة بوجه . كما قال تعالى : « وَلاَ تَزِرُ

---

(11) علي بن محمد الربعي أبو الحسن المعروف باللخمي (.../478هـ)فقيه مالكي له معرفة بالأدب والحديث . قيرواني الأصل نزل سفاقس وتوفي بها . صنف كتباً كثيرة أحسنها تعليق كبير في فقه المالكية سماه « التبصرة » أورد فيه آراء خرج بها عن المذهب . أنظر ترجمته ومصادرها في الاعلام ج 148/5.

(12) تحسين انتقاض الأمان

(13) يعني النصارى عموما .

وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » (14) . وقد فتحت الشام والعراق ومصر والمغرب في زمان الخلفاء الراشدين . وكم من مدينة فيه أو حصن أو قلعة نكثوا أيمانهم بعد الفتح . وربما سفكوا الدماء . واستباحوا الأموال وهذا أعظم الغدر . ثم حكم التأمين جار . ما قط انقطع .

وما ذكره شيخ شيوخنا العلامة سيدي العربي الفاسي (15) إن كان في الأرض تكون بالأصل للمسلمين وتملكها العدو . فواضح أن للمسلمين أن يتملكوها بما أمكنهم . كما في صورة العرائش . فلنا أن نحتال في تملكها بما أمكننا من الوجوه ولو غدراً . لأنها للمسلمين بالأصالة . ولا حق فيها للمشركين . فتملكها من يد المشركين لا حرج فيه بأي وجه . وقد قال ﷺ للمرأة التي جاءت بناقته وكانت من الإبل التي أخذتها غطفان وقالت : إني نَذَرْتُ إن هي بلغتني أن أنحرها « بِئْسَ مَا جَزَيْتِهَا إِذْ بَلَّغَتْكِ » . ثم قال ﷺ : « إنما هي ناقة من إبلي » (16) أو فيمن فعل بنا أمراً فإنا نفعله به . ولابد من مراعاة قوانين الشرع وهذا معلوم . وليس هذه من مسألتنا في وِرْدٍ ولا صدَر (17)

---

(14) الآية 15 من سورة الاسراء . مكية

(15) أبو حامد محمد العربي بن يوسف الفاسي (988هـ/1052هـ) متصوف من أهل فاس توفي بتطوان . خرج من فاس فاراً من فتنة العرائش . له مؤلفات « مرآة المحاسن » في مناقب والده و « المراصد » وغيرها . أنظر ترجمته وأخباره في شجرة النور ص 302 الصفوة ص 87 نشر المثاني ج 93/1 وجه. التقاط الدرر ص 23 أزهار البستان ص 138

(16) هذه الحادثة وقعت في غزوة ذي قرد . حين أغارت خيل بن غطفان على لقاح (الإبل الحوامل ذات اللبن) لرسول الله ﷺ بالغابة وفيها رجل من بني غفار وامرأة له . فقتلوا الرجل واحتملوا المرأة في اللقاح فأدركهم بعض فرسان المسلمين واستنفدوا بعض اللقاح . ثم أقبلت امرأة الغفاري على ناقة من إبل رسول الله ﷺ وقالت : يارسول الله إني نذرت لله أن أنحرها إن نجاني الله عليها فتبسم الرسول وقال : « بئس ما جزيتها إن حملك الله عليها ونجاك بها ثم تنحريها . إنه لا نذر في معصية الله ولا فيما لا تملكين إنما هي ناقة من إبلي . فارجعي إلى أهلك على بركة الله » والحديث عن أبي الزبير المكي . أنظر سيرة ابن هشام ج 327/3

(17) ليس هذا من الشيء في وِرْدٍ ولا صدرٍ : أي ليس منه في شيء

فإن هؤلاء ما فعلوا بنا شيئاً . وإن فعلوا شيئاً فقد درأ عنهم التأمين . وبلدنا أخذناه . وإن كان كلامه (18) في غير ذلك فلا علينا منه . وإن كان فيما يتمسك به المتمسك من عدم الوفاء . أو من إصابة البرئ بفعل الجاني . فلا يلتفت إليه . فالشريعة قد تقرّرْه ففيها الكفاية والمقنع . وما هو أحق أن يتبع . والحق أبلج والباطل لجلج (19)

فما بقي اليوم من محل لاستظهار أو استحسان . بعد وضوح الشريعة وتقرر المذهب . وقد التزم المجتهدون في المذهب قبل اليوم بزمان . ألا يفتوا إلا بمشهوره . فكيف بالمقلد اليوم . فأي حاجة إلى اصطياد ما لأنَ من المذهب والتجرؤ بأن ذلك فيه كفاية ؟

واختصار القول في ذلك أن الله تعالى أنشب بيننا وبين أعدائه[1] من الكتابيين وغيرهم الحرب لإعلاء كلمة الله . وأباح لنا في ذلك أنفسهم وأموالهم . ثم من أسلم أمن . ومن أمناه بوجه من وجوهه الثلاثة (20)/ فهو ص 191 آمن أيضاً في الدنيا كما أمن بالإسلام مطلقاً . قال ﷺ في الإسلام « أمرت أن أقاتل الناس حتّى يقولوا لا إلاه إلا الله فإذا قالوها عَصَمُوا مني دمائهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله »(21) وقال تعالى: « فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلهم »(22) الآية وقال تعالى: في التأمين: « حَتَّى يَعْطُوا الجِزْيَةَ »(23) وقال تعالى: « إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ المُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ

---

1 — في الأصل زيادة « أهل » قبل من « الكتابين » وأظنه سهو من الناسخ

---

(18) كلام العربي الفاسي.

(19) مثال يعني أن الحق واضح والباطل ملتبس . قال المبرد قوله لجلج أي يردد فيه صاحبه ولا يصيب منه مخرجا . أنظر مجمع الأمثال ج 216/1

(20) الوجوه الثلاثة هي : الجزية . عقد المهادنة . مطلق التأمين .

(21) حديث صحيح رواه الشيخان وأصحاب السنن . أنظر مشكاة المصابيح ج 11/1

(22) من الآية 5 سورة التوبة . مدنية

(23) تمام الآية « قاتلوا الذين لا يومنون بالله ولا باليوم الآخر . ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله . ولا يدينون دين الحق من الذين أوتُوا الكتاب حتّى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » الآية 29 سورة التوبة مدنية .

يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً . وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ . إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ .» (24) وغير ذلك من الآي والأحاديث التي لا تُسْتَقْصَى . وهذا واضح في نفسه مشهور . وإنما جئنا به توطئة . فنقول : إن ثبوت التأمين في محله بوجه من وجوهه معلوم . وكل آية أو حديث يفهم الإغراء بالكفار نفساً ومالاً . فهو من أصل الإباحة . ومرد المحاربة . وهو مرتقب فيه التخصيص زماناً أو مكاناً أو شخصاً بالأمان . لأن التأمين . كالتخصيص كما وقع في القرآن التعبير بأسلوب ذلك قال تعالى : « حَتَّى يَعْطُوا الجِزْيَةَ » وقال تعالى : « إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ » الآية وغير ذلك من الآي والأحاديث .

ثم إن لكل وجه من وجوه التأمين . أعني الجزية . وعقد المهادنة . ومطلق التأمين أحكاماً . فضَرْبٌ بعضها ببعض على الإطلاق . ونقل نصوص بعضها في بعض تخليط . ولا يخلو من غلط .

أما مطلق التأمين الذي نحن فيه فقد سمعت أنه مما اتفقت عليه المذاهب الأربعة . فلم يبق فيه لذي بحث ولا ذي قياس . ولا اجتهاد على الإطلاق ما يفعل . اللهم إلا أن يحقق المناط . وينظر أهو واقع أم لا كما قلنا . نعم . ذكر الفقهاء في مباحث المال أنه لو كان لشخص على شخص مال . ثم ظفر الغريم بمال المديان فهل له الأخذ منه ؟ فقالوا إن كان غير مؤَمَّن عليه . وأمن فتنة على نفسه . فليأخذ . وإن كان مؤمَّناً عليه فلا يأخذ لقوله ﷺ : « أَدِّ الأمانة إِلَى من أئتمنك . ولا تخن من خانك » (25) وقال آخرون : له أن يأخذ لقوله تعالى : « فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ » (26) وغيرها من الآي . ويكون الحديث واقعة عين وهو بعيد . ويمكن الجمع بأن يأخذ من غير خيانة

---

(24) الآية 4 سورة التوبة مدنية

(25) حديث رواه الترمذي وأبو داود وحسنه . وصححه الحاكم واستنكره أبو حاتم الرازي وأخرجه جماعة من الحفاظ عن أبي هريرة . أنظر بلوغ المرام ص 40

(26) تمام الآية : « الشهر الحرام بالشهر الحرام . والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم . واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » الآية 194 سورة البقرة مدنية

بل بحكم الشرع . أو ما ينزل منزلته عند عدمه . وهذا كله ليس صورة النازلة ولا دليلها . فإدخاله فيها تهويل فقط ومُسَبِّبٌ فيه ظرف من الغدر . وقد أذن الفريق الثاني بالأخذ لكن هذا في المال ونحن في الرقاب . وهذا في المجازات لعين الفاعل ونحن فيما لا شيء . وأين هذا من هذا ؟ . وأما جعل الضمائر في نحو
ص 192 قوله تعالى : « فَاعْتَدُوا عليه (27) « وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا »/ (28) ونحوها . للأمم والأصناف . لا خصوص الأشخاص المباشرة الجناية . فإن كان في الأحكام العامة بالأصالة فصحيح . ولسنا منها . وإن كان على الإطلاق فضلال مبين . وتقرير ذلك أنه متى أريد ما أُذِنَ به على العموم . كقتال الكفار . واستباحة أموالها وأنفسها . سواء منهم من جنى عليك ومن لم يجن عليك . ونحوه من قتال المحاربين . فهذا في نفسه صحيح . ولكن لسنا منه . لأن قتال هؤلاء ومجازاتهم بالإذاية . ليس بخصوص كونه جانباً . بل لكونه محاداً لله تعالى ورسوله . فنحن نقصده بالإهلاك (سواء) [1] جنى علينا أو لم يجن . وبحثنا الآن إنما هو فيمن اعتصم بالأمان . وهو خارج عن الآتي على ما مر من ذكر التخصيص . ومتى أريد إطلاق الإذن فيمن جنى ومن لم يجن . ولا مالاً جانياً . ولا ظاهَرَ بوجه من الوجوه فهذا غير صحيح بالإجماع ولو كان من جنسه أو صنفه.

وقوله ﷺ : « لَأُمَثِّلَنَّ بسبعين منهم » (29) المشهور إنما وقعت في شأن حمزة رضي الله عنه حين بقر المشركون بطنه . وذلك يوم أحد قال ﷺ :

---

1 — زيادة يتطلبها المعنى ولا وجود لها في النص . مكانها بياض

---

(27) سبق تخريج الآية

(28) تمام الآية : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به . ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » الآية 126 سورة النحل . مدنية

(29) جاء هذا الحديث في مقتل حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ وتمثيل كفار قريش بجثته . أنظر القصة مفصلة في سيرة ابن هشام ج 1 47

« واللهِ لإن أظفرني الله بهم لَأُمَثِّلَنَّ بسبعين منهم » (30) فنزلت : « وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فعاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ » الآية . فكفر ﷺ عن يمينه وترك المثلة . وَلَعَمْرِي لو فعل ذلك يومئذ لوجد عند الظفر بهم أكبر من سبعين ما بين قريش وأشياعها كلها تحارب للكفر . وتحرص على الإذاية بكل ما أمكن . وتظاهر على ذلك . ولكن الله تعالى من رحمته أَبَى المثلة . وبالجملة . فهو ﷺ إنما قصد التمثيل بالكفار ضرورة أن معه بالمدينة قوماً من قومه لا يخشون من ذلك تحلة (31)[1] والكفار يومئذ أهل حرب يحق فيهم كل إذاية ونكال . فالهم بالتمثيل بهم ليس همّاً بغير الفاعل المستحق . فلا يَبْقَى للاحتجاج وجه . والحاصل أن الجنسية الطينية الإنسانية لا تعتبر في هذه المباحث . وإنما العبرة بالجنسية الفعلية الاختيارية . التي هي مناط التكليف . وعلى ذلك يحمل هذا الحديث فمن حاول الاحتجاج به فلا يلتفت (إلا)[2] إلى الفاعل ومن ظاهَرَهُ لا غير . ولا شك أن الفاعل هاهنا . ومن ظاهره أهل حرب . هم بصدد كلما يفعل بهم من الإذاية كما قررنا . وذلك بحكم الأصالة . ولا يقاس عليهم غيرهم . وهذا له أمر واضح في الشرع . ومن العجب العجيب أن لو دخل رجل من بني تميم إلى السوق فوقعت بينه وبين رجل فتنة فقتله وهرب . فأراد الحاكم مثلا أن يقتل رجلا من
ص 193 بني تميم أو أكثر . لكونهم من نسب/هذا القاتل . أو أخذ مالا فأراد هذا الحاكم أن يأخذ من أموالهم مثله أو أكثر . وهُم في ذلك لم يمالئوا ولم يظاهروا . بل ولم يعلموا أصلا . أفيكون هذا في دين المسلمين؟ أم يوجد له مصداق في الكتاب أو السنة؟ كَلاَّ وَاللَّه ! بل ذلك من أحكام الجهل واتطاغوت . ومنه المسمى عنْدَ العامة الإكفاف أضلهم الله وأضل سعيهم وَسَعْيَ من يدلهم وكان ذلك من أفعال الجاهلية وبها يتداعون . وفي الحديث : « من

---

1 — بياض في المتن بعد « تحلة » 2 — زيادة يتطلبها المعنى ولا وجود لها في النص

---

(30) جاء في السيرة قول رسول الله ﷺ لولا أن تحزن صفية وتكون سنة من بعدي لتركته حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطير . ولئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلنّ بثلاثين رجلا منهم ج 3 47

(31) التحلة : ما كُفّر به

تعزى بعزاء الجاهلية فَأعِضُّوهُ بِهَنِ أبيه ولا تُكْنُوا »(32) .

وقطعت الشريعة المطهرة ذلك القصاص ولذلك قال تعالى : « وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ » (33) . وقال تعالى : « ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسْرف في القتل » (34) أي لا يقتل غير قاتله أو أكثر أو غير ذلك من وجوه التعدي . أفنشتغل نحن اليوم بالإكفاف ونترك الشريعة المطهرة ؟ معاذ الله ، بعد تقرر الشريعة ، وإن العقوبة إنما هي على الجاني ، إن شخصاً فشخص ، وإن جماعة فجماعة . على أنه ﷺ لو فعل شيئاً من غير ذلك ، ربما فعل ما يكون من خواصه ، والشريعة اليوم تقررت ، وأن العقاب على الجاني لا غير فأي حجة تبقى هذا وفي غيره ، فضلا عن أن تكون في غاية الظهور والجلاء ، ومن قرر الآية على الاطلاق فمعناها عنده أن من فعل بك فعل سوء فافعل به مثله ولا تزد عليه . وهذا كله من نمط واحد لا عبرة به ، فإن هَذَا القدر لاَ يُدْخِلُ الأبناء في جناية الآباء . وعجباً عندنا اليهود تحت الذمة ما كنا نمنعهم أن يعتَدُّوا[1] بوقائع أسلافهم في أيام خيبر ونحوها ، وما وقع هنالك من المبارزات والمدافعات . ولا نَعُدَّهم بذلك ناقضين للعهد ، فهؤلاء ، أي شيء في ذكرهم ما وقع على وجه التبجح بالأحساب ، إذا لم يفعلوا ولا أعانوا فاعلا ؟ كيف ولو لقينا أسلافهم المذكورين وأعطيناهم أماناً لوجب الوفاء به ، ما لم

---

1 — في الأصل : « نبتدواْ » صححت بما يناسب.

---

(32) الحديث : « إذا رأيتم الرجل يتعزى بعزاء الجاهلية فَأَعِضُوهُ بهن أبيه ولا تُكْنُوا » رواه أحمد بن حنبل والترمذي عن أبي بن كعب . ورواه أيضا الطبراني والنسائي وابن حبان . ومعنى الحديث : إذا رأيتهم من ينتسب بنسب للجاهلية بإحياء سنن أهلها وعاداتهم واتباع سبيلهم . فَأعضوه : أي قولوا له أعضض . الهن : ذكر الرجل أي قولوا له : اعضض بهن أبيك أي بذكره . وصرحوا بلفظ الذكر أي من واجهكم بالمنكر فاذكروا له قبائح آبائه صريحاً لا كناية ليرتدع به عن التعرض للأعراض . وخص الأب لأن هتك عورته أقبح . أنظر فيض القدير لشرح الجامع الصغير ج 1/357 .

(33) تمام الآية : « ولكم في القصاص حياة ياأولى الألباب لعلكم تتقون » الآية 178 سورة البقرة

(34) من الآية 33 سورة الإسراء مكية

يفسد بموجب ؟ والغيرة الإسلامية حاملة على تقوى الله . وحفظ حدوده . لا خصوص إهلاك كافر ولو بغير حق . وقول عمر رضي الله عنه : أنا أؤمنك بعد قتل البراء . هو كلام قبل وقوع التأمين لا بعده كما في مسألتنا .

وإن أريد بذكر هذا الكلام أنه لا يصح هذا التأمين بل يفسخ . فلا يسلم . إذ ابتداء التأمين جائز اذ لا مفسدة فيه . وهبهم قتلوا كما قُتِلُوا لاَ بِدَع فيه . وهو شأن الحروب . والمصلحة لا تراعى كما مر . على أنها لو رُوعِيَتْ لوجدت من أوجه : **الأول** : أنه تمام الفتح . **الثاني** : أنه حقن للدماء ولو بقي الشيء بحاله لبقيَ المسلمون منتصبين للرصاص حتى يموت فيهم المئون/بحكم العادة . فالمائة فداء لهم . **الثالث** : أن فيه تنبيهاً على الحصون الباقية أن يتأهبوا للمخرج . وإلهاماً لعرفائها أن يشتروا أنفسهم قبل أن « لاَتَ حِينَ مَنَاصٍ » (35) ص 194

والوفاء بذلك هو ختام المصالح بما فيه من التأليف وإثبات الوثاقة . فلو وقع التوثق بالأمان . فإما أن يجتهدوا في المدافعة حتى يمس المسلمين من ذلك قرح عظيم . وإما أن يفرُّوا لأول غمزة . فلا يحصل للمسلمين منهم طائل . ونسأل الله أن يختار لمولان أي الجانبين أعظم :إما المال .وإما شرف الذكر . وليعلم سيدنا أيده الله أن هذه المسألة لا تنفصل بمجرد الفتاوى . وإن كانت مائة فتوى بل لابد مع ذلك من حَكَم يفصل . وذلك شأن كل أمر تداعاه إثنان . ثم ينبغي هنا بعد الحكم إن كان الظهور للمسلمين أن يشاد بذكره ....[1] قلوب الناس وألسنتهم مما يضمرون . ويتمضغون من عدم الوفاء مؤمنهم وكافرهم . وإن كان الحكم للكفرة أن يعلموا أيضاً به . ليعلموا أنهم ما خرجوا إلا بالشرع لا بمكر منهم ولا خديعة ولا اغترار منَّا فيشهدوا بمتانة الشريعة المحمدية على شارعها أفضل الصلاة والسلام ويشهدوا لسلطانها المديد المنصور . بوقوفه عليها . فلا يزالوا يرهبونه ويخضعون له . ويثقون بعهوده ومواثيقه . وفي ذلك من الخيرات

---

1 — كلمة غير مفهومة في الأصل

---

(35) تضمين لآية : « كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص » الآية 3 سورة ص مكية

والمصالح ما لا يَخْفَى . نسأل الله تعالى أن يجعل العزة والمجد وسائر الرغائب والخيرات منثالة على مولانا انثيال الغيث على الروض . والخشية والإيمان والطهارة منسجمة على قلبه انسجام الفيض السلسال على الحوض . وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً .

الرسالة في طائفة العكاكزة

يقول أحمد بن محمد التملي الشهير بالهشتوكي مؤلف «هداية الملك العلام»(1) ورقة 43: «..... تكلم فيها (طائفة العكاكزة) العلماء خلافة السلطان الرشيد سنة 1080هـ. واختلفوا فيهم. فمنهم من يقول هم زنادقة. ومنهم من يقول هم مرتدون يُستتابون. وآل أمرهم في ذلك الزمان إلى الاستتابة. فتابوا ظاهراً بعد أن أُوتِيَ بأكابرهم المجرمين إلى الحضرة البيضاء وسجنوا بها شهوراً. ثم أطلقوا بعد التوبة.»

ويظهر أن هذه الفرقة المبتدِعَة التي استحلت المحارم واقتحمت المناكر قد شغلت الناس هذه المدة من الزمن. وكاتبوا في شأنها أولى الأمر والعلماء والفقهاء ليبثوا في حالتها المنكرة. وقد عرفوا في نواح من المغرب منها بالخصوص (2):

— تادلا بني عمير. وبني سرو. والبضاضوة. ويسمون أنفسهم في هذه الناحية «بالشراقة»

— جبل فازاز في قبائل زمور ويسمون أنفسهم «بأعكازين» «والعكاكزة»

---

(1) أحمد بن محمد التملي الهشتوكي (1057هـ-1127هـ) تلميذ اليوسي. من الأدباء المغاربة. أنظر ترجمته في طبقات الحضيكي. والدرر المرصعة. وكتابه «هداية الملك العلام إلي بيت الله الحرام» غير مطبوع: مخطوطة الخزانة العامة بالرباط رقم ق 190

(2) أنظر نشر المثاني المخطوط ج 2 ورقة 33ظ وما بعدها. هداية الملك العلام ورقة 43 وما بعدها

وهو الاسم المشهور وقد ذكره صاحب نشر المثاني بالكاف المعقودة (3)

— بزعير في بعض قبائل الكَوْدة قرب سيدي أبي يعزى
— قرب تلمسان في بعض قبائل بني إزناسن
— بصحارى سجلماسة في بعض قبائل الغنائمة وتوات وما قرب إليهما

ومن الفقهاء الذيت أفتوا فيهم إلى جانب أبي علي اليوسي، قاضي سجلماسة عبد المالك التجمعتي (4) وقاضي مكناسة آنذاك محمد بن الحسن المجاصي (5) وبعد أخذ آراء الفقهاء فيهم غزاهم المولى إسماعيل وقتل منهم نحو الثلاثة والستين رجلا وذلك في أوائل ذي الحجة 1101هـ (6)

مخطوطات الرسالة:

لهذا الجواب نسخة مخطوطة واحدة كاملة في مجموع الخزانة العامة بالرباط كـ 1224 من المكتبة الكتانية. ونقل أبو العباس أحمد الهشتوكي جزءاً قصيراً منه في «هداية الملك العلام» وترك أوراقاً بعده لا شك أنها كانت لنقل النص فيما بعد، ولكنه لم يفعل. بينما أورد جواب التجمعتي في النازلة. وقد استأنستُ بالجزء الذي أثبته من رسالة اليوسي

وصف المخطوطة:

يوجد الجواب في مخطوطة الخزانة العامة بالرباط كـ 1234 وهي عبارة عن مجموع يضم أيضا جواب اليوسي في نازلة العرائش.

---

(3) أنظر نشر المثاني ج 2 ورقة 33 ظ

(4) سبقت ترجمة عبد المالك التجمعي في رسالة «جواب الكتاب». أنظر فتواه في مسألة العكاكزة في كتاب «هداية الملك العلام» ورقة 37 ظ وما بعدها

(5) سبقت ترجمة الحسن المجاصي في رسالة «براءة اليوسي». أنظر جوابه في مسألة العكاكزة في كتاب «نوازل محمد بن الحسن المجاصي» ص 89 طبعة حجرية بالمكتبة العامة بالرباط تحت رقم 17751

(6) أنظر «نشر المثاني» «وهداية الملك» المشار إليهما أعلاه.

وقد كتب في الصفحة الأولى للمخطوطة اشتمل هذا المجموع على :

— تعاليق المراقبة العليا في القضاء والفتيا للعلامة قاضي الجماعة البناهي
— وتويلفين للعلامة الشيخ سيدي الحسن اليوسي
— ومستودع العلامة، ومستبدع العلامة. لابن الأحمر
— وأعتاب الكتاب للقضاعي بن الأبار

والجواب في العكاكزة يوجد في صفحة 167 إلى صفحة 187 وخطه مغربي جميل يستعمل الألوان، وهو نفس الخط الذي نُقلت به أيضاً «رسالة نازلة العرائش» والأخطاء قليلة نسبيّاً وقد كتب في آخر الجواب: «انتهى ما وجد من هذا الجواب بحمد الله وحسن عونه وتوفيقه الجميل ويمنه، وصلى الله على سيدنا محمد نبينا ورسوله وعبده، على يد كاتبه لنفسه ولمن شاء الله من بعده عبيد ربه أبي بكر بن العربي...[1] لا زال فضل المولى عليه يجري بمنه آمين. عشية يوم الاثنين سادس ربيع الثاني عام 1327هـ رزقنا الله خيره وخير ما بعده، ووقانا شره وشر ما بعده، ياثقتي ياعلي، اختم بخيرٍ عملي».

---

1 — محو في الأصل

الرسالة الخامسة

بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيئين وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد. فإن الطائفة الضالة المتلقبة في غربنا هذا بالعكازين وبالشراقة (7) قد ظهر خُبثهم وعُوَارُهم (8). واستطار في الأرض عيبهم وشنارُهُم (9) وشاع ضلالهم في العام والخاص (وبلغت جرأتهم)[1] على الله الداني والقاص، شيوعاً بلغ في الجملة مبلغ التواتر، وارتفع فيه عند كل منصف التخالف والتشاجر. فتعين على ولي الأمر وهو سيدنا السلطان، السعيدة أعلامه، الحميدة أيامه، أعلى الله كلمته لإعلاء الدين، وعزز نصره لإخماد المجرمين المعتدين، وأبقى وافر فضله منهلا للشارعين (10)، ووارف ظله معقلا للضارعين، أن ينتهض انتهاضاً تاماً في إطفاء الشر الفظيع، وتغيير هذا المنكر الشنيع. قال تعالى: « الذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ المُنْكَرِ» الآية (11). وقال ﷺ: «لَتَأْمُرُنَّ بالمعروف، وتنهونَّ (عن المنكر)[2] أو ليعُمَّنكم الله ببلاء من عنده» (12). غير أن هؤلاء الضالين لاختلاطهم بالمسلمين. وانغماسهم في غمار المومنين، لابد أن يُبَالَغَ

---

1 — في الأصل كلمة لا تقرأ صححت من الجزء من هذه الرسالة الذي أثبته الهشتوكي في « هداية الملك العلام » ورقة 43. 2 — زيادة مما أثبته الهشتوكي. المرجع المشار إليه اعلاه. ومن متن الحديث أيضا

---

(7) من كان بتادلا منهم يسمون «بالشراقة» ويسمون المسلمين «بالخراثلة» وأما من كان منهم بجبل فازاز فيسمون أنفسهم «بالعكاكزة» والمسلمون «بأرمين» أنظر «هداية الملك العلام» ص 43

(8) العوار: الضلال.

(9) الشنار: العار والعيب

(10) شرع يشرع شرْعا وشروعا في الماء دخل فيه أو شرب بكفيه منه. شرع الوارد تناول الماء بفيه

(11) الآية 39 سورة الحج مدنية

(12) الحديث: «لتامرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم ثم يدعوا خياركم فلا يستجاب لهم.» أخرجه البزار من حديث عمر بن الخطاب. والطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة كلاهما ضعيف وللترمذي من حديث حذيفة نحوه إلا أنه قال: «أوليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ثم تدعون فلا يستجيب لكم» قال هذا حديث حسن. أنظر المغني بذيل «الإحياء» ج 2 308

فيهم بالفحص والاستخلاص ويُتوقَّى فيهم بتنقية الخَبَث من الخَلاص (13). حذار أن يؤخذ برئ بفاجر. أو يقتل مسلم بكافر فيوجه إليهم سيدنا أهل البصيرة والفطانة. والمعرفة والديانة. أو يلزم في كل صقع من الأصقاع المغربية من فيه من الحكام. المتقلدين استيفاء الحقوق وتنفيذ الأحكام. أن يستخلصوا هؤلاء المردة الفجرة من خَلَل القبائل. وتضاعيف المحلة والمنازل. ويأخذ كل من يؤم بهذه النحلة. وينسب إلى هذه الفعلة. فرادى وجماعات.

حتى إذا اعتقلوا وسجنوا طلبت الشهادة على كل قوم من عدول جيرانهم. الذين لا تخفى عليهم ظواهرهم وسرايرهم. ولا تغيب عنهم كبائرهم وصغائرهم.

ص 168 وبالجملة فيبعث في جمعهم/أقوى الناس ذكاء وفطانة. وأوثقهم أمانة وعفة وديانة. فإذا جمعوا. بأن يؤخذ كل من منهم أقيمت البينة(14) عليهم من الجيران. وسائر من عنده علم بهم من المسلمين. وفصلت الشهادة فيهم. فمن أثبتت البينة عليه الكفر. إما بنسبة الألوهية لغير الله تعالى. أو النبوَّة اليوم والشريعة لغير نبينا محمد ﷺ. أو بجحد شيء مما علم من الدّين ضرورة. كجحد وجوب الصلاة. وصيام رمضان. أو حرمة الفواحش مثلا ونحو ذلك. أو باستهزاء بالشريعة أو غير ذلك مما يكفر به.

فإن كان ذلك على وجه الزندقة بأن يشهدوا بأنه كان قبل أن يُقبض يخفي الكفر ويظهر الإيمان. فحكمه أن يقتل ولا تقبل توبته.

وإن كان على وجه الردة بأن يشهد بأنه كان مسلماً ثم كفر جهاراً. فحكمه أن يستتاب ثلاثاً فإن تاب. وإلا قتل.

ومن أثبتت عليه البينة المعصية فقط. بأن يشهدوا أنه كان يدين بدين الإسلام في .اعتقاده. إلا أنه تغلبه شهوته وهواه فيواقع المعاصي. فهذا يؤدب

---

(13) الخلاص والخلاص بفتح الحاء وكسرها: ماانتي عنه الغش من الذهب أو الفضة أو الزبد أو غيره

(14) الدليل والحجة الشرعية

على معصية الله تعالى بنظر الحاكم. ويقتل على ترك الصلاة ونحوها مما يقتل تاركه حداً أو كفراً على الخلاف فيه. بشرط ذلك كله المعروف في الفقه. وهذا كله بحسب تقدير الاحتمالات التي يمكن أن تقع. وقد بقي احتمال رابع (15). وهو أن يشهدوا أنه كان على دين اليهودية أو النصرانية أو المجوسية أو نحو ذلك خلفاً عن سلف من غير تقرر إسلام له قط. وهذا حكمه حكم الحَرْبِيِّينَ في ضرب الجزية عليه أو القتل أو غير ذلك مما عرف.

وبقي خامس وهو أن يشهدوا أنه كان مجاهراً بكفره بين العام والخاص غير أنه لم يرتد بنفسه، إذ لم يتقرر له إسلام قط. بل ورث ذلك عن آبائه. فإن كانوا هم المرتدين، أو ورثوا ذلك إلى ما لا يعلم، فهذا لا توجد فيه حقيقة الزندقة لعدم الإسرار. فالحكم عليه بالزندقة نظراً إلى كونه لم يتقرر له إسلام، ونظرا إلى كون أولاد المرتد لا يُلحقون بأبيهم لا وجه له بعد تسليم كونه مجاهراً.

ص 169 ثم نفى الردة رأساً، مع الحكم بأنه على دين لا يقر عليه كالمتدافع (16). كما أن الحكم باستبقائهم ولو بالجزية بعد الحكم بالرِّدَّة متدافع. وكذا إثبات الردة أو حكمها نظرا إلى جهاره، مع الاعتراف بأنه لا ردة له هو عن الإسلام، وأنه لا يلحق بأبيه في الردة لا وجه له. وكذا اختيار حكم الردة بعد نفي الحقيقي ترجيح من غير مرجح والتعليل بالاحتياط سيأتي بيان اختلاله.

والتفريق بين من ارتد إلى دين أهل الكتاب ونحوهم وبين من ارتد إلى دين آخر في أن الأول إذا بلغ ولده على الدين الذي ارتد إليه أبوه يترك، بخلاف الثاني، لا يعلم له وجه يحققه ولا نص يصدقه. نعم، وقع لبعض الفقهاء التنظير (17) في الكتابي، اذا ارتد إلى غير شريعته هل يترك عليها أم لا؟ والظاهر أن

---

(15) الاحتمالات الثلاثة هي كما تقدمت : الزندقة. الردة. مواقعة المعاصي

(16) يقال تدفع السيل وتدافع دفع بعضه بعضا كاندفع وهو مجاز. وكذلك قولهم : قول متدافع أي يدفعه غيره مما هو أقوى منه

(17) تنظره : تأمله وتأني عليه

المجاهر بكفره على التحقيق ليس بزنديق. فلم يبق إلا أن يقال: إنه مرتد بناء على أن الدوام كالإبتداء أو التبعية لأبيه أو يقال: إنه يقر على ما هو عليه من الكفر. **أما الوجه الأول** (18): فأول احتماليه لا يستقيم، وإلاّ لزم وقوع الردة. فلا يلحق به في الردة إذا كان صغيراً، إذ تبعية الولد لأبيه إنما تكون في دين يقر عليه، فإن قتل الوالد على الكفر بقي الولد مسلماً. فإن أظهر خلاف الإسلام أجبر على الإسلام فإن غفل حتى يبلغ ففي إجباره على الإسلام خلاف إذا ولد قبل الردة، ثم في كونها بالسيف أو بالسوط خلاف، وإن ولد بعدها أُجْبِر وإن بلغ، وقيل إن بلغ تُرِك، ولا يكون كمن ارتد، قال في التوضيح (19): وذكر في البيان عن ابن القاسم (20) انه لا يجبر بالقتل مطلقاً سواء ولد قبل الردة أو بعدها. وعن ابن كنانة (21) إنه إن لم يرجع الذي ولد بعد الردة يقتل. **وأما الوجه الثاني**: (22) فيمكن تقويته بأن يقال إن الفقهاء عَرَّفُوا الردة بأنها كفر المسلم من غير أن يشترطوا كون ذلك الكفر تهوداً أو تنصراً ولا غيرهما. ثم ذكروا الخلاف في ولد المرتد: فمن يقول يترك إذا بلغ: يلزمه أن هذا بلغ على هذا الكفر الذي ارتد إليه أبوه فَيُتْرَكُ. وقد بقي احتمال سادس: وهو أن يشهدوا أنه معهم، إلا أنه لم يَظهر من أقواله ولا من أفعاله شيء صريح في الدلالة على الكفر ولا عدمه في الظاهر، غير تكثيره لسوادهم في الجملة، وقد تُشاهد له
ص 170 مَعَاصٍ يشتغل بها بحيث عُلم فسقه/إلا أنه لا يدري أفاسق قط أم كافر فهذا يُحْصَر عنه، فإن وجد له بعد اختبار ما به يقتضي أنه كان يعرف كفرهم ونحلتهم الفاسدة، وأنه كان يرتضيها ويشايعهم عليها فهذا يكفي في كفره، وإن لم يعمل

---

(18) مرتد بناء على الدوام.

(19) هل هو كتاب «التوضيح» للشيخ خليل في شرح مختصر ابن الحاجب؟

(20) عبد الرحمان ابن القاسم بن عبد الله سبقت ترجمته انظر ص 174 رقم 190.

(21) عثمان بن عيسى ابن كنانة يكنى أبا عمرو كان من فقهاء المدينة أخذ عن مالك وغلبه الرأي كانت له منزلة خاصة عند مالك توفي سنة 186هـ بمكة. أنظر ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة مذهب مالك للقاضي عياض تحقيق ابن تاويت الطنجي ج 21/3

(22) أنه يقر على ما هو عليه من الكفر

عملهم، ومن كثر سواد قوم مثل هذا فهو منهم وإن عرف أنه إنما كان يشايعهم لِأغراض دنيوية أو أسباب اتفقت، أو جُهِل أمره رأساً فليترك، ويُنْهَى عن صحبة أمثال أولئك، ولا بأس أن يُزْجَر ويؤدب على تكثيره لسوادهم بحسب اجتهاد الحاكم.

وهذا كله بيان للنازلة من غير التفات إلى ما وقع في نفس الأمر، بل إلى ما يُقَدَّر وقوعه. فإن ذكر العلم وبيان الأحكام لا يتوقف على وجود المحل، بل تقدير وجوده فيقع الجواب بحسب السؤال المقدر، ولو لم يكن الأمر كذلك لما دُوِّنَ من الأحكام الشرعية والنوازل الفقهية إلا ما وقع. كيف وقد وقع السؤال في هذه تحقيقاً لا تقديراً؟

وأما ما وقع بحسب الخارج، فالمتقرر عندنا أنهم كفار، مع تجويز أن يكون فيهم جاهل بطريقتهم، ومنتهك على وجه المعصية مع التدين بدين الإسلام. والظاهر مع ذلك أنهم يستخْفُون من الناس إلا عند الأمن، فهم زنادقة، مع تجويز أن يوجد بعضٌ فيجهر: إما لقوة شكيمته، أو لنقصان ميزه، أو للأنفة من إخمال دينه، أو لمحبة أن يموت عليه.

أما الكفر فيدل عليه أمور بحسب ما انتهى إلينا من أخبارهم، فمن تلك الأخبار ما بلغ مبلغ التواتر، ومنها آحاد. إلا أنها متضافرة يصدق بعضها بعضاً. ومنها ما يدل ظاهراً، وقد علم أن الظّواهر إذا كثرت في الشيء أفادت القطع به. وقد بلغتنا أخبار المجوس والنصارى والفلاسفة وغيرهم، مع تباعد دارها وتقادمَ عهدها، ولم نشك فيها. فكيف بهؤلاء الذين هم كاليد للفم؟ وهم بمرأى ومسمع. فَمِنْ ذلك ما ثبت أنهم لا يزالون عند جدالهم للمسلمين يقولون: ديننا كذا ودينكم كذا، وهذا تصريح بأنهم اتخذوا لأنفسهم ديناً آخر غير دين
ص 171 الإسلام وقد قال تعالى: «وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ/يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ» (23) وقد تظاهروا بهذا حتى سموا أنفسهم أسماء وَسَمَّوْا

(23) الآية 84 سورة آل عمران مدنية

المسلمين بأسماء أخرى ليتميز كل فريق بلقبه فكان منهم من كان بقبائل البربر «كزمور» (24) يسمون أنفسهم «أعكازين» ويسمون المسلمين «أَرُمِينْ»، ومن كان بقبائل العرب كأهل تادلا (25) يسمون «الشراقة» ويسمون المسلمين «الخراثلة» ومن هذا المعنى قولهم للمسلمين إنهم «أصحاب محمد» ونحن «أصحاب أحمد»«وأصحاب المنزول» (26) وهذا تصريح بدينين وشِرْعَتَيْنِ وقد قتل خالد رضي الله عنه مالك بن نويرة على مجرد قوله: نبيكم. وكيف لو أثبت لنفسه نبيّاً آخر؟ وهذا بحسب استدلال خالد على ما فهم. وإن كان يقبل كلام الآخر وجهاً من التأويل. أما كلام هؤلاء المثبتين نبيّاً آخر فلا يحتمل التأويل.

وقريب من هذا ما حدثني به بعض أصحابنا أنهم[1] جادلوا كهفا من كهوف «شراقة» بني عمير فقال لهم الشراقي: نحن أصحاب الحقيقة وأنتم أهل الشريعة فقال له أصحابنا: أما الشريعة فقد ظهرت وبانت وأما حقيقتكم التي تدعون فإن كانت حقّاً فأخرجوها لتظهر للناس. فقال الشراقي: الحقيقة حرة ولا تخرج للسوق. والشريعة خادم فقال أصحابنا فتحيرنا من بشيع كلامه ولم نجد ما نقول له غير أنا قلنا: إن الرجل يخرج للسوق فيشتري اللحم الحلال الزكي فيرفعه على عاتقه عياناً لا يستحي من الناس، ولو أخذ لحم ميتة لدسه تحت إبطه لا يراه أحد. فحقيقتكم هذه جيفة ولذلك تدسونها وتخفونها. قلت: فكلام هذا الكافر الفاجر مع ما فيه من الاستهزاء بالشريعة وهو كفر وحده كما في العقائد وغيرها. فيه التصريح بتغاير الدينين، وبأنه تبرأ من الشريعة والتزم ما زعمه حقيقة. وإن

---

1 — في المتن «أنه» صححت بما يناسب.

---

(24) زمور : من قبائل المتوسط

(25) تادلا : في سفوح الجنوب الغربي للأطلس المتوسط

(26) يقول عبد المالك التجمعي في جوابه في مسألة «العكاكزة» «... ثم لا يدري ما يريد القوم بأحمد المنزول ... فإن كان المليانى شيخ الطريقة وأستاذها فحاشاه وحاشاه فلقد كان جبلا من جبال الدين ... وإن كان غيره فهو عنقاء مغرب لا وجود له من حيث الوصف على فرض وجوده من حيث الشخص ...» «هداية الملك العلام» ورقة 38

لم تكن له حقيقة. وهذه هي الزندقة بعينها. وقد قال أئمتنا: من تحقق ولم يتشرع فقد تزندق. ومن ذلك ما شاع عنهم من القول في «المنزول» فتارة يسندون إليه الأمور يرون أنه هو الإلاه، وتارة يسندون إليه الأحكام يرون أنه هو الشارع، وكلاهما كفر صراح. **أما الأول** فشرك، قال تعالى: «أَإِلَاهٌ مَعَ اللهِ، تَعَالَى اللهُ عَمَّا
ص 172 يُشْرِكُونَ/(27) **وأما الثاني** فإلحاد وكفر براح (28). والاتفاق على أن من اعتقد لأحد شِرْكة مع النبي ﷺ في نبوءته إلينا، أو أثبتها لأحد بعده، أنه كافر مكذب.

ومن ذلك ما ارتكبوه من رفض المأمورات، كالصلاة والصيام والضحية ونحوها، واقتحام المنهيات: كالزنى، وأكل الميتة، وقتل المسلمين، ونهب أموالهم ونحو ذلك. وهذه الأمور في ظاهرها يجوز أن تقع معصية مع الإيمان، وبهذا الوجه اغتر من أحجم على تكفيرهم: إما جهلاً منه بحالهم، وإما جبناً وخَواراً. لكن قد تقرر عند المشافهين لهم، السامعين لأقوالهم، الشاهدين لأفعالهم وأحوالهم، أنهم يأتونها مستحلين غير مكترثين. أما أكل الميتة وحده ففيه حالية على الاستحلال، وذلك أنه قد استقر المسلمون قديماً وحديثاً، فما يوجد منهم من يأكلها بغلبة شهوة وداعي الهوى، مقتحماً فيها المعصية كما يدعو الهوى إلى الزنى وشرب الخمر، كلاّ بل جبلت قلوب المومنين والحمد لله على استقذار الجيفة والنفرة عنها، بحيث لا يجدون من أنفسهم إقداماً عليها إلا عند الضرورة الغالبة على الطبع. ومنهم من لا يأكلها حتى يموت.

وهؤلاء الظلمة يستلذونها ويتخيرونها كما يفعل النصارى الفرنج. وقد ثبت عند النقلة أنهم يستحلونها، يصرحون باستباحتها، ويقولون هي ذبيحة الله.

---

(27) تمام الآية: «أم من يهديكم في ظلمات البر والبحر، ومن يرسل الرياح نُشْراً بين يدَيْ رحمته أإلاه مع الله، تعالى الله عما يشركون» الآية 65 سورة النحل

(28) جاء بالكفر براحا: أي جهارا

وذبيحة الله خير من ذبيحة الآدمي. وربما يبيت عندهم المسلم فلا يذبحون له ويقولون: خذ شأنك واذبح لنفسك. لإحساسهم أن ذبائحهم غير ذبائحنا. وناهيك بهذا كفر. وقد حكى النقلة عن عكازة زمور انهم يأكلون الخنزير أيضاً.

وأما سفكهم لدماء من ظفروا به من المسلمين غيلة أو جهاراً في زمن الفتنة. فأمر شهير وهو نتيجة ما يضمرون من تغاير الدينين، والكفر الموجب للبغضاء وفي الحديث: «من حمل علينا السلاح فليس منا» (29) وأما اجتماعهم رجالاً ونساءً وما يقع بينهم في ذلك من الفحشاء والمنكر فأمر شهير أيضاً لا يُنكر، وهو بظاهره أيضا معصية، وفيه يغتر الجاهل. وربما زاد المنكرُ للاحتجاج عليهم فقال:
ص 173 إنه يقع الاجتماع المذكور عند المسلمين أيضا، كما يقع في أعراس العوام/وهيهات فانا لم نستدل بمطلق الاجتماع، ولا مطلق الزنى، بل باجتماع يعرف بأنهم يستحلون ذلك ولا يبالون به، بخلاف المسلمين. يعرف ذلك من ثَافَنَهُمْ (30) وجاورهم. وقد انتهى إلينا بعض من ذلك كقولهم: المرأة كالسجادة، صل واعط أخاك يصلي. وهذا استحلال وتقرير لأمر معروف لا ينكر، وفعلهم على الاتفاق والدوام من غير نكير بينهم، ولا استخفاء بعضهم من بعض يدل على ذلك، إذ لا تقع المعصية في المسلمين على هذا الوجه، ولا يسمع بجماعة وافرة من المومنين، يجتمعون على المنكر على الدّوام بلا نكير. بل لابد أن يقع اختلاف بينهم، فينتهك هذا وينكر هذا، أو ينتهكون في زمان وينهون[1] في آخر، وقد بلغنا من أحوالهم في ذلك وأقوالهم أشياء أخر تدل على الاستحلال للكفر. ويُستَحْيا من ذكرها في المجامع، وقد اضطررنا إلى الإستدلال. فلابد من الإلمام

---

1 — في الأصل «وينهون» صححت بما يناسب.

---

(29) حديث رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر. وسلمة وأبو موسى الأشعري
(30) ثافنهم : جالسهم ولزمهم حتى يعرف دخيلهم

بشيء منها: فمن ذلك ما ثبت عند جميع المداخلين لهم، أن شيطانهم الكبير. وهو شيخ التربية عندهم (31) ويسمونه القطب، إذا أراد رياضة المريد، وإماتة نفسه، وأن يبلغ به مقام الفناء يأمره أن يأتي زوجته، فيأتي المريد وزوجته إلى محضر القطب، والفقراء فيصطح (32) المريد في الأرض وتنبطح زوجته عليه، ويأتي القطب فوقهما منبطحاً على الزوجة فيجامعها حتى إذا قضى منها وطره، جاء الفقراء واحدا بعد واحد بحسب مراتبهم من الشيخ حتى يقضوا أوطارهم من زوجة ذلك المريد جميعاً، فإذا فعل به ذلك وبزوجته قالوا: قد بلغ وقد ماتت نفسه، قلت: وقد مات قلبه وصغرت همته وخرجت غيرة الإيمان منه ومن شيخه، وأتباعهم الكافرين الفاحشين الفاسقين. لعنهم الله ولعن من لا يلعنهم. فهذه المعصية الفاحشة عندهم لم يقتصروا على مجرد استحلالها، لأنهم يتقربون بها، ويقطع بها المريد مفاوز السلوك عندهم، فهي إذاً من أعظم القربات. وأي كفر يزيد على هذا؟ ونحو هذا ما حدثني به بعض الأصحاب أنهم تجسسوا عليهم يوماً في مجمعهم فلما اشتغلوا بقبائحهم، وجاءت النساء تختلف على شيخهم المتولى
ص 174 كبرهم جاءت امرأة/قد أصابها مرض غيَّر جسمها، فلما اضطجعت إليه وجسها فلم تعجبه قال لها: قومي فقد رضي عنك سيدي أحمد، يطيب قلبها بذلك لئلا تحزن، ولتعلم أنها قد ضربت مع صواحبها في الخير بنصيب، وإن لم يقع الفعل في ذلك الوقت. ومعلوم أنه لم يقل لها ذلك إلا لكونها تعتقد أنها تنال بذلك الفعل خير أو درجة عند سيدها أحمد، وهذا أقوى من الاستحلال، وفي ذلك أن سيدهم أحمد هو الذي يطلب رضاه، ويحذر سخطه، وذلك كناية عن كونه إلاهاً، تعالى الله عن ضلالهم عُلُوّاً كبيراً.

---

(31) عندما تعرض صاحب « نشر المثاني » لحوادث عام 1102هـ ذكر غزو السلطان إسماعيل للعكاكزة وقال: « ...الطائفة المبتدعة المعروفة بالعكاكزة المجتمعين عن قبائل تادلا ونواحيها ورئيسهم الداعي إلى بدعهم الذي اجتمعوا عليه يعرف بالحطاب ... » أنظر ج 2 ورقة 33 ظ

(32) من الكلمة العامية: يُصطح ويصَطَّحْ: أن يُلقى على الأرض. والمِصْطح ما سُوِّيَ من الأرض

وقد تحدث من خالطهم أن قطبهم الملعون، إذا دخل الخلوة يريد أن يتقطب يمكث فيها أربعين يوماً وهو ينقرها بالأبوال النجسة، ويشتغل بالعزائم (33) التي تناسب هذا من نسبة التأثير لغير الله تعالى، وذكر الويل، واللعن، ونحو ذلك مما يستجلب الشيطان، فإذا كملت الثلاثون يوماً وردت عليه الشياطين، فإذا كملت أربعون يوماً عقدوا معه عقدهم على النصرة والخدمة، حتى لو أراد مَثَلاً انتقاماً مِمَّن يُشَاقُّهُم، سلَّطهم عليه أو على ولده، أو على ماله، ولو أراد خيراً بعثهم إليه فأخبروه، فتظاهر بذلك كله ونحوه على الأتباع، كرامة ومنقبة يعدونها له. وكيف ترى في مذهب بُنِيَ أساسُه على هذه القاذورات، ويَنْصَبُّ مقياسه على هذه التُّرَّهات؟ ولعل كثيراً من أديان الكفرة المشهورة، أقل منه في القذارة ارتباطاً، وأقوى في مجوزات العقول استمساكاً. وأما ترك الصلاة والصوم، وإن شاركهم فُسَّاقُ المسلمين في شيء منه، فهم قد اختصُّوا بالمداومة على ذلك مع الاتفاق والاجتماع وعدم الاستحياء والانكسار، بخلاف المسلمين، فما منهم أحد يترك الصلاة إلا كان في الغالب معتقداً أنه قصر في دينه، وأسرف على نفسه، وودّ أن لو كان ممّن يُصَلِّي. وأمَّا فما يَكَادُ أحد من المسلمين يترك صومه ولله الحمد. وأما هؤلاء الفجار فما يوجد لهم مع ترك هذه الواجبات شيءٌ من الإنكسار، بل العتو والمرح والاستكبار، يعرف ذلك من شافههم ويشهد به.

ص 175 ولو لم يكن إلا هذا الوجه مع ضميمة قرائن الأحوال/والأفعال. يعرف استحلالهم لذلك، وكيف وهم يصرحون بأنه لا شيء عليهم من هذه العبادات أو أنها مرفوعة عنهم كما اشتهر ذلك عن أوائلهم، وتارة بأنهم لا يفعلون شيئاً من ذلك إلا أن يشاءوا، إشارة إلى أنهم غير مكلفين به، وهذا كفر صراح. وقد استدل الناس على الكفر بأقل من هذا لما بويع أمير المومنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وأقبل الشعراء يُهَنِّئونَه بالخلافة على العادة، دخل حاجبه فقال له: الشعراء بالباب فلان وفلان فقال عمر رضي الله عنه أليس فلان هو الذي

---

(33) العزائم مفردها عزيمة : الرقية

قال (34) :

فلست بصائم ومضان عمرى ولست بآكِل لحم الأضاحي
ولست بقائمٍ كالعير أدعو قبيل الصبح «حي على الفلاح!»
ولكني سأشربها شمولا وأسجد قبل منبلج الصباح

فقال : نعم. فقال عمر : أَعْزُبْ (35) به عني، لا دخل عليَّ أبداً وهو كافر، وليس في الأبيات إلا نفي الفعل، ولكن ظهر من القرائن وفحوى الكلام عند ذكر العمر، وذم من فعل شيئاً من ذلِك، ونحو ذلك ما أوجب الحكم عليه بالكفر. ولعل المكفر في هذه يكفر بترك الصلاة وحدها، كما ذهب إليه جمع من أئمة الدين، ولعله لعدم صراحة الكفر في كلامه لم يقم الحكم عليه، مع أن ترك أكل الضحية فيه ما يكفي وحده في الدلالة على الكفر، وإن لم تكن صريحة، لأنها شعيرة من شعائر الإسلام. وليس في ترك لحوم الضحايا شهوة تَنْزِعُ (36) النفس، وتَسْتَهْوي العقل، حتى يقال إن تاركها مغلوب بهواه مع وجود الإيمان: كالزاني والشارب، إنما الشهوة في أكلها مع لوازم ذلك من الفرح والسرور واللباس والأنس، فإذا تركت كان تركها نفرة عن الدين واستعصاء عن الإسلام وكراهية اشتهار الشريعة الحنفية وعلو كلمة الله. وناهيك بهذا كفراً! وهذا كله واقع على هؤلاء الظالمين المبحوث في أمرهم، على ما نقل من «أشرقات التّل» أنهم لا يذبحونها. ومن ذلك ما استُقْرِئَ من حال هؤلاء الظلمة أنهم لا يتعلمون الدين من الفقهاء، ولا يغْشَون مجالس علماء الملة ولا يسألون عن الأحكام الشرعية، بل ولا يرفعون عقودهم للمسلمين، وذلك كله دليل على أن لهم في زعمهم شرعة اكتفوا بها. ومنهم من لا يرى تزويج نسائه من المسلمين.

---

(34) الأبيات لشاعر البلاط الأموي الأخطل (640هـ/710هـ)
(35) عزب يعزب عزوبا : بعُد وغاب وخفي
(36) تَنْزِعُ : تُفْسِدُ وتُعطِّلُ

ص 176 «كالبضاضوة» من أعراب تادلا/وأما سبهم للنبي ﷺ وتبريهم منه، والتصريح ببغضه، وتفضيل المنزول عليه، فأمر شهير أيضاً لا يَخْفَى.

وقد ذكرنا فيما مر أنهم يقولون للمسلمين: أنتم أصحاب محمد ونحن أصحاب المنزول، حتى أن الوِلدان عند الدفاع يختلفون كذلك، فإذا قال وِلدان المسلمين: يا آل محمد قال ولدانهم: يا آل المنزول. وإذا غشيهم أحد ممن لا يعرفونه يسألون ويقولون أحمدي أم محمدى؟ وحدثني ثقة أن بعض الطلبة مرّ بحي من أحيائهم وفعل شيئاً أنكروه منه قال: فجئت إلى رجل من ذلك الحي بعد ذهاب ذلك الطالب فقلت له هلا شرطتهم (37) من يعلم صبيانكم؟ فقال: بعد فلان — يعنى الطالب الذاهب — أبغضنا القرآن وأبغضنا محمدا. وهذا إخبار بمعتقده الأصيل، وليس بغضه مقيداً بذلك الزمان القليل، بل هو راسخ، وإنما وجد ذلك السبب حجة يدلى بها وإلا فأي مومن قط أبغض القرآن أو أبغض النبي ﷺ لإساءة طالب، غاية ما يبلغ الأمر بالجاهل الجافي من المومنين أن يبغض جنس الطلبة لما يرى من بعضهم، أما أن يبغض النبي ﷺ فلا، ولكن «الأرنب حمق وزادها الصيادون» (38)وحدثني ثقة أنه اجتمع قوم من المسلمين بقوم منهم، فجعل فتىً من هؤلاء وفتىً من هؤلاء يتشاجران ويتفاخران يقول المسلم: محمد هو الشأن ﷺويقول العكازي: أحمد هو الشأن. قال صاحبنا فقمت إلى العكازي فقلت له: ما هذا الذي تقول بالعين؟ فقال وأي شيء أقول؟ هو يمدح شيخه وأنا أمدح شيخي.

وأخبرني نقلة أيضاً من قبائل «زمور» أنهم كانوا يُجَاوِرُونَهُمْ أحياناً في المنزل، فربما اجتمعوا في المجالس فيقول العكازي لآخر قصداً للاستهزاء بالمسلمين ونبيهم ﷺ: صل على هذه الكدية وصل على محمد نبي فلان، يعني السامعين

---

(37) سبق شرح الكلمة في رسالة «جواب الكتاب»

(38) مثل من الأمثلة العامية ومعناه واضح

من المسلمين. وهذه تسوية بين الصلاة عليه ﷺ وبين الصلاة على كدية من الكدا بل قدم الكدية في كلامه لمزيد اعتناء بها، وأضاف النبي ﷺ إلى غيره متبرّأً منه.

وأخبرني ثقة أيضاً عنهم أنه تشاجر فريقان في أمر فقال فحرجت إليهم أحفظهم (39)، فتقدم العكازي إلي يخاصم ويحلف، وقبض بيدي وقال : « وحق سيدي المسعود، وأما سيدنا محمد ﷺ فقد ذهب به الريح/ما كان ص 177 الأمر إلاّ كذا » قال فقبضت عليه وصحت يالمسلمين إليه ! قال : فقام الناس وقالوا آنت وحدك رأيت هذا، قد رأى الناس كلهم هذا وسمعه الملوك وأرباب الدولة فلم يغيروه فكيف بك أنت ؟ قال : فأطلقته وتركته.

وكان دوار منهم نصفه مسلمون ونصفه من العكازين فوقع النهب على النصف المسلمين ونجا الآخرون، فقالوا للمسلمين ألم يتبين لكم أن شيخنا خير من شيخكم أو أن المنزول خير من محمد. فانظروا يا معشر المسلمين هل يُلام من مات من هذا أسفا ؟ وهل التعامى عن هذا شأن المومنين سلفا أو خلفاً ؟ نبي شرف الله قدره، ورفع ذكره وأوجب طاعته وألزم حرمته يسب ويسفه بألسنة أغمار (40)...[1] سفهاء فاسقين، ثم لا ننتهض لديننا ولا ننتصر لشرعنا ولا نحفظ حرمة نبينا ولا نحمى حماه ونحن أشد ما كنا وأقواه وأكثره وأنماه. وهؤلاء السفهاء بين أيدينا أضعف من قرملة (41) وأذل من وتد (42) بقاع، إنَّا لعبيد سوء إذا لم ننتصر، وجهلة غافلون إن لم ننتبه ونذكر.

أما حكم الساب فمعلوم شرعاً : إن كان مسلما قتل اتفاقاً ولم يستتب على

---

1 — بياض في الأصل

---

(39) أحْفَظَهُ : أغضبه بالكلام

(40) أغمار : مفردها الغمر : الجاهل.

(41) القرْمل : شجر ضعيف لا شوك له

(42) أذل من وتد : مثل يعني أنه أذل من الوتد الذي يدق أبدا

المشهور ، وإن كان كافرا قتل أيضاً إلاّ أن يسب بما كفر به وعاهدناه عليه ، أو يسلم فيسقط عنه ، وقيل لا يسقط.

إذا تمهد هذا فنقول لمن ينازعنا في هؤلاء الفجار : إن كانوا مسلمين عندك وقد وقع منهم السب وجب قتلهم اتفاقاً. وإن كانوا كفاراً فلا شك أنا لم نعاهدهم على شيء قط مما يقع به السب بل ولا في الكفر حتى نتركهم عليه ، فوجب قتلهم أيضاً، فهم على كل حال يقتلون، وحكم الاستتابة معلوم. ومن تأمل أدنى تأمل، علم أن كل ما ذكرناه عنهم من الحكايات في الاستهزاء والسب ونحوها، ليس من السب الذي يقع من المؤمن ، بل هو كفر صراح ، لأنه شقاق وتبرؤ من النبي ﷺ ، وإثبات لغيره ، ولا خلاف في كونه كفراً ، ولذا ذكرناها في مساق الاستدلال على الكفر.

وأما كون هؤلاء الفجار يستخفون فأمر واضح يشهد به من عرفهم، وعلامة ذلك إنكارهم لما هم عليه عند الخوف ، لأن المنفية عند الخوف هي عين الزندقة كما قال ابن شاس(43) وقد ثبت أنهم عند الخوف ، واجتماعهم بالمسلمين يصلون . ويشهد من شافههم أنهم بغير/طهارة ، وجرب ذلك منهم ص 178
وثبت أنهم في رمضان كثيراً ما يوقدون النيران عند الفجر لإيهام أنهم يتسحرون، وهم يأكلون عند طلوع الفجر. وذلك عين الزندقة.

وأما ظهور أمرهم للعام والخاص فمن كثرتهم ، وكثرة اختلاطهم بالمسلمين ، وكثرة تجاورهم لمن لا يبالون باطلاعه على خبائثهم من المسلمين ، ولا سيما رَعَاع المسلمين وضعفتهم مع تقادم الزمان وانتشارهم في البلدان وكثرة الجاهل منهم. والأحمق يبث أسراره ولا يدري ما يلزمه عن ذلك. وليس من شرط الزنديق أن لا يطلع عليه أبداً وإلا لم يشرع قتله إذا ظهر عليه ، وإنما وَصْفُه أن يستتر عن المسلمين ويظهر لهم خلاف ما يضمر خوفاً وإشفاقاً على نفسه أن يقتل. فإذا أمن

(43) عبد الله بن محمد بن نجم بن شاس (.../616هـ) جلال الدين أبو محمد الجذامي المصري. شيخ المالكية في عصره بمصر . مات مجاهدا في حصار الافرنج لدمياط . من كتبه «الجواهر الثمينة في فقه المالكية» أنظر ترجمته ومصادرها في الاعلام ج 4/269

اتسع المجال ، وجاز ارتفاع الأسرار لارتفاع الحكم عند ارتفاع علته. وهؤلاء الفجار قد أَمِنُوْ في أكثر الأوقات : **أما من جهة العامة** فلما غلب على العوام (من)[1] التهاون بأمر الدين ، وعدم التسارع إلى إنكار المُنكَر ، مع كثرة المناكر في هذه الأزمنة المتأخرة، حتى صار المنكَر في نفوس العامة ليس بمنكَر لإلفه وكثرة مشاهديه والله المستعان. وقد عَلِم الفجار أن المسلمين وإن لم يخلوا ممن يغضب لله تعالى ويغار على دينه، إذا قام لا ينصر وإذا استصرخ لا يصرخ (44) فلا يهتمون لوجود مثل هذا في المسلمين، لأن وجوده حيث لا مساعد له كالعدم. **وأما من جهة الخاصة** فللتهاون الغالب أيضاً في آخر الزمان ، مع اشتغال بالتأويلات البعيدة ، والاستعادات الضعيفة فهذا يقول : أين البينة ولم يشتغل بإثباتها، مع تعين كون ذلك مصلحة عظيمة ، ودرء المفسدة الجسيمة، ولا سيما عند وجودها. وهذا يقول كيف يقام عليهم الحكم وهم كثير؟ وكيف يفني بالسيف أمة من الأمم؟ ولم يدر أن الأحكام توجهت إلى الناس كافة، والحدود قد شرعت عند ثبوت موجبها، كان الثبوت على واحد أو على كثير.

وقد ارتدت قبائل العرب ومنعوا الزكاة فقام إليها الصديق رضي الله عنه فتعرض لقتالها[2] كلها في الجملة حتى أنفذ الله حكمه وأعلى كلمته وأمضى سنته ، وقد كانت هذه القبائل أولا انتشر فيها الإسلام، بل كانت أسلمت كلها في
ص 179 الجملة ، وأدت/الزكاة بفتح مكة . فلم يخف أبو بكر رضي الله عنه ولا الصحابة المجمعون على قوله، أن يكون في تضاعيف هذه الاحياء واحد أو جماعة من المسلمين ممن ثبتوا على إيمانهم ، ولم تكن عندهم زكاة يمنعونها ، ولو كانت لأدوها ، فيكون هذا المومن في معرض أن تصادفه رؤوس الأسنة عند الصدمة الأولى ، والسهام العوائر ، فتذهب نفسه في صحيفة من قتله ، وذلك لما علم الصحابة رضي الله عنهم ، أن من خالف هؤلاء المرتدين ممن ثبت على الحق ،

. — زيادة يتطلبها السياق. 2 — في الأصل « لقتالى ».

---

(44) صرخ يصرخ القوم : أغاثهم وأعانهم

لابد أن يخالفهم أيضاً بأقواله وأفعاله : فاما أن يقوم فيهم خطيباً أو منازعاً ، فيظهر فيجتنب ، واما أن يخرج عنهم مهاجراً فينجو ، وإما أن يفعل ما يحق له عند القدرة ولا يبالي ، فلا تبقى عليه ملامة ، ويبايعهم كما فعل عدي بن حاتم رضي الله عنه إذ أتى بزكاته . على أن يرتكب أقوى المصلحتين ، ويدرأ أعظم المفسدتين ، مع تحقق المسلم حتى ينتهي اعتبار ذلك إلى رحى...[1] من المسلمين كما عرف في جهاد العدو فكيف إذا توهم (45) فقط . وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم إذا سمعوا الأذان كفوا، وإذا لم يسمعوا أغاروا ولم يمنعهم تجويز أن يكون في الحي ضيف من المومنين ذخل بأمان فيقتل بغتة. ولو عمدنا إلى مدينة من مدائن الروم أو غيرهم ،وأمكننا الإغارة عليها وأخذها فلتة ، لم نتوقف عنها ولم نَالُ جهداً في الرمى من السهام والطعن بالرماح ، مع تجويز أن يكون فيهم أسارى من المسلمين نائمون أو يقظى غافلون ، أو بكم لا يتكلمون، فتصادفهم الرماح والسهام ، ولكنا نراعى الغالب والظاهر . وكذا نقول في شأن هؤلاء الفجار .

فإن قيل هؤلاء بين المسلمين بخلاف ما ذكرت من الصور ، فالجواب أن الكلام إنما هو بعد عزلهم بشهادات السماع ، وترك كل من هو مؤمن بهذا الضلال فلا يبقى فيهم بعد ذلك من احتمال وجود المومن إلا مثلما ذكرنا من الصور أو أضعف. على أنه لا يتصور أن يكون مومن صادق يمازحهم ويصادقهم ويشايعهم على طول الزمان في فواحشهم الفظيعة، وقاذوراتهم البشيعة، بل لابد أن يبعد عنهم وإنْ نظمته وإياهم أسباب اتفقت، ومقادير جرت. فلابد أن يخالفهم يوما ما ، حتى يظهر خلافه للجيران ، فيشهدوا له إذا دعيت الأشهاد ، كما يشهدون عليهم . وعلى تقدير أن لا يستطيع خلافاً في زمان الفتنة/ولا فراقاً ، فقد استطاعه زمان الخلافة واجتماع الكلمة ، وقيام الحكم على الضعيف

ص 180

---

1 — بياض في الأصل

---

(45) توهم وجود مسلمين مومنين وسط الفجار

والقوى ، كيومنا هذا ولله الحمد . ولا سيما عند النداء عليهم أن ينتصفوا منهم ويوضع الحكم فيهم ، فهل يلتزم بهم أحد ؟ وهو يعلم أنه قد أشفى (46) على عذاب الدنيا وبعده عذاب الآخرة ، بل في مثل ذلك يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه (47) فكيف من عدوه في الدين وشانئه ؟ أم يحسب المُسْتَغْرب أن هذه الفتاوى وقعت بأن يؤخذ الناس على الضُّغطة (48) هُمَّلاَ (49) أو يدعو دعوة الجفلا (50) كلا ، بعد استبصار واحتياط ، فيجمع الناس أولا على مقتضي التهمة القوية بشهادة السماع على الأفراد والجماعات ، والأحياء والمسائر ، ثم تطلب عليهم البينة العادلة القاطعة للشبهة والريب . فمن وجدت عليه أقيم عليه الحكم الشرعي قليلا أو كثيراً ، ومن لم توجد عليه ، أو وقع في أمره شك ، وارتاب ترك . فإن الأصل في كل من دخل في سواد المسلمين أن يظنوا به الإسلام ، ولا علينا من أمره إن كان في نفس الأمر كافراً ، إذ لا ضرر على الحاكم في حق ضاع بلا بينة كما قال شهاب الدين القرافي (51) .

على أن الكفر والإسلام ونحو ذلك ، من جملة ما يثبت بشهادة السماع ، بخلاف موجب الحد على المسلم ، كالزنى والشرب ، فلم يصح الاستدلال على ذلك بهذا ، غير أن الاحتياط في مثل هذه المسألة لا بأس به ، بل هو متعين للاختلاط [1] قبل العزل ، ولغلبة الجهل على شهود السماع ، وقلة معرفتهم ما يكفروا به غالباً . فربما شنعوا معصية واعتقدوها كفراً ، وأشاعوها على فاعلها ثم

---

1 — في الأصل « الاختلاط » وأظن أن السياق يتطلب ما أثبته .

---

(46) أشفى : أشرف وقارب .

(47) تضمين لآيتين 34 و 35 من سورة «عبس»

(48) الضغطة : القهر والضيق . يقال أخذت فلانا ضَغْطة أي ضيقت عليه لِتكرهَهُ على الشيء وتلْجئه إليه

(49) هُمَلاَ : المروك ليلاً ونهاراً يرعى بلا راع

(50) الجفلا : أي تدعو الناس إلى طعامك دعوة عامة من غير اختصاص

(51) أحمد بن ادريس (... /684هـ) من علماء المالكية . مصري المولد والمنشأ والوفاة . له مصنفات جليلة في الفقه . أنظر ترجمته ومصادرها في الاعلام ج 1/90

أسقطوا ذلك الفعل أو نسوه، وجعلوا يقولون : كافر ، كافر ، فيقع الغلط. فلابد من تنصيص ما وقع به التكفير من الأقوال والأفعال، مع تبين ما شوهد من قرائن الأحوال جهد الاستطاعة . ولابد من تفصيل الشهادة في ذلك كما قرر في باب الردة ، وهذا هو التوسط والاحتياط هذا العارض . وليس من الاحتياط أن تُثبت الزندقة مثلا على أحد كما يجب فتترك[1] قتله أو تَستَتِيبَه عملا بقول من يستتيبه من غيرنا كالشافعي وأبي حنيفة فإن هذا الاحتياط ما كلفنا الله به قط ، بل حرمه الله علينا ، وأوجب علينا اتباع مذهبنا إن لم يمنعه مانع ، ولا مانع. قال الله تعالى : « ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم » (52) وعلم كل مجتهد إنما هو ما أداه إليه اجتهاده ، وذلك هو حكم الله في حقه وليس له أن يتبع مجتهدا آخر بعدما وقع على الحكم . وإمامنا مالك وأتباعه ، قد اجتهدوا فأداهم اجتهادهم إلى قتله وعدم قبول توبته. ووجه ذلك ظاهر إذ لا تعرف توبته ، فلم يكن لإمامنا أن يخرج على مقتضى اجتهاده ، أو نص استند إليه . ونحن مقلدوه . فليس لنا أن نخرج عن مذهبه خصوصاً في الفتاوى المتعدية إلى غيرنا ، والأحكام العامة، وإذا لم تجز الفتوى بغير المشهور والراجح من المذهب، فكيف بخارج عن المذهب ؟ والاعتذار في الخروج بالاحتياط والخوف لا حاصل له، إذ لا يتصور هذا، إلا إذا كنا نقتل بالظن والتهمة. أما إذا كان بالبينة العادلة على الشخص أو الجماعة ، فأي شيء نخاف ؟ وتوقع الغلط أو الكذب من العدول قد ألغاه الشرع وإلا لم يستوف بشهاداتهم في نفس ولا طرف ، ولا عرض ولا مال، والثاني باطل، فالمقدم مثله.

نعم ، من يحكم بالاحتياط في هذه المسألة إذا أشكل الأمر في بعض الصور ، بعد ثبوت الكفر أو زندقة أو ردة ، فيمكن أن يقال الصيرورة للردة

---

1 — في الأصل « فترك » صححت بما يتطلبه من السياق.

---

(52) تمام الآية : ولا تقفْ ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا الآية 36 سورة الإسراء. مكية.

والاستتابة أحوط ، ولكن لا يصار إليها على العموم ، أو بلا موجب ظاهر ، بل حتى تُفصَّل الشهادات ، وتُسْتَقْصى البينات ، فيظهر موجب التوقف أو الإقدام ، والحكم به على الجملة قصور لا احتياط. وبسبب أمن هؤلاء الفجار من عادية المسلمين ، لتهاون الناس بالدين كما قررناه ، ظهرت منهم الأقوال والأفعال وقرائن الاحوال ، وبذلك انتهى إلينا من عملهم ما انتهى . ومن ذلك الباب تقع الشهادة عليهم إذا احتيج إليها.

وكل ما ذكرناه من الإمارات الدالة على كفر هؤلاء الفسقة أو زندقتهم ، إنما هو بحسب ما انتهى إلينا ، مع بعدنا عنهم وعدم اجتماعنا يوماً من الدهر بواحد منهم ولله الحمد . ولعل ما خفي علينا أكثر. والمعول عليه بعد ذلك في تنفيذ الحكم عليهم ، إنما هو البينة العادلة القائمة على كل نفس بما كسبت ، وكيف كسبت . فإن أثبتت مثل ما بلغنا أو أشد فذاك . وإن أثبتت شيئاً آخر يناقضه ، ص 182 ويدل على الإسلام أو ضرب آخر من الكفر ، فلابد أن يقع النظر فيه/ويقع الترجيح بعد توبته ، إذ لم يتعلق الغرض بكفرهم ، بل بتنفيذ الأحكام الشرعية وإجرائها مجراها . وَوددْنا أن لو كان الناس كلهم مسلمين متقين : « وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ...» (53).

على أنه إذا قامت البينة العادلة على شيخ هؤلاء الماردين ومقدمهم ، أو اعتقد أنه منهم فهو مثله . لأنها نحلة تقررت فكل من كثر سواد أهلها فهو منهم. ولا حاجة حينئذ إلى الفحص عن كل فرد من أفراد تلك العصابة كما لا يفحص عن أفراد اليهود والنصارى ، هل حققوا ملتهم التي كفروا بها إذ يكفي التشيع والتلبس ولذلك نقتل من تزيا بزي اليهود أو النصارى الخاص بهم ومثل هذا ما ورد في دين الاسلام من قوله ﷺ : « من صلى إلى قبلتنا وذبح ذبيحتنا ... » الحديث (54) ومثل ذلك في كل أمة ونحلة.

---

(53) من الآية 118 سورة هود. مكية.

(54) الحديث أخرجه البخاري والنسائي عن أنس بن مالك ولفظه في البخاري : « من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله . فلا تخفروا الله في ذمته » أنظر إرشاد الساري ج 1 410

وقد شاع عند العام والخاص أن لهم كتاباً يعرف « بابن رباش » (55) فيه ما زعموا من المناجاة الواقعة « للمنزول ». وكانت لهم مشايخ وأئمة في ضلالتهم وكان القبض على هؤلاء الرؤساء الظالين المضلين، وعلى ذلك الكتاب أول شيء يتأكد وينبغي الاعتناء به. وبهذا يبطل استبعاد وجود البينة عليهم.

وأما القول بأنهم (لا)[1] يعلمون، فقد تبين — بعد بيان كفرهم وجحدهم للأحكام الشرعية وهي العلم المطلوب تعليمه — اختلاله. وكيف يقع التعليم في الجهل المركب ؟ أم كيف يتصور الجهل بالأشياء المعلومة من الدين ضرورة جهلاً بسيطاً يقبل التعليم ؟ نعم إن وُجد فيهم بعد الفحص والنظر فرد على هذه الصفة فلابد أن يُعلَّم ، كما أنه لابد أن تُعَلَّمَ دَرَارِيهِم إذ لا سبيل إلى قتلها.

وأما القول بأنه تقتل كثيرة أو متى وجدت هكذا أو متى قتل أحد على الزندقة ؟ فأقول : صدرت عن غير تأمل ، وقد تقدم جواب ذلك وأن الأحكام شرعت ولم تقيد بزمان ولا بعدد. ونحن نعمل بمقتضاها في وقتنا ، ولا علينا بمن تقدم قبلنا ومن يأتي بعدنا.

وكون الزنديق لم نر من قتله قط ، لا يرفع حكمه متى وُجِد ، كما لم نر من رجم أحداً قط ، ولا من لاَعن ، ولم يرتفع بذلك حكم الرجم واللعن ، وكذا القول بأن الزندقة/لا يوجد لصاحبها فئة ولا جماعة ظاهرة ، لأنا نقول : إن أريد ص 183
بالجماعة الظاهرة المعلنة بكفرها فلم ندَّعها نحن اليوم، إذ لا زندقة مع هذه الصفة. وإن أريد الجماعة المستخفية وأنها لا توجد وإنما يوجد أفراد متفرقون فلا يسلم. ولو سلم فيما مضى من الزمان الأول، فلا وجه للحكم بذلك فيما بعده

---

1 — كلمة لا وجود لها في الأصل يتطلبها السياق

---

(55) ذكر الهشتوكي في كتاب « هداية الملك العلام » ورقة 37 في موضوع العكاكزة : « وقد أخبرني شيخنا المسن ... أبو الحسن سيدي علي ابرت الدادسي النجار. الفشتالي الدار بأنه رأى عندهم كتابا اسمه «ابن رباش» مكتوبا بالذهب .... وأخبرني بعض المتفقهة ممن يخالط من يخالطهم أن لهم كتابا آخر يسمى « ابن نحاس »

كزماننا هذا الذي هو محل النزاع لأنه ممكن . ووقوعه إلى الله تعالى لا إلينا. كيف وقد وجد في الصدر الأول والوحي ينزل عصابات وجماعات من المنافقين مجتمعين ومتفرقين وكان ابن أبي كهفاً للمنافقين ، وفلان وفلان ولم يقتلوا اذ ذاك للدليل الخاص . ومن جوز وجود الفئة المرتدة المعلنة بكفرها بين ظهراني المسلمين ، وبريق السيوف في أيدي المسلمين يغشى نواظرهم ، كيف لا يُجَوِّز فئة مسرة بكفرها خائفة حذرة ، إن هذا لشيء عجيب !

وأما القول بأن التعرض لهم غير لازم ، والبحث عنهم فضول فغير مقبول : **أما بالنظر إلى الفتوى** فلأنها على حسب السؤال الواقع ، ولا بأس على من اطلع على حكم الله في نازلة ، أن يفتي فيها إذا سئل عنها ، ويتعين إذا توقف الحكم عليه وحده أو مع غيره . **وأما بحسب الحكم والتنفيذ** فإنا نقول : إن كان من باب التداعي فلا شك أن المسألة الحق فيها لله تعالى لا لآدمي ، فكل من نبه عليها محتسباً لله تعالى ، فكلامه مسموع . كمن يرى فساداً في حُبس ، وانهداماً في مسجد مثلا أو رجلا يريد أن يشرب الخمر أو نحو ذلك مما يستدام تحريمه ، ولو كانت عنده شهادة في ذلك وجب عليه أن يبادر في رفعها قبل الطلب ، ويجب على من انتهى إليه الأمر من خليفة أو نائبه ، القاضي والوالي أن يقوم بذلك . وقد قام السائل بهذا الأمر محتسباً لله تعالى ، وها هو يستغيث ويستصرخ فتعينت إجابته قولاً وفعلاً على مقتضى الحكم الشرعي ، إفتاءً وتنفيذاً . **وإن كان من باب تغيير المنكر** فكذلك ، وليس من باب التجسس المنهي عنه لأن ذلك في الشيء الخفي عنا ولا دليل عليه ، فيطلب بحسب الحدس والظن ، كالاطلاع على رجل غافل في داره لينظر هل يشرب الخمر مثلا ، فهذا وإن كان فيه
ص 184 المصلحة أحيانا لكنها ألغيت رحمة من الله تعالى لعباده وإبقاء عليهم ./وقد اعتبر أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه تلك المصلحة باجتهاده مبالغة في نفي الفساد

وتصفيته للبلاد والعباد، حذراً من نحو قوله ﷺ: « نعم إذا كثر الخبث » (56) حتى ذكَّره الرجل بآية : « ولا تجسسوا » (57) وآية الاستئذان (58) فرجع ، وكان وقَّافاً عند كتاب الله تعالى ، لأن النظر والقياس في مقابلة النص متروك . أما ما نحن فيه فأمر شهير بلا نكير ، طالما قام به المحتسبون فلم يُنْصَفوا. وطالما اجتهد في إطفاء شره المومنون الغضاب لدين الله تعالى فلم يُعانُوا ولم يُسعفوا ، وذلك عند فساد الزمان وثوران الفتن ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، واشتغال العاقل الفد بخويصة نفسه . (59)

أما اليوم . والحمد لله، فقد رجع السيل إلى القرار ، واستغنى الساري عن الكوكب بالنهار ، وأصبح الملك ثابت الأساس ، وأمسى الملبِّس مرتديّاً لباس الإفلاس ، وليس من المنكر المفروغ منه ، بل من المنكر المستدام ، ولا من القاصر على فاعله ، بل من المتعدى الذي يسري سريان النار في الفحم . وقد ثبت ارتداد من لا تحجزه رصانة التقوى ، ولجام التوفيق إلى دينهم ، استحلاءً لتلك الفواحش واستئناساً بتلك البطالة . وهذا من أعظم المصائب . وربما يبسطون ألسنتهم بالاستهزاء والجدال مع ضعاف القلوب من المسلمين فيفتنونهم

---

(56) جزء من حديث طويل أخرجه البخاري عن زينب بنت جحش في «كتاب الفتن» قالت : «استيقظ النبي ﷺ محمراً وجهه يقول : لا إلاه إلا الله . ويل للعرب من شر قد اقترب . فتح اليوم من ردم ياجوج وماجوج مثل هذه تسعين أو مائة (بأن جعل طرف أصبعه السبابة اليمنى في أصلها . وضمها ضماً محكماً بحيث انطوت عقدتاها حتى صارت كالحية المطوية) قالت زينب فقلت : يارسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟. قال نعم إذا كثر الخبث ». أنظر ارشاد الساري ج 171/10. كما أخرجه ابن النعيم . وأخرجه النسائي وابن ماجة. نفس المرجع.

(57) من الآية 12 سورة الحجرات.

(58) تمام آيات الاستئذان : « يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأذنوا وتسلموا على أهلها. ذلك خير لكم لعلكم تذكرون. فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم . وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم. ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون «الآيات 27 — 28 — 29 سورة النور. مدنية.

(59) تضمين للحديث الشريف الذي سبق تخريجه في رسالة «جواب الكتاب» إذا رأيت شحا مطاعا . وهوى متبعا وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخويصة نفسك »

بذلك ، كما تقدم شيء من ذلك في كلامهم في جانب النبوّة. ومن ذلك المعنى ما حدثني به عدل مرضي من أصحابنا أنه جاء ذات يوم جماعة من الطلبة قال: فلما انتهوا إليَّ قالوا : جئناك في مشكلة عظيمة تحيرنا منها قال قلت لهم : ما ذاك ؟ قالوا : اجتمع العكازون فدعونا فقالوا : نبيكم محمد قلنا نعم قالوا : به تقع شهادتكم عندما تموتون. قلنا نعم. قالوا فبأي شيء تشهَّد هو عند الموت ؟ إن آمن بنفسه فقد زكى نفسه، وان آمن بغيره فأين غيره ؟ وإلى مثل هذا أشار الإمام أبو حامد الغزالي فقال في «كتاب التفرقة» (60) ما نصه : «وأما أن يظهر له ضرر فيقع في محل الاجتهاد والنظر ، فيحتمل أن يكفر وأن لا يكفر. ومن جنس ذلك ما يدعى بعض من يدعى التصوف أنه من بلغ حالة بينه وبين الله تعالى أسقطت عنه الصلاة، وحلَّ له شرب المسكر ، والمعاصي وأكل مال السلطان ، فهذا مما لا شك في قتله . وإن كان في الحكم بخلوده/ في النار نظر. وقتل مثل هذا أفضل من قتل مائة كافر ، إذ ضرره في الدين أعظم ، وينفتح به باب من الإباحة لا يسد . وضرر هذا فوق ضرَرِ من يقول بالإباحة مطلقاً في أنه يمتنع عن الإصغاء إليه لظهور كفره ، أما هذا فهدم الشرع من الشرع ، ويزعم أنه لم يرتكب فيه إلا تخصيص عموم ، إذ خصص عموم التكليفات بمن ليس في درجته في الدين. ويتداعى هذا إلى[1] أن يدعى كل فاسق مثل حاله، وينحل به عصام الدين» انتهى الغرض منه. وهو نص في نازلتنا ، لأن قتل المستبيح إجماع . فلا يتأتى لمتسارع إلى البحث بلا تأمل أن يقول : القائل (61) شافعي على عدم القتل . وأيضاً فإن المذكور في كلام القائل إنما هو القتل وهو حكم مجمل يصدق بدون الاستتابة ومعها ، وجئنا به نحن استدلالاً على مجرد التعرض للمستبيح ، وأنه لا يترك ، وأن ضرره عظيم.

ص 185

---

1 — في الأصل «إلا» أظنه سهو من الناسخ.

---

(60) هو كتاب «فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة» مطبوع

(61) القائل يعني الغزالي

ويبقى النظر فيما وراء ذلك من الأحكام كالاستتابة ونحوها ، وليست من غرضنا الآن. وقد استفدنا أن هذه الفئة الخبيثة إن تَحَلَّوْا بهذه الحلية (62) فهم يقتلون ، وأن قتلهم أفضل من قتل أهل الحرب ، لأن أهل الحرب يتوقى منهم بالأولية ذهاب حظوظ دنيوية من نفس أو مال ، وهي عرض زائل ، لا قدر له بالنسبة إلى ما يذهب بفتنة هؤلاء من الدّين ، الذي هو رأس مال المؤمن . وللحماية والذبّ عن الدّين أهم بكثير من الذّبّ عن المال . ولأن أهل الحرب بخروجهم عنا وبعدهم عن أوطاننا ، صار ضررهم نادراً ، والحذر منه سهلاً . أما هؤلاء فهم الداء الداخل ، والمرض المتفشي في المفاصل ، وضررهم مترادف على الأبد والحذر منه مستبعد ، وهو يكون من جهات : فيحيرون الجاهل بأقوالهم وأفعالهم ، ويستهوون الضعيف التقوى بفواحشهم ، ويوقعون التق في رؤية مناكرهم ، وسماع أخبارهم ، وهم في هذا الصقع القذا في زلال الدّين (63) والشبة السوداء في أديم المسلمين . إلا أنهم إن كانوا من أهل الإباحة الخاصة ، بأن يدَّعُوا أن ما أبيح لهم إنما هو لما وصلوا إليه من الدرجات ، ولا يباح لغيرهم فهم المذكورون في كلام الغزالي المنصوص آنفا . وقد رأيت ما قال إن قتل الواحد منهم أفضل من قتل مائة كافر . وإن كانوا من أهل الإباحة العامة وهم الزنادقة المطلقون ، وهم الذين لا يرون التكاليف على
ص 186 الإطلاق ويستبيحون المحرمات بلا تقييد/بشرط ولا شخص مع تسترهم بظاهر الإسلام ، فلا شك أن كفر هؤلاء أبين من كفر الأولين، وإن كان الأولون كفاراً أيضاً ، إذ لا يرتفع التكليف عن أحد ما دام في هذه الدار عاقلا قادرا ولو بلغ ما بلغ . وقد تقرر هذا في علم الكلام ولا وجه للتوقف فيه ولا النظر.

والحالة الثانية أعني الإباحة العامة، هي الظاهرة على هؤلاء المبحوث عنهم

---

(62) الحلْيَة هنا : ما يرى من ظاهر الإنسان وهيئته . ويتكلم في السياق عن الاستباحة في التكاليف الدينية

(63) القذا في زلال الدّين : الكدر في صفاء الدّين

لأنه قد ثبت بما قررنا أنهم لا يقولون بالشريعة حتى يخصصوها ، بل هم منسلخون عنها كرة ، وقد رأيت في كلام الغزالي أن ضرر الأولين أشد من ضرر هؤلاء ، وعلته ما ذكر من خفاء كفر الأولين فيغتر الجاهل بكلامهم ، وظهور كفر هؤلاء فلا يغتر بهم. وقد ارتفعت هذه العلة عندنا اليوم ، فيرتفع معلولها لأن كفر هؤلاء أيضاً خفيا بمقتضى الشريعة المطهرة : «لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيِيَ عَنْ بَيِّنَةٍ» (64)

عسى أن يطهر رداء الدّين عن خبثهم، وتنظف لهجة السنة عن رفثهم ، وما زال الخلفاء الراشدون والملوك الهازمون يحمون حما الدّين ، ويغارون على بيضة الإسلام أن تكسر بنزعات المبطلين ، وعلى نور الشريعة ، أن يغطى بتمويه البطالين ، وعلى مشرب السُّنة أن يكدر بشفاه الكذَّابين. (و) [1]قد نجم (65) طليحة في خلافة أبي بكر وادَّعى ، فجهز إليه أبو بكر خالداً رضي الله عنهما فاستمكن منه حتى رجع وأناب إلى الله تعالى . وخرج مسيلمة في قومه بني حنيفة فصار إليهم علي (كرم الله)[2]وجهه واستأصلهم . وهكذا من بعدهم . ولما ظهر جهم بن صفوان (66) مقدم الطائفة الجهمية (67) بأوهامه الفاسدة وتُرَّهاته الباطلة ، كتب أمير ذلك الوقت إلى سلم بن أحور أنه قد نجم قبلك رجل يقال له جهم ، فإن ظفرت به اضرب عنقه ، فقتله سلم بعدما قال له : سمعت منك كلاماً آليت ألا أتمكن منك إلاّ قتلتك وقال له سلم أيضاً : لو كنت في بطني لشققته حتى أخرجك فأقتلك في قصة مشهورة . وظفر بقوم من الزنادقة

---

1 — زيادة يتطلبها السياق. 2 — زيادة أسقطها الناسخ

---

(64) الآية 42 سورة الانفال. مدنية

(65) نجم ينجم : ظهر وطلع . يقال نجم في بني فلان شاعر أو فارس إذا نبغ

(66) جهم بن صفوان السمرقندي (.../128هـ) رأس الجهمية قال الذهبي : الضال المبدع. هلك في زمان صغار التابعين وقد زرع شراً عظيماً. كان في عسكر الحارث بن سريج الخارج على أمراء خراسان قبض عليه نصر بن سيار.

(67) من عقائد الجهمية أن الجنة والنار تفنيان وأن الإيمان هو المعرفة فقط دون سائر الطاعات . وإنه لا فعل لأحد على الحقيقة إلا لله والإنسان مجبر على أفعاله الخ ....

المنوية فرفعوا إلى بغداد ، واستدل عليهم بأمارة ، وهو أن أخرج لهم الصنم المعبود عند المنوية فلما رأوه لم يتمالكوا أن يسجدوا له فقتلهم إلا رجلا كان دخيلا وليس منهم فقال : أيها الأمير اعطِني مالي لأسلم عليه فأطلق الرجل. ولما تألّه
ص 187 الحلاج ووقع منه ما وقع من الألفاظ لم تعذره الشريعة/المطهرة ، ووقعت فتاوى الفقهاء فيه حتى أفتي في نفسه فقتل ، مع اتساع مجال التأويل في أمره ، وتأصله في الطريقة.

مخطوط الرسالة في طائفة العكاكزة من المكتبة الكتانية بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم كـ 1224

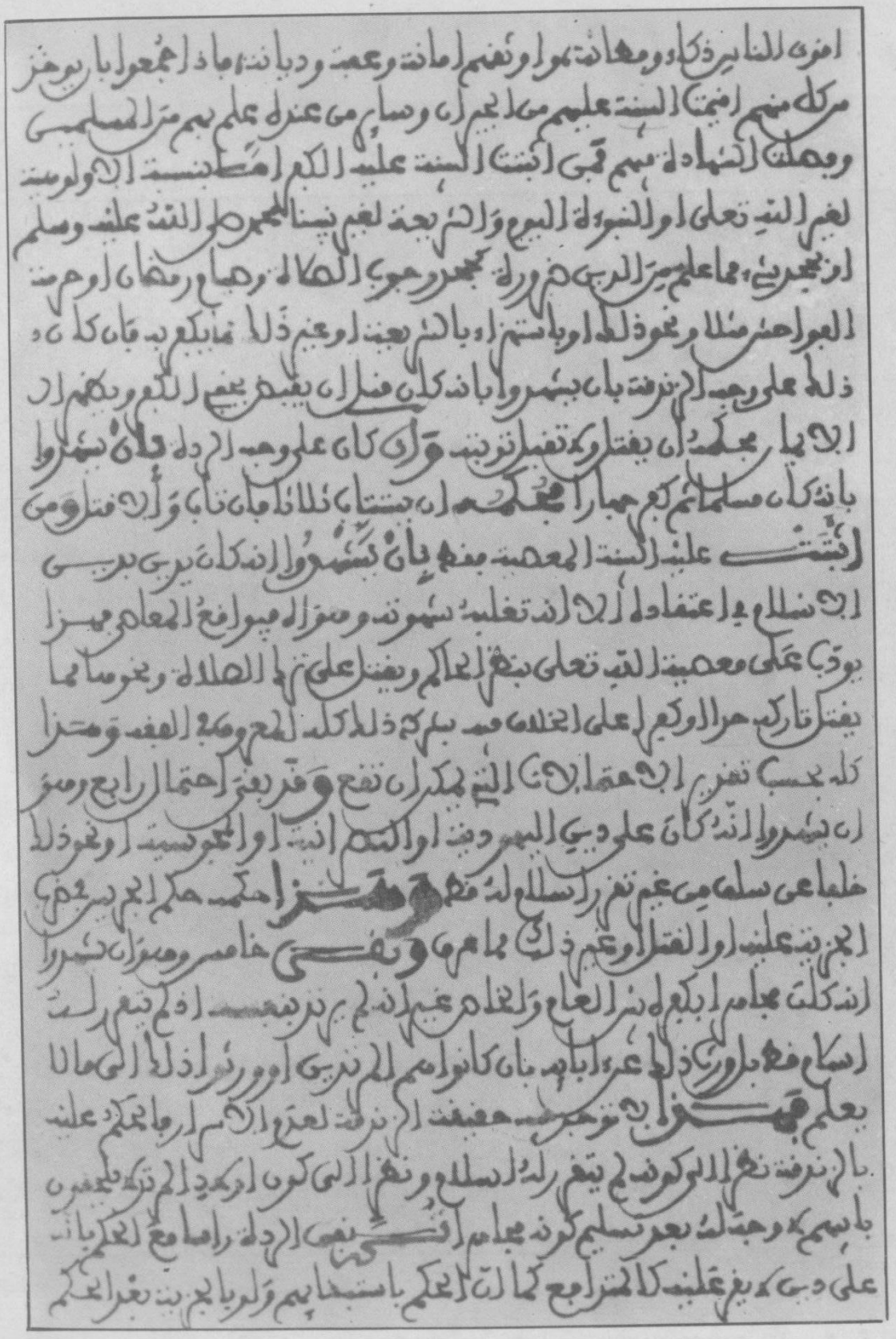

نفس المخطوط

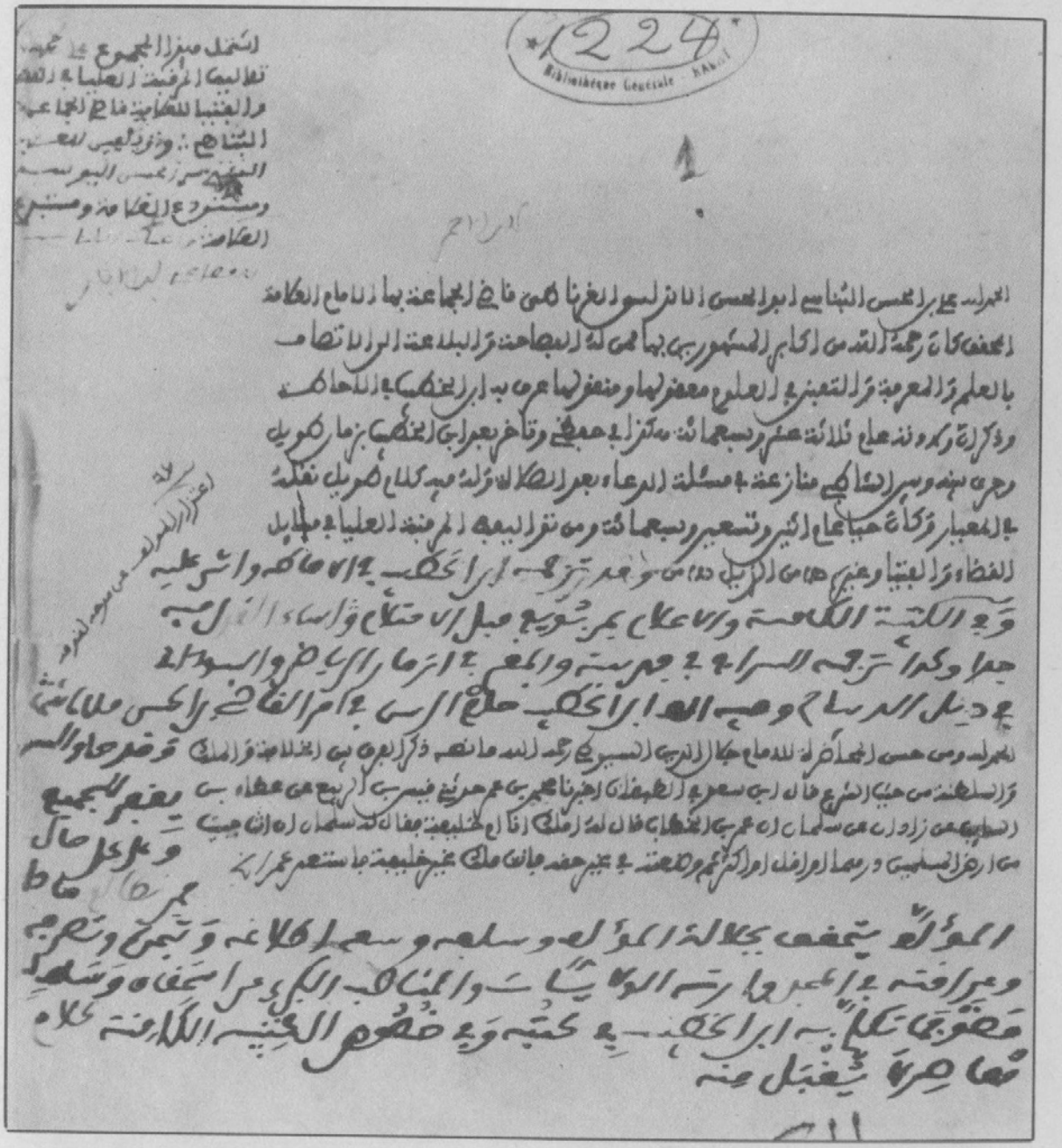

مخطوط الرسالة في نازلة العرائش من المكتبة الكتانية بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم كـ 1224

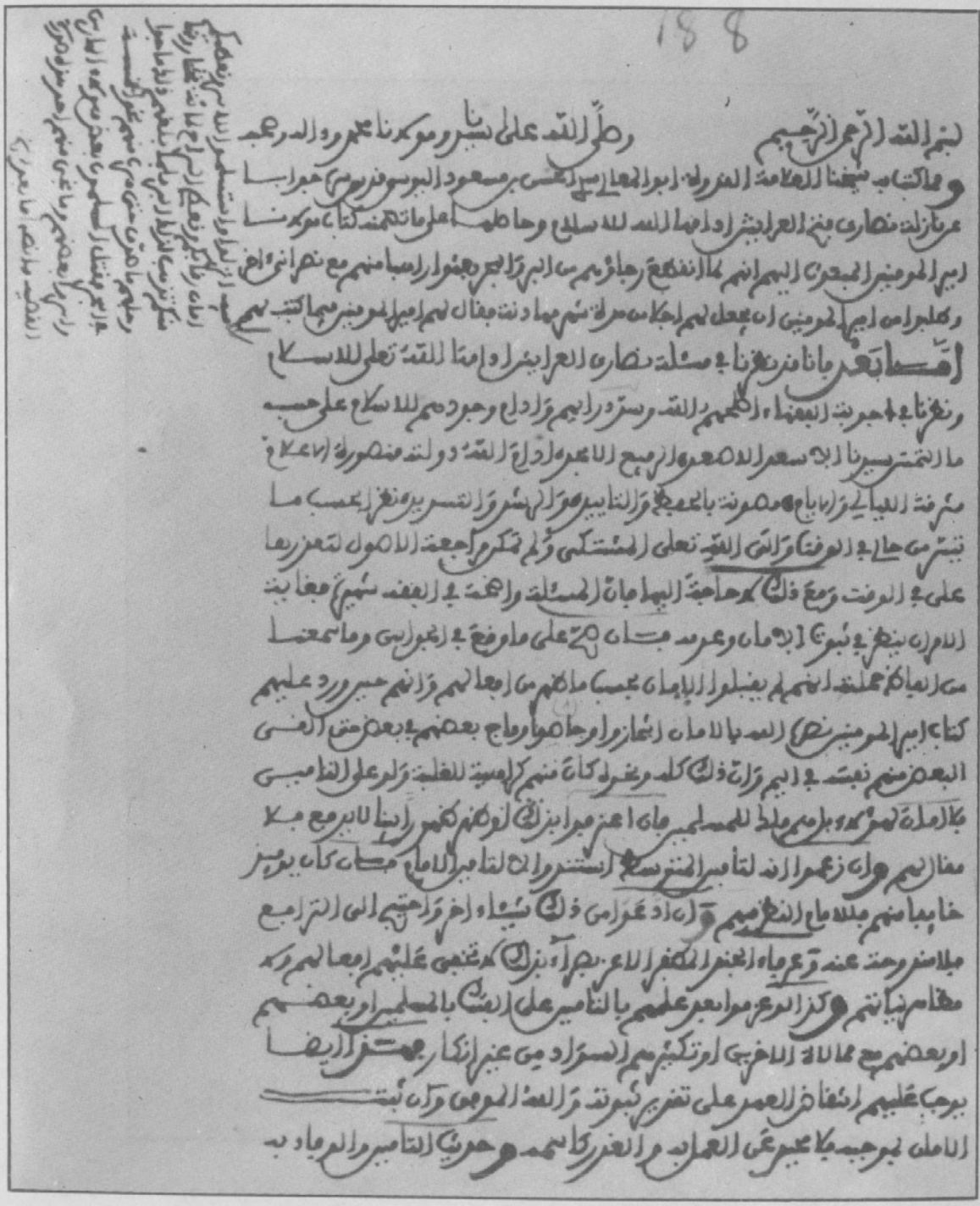

نفس المخطوط

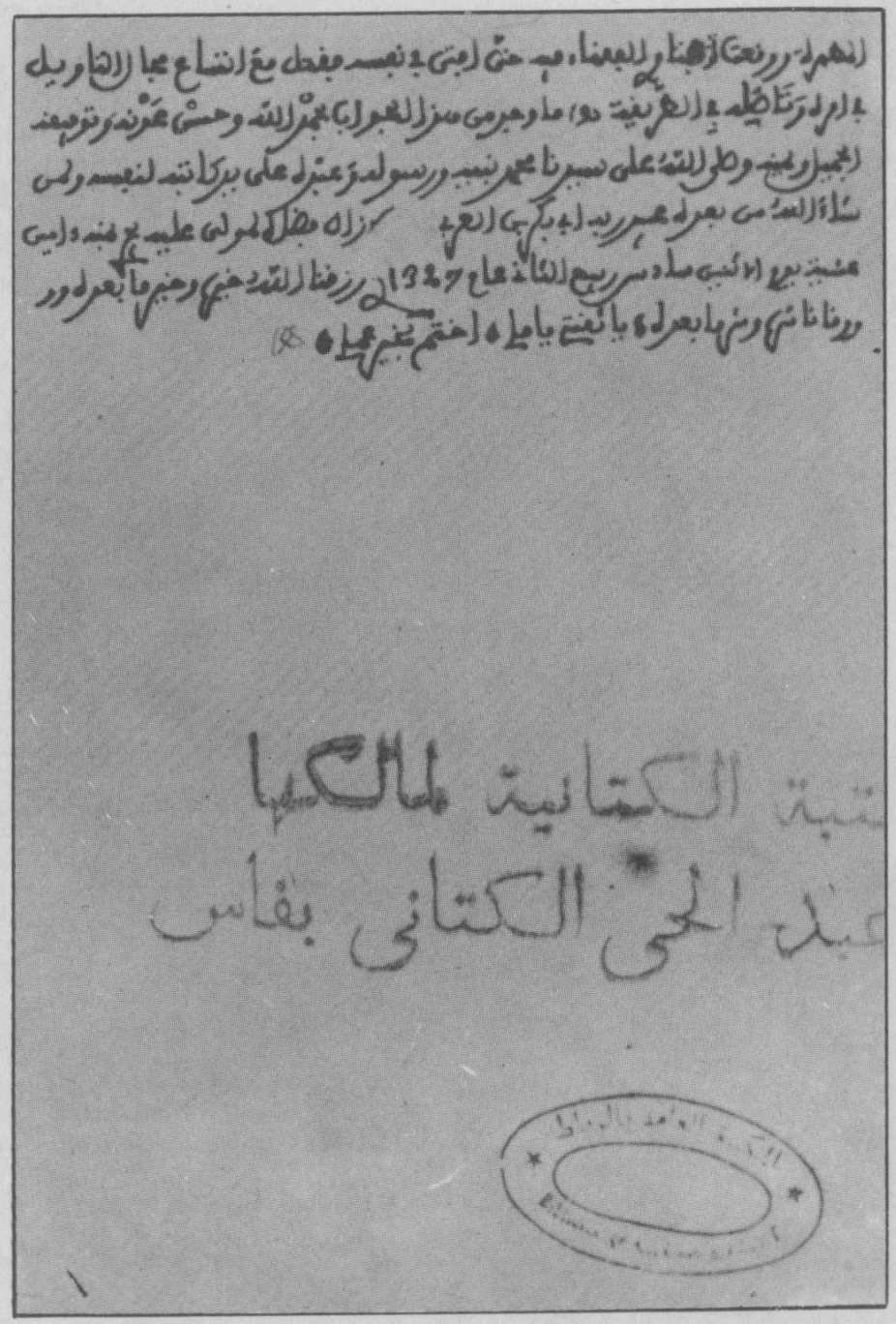

مكتبة الكتانية لمالكها
عبد الحي الكتاني بفاس

صدر عن :

* روضة التعريف بالحب الشريف — تحقيق الاستاذ محمد الكتاني
* محمد اقبال مفكرا اسلاميا — للاستاذ محمد الكتاني
* المحدث الحافظ ابوشعيب الدكالي — للاستاذ عبد الله الجراري
* في نطاق التفكير الاسلامي — للاستاذ محمد الحمداوي
* الخوارج في بلاد المغرب — للدكتور محمود اسماعيل عبد الرازق
* الحضارة المغربية عبر التاريخ — للاستاذ الحسن السايح
* تاملات في الادب المعاصر — للدكتور ابراهيم السولامي
* دفنا الماضي — للاستاذ عبد الكريم غلاب
* الثقافة والفكر في مواجهة التحدي — للاستاذ عبد الكريم غلاب
* الاصول : دراسة ابيتسيمولوجية لاصول الفكر اللغوي العربي — للدكتور تمام حسان
* مناهج البحث في اللغة — للدكتور تمام حسان
* اللغة العربية مبناها ومعناها — للدكتور تمام حسان
* اللغة العربية بين المعيارية والوصفية — للدكتور تمام حسان
* المدخل لدراسة التاريخ والادب العربيين — للدكتور نجيب البهبيتي
* احاديث عن الادب المغربي الحديث — للاستاذ عبد الله كنون
* رسائل ابن علي الحسن اليوسي — تحقيق الاستاذة فاطمة خليل
* وقعة وادي المخازن في تاريخ المغرب — للدكتور ابراهيم شحاته حسن
* مع الرسول في رمضان — للاستاذ عطية محمد سالم
* فضائل القرآن — للدكتور فاروق حمادة
* فقه المناسك على مذهب الامام مالك — للاستاذ قدور الورطاسي
* كتاب السياسة أو الاشارة في تدبير الامارة — تحقيق الدكتور سامي النشار

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء